

أبو شامة

مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين

٥٩٩هـ/١٢٠٣م - ٦٦٥هـ/١٢٦٧م

دراسة تحليلية في سيرته وآثاره التاريخية

إبراهيم الزيبق

مؤسسة الرسالة

الدار العامرة

أبو شامة

مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين

٥٩٩هـ/١٢٠٣م - ٦٦٥هـ/١٢٦٧م



غاية في كلمة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

الدار العامرة - سورية - دمشق - الحلبوني

ص.ب ٢٦٢٥ - هاتف وفاكس ٢٢٢٦٦١٣

E-mail: resaleh2008@yahoo.com

مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة

شارع حبيب أبي شهلا

بناء المسكن

تلفاكس (٩٦١١)

٨١٥١١٢-٣١٩٠٣٩-٦٠٣٢٤٣

ص.ب: ١١٧٤٦٠

برقياً: بيوشران

بيروت - لبنان

AL-Resalah

PUBLISHERS

BEIRUT
LEBANON

Telefax:(9611)

815112. 319039-603243

P.O.BOX: 117460

E-mail:

Rsealah@Cyberia.net.ib

Web Location

Http://www.resalah.com



أبو شامة

مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين

٥٩٩ هـ/١٢٠٣

دراسة تحليلية في س

إبراهيم الزيبق

مؤسسة الرسالة   الدار العامرة




بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

. إلى زوجتي غزوة

. وأولادي

أويس وعائشة وأسماء

حُبّاً وَ عِرْفاناً

ولقبولهم أن يكون أبو شامة . . .

مدة كتابة هذا البحث . . واحداً منهم

إبراهيم

«لا أظنني متشائماً أو غالياً حين أقرِّر أنَّ كتابةَ سيرة لأحد الأقدمين عندنا تعدُّ أمراً معجزاً. . . ».

إحسان عبَّاس
« فن السيرة »

كثيراً ما كنت أفكر في أبي شامة، وأنا أحقِّق كتابه «الروضتين»، محاولاً أن أتبيَّن ملامح فكرهِ وشخصيتهِ من خلال ما كتب، شاعراً أنَّ ما تقدِّمه لي كتب التراجم عنه إنَّما هي ملامح باهتة، عليَّ أن أسعى لتوضيحها واكتمالها.

والقارئ لتراجم علمائنا في كتب الأقدمين يَعجَبُ حقاً بوفرة ما كُتبَ عنهم، غير أنَّه يفتقد في سطورهم تلك الكلمات النابضة التي تحسُّ من خلالها بحياة المترجم، وهو يتقلَّب في مشاعره وأفكاره، وإذا ما وُجِدَتْ أحياناً فهي كلمات متناثرة وَسْطَ سطورٍ هامدة، على الباحث الصبور أن يَلُمَّ شَتاتَها، عساه أن يعيد للصورة اكتمالها، وقد دبَّت فيها الحياة.

وكنت في غمرة بحثي عن أبي شامة قد وصلتُ إلى تحقيق كتابه الثاني «المذيل على الروضتين»، وهالني حقاً ما وجدت، لقد رأيتُني أعيش فيه مع أبي شامة، وقد أرخى لقلمه العنان أحياناً، وأرسله يصوِّر حياته، وما كان يضطرب فيها من أشواقٍ وآمال، وخيبات ونجاح، وأحزان وأفراح، وما أقلَّها، حتى إنَّه كان يتراءى لي أحياناً من خلال سطوره، وأحياناً أكاد أُحِسُّ بمشاعره وهو يدوّن أخباره.

فأبو شامة هو من قلَّةٍ قليلة من علمائنا ومؤرِّخينا الذين لم يمنعهم ورعهم وزهدُهم من البوحِ لنا بسيرتهم الذاتية، وقد ضمنها كتابه «المذيل»، وهي على وَجازتِها تكشفُ لنا عن جوانبَ مهمَّة في حياته، حتى إنَّه يقصُّ لنا فيها بعض أحلامه

التي رآها في منامه، أو رثيثُ له، فإذا أنتَ جمعتَ إليها ما نثره من أخباره كلَّما واتته المناسبة غدوتَ قريباً منه حقاً قرباً يتيح لك أن تطويَ الزمن قروناً لتجلسَ بين يديه سامعاً متأمِّلاً، وإن كان أحياناً يؤثرُ الصَّمتَ في بعض أخباره، فيتركك حائراً، تحاولُ اكتشافَ ما أخفى، أو حلَّ ما سكت عنه، ولا يسعفك بما يومئ إليك ببعضها بإشارة عابرة، إذ هي مجرَّد إشارة قد تقرِّبك من الصواب، وقد تنأى بك عنه.

ومع إمعان النظر وإدمان القراءة بدأت تطفو من قاع الزمن شخصية أبي شامة أصيلة متفردة، وبشغفٍ رُحت أتتبَّع ملامحَها، وفي سبيل الوصول إلى ملامحَ مكتملة قدر الإمكان نأيت بنفسي عن المنهج المتبع في كتابة التراجم عندنا، ذلك المنهج الذي يعمد إلى تقطيع أوصال المترجم، متحدِّثاً عن عصره وحياته وثقافته، كلاً على حدة، وكأنَّها أجزاء منفصلة، وسعيت إلى منهجٍ متكاملٍ يرينا الشخصية حية كما كانت في عصرها، وقد تلاحمت في كلٍّ واحد، نامية متطورة في زمانها الذي عاشته من طفولتها إلى شبابها وكهولتها، متواشجةً مع أحداث عصرها، بقدر ما أسعفني التاريخ من أخباره، وبقدر ما أعان التحليل على فهمها، محاولاً ما استطعت نقل التاريخ من خبر في صحيفة إلى واقعٍ في الحياة.

وقد قَسَمْتُ هذه الدراسة إلى قِسْمين: الأول في سيرته، والثاني في آثاره التاريخية، ثم أتبعته بسائر مؤلفاته في العلوم الأخرى، وبتلاميذه.

ولن أحدثك ـ أيُّها القارئ الكريم ـ عمَّا وصلتُ إليه في هذه الدراسة، فدونك صفحاتِها، غير أنَّك سترى من خلال ما كتبت أنَّ أبا شامة لم يكن مؤرِّخاً يَرْقُبُ الحوادث من بعيد في برجه العاجيّ، ثم يدوِّنها في هدوء، بل كان مؤرِّخاً صاحبَ قضية، أبانَ عنها في مؤلَّفاته، ونافح عنها، ثم دفع حياته ثمناً لها.

دمشق في
١٠ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ
٢٥ حزيران ٢٠٠٧م

إبراهيم الزيبق


سيرة حياته

ولادته وأسرته

أوَّل ما يخبرنا به أبو شامة في سيرته أنَّه «عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد، المقدسي، الشافعي، عُرِفَ بأبي شامة؛ لأنَّه كان به شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر[1]، ويُكْنَىٰ أبا القاسم وأبا محمد[2].

وكانت ولادته ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م) برأس درب الفواخير بدمشق، داخل الباب الشرقي»[3].

كان محمد الذي ينتهي إليه النسب، وابنه إبراهيم، وحفيده أبو بكر من أهل بيت المقدس.

أمَّا محمد فلم يقع لأبي شامة تعيينه على وجه اليقين، وإنَّما قال: «لعل محمداً الذي انتهى إليه النسب هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم علي الطوسي، المقرئ الصوفي، إمام صخرة بيت المقدس»[4]. وأشار إلى أنَّ الحافظ أبا القاسم

---

(١) وذكر ذلك في موضع آخر، فقال: عُرِف بأبي شامة بسبب أنَّه كان في وجهه منذ ولد شامة كبيرة بجبينه فوق حاجبه الأيسر. «المذيل على الروضتين»: ٢/ ١٥٣.

(٢) يبدو أنَّه كان يكنى أبا القاسم في مطلع حياته، حتى إذا ولد ابنه محمد، صار يكنى به.

(٣) «المذيل على الروضتين»: ١/ ١٣٦.

(٤) المصدر السالف.

ابن عساكر ذكره في «تاريخ دمشق»، ونقل منه عن ابن الأكفاني قوله: «قتلته الفرنج ـ خذلهم الله ـ عند دخولهم بيت المقدس في شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة»(١).

ولم يُفصِحْ أبو شامة عمَّا دعاه إلى هذا الترجي، ربَّما هو قول كان قد سمعه في صغره، ولم يجد عنده من اليقين ما يجزم به، وبخاصة أنَّ إبراهيم بن محمد؛ وهو الجدّ الأعلى لوالد أبي شامة كان من أعيان بيت المقدس، وقد سمع أبو شامة من والده خبر مقتله، فقال: «وكان والدي إسماعيل ـ رحمه الله ـ قد أخبرني أنَّ جدّه الأعلى قتل مع مَنْ قُتِلَ من المقادسة عام دخول الفرنج بيت المقدس بالسيف، وهو عام اثنتين وتسعين وأربع مئة، وهو أحد الشهداء الذين رؤوسهم بالمغارة المقصودة بالزيارة في مقبرة ماملّة بالقدس الشريف»(٢).

وكان الصليبيون قد ارتكبوا مذبحة شنيعة حين استيلائهم على بيت المقدس، وصفها مؤرِّخهم، وكان أحد شهودها، بقوله: «فلمَّا ولج حجاجنا المدينة جدُّوا في قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبّة عمر، حيث تجمَّعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أفظع القتل طيلة اليوم بأكمله، حتى فاض المعبد كلّه بدمائهم... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات، واشتدَّ السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم... وفي صباح اليوم التالي تسلَّق رجالنا سطح الهيكل، وهجموا على الشرقيين رجالاً ونساءً، واستلُّوا سيوفهم، وراحوا يُعمِلُونَ فيهم القتل... وما تأتّى لأحدٍ قطّ أنْ سمعَ أو رأى مذبحة كهذه المذبحة...»(٣).

وبكاها مؤرِّخنا ابن الأثير بقوله: «وركب الناسَ السيفُ، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على

(١) «المذيل»: ١/ ١٣٦، وانظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٤/ ٧٠٦.
(٢) «المذيل»: ١/ ١٣٧.
(٣) «أعمال الفرنجة»: ١١٨ـ١٢٠، ترجمة د. حسن حبشي.

سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وزهّادهم ممّن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف»[١].

وكان ممن نجا من هذه المذبحة الشنيعة أبو بكر ولد إبراهيم، «فانتقل إلى دمشق، فأقام بها، وولد له ولدان: عثمان بن أبي بكر، وعبد الرحمن بن أبي بكر.. وكثر نسلهم بدمشق، ومسكنهم بنواحي الباب الشرقي»[٢].

أمّا عبد الرحمن بن أبي بكر فقد عَلَت سِنُّه حتى قاربَ التسعين، وقد قضى حياته معلِّماً في المكتب الذي بباب الجامع الشامي، قبالة خانقاه السُّمَيْساطي، وكان يعرف بعبدان المعلم، ويبدو أنَّ أبا شامة قد أدركه في أواخر حياته، وقبيل وفاته في ثالث رمضان سنة (٦٠٥هـ/١٢٠٩م) ودفن بباب الفراديس[٣].

وأمّا أخوه عثمان بن أبي بكر، فلا نعلم عنه شيئاً إلاَّ ما وصفه به حفيده أبو القاسم ـ وهو عمّ أبي شامة ـ بالفقيه الإمام[٤].

وقد ولد لعثمان ولدٌ سمّاه إبراهيم، وهو جد أبي شامة الأدنى، وكذلك لا نعرف عنه شيئاً إلاَّ ما وصفه به ابنه أبو القاسم بالشيخ الإمام، وقد ذكر وفاته في السابع والعشرين من شعبان سنة (٥٧٥هـ/ ١١٨٠م)، ودفن بباب الفراديس، قبالة تربة الصفي بن القابض، بينهما الطريق[٥]. وتوفيت زوجته ـ وهي جدة أبي شامة ـ بعده بعشر سنين، ودفنت باب شرقي[٦].

وولد لإبراهيم ولدان، هما: أبو القاسم، وإسماعيل.

---

(١) «الكامل»: ١٠/ ٢٨٢ـ٢٨٤.
(٢) «المذيل»: ١/ ١٣٧.
(٣) «المذيل»: ١/ ١٩٧.
(٤) «المذيل»: ١/ ١٩٧.
(٥) «المذيل»: ١/ ١٩٧ ـ ١٩٨.
(٦) المصدر السالف.

أمَّا أبو القاسم فهو عمّ أبي شامة، وهو أكبر من إسماعيل، فقد كنيت أمّه به[١]، ويبدو أنَّه قد شدا شيئاً من العلم، فقد وصفه أبو شامة بالشيخ[٢]، وكان له بعض التقييدات التاريخية التي تتعلق بالأسرة، استفاد منها أبو شامة في «مذيله»[٣]، وقد توفي أبو القاسم في تاسع رمضان سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٨م)، ودفن بالمقبرة التي بين الباب الشرقي وباب توما[٤].

وأمَّا إسماعيل، فهو والد أبي شامة، ولا نكاد نعرف عنه إلاَّ ما أورده أبو شامة من أخباره، ويوحي بعضها بأنَّه لم يكن على صلةٍ قريبةٍ منه[٥]، ربَّما لزواجه من امرأةٍ أخرى غير أمّه. ولم يكن له اعتناء بالعلم على تديّنه، إذ يذكر أبو شامة أنَّ والده حجَّ أربع حجات في حياته، على مشقة الحج في ذلك الزمان، رافقه أبو شامة في حجته الأخيرة سنة[٦] (٦٢١هـ/ ١٢٢٤) وربما أحبَّ أبو شامة من بعد أن يرفع من ذِكْره حين ذكره فيمَن حدَّثه عن خطيب دمشق عبد الملك بن زيد الدولعي المتوفى سنة[٧] (٥٩٨هـ/ ١٢٠١م)؛ إذ الرواية عن خطيب كبير يصعد كل جمعة منبر جامع دمشق لا تسلك صاحبها في عداد طلبة العلم ممن يختلف إلى الشيوخ للرواية عنهم، ويبدو أنَّه أصبح يكنّى أبا عبد الرحمن بعد أن أصاب ابنه أبو شامة شيئاً من الشهرة[٨]،

(١) «المذيل»: ١/ ١٩٧.

(٢) المذيل: ١/ ١٩٢.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٩٧، ٢/ ٤٨.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٩٢.

(٥) «المذيل»: ١/ ١٣٧.

(٦) حجَّ والد أبي شامة في السنوات: ٦١٠هـ، ٦١٦هـ، ٦١٨هـ، ٦٢١هـ، انظر «المذيل»: ١/ ٢٤٢، ٣٢٠، ٣٤٦، ٣٧٤.

(٧) «المذيل»: ١/ ١٢٠.

(٨) «المذيل»: ١/ ١٤٧، وقد أشير إلى ذلك في مدح أبي شامة:

ووالده كالسيد السلمي خذ بكنيته والشيخ في ورع الشبلي

والسلمي: هو أبو عبد الرحمن، صاحب كتاب «طبقات الصوفية».

وتوفي سنة (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) ودفن على أبيه بمقبرة باب الفراديس[١].

أمَّا والدة أبي شامة فيبدو أنَّه كان شديد التعلُّق بها، وهي التي كانت وراء طلبه للعلم[٢]، وقد وصفها سنة وفاتها سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) بأنَّها كانت دَيِّنة صالحة، وتمنى، وهو يغالب حزنه عليها، أن يُدفنَ عندها[٣].

وقد أنجب والده إسماعيل من الذكور أربعة[٤]:

أولهم: برهان الدين، أبو إسحاق إبراهيم، ولد ليلة الاثنين الخامس والعشرين من محرم سنة[٥] (٥٩١هـ/ ١١٩٥م) فهو أسنّ من أبي شامة بنحو تسع سنين، وقد وصفه أبو شامة بأنَّه كان من الصالحين[٦]، وهو أخ غير شقيق[٧].

وثانيهم: مؤرِّخنا عبد الرحمن أبو شامة.

وثالثهم: أبو محمد، أمه مغربية، ولد سنة[٨] (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) وأشار أبو شامة إلى وفاته دون أن يحدِّد سنتها[٩].

ورابعهم: عبد الحليم، شقيق أبي محمد، وقد ولد سنة[١٠] (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥)، ولم يذكر أبو شامة في «مذيله» إلاَّ تاريخ ولادته، ثم تغيب عنَّا أخباره.

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٥٤.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٣٨ ـ ١٣٩، وانظر ص ٢١ ـ ٢٢ من هذا الكتاب.

(٣) «المذيل»: ١/ ٣٥٥.

(٤) لم يذكر أبو شامة أنَّه كان له أخوات أو شقيقات.

(٥) «المذيل»: ١/ ١٣٧.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٤٠.

(٧) سيتزوج أبو شامة من بعد ابنة خالة أخيه إبراهيم، وهي ست العرب، انظر «المذيل»: ٢/ ٢٢١، ١٢٠، وانظر ص ١٥٢ من هذا الكتاب.

(٨) «المذيل»: ٢/ ٢٣.

(٩) «المذيل»: ٢/ ١٩٠ في ترجمة خاله يحيى بن الوكيل المغربي.

(١٠) «المذيل»: ٢/ ٣٣.

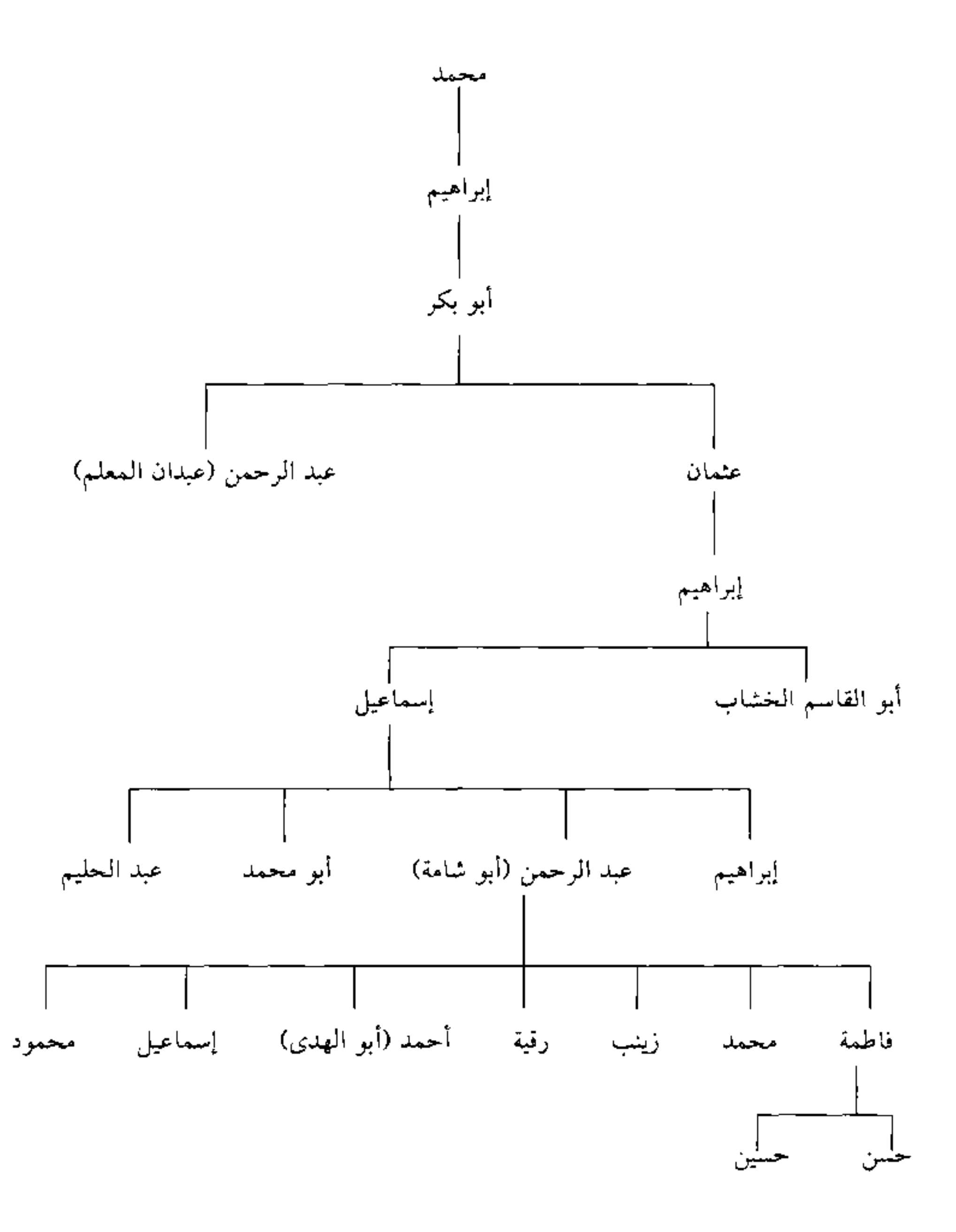
أمَّا أخوه إبراهيم فقد ألمع أبو شامة إلى صلته به، وبخاصة في محنته التي ألمَّت به في أواخر حياته[1].

فأبو شامة ينتمي لأسرة كان لبعض أفرادها اشتغال بالعلم، إلاَّ أنَّه لم ينبه فيها أحد، وأتساءل: من منهم حَصَّل لأبي شامة إجازة من القاسم بن الحافظ ابن عساكر، وله من العمر نحو سنة[2]، ويبقى تساؤل دون جواب، وهو من المواضع التي آثر فيها أبو شامة الصمت.



(١) «المذيل»: ٢/ ٢١١، ٢٢٣.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٥٧.



محمد
إبراهيم
أبو بكر
عثمان
عبد الرحمن (عبدان المعلم)
إبراهيم
أبو القاسم الخشاب
إسماعيل
إبراهيم
عبد الرحمن (أبو شامة)
أبو محمد
عبد الحليم
فاطمة
محمد
زينب
رقية
أحمد (أبو الهدى)
إسماعيل
محمود
حسن
حسين

في المكتب

حين بلغ أبو شامة نحو الخامسة من عمره، أُرسِل على عادة الصِّبيان في ذلك العصر إلى المكتب لتلقي مبادئ القراءة والكتابة، وكان للمكتب سائق مكلَّف بأخذ الصبيان يومياً إلى المكتب وردّهم إلى بيوتهم بعد انتهاء الدرس[1]؛ إذ كانت مكاتب تعليم الصبيان عند الباب الشمالي لجامع دمشق، وهو المعروف وقتئذٍ بباب النَّاطفانيين قبالة الخانقاه السُّمَيْساطية، كان ثمة دِهْليز واسع يفضي إلى الباب، وقد انتصبت على جانبيه أعمدة رومانية هي من بقايا بنائه القديم، شأنه في ذلك شأن أبواب الجامع كلها، وعلى طول هذا الدهليز مصاطب مسيَّجة بالأعواد، كان يتخذ منها المعلمون مكاتب لتعليم الصبيان[2]، وربما رأى أبو شامة في إحداها عبدان المعلم، عمَّ جده.

وذات صباح، راحت أمّه ـ وقد أَزِفَ وقت ذهابه إلى المكتب ـ تقصُّ على صغيرها ـ تشجيعاً له ـ قصة الحُلُم الذي رأته، وهي حاملٌ به، فقد رأت فيما يرى النائم أنَّها تؤذن في الجامع، وهي تقف في أعلى مكان من المئذنة عند هلالها، وحين قصّت رؤياها في اليوم التالي لأحد معبري الأحلام بَشَّرها بأنَّها ستلد غلاماً

---

(١) «نهاية الرتبة»: ص١٠٤، و«الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام»: ص٨٨.

(٢) «رحلة ابن جبير»: ص٣٤٠.

ينتشر ذِكْرُه في الأرض بالعلم والخير[١]. وقد كتمت حلمها هذا في صدرها زمناً، وها هي تفضي به الآن إلى صغيرها، راسمةً له من خلاله ملامح مستقبله.

ويترسَّخ هذا الحلم في عقل الصغير، فيسعى بما في قلبه من حبٍّ كبير لها كي يحقِّقَ حلمها، وينكب بشغفٍ وحرص غير معهودين في الصغار على تعلّم القراءة والكتابة، مما يثير عجب والده منه، وهو الغافل عنه، ولكنَّ الأمّ العارفة بالسرّ تقصّ على زوجها قصة الحلم الذي رأته[٢]، وكأنَّها ـ لإيمانها بتحققه ـ تنفي به كل عجب.

❁ ❁ ❁

وكان الصغير في غدوه ورواحه إلى المكتب تلتقط ذاكرته الغضّة كلّ ما يراه ويسمعه، حتى تلك الأشعار التي كانت تُغنَّى في الأسواق تعليقاً على خبر، أو ذكراً لحادثة، وكان مما علق بذاكرته منها، تلك التي قيلت يوم دخل أسير فرنجي إلى جامع دمشق عند أذان الفجر سكران، وبيده سيفٌ قد شهره، وراح يهوي به على المصلِّين يمنةً ويسرةً، فقتل منهم رجلين أو ثلاثة، ووقعت بعض ضرباته في جانب المنبر، فأثَّرت فيه، واستيقظت دمشق على أخبار هذه الحادثة، ونظمت فيها أشعار منها:

مقصورة الخطيب طلب والناس ولوا للهرب
في جانب المنبر ضرب بالسيف حتى انكسر

وما كان لهذا الفرنجي المسعور أن ينجوَ من فعلته هذه، فقد شنق في آخر النهار بجسر اللَّبَّادين، ورآه الصغير متدلّياً من درابزين حافته الشرقية، وهو يمر بجيرون في طريقه نحو المكتب[٣].

---

(١) «المذيل»: ١/١٣٨ ـ ١٣٩.
(٢) المصدر السالف.
(٣) «المذيل»: ١/١٩٤.

أبو شامة حافظاً للقرآن وجامعاً لقراءاته

وتمضي الأيام بالصغير، وهو عاكف على لوحه في المكتب يثبت فيه ويمحو ما يكتب له من الأشعار، وما تخطُّه يده من حِكَمٍ وأمثال، أمَّا القرآن الكريم فكان يتلقّنه في الجامع تلقيناً، تنزيهاً عن ابتذال الصبيان له بالمحو والإثبات[1].

وكان لتلقين القرآن الكريم في جامع دمشق حلقات لا يخلو منها صباحاً ولا مساء[2]. منها حلقة في الجهة الشرقية منه، تعرف بالسُّبْع الكبير[3]، كان يجتمع فيها القراء كل يوم عقب صلاة الفجر لقراءة سُبْع من القرآن، ليختموه في كلِّ أسبوع مرة، وكان يجلس كل قارئ عقب الانتهاء من القراءة إلى سارية، فيتحلَّق الصبيان حوله ليلقِّنهم القرآن[4]، من هؤلاء القراء الشيخ شرف الدين يعيش، الذي كان أبو شامة ينضمّ إلى حلقته مع أترابه يقرأ عليه[5]، وكان قد حُبِّب إليه حفظ الكتاب العزيز، فجعل ذلك من همّته[6]، حتى إذا ما استتمَّ الحادية عشرة من عمره كان قد

---

(١) «رحلة ابن جبير»: ص٣٤٢.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «المذيل»: ١/ ٢٤٩.

(٤) «رحلة ابن جبير»: ص٣٤١.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٢١٣.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٣٧.

أتمّه حفظاً، وفوجئ والده، وهو يسمع صغيره يقول له ذات يوم: قد ختمت القرآن حفظاً[(١)].

في تلك الفترة كان قد انتقل إلى المدرسة الأمينية ليتابع دراسته فيها بعد المكتب، وقد اتخذ من إحدى غرفها سكناً له[(٢)].

وتطلّعت نفسه إلى جمع القراءات، فانتقل إلى حلقة الشيخ إبراهيم بن يوسف المعروف بالوجيه ابن البوني، وهو أحد المشايخ المعتبرين في الجامع، المشهورين بمعرفة القراءات، وقد بلغ من تمكّنه منها أن كانت حلقته في مكان حلقة ابن طاوس[(٣)]، إمام جامع دمشق ومقرئه في عصره[(٤)]، فشرع أبو شامة في تلقي القراءات عليه، بادئاً بحفظ قصيدة العلاّمة الشاطبي «حرز الأماني» في القراءات السبع، فأتمَّ حفظ أبياتها التي بلغت نحو ألف ومئة وثلاثة وسبعين بيتاً، فكانت أول مصنَّف وجيز يحفظه بعد حفظه للكتاب العزيز، قبل بلوغه الحُلُم[(٥)]، وحين توفي شيخه إبراهيم سنة (٦١٢هـ/١٢١٦م) كان قد أتمَّ عليه قراءة الجزء الأول من سورة البقرة[(٦)].

فانتقل إلى حلقة الشيخ شرف الدين أبي منصور الضرير، وكان من المتصدِّرين في الجامع للإقراء، ويبدو أنّه قد قرأ عليه القرآن بالروايات حتى أتمَّه[(٧)]، وذلك قبل التحاقه بحلقة شيخ قراء عصره وأشهرهم علم الدين السخاوي.

---

(١) «المذيل»: ١/١٣٧.

(٢) «المذيل»: ١/١٧٥، ٢/١٧٤، ١٩٨.

(٣) «المذيل»: ١/٢٦٠ـ٢٦١.

(٤) ابن طاوس هو هبة الله بن عبد الله بن علي بن طاوس البغدادي، ثم الدمشقي، المتوفى سنة (٥٣٦هـ)، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٩٨.

(٥) «إبراز المعاني»: ١/١٠٧.

(٦) «المذيل»: ١/٢٦٠ـ٢٦١، ٢/١٤٧.

(٧) «المذيل»: ١/٢٢٦، ٢/١٣٥، ١٧٤.

كان السخاوي، وهو من أصحاب الإمام الشاطبي، في السادسة والخمسين من عمره، وكانت حلقته بالجامع عند رأس يحيى بن زكريا عليه السلام(١)، وذات يوم من أيام شعبان سنة(٢) (٦١٤هـ/١٢١٧م) جلس الفتى أبو شامة، وكان في نحو الخامسة عشرة من عمره إلى حلقته، وقد غصَّت بالطلاب، وبدأ يقرأ عليه القرآن بالروايات، فكان الدرس الأول للفتى النابه بين يدي شيخه الجليل، ولما انقضى حولٌ على هذا اللقاء كانت زكاته إجازة الشيخ لفتاه في علم القراءات اعترافاً بتمكنه فيه(٣)، ولعلَّه كان من أصغر تلاميذه سنّاً ينال هذه الإجازة.

وفي مجلس شيخه السخاوي يتعرَّف إلى الفقيه الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، وكان في نحو السادسة والثلاثين من عمره(٤)، وربَّما نحو هذه الفترة يترك أبو شامة المدرسة الأمينية لينتقل منها إلى المدرسة العزيزية، وكان للفقيه عزّ الدين بن عبد السلام مجلس فيها(٥)، فتتعمق علاقته به.

❁ ❁ ❁

ولم يقنع أبو شامة بما حصّله من علم القراءات، فقد وجد متسعاً من وقته لسماع الحديث الشريف من شيوخه، وتحصيل الإجازات منهم، فسمع «صحيح البخاري» من الشيخ المسند داود بن أحمد بن ملاعب(٦)، والشيخ أبي القاسم

= وقد توفي سنة (٦٣١هـ)، ولم يترجم له أبو شامة في وفياتها، ولعلَّه سها عنه.
انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» للذهبي (وفيات سنة ٦٣١هـ)، «الوافي بالوفيات»: ٢٥/ ٢٨١، و«نكت الهميان»: ص٢٨٧.

(١) «غاية النهاية»: ١/ ٥٦٩، قلت: وقد شاع أنَّ رأس يحيى عليه السلام قد دفن في هذا الموضع، ولم أرَ مَنْ تَثَبَّتَ من ذلك.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٧٤.

(٣) «معرفة القراء الكبار» للذهبي: ٣/ ١٣٣٤.

(٤) «المذيل»: ١/ ٢٩٩.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٢٢٣.

(٦) «المذيل»: ١/ ٣٢٠، ٣٢٦، و«شرح الحديث المقتفى»: ص٥٦.

أحمد بن عبد الله بن عبد الصمد السلمي العطار[١]، وسمع طائفة من كتب الحديث من الشيخ أبي البركات زين الأمناء الحسن بن محمد بن الحسن بن عساكر[٢]، وسمع من القاضي أبي المجد محمد بن الحسين القزويني كتاب «شرح السنة» للبغوي، وكان قد تفرَّد بروايته[٣]، وأجازه مسند الشام في زمانه شمس الدين الحسين بن هبة الله بن صَصْرى، ولكنَّه لم يسمع منه[٤]، ربَّما لأنَّه كان يأخذ أجرة على السماع[٥]، وكذلك أجازه التقي بن باسويه[٦]، وقد سمع منه كتاب «الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار» للحازمي[٧]، وأجازه القاضي شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد الشيباني[٨]، والشيخ العدل أبو علي الحسن بن يحيى بن صَبَّاح المصري، وقد سمع عليه أكثر «الخلعيات»[٩].

وكان يختلف إلى حلقة الشيخ الفقيه كمال الدين أبي العباس أحمد بن كشاسب الدِّزْماري، قارئاً عليه الفقه الشافعي، وكان متضلِّعاً من نقل وجوه المذهب، وفهم معانيه[١٠].

وهكذا كان الفتى أبو شامة يقضي سحابة نهاره في جامع دمشق متنقِّلاً فيه من شيخ إلى شيخ، يقرأ ويسمع ويتأمَّل.

---

(١) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣٣٤، و«شرح الحديث المقتفى»: ص٥٦.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٩.

(٣) «المرشد الوجيز»: ص٦٦، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٩.

(٥) «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤.

(٦) «المذيل»: ٢/ ٣٤.

(٧) «كتاب البسملة»: ص٥٠٣.

(٨) «المذيل»: ٢/ ٢٥.

(٩) «المذيل»: ٢/ ٣٣ـ٣٤.

(١٠) «المذيل»: ٢/ ٦٨.

في رحاب جامع دمشق

وبريشة مرهفة، وبذاكرة لا تفوتها أدقّ التفاصيل، رسم لنا أبو شامة بكلمات حيَّة صورة لجامع دمشق، ومَن كانَ فيه من العلماء والزهَّاد في سني صباه.

ففي منارته الشرقية كان يسكن في إحدى غرفها الشيخ الزاهد عبد الرحمن اليمني، وقد لاحت في وجهه أنوار الخير، وهو أحد المشايخ الصدَّاعين بالحق عند الملوك، وقد وقف مرّة أمام السلطان العادل أبي بكر بن أيوب ينكر عليه تهاونه في حفظ الثغور حين هاجمها الفرنج[1].

وفي زاويته الغربية ـ حيث أقام ذات يوم الإمام الغزالي ـ كان يسكن الشيخ بيرم المارديني، وهو شيخ صالح، محبّ للعزلة والانفراد، صابر على الفقر والجوع، كثير الصيام والمجاهدة[2].

أمَّا في مقصورة الخضر في الجهة الغربية منه، فقد كان يقف مصلياً قبالة

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠، ٣٧٧.

وكان العادل قد عقد هدنة مع الصليبيين في (١٤ شعبان سنة ٥٩٤هـ/ ٢١ حزيران سنة ١١٩٨م) تمَّ الاتفاق فيها على أن يحوز الفرنج على جبيل وبيروت، وأن يقتسما مدينة صيدا، ومدة الهدنة خمس سنين وثمانية أشهر. انظر «المذيل»: ١/ ٧٨، و«تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ١٨٠، وكتابي «ما بعد صلاح الدين».

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٩ـ٢٠.

محرابها مسند الشام وقاضي قضاتها جمال الدين أبو القاسم بن الحرستاني، وما إن ينفتل من صلاته حتى يجلس في سكونٍ وهيبة، وقد التفَّ حوله خلق عظيم لسماع الكتب عليه(١)، بينهم الفتى أبو شامة(٢).

وفي حلقة الحنابلة، كان يتنفَّل بين العشاءين، قرب محرابها، شيخ الإسلام الإمام المجتهد موفق الدين ابن قدامة، وقد غطت رأسه عِمامة صغيرة عتيقة، ولا يشغله عن صلاته أحد، حتى إنَّ الملك العزيز بن العادل جاءه مرة يزوره في الجامع، فصادفه يصلي، فجلس بالقرب منه إلى أنْ فرغ من صلاته، ثم اجتمع به، ولم يتجوَّز فيها، وكان الموفق إذا صلى العشاء الآخرة يمضي إلى منزله بدرب الدَّوْلعي، مصطحباً بعض طلبة العلم الفقراء، ليشاركوه طعام العشاء(٣).

ويخلفه في الحلقة ـ حين كان يصعد في بعض الأيام إلى جامع الحنابلة بالجبل ـ علم الزهاد الشيخ الإمام العماد بن عبد الواحد المقدسي(٤)، كان شيخاً معتدل القامة، قد أسدلَ شعره إلى أذنيه، مليح الوجه، دائم الابتسام، حسن الصلاة، كثير السجود والدعاء، يقرئ القرآن والفقه في الحلقة دائماً، ويجتمع إليه الطلبة كل ليلة بعد العشاء، فيحملهم إلى بيته، ويحضر لهم من الطعام ما تيسر(٥).

أمَّا أيَّام السبت ـ وكان يوم عطلة ـ فإنَّ الجامع يزدحم بالناس لحضور مجلس الواعظ الكبير، سبط ابن الجوزي، فكانت السجادات والحصر تبسط في كل المواضع ليلة السبت، ويبيت الناس ـ وقد عزل الرجال عن النساء ـ يقرؤون القرآن بالشموع، فرحاً بالمجلس، ومسابقة إلى الأماكن، وكان يحضر هذا المجلس

---

(١) «المذيل»: ١/ ٢٩٢.
(٢) «خطبة الكتاب المؤمل»: ص١٠٩
(٣) «المذيل»: ١/ ٣٧٠.
(٤) المصدر السالف.
(٥) «المذيل»: ١/ ٢٨٧.

القضاة والأشراف، والعلماء والأعيان، وربَّما يبلغ جمع الناس في بعض الأوقات نحو عشرة آلاف وزيادة، وهذه المجالس كانت من محاسن الدنيا ولذاتها، لما أوتيه سبط ابن الجوزي من حسن الصورة، وأناقة الملبس، وطيب الصوت، ولطف الإشارات، وذلك الذكاء الوقَّاد في الإيرادات والجوابات، فكان لا يفارق أحدٌ مجلسَه إلا وشوقُهُ يغالبه للمجلس التالي، وكان حديث دمشق، فما إن ينصرف الناس منه إلى فُرَجِهم وبساتينهم حتى ينقضي يومهم بالتذاكر فيما وقع فيه من المحاسن، وإنشاد الأشعار، ويتحدَّثون عمَّن أسلم فيه أو تاب، ويوردون ما كان فيه من سؤال وجواب[١].

بيد أنَّ أكثر ما كان يملأُ قلبَ الفتى، ويملك عليه فكره شيخ الشافعية في عصره فخر الدين ابن عساكر، وهو يراه، وقد أقبل الناس عليه، متردِّدين إليه، يستفتونه في حاجاتهم، وكان يراه عصرَ كلِّ يومِ اثنين وخميس وقد خرج من غرفته الصغيرة، قرب مقصورة الصحابة حيث يجلس تحت قبة النسر ـ وهو المكان الذي كان يجلس فيه عمه الحافظ أبو القاسم ابن عساكر ـ لسماع الحديث عليه، فكان الفتى أبو شامة يسارع إلى حلقته، يسمع عليه حديث المصطفى ﷺ، من كتاب «دلائل النبوة» للبيهقي، ويرى دموعه، وهي تتقاطر على خدّيه شوقاً وحبّاً للنبي ﷺ كلَّما ذكر، فكان لا يملّ من النظر إليه، وقد انجذب لحسن سمته ولطفه ونور وجهه، حتى إذا ما فرغ الشيخ من مجلس السماع، رجع إلى غرفته الصغيرة يخلو فيها للعبادة، ومطالعة الكتب والفتاوى[٢]، فكان الفتى يستحسن طريقته، ويتمنَّى وقد خفق القلب بحبِّه أن يبلغَ مرتبته في العلم ونشره له، وأن ينتفع الناس في المستقبل بفتاويه[٣].

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٦٠ـ١٦١.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣٦٢.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٣٨.

ومما زاده حبّاً لشيخه فخر الدين وإعجاباً به، ما رآه من ابتعاده عن أبواب السلطان، وامتناعه عن تولّي القضاء حين أراده العادل عليه ورعاً وزهداً، حتى إنَّه كاد يهاجر من بلده دمشق فراراً بدينه لولا مسارعة العادل في ردّه[1].



(١) «المذيل»: ١/ ٣٦٣ـ٣٦٥.

الخطر الصَّليبي

في غمرة انصراف أبي شامة لطلب العلم طرق دمشق خطرٌ أفزعها[١]، ها هو ذا العادل بن أيوب الذي خرج من مصر ليحمي أطراف البلاد من الصليبيين الذين تجمَّعوا في عكّا لمهاجمتها[٢]، يتخلَّى لهم عن بيسان، ويصل هارباً إلى مرج الصُّفَّر، بل يكاد يدخل دمشق.

ويجفل أهل القرى من عَقْربا وحَرَسْتَا وغيرها، وتغرق أرض داريا بالماء، وترتفع الأسعار، ويعزم الناس على النزوح من دمشق، ويرون ألاَّ قوة إسلامية تحول بينهم وبين عدوهم، فيفزعون إلى جامعهم، وقد علا في أوقات الصلوات ضجيج بكائهم ودعائهم[٣].

وتنزاح الغُمَّة عن دمشق، وتتلقَّاها دمياط بعد نحو ستَّةِ أشهر، فيحاصرها الصليبيون[٤]، ويضيِّقون الخناق عليها، ويتمكَّنون بعد حصارها نحواً من شهرين

---

(١) كان ذلك في شعبان سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، انظر «الكامل»: ١٢/ ٣٢١.

(٢) عرفت هذه الحملة بالحملة الهنغارية، وهي طلائع الحملة الصليبية الخامسة التي استولت على دمياط، انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٢٦٣ وما بعدها.

(٣) «المذيل»: ١/ ٢٨٣.

(٤) نزل الصليبيون على دمياط يوم الثلاثاء (١٢) ربيع الأول سنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م)، انظر «وفيات الأعيان»: ٦/ ٢٥٨.

ونصف من أخذ برج السلسلة[١]، وفي ذلك إيذانٌ بسقوطها، ويصل ذلك النبأ إلى العادل، فيدقُّ بيده على صدره حزناً، ويموت كمداً[٢]، وتتألَّم دمشق لما حلَّ بدمياط.

ويجلس الشيخ علم الدين السخاوي في حلقته بالجامع، والألم يعتصر قلبه، فهو يعرف هذا البرج وأهميته لدمياط، ويجلس إليه الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، والفتى أبو شامة، وبصوتٍ حزين يَصِفُ لهما السخاوي ذلك البرج، وهو يضرب متحسِّراً يداً على يد، قائلاً: هو برجٌ عالٍ، مبنيٌّ في وسط النيل، دمياط عن شرقه، والجيزة عن غربه، وفي ناحيته سلسلتان تمتدُّ إحداها على النيل إلى دمياط، والأخرى على النيل إلى الجيزة، فتمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها... فهو قفل الديار المصرية[٣].

وقد خلع القفل، وانكشفت دمياط، واستمات المسلمون في الدفاع عنها، وخوفاً من أن يستغلَّ الصليبيون هذا الحصار لمهاجمة القدس، قرر المعظَّم عيسى بن العادل هدم سور القدس وأبراجها لعجزه عن الدفاع عنها، وكانت القدس يومئذ على أتمِّ حالٍ من العمارة وكثرة السكان، وقد شرع في هدم السور في الفاتح من محرَّم سنة (٦١٦هـ/ ١٢١٩م)، ووقع في البلد ضجَّة كأنَّ القيامة قد قامت، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز والشبّان والصبيان إلى الصخرة والأقصى خائفين غاضبين، فقطَّعوا شعورهم، ومزَّقوا ثيابَهم، وولَّوا هاربين، تاركين أموالهم وأثقالهم، معتقدين أنَّ الصليبيين من ورائهم، سيصبِّحونهم غداً، وامتلأت الطرقات بهم، بعضهم في طريقه إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك،

(١) استولى الصليبيون على برج السلسلة في آخر جمادى الأولى سنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) انظر «المذيل»: ١/ ٢٩٨.

(٢) «المذيل»: ١/ ٢٩٩، ٣٠٥.

(٣) «المذيل»: ١/ ٢٩٩.

وبعضهم إلى دمشق، وفي الطريق كانت البنات المخدرات يمزِّقن ثيابهن، ويربطنها على أرجلهنَّ من الحفا، وقد مات خلقٌ كثير من الجوع والعطش[١].

وفي جملة مَنْ كان في طريق دمشق منهم الشيخ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح، وكان يدرِّس بالمدرسة الصلاحية ببيت المقدس[٢]، والشيخ تقي الدين خزعل بن عسكر، وكان متصدِّراً لإقراء القرآن العظيم في القدس كذلك[٣]. وحين وصلا إلى دمشق، نزل ابن الصلاح فيها بالمدرسة الرواحية[٤]، ونزل تقي الدين خزعل في المدرسة العزيزية[٥].



---

(١) «المذيل»: ١/ ٣١٣.

(٢) «طبقات علماء الحديث»: ٤/ ٢١٥.

(٣) «الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٣١٠.

(٤) «طبقات علماء الحديث»: ٤/ ٢١٥، «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٤٤.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٨٩.

في حلقات شيوخه الكبار

كان الشيخ تقيُّ الدين ابن الصلاح في نحو الثامنة والثلاثين من عمره[1]، وكان قد جال في بلاد خراسان، واستفاد من مشايخها، وعلَّق عنهم التعاليق المفيدة[2]، وهناك حصَّل علم الحديث[3]، حتى تميَّز فيه، وقد صنَّف فيه من بعد كتاباً ذاع صيته في الآفاق، واقترن باسمه[4]، وكان على تفنُّنه في علم الحديث متبحِّراً في الفقه، وملمَّاً بعلوم العربية، وقد أوتي جلالةً ووقاراً وهيبةً وفصاحة[5]، وقد لازم أبو شامة دروسه في المدرسة الرواحية، ومنه استفاد علمي الحديث والفقه[6].

أمَّا الشيخ تقي الدين خزعل، فهو من مصر، من أهل قرية شمالية تعرف بدار البقر[7]، كان قد رحل إلى بغداد، وقرأ فيها على كمال الدين أبي البركات الأنباري

---

(١) ولد سنة (٥٧٧هـ)، انظر «طبقات علماء الحديث»: ٤/ ٢١٤.

(٢) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٣٢٦.

(٣) «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٤٤.

(٤) هو كتاب «علوم الحديث» وقد اشتهر بمقدمة ابن الصلاح.

(٥) «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ١٤٢.

(٦) «المذيل»: ٢/ ٦٩.

(٧) «إنباه الرواة»: ١/ ٣٥٣-٣٥٤، وقد أساء القفطي القول فيه على عادته في أغلب تراجمه لمعاصريه.

أكثر تصانيفه[١]، وبرع في النحو وعلم العربية، حتى صار من أعلم الناس بكلام العرب[٢]، وكانت عنده معرفة تامّة بالقراءات[٣]، فتصدَّر زمناً في بيت المقدس لإقراء القرآن العظيم، وإفادة علم العربية[٤]، حتى كان يعرف بنحوي القدس[٥].

لمَّا قَدِمَ الشيخ تقي الدين خزعل دمشقَ ـ وكان في نحو السابعة والستين من عمره[٦] ـ أنزل في المدرسة العزيزية، فكان يقرئ فيها، ويتولَّى عقود الأنكحة، وقد عيِّن إماماً في مشهد زين العابدين في جامع دمشق، وكان أبو شامة إذ ذاك يسكن في المدرسة العزيزية[٧]، فانعقدت بين الشيخ والفتى صلة وثقى، زادها قوَّة ما رآه أبو شامة في شيخه من مروءةٍ تامَّة في تعامله مع الناس، وبخاصة مع مَنْ يعقدون عقودهم أو يفسخونها، فقد كان لا يأخذ من فقيرهم، ولا يردُّ سائلاً، ويتصدَّق بأكثر ما يأتيه، أمَّا في حالات الطلاق، فكان لا يأخذ شيئاً سواء كان الفاسخ فقيراً أو غنياً[٨]، وهي عاطفة إنسانية تأبى أن تقتات من مآسي الآخرين.

وقد قرأ أبو شامة عليه فيما قرأ كتاب «الدروس في العروض» للناصح ابن الدهان[٩]، وكتاب «الجمل في علم الجدل» للكمال الأنباري، وكان للشيخ

---

(١) «التكملة» للمنذري: ٣/ ١٨٤ ـ ١٨٥، وانظر ترجمة الأنباري في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١١٣ ـ ١١٥.

(٢) «الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٣١٠.

(٣) «بغية الطلب»: ٧/ ٣٢٤١.

(٤) «الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٣١٠.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٨٩.

(٦) «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ١٨١.

(٧) «المذيل»: ١/ ٣٨٩.

(٨) «المذيل»: ١/ ٣٩٠.

(٩) هو سعيد بن المبارك بن علي بن عبد الله، كان من أعيان النحاة المشهورين، توفي بالموصل سنة (٥٦٩هـ)، له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج١/ ج٣/ ١٩ ـ ٢٤، «وفيات الأعيان»: ٢/ ٣٨٢ ـ ٣٨٥، «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٨١.

تقي الدين خزعل سماع لهما من مصنّفيهما في رحلته إلى العراق[١].

ويبدو أنَّ الشيخ تقيّ الدين خزعل قد خصَّ فتاه أبا شامة باهتمامه ـ على ازدحام الطلبة عليه[٢] ـ لِمَا لَمَسَهُ عنده من فهمٍ ثاقبٍ وقدرةٍ على الحفظِ، فرغب إليه ألاَّ يصرفَ جُلَّ وقته في حفظ أقوال الفقهاء، بل راح يحثُّه على حفظ الحديث، والتفقُّه فيه، وبخاصة «صحيح مسلم»، وكان يقول له: «إنَّه أسهل من حفظ كتب الفقه وأنفع[٣]». وكثيراً ما كان يوازن أمامه بين أقوال الفقهاء في المسألة باحثاً فيها عن الدليل[٤]، وهو بهذا كان يضع بين يدي الفتى أبي شامة منهجاً في الفهم ينأى فيه بعقله عن ربقة التقليد، وقد وجد أبو شامة فيما بعد ثمرة أقوال شيخه، فكان يقول: «وصدق رحمه الله»[٥].

* * *

أمَّا في يوم الجمعة، فكان يصعد في ضحاه إلى جبل قاسيون، قاصداً شيخه موفّق الدين ابن قدامة، فيدخل جامع الحنابلة، فيوافي الشيخ محمد بن خلف بن راجح المقدسي، وقد جلس على درج المنبر السفلي، وبيده كتاب من كتب الحديث، أو أخبار الصالحين يقرؤه على الناس إلى أن يؤذِّن المؤذِّن للجمعة[٦]، فإذا ارتقى شيخه موفَّق الدين المنبر[٧]، أنصتَ لخطبته، وهو يعظ النَّاس، ويذكِّرهم أيام الله.

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٨٩.
(٢) «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ١٨١، و«الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٣١٠.
(٣) «المذيل»: ١/ ٣٩٠.
(٤) المصدر السالف.
(٥) «المذيل»: ١/ ٣٩٠.
وكان من ثمرة هذا المنهج أن ألَّف أبو شامة من بعد كتباً ينعى فيها على التقليد والمقلِّدين، منها «خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول»، انظر ص٤٨٨ ـ ٤٨٩ من هذا الكتاب.
(٦) «المذيل»: ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧.
(٧) «المذيل»: ١/ ٣٧٠.

وعقب الصلاة كان يجلس إليه في حلقته مع طلبة العلم؛ ليسمع منه الحديث الشريف، وكان يقرأ عليه «مسند الإمام الشافعي» ـ وقد فات أبا شامة سماع ورقتين منه ـ وكتاب «النصيحة» لابن شاهين[١]. وسمع عليه في الفقه كتابه «المغني»[٢] الذي شرح فيه الموفق مختصر أبي القاسم الخرقي، وأجازه فيه[٣]، وكان ممن يحضر هذه المجالس محمد بن محمود بن عبد المنعم المراتبي، وقد انعقدت بينه وبين أبي شامة صداقة متينة، وغدا المراتبي من بعد من كبار فقهاء الحنابلة بدمشق[٤].

وفي طريق عودته كان يمر بجسر كحيل على نهر ثورا، قرب المدرسة الشبلية، ويتتبع ببصره التربة البدرية، حيث كان يسكن سبط ابن الجوزي، فيراه جالساً في شباكها، أو على الصفة الخارجة من النهر، ومعه كتاب يطالع فيه أو ينسخ منه[٥].

وبعد سنين، وقد شارف أبو شامة على الستين، يستعيد ذكرى تلك الأيام، متحسِّراً على انقضائها، ومردداً بأسى: «فما أطيب ما كانت تلك الأيام، وما أرغد عيش تلك الأعوام»[٦].

وستظل معرفته بسبط ابن الجوزي لا تتعدَّى هذه الرؤية عن بُعْد، حتى بعدما جمع بينهما حب التاريخ، والاشتغال فيه، ولعلَّ ما باعده عنه ما كان يراه من قرب سبط ابن الجوزي من ملوك عصره، وصحبته لهم على خلاف ما كان عليه شيخاه الأثيران فخر الدين ابن عساكر وعلم الدين السخاوي.

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٦٨.

(٢) «الباعث على إنكار البدع والحوادث»: ص٢١٧.

(٣) كتاب البسملة: ص٥٣٧، وقد قال فيه أبو شامة: «هو كتاب جليل، مشحون بالأدلة من الكتاب والسنة، على طوله وإحاطته بأكثر المسائل والنوازل، وليس للحنابلة كتاب فيما علمت أجلّ منه».

(٤) «المذيل»: ٢/ ٨٠ ـ ٨١، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب: ٢/ ٢٤٢.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٠٧.

(٦) المصدر السالف.

ولن ينسى أبو شامة ذهابه ذات يوم مع شيخه السخاوي إلى مقبرة باب الصغير لزيارة قبور بعض الصَّالحين، يومها وقف شيخه على قبر الفقيه الزاهد مودود الشاغوري، مترحِّماً عليه، طالباً من فتاه أبي شامة قراءة الأبيات التي كتبت على شاهدة قبره، فينطلق صوتُ أبي شامة في قراءتها والشيخ يستحسنها:

كم ضمَّ قَبْرُكَ يا مودودُ من دِيْنِ ومن عَفَافٍ ومن بِرٍّ ومن لِيْنِ
ما كنتَ تَقْرَبُ سُلْطاناً لتخدِمَهُ لكنْ غنيتَ بسُلْطانِ السَّلاطينِ[1]

وكان درساً من شيخه لن ينساه.

* * *

ولعلَّ مما عزَّز لديه نفرة القرب من السلطان ما شهده من إهانة الملك المعظَّم عيسى بن العادل لقاضي قضاة دمشق أبي العباس الطاهر بن محيي الدين ابن الزكي، وذلك حين ضرب هذا القاضي جابي المدرسة العزيزية، حيث كان يسكن أبو شامة[2].

فقد ساءت المعظم من القاضي أمورٌ كان يغلّها في صدره، ويتغافل عنه، حتى أخطأ القاضي خطأ قد يغتفر من مثله بضربه الجابي، غير أنَّ المعظّم وجد في فعل القاضي سبيلاً لإظهار ما في نفسه، فبعث إليه ـ وهو في مجلس الحكم في داره، وقد غصَّ بالناس، والشهود حضور ـ ببقجة فيها قَبَاء وكلوتة ـ وهما لباس والي الشرطة ـ وأمره أن يلبسهما، ويحكم بين الناس، وذلك تحقيراً له، إذ هو زيٌّ شنيع في حقِّ مثله، فلمَّا نظر القاضي إلى القباء والكلوتة شحب وجهه، وعلاه الوجوم، غير أنَّه مدَّ يده في خوف، ووضع القباء على كتفيه، ونزع عمامته، ووضع الكلوتة على رأسه، وحكم بين اثنين، ثم قام من مجلس الحكم، ودخل غرفته.

(١) «المذيل»: ١/ ٢٥٨.
(٢) «المذيل»: ١/ ٣٨٩.

وبلغ هذا النبأ الشنيع سمع الشيخ علم الدين السخاوي، وهو في حلقته بجامع دمشق، وأبو شامة إلى جانبه، فتأوَّه حزناً على ما ألمَّ بالقاضي، وراح يضرِبُ إحدى يديه بالأُخرى كعادته تعبيراً عن انزعاجه الشديد.

وسيعقِّب أبو شامة على هذه الحادثة من بعد بقوله: «من لطف الله تعالى أن كان مجلس الحكم في داره، وإلاَّ ـ والعياذ بالله ـ لو كان في مكان آخر لتكلَّف المرور في الطرقات بذلك الزِّي الشنيع في حقِّ مثله إلى بيته، اللهمَّ عفوك وعافيتك»[١].

ولكنَّ القاضي المُهان لن يمرَّ في طرقات دمشق أبداً، فقد لزمَ بيتَه، يغالب القهرَ في عزلته حتى غلبه، فرمى كبده منه قطعاً، وتوفي في الثالث والعشرين من صفر سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، وتأسَّفَ الناس لما جرى عليه[٢].

ولم يجد سبط ابن الجوزي ما يعتذر به عن المعظم، وهو من أقرب مقرَّبيه، فكتب في تاريخه «مرآة الزمان»: «وكانت حركة شنيعة، وواقعة قبيحة لم يجرِ في الإسلام أقبح منها، وكانت من غلطات المعظَّم»[٣].

* * *

ويتوج أبو شامة حضوره في حلقة شيخه فخر الدين ابن عساكر بحصوله منه على الإجازة في أواخر سنة (٦١٦هـ/ ١٢٢٠م)، وقد بلغ السابعة عشرة من عمره، فقد كان ملازماً له في مجلس سماعه تحت قبة النسر في جامع دمشق عصر كل يوم اثنين وخميس، وقد سمع منه معظم كتاب «دلائل النبوة» للبيهقي، وكان يقتنص أوقات فراغه ليسأله مسائل في الفقه[٤]، ولعلَّ أبا شامة قد أحبَّ أن يُطلِع شيخه على

(١) «المذيل»: ١/ ٣١٦ ـ ٣١٨.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣١٨.

(٣) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦١٦هـ) بتحقيقي، و«المذيل»: ١/ ٣١٩.

(٤) «المذيل»: ١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

براعته التي وصل إليها في هذه السنّ، فكتب إليه أبياتاً من نظمه ـ ولعلَّها من أوائل ما نظم ـ يسأله فيها إجازة مروياته، فأجابه فخر الدين ابن عساكر بثلاثة أبيات نظمها له، وكتبها له بخطِّه، إكراماً له، وتنويهاً بفضله، وهي:

أجزتُ له قولي وفَّق الله قصدَهُ وأسعدَهُ بالعِلْم يومَ مَعَادِهِ

روايةَ ما أرويه عن كلِّ عالمٍ بصيرٍ بما فيه طريقَ سَدَادِهِ

فهنَّاه ربي بالعلومِ وجَمْعِها وبلَّغه فيها سنيَّ مُرَادِهِ[1]

وتغمر أبا شامة سعادةٌ كبرى بهذه الإجازة التي طالما انتظرها من شيخه الذي أحبَّه وأخلص له، وقد عبَّر عن بعض سعادته بقوله: «وما أعلمه فَعَلَ ذلك مع غيري»[2]. وبعد سنين حين يغدو أبو شامة عالم دمشق الكبير سيذكر أبيات شيخه هذه، ويقول: «وجدت بركة دعائه لي فيها»[3].

❁ ❁ ❁

ويُطِلُّ عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، وتشهدُ دمشق قدوم عالِمَيْن جليلين إليها، أولهما قادم من حماة بعد وفاة ملكها المنصور محمد بن تقي الدين عمر[4]، حيث كان يعيش في كنفه[5]، هو الفقيه الأصولي سيف الدين الآمدي، وكان في السادسة والستين من عمره[6]، وقد أوفى على الغاية في عِلْمَي أصول الفقه والكلام، مع معرفةٍ نادرة في أصول البحث والمناظرة[7]، وكان على توقُّد ذكائه[8]

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٦٣، وشطر البيت الأول فيه خلل في الوزن، والله أعلم.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣٦٣.

(٣) المصدر السالف.

(٤) توفي في شوال سنة (٦١٧هـ)، انظر «المذيل»: ١/ ٣٣٣.

(٥) «عيون الأنباء»: ص٦٥٠، و«مفرج الكروب»: ٥/ ٣٧.

(٦) ولد سنة (٥٥١هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٩٢.

(٧) «عيون الأنباء»: ص٦٥٠، و«مفرج الكروب»: ٥/ ٣٥.

(٨) «عيون الأنباء»: ص٦٥٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٣٦٤، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٣٠٦.

قد أوتي رقَّةً في القلب[١]، وفصاحةً في اللسان، فولاَّه المعظَّم التدريس في المدرسة العزيزية، فكان الطلبة والفقهاء يجتمعون على درسه، فيأخذ بمجامع قلوبهم لحسن عبارته[٢]، من هؤلاء الطلبة أبو شامة، ومن هؤلاء الفقهاء الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وقد أعجب العزُّ به غايةَ الإعجاب حتى إنَّه كان يقول دائماً: ما سمعتُ أحداً يلقي الدرسَ أحسنَ منه، وما عَلِمْنا قواعد البحث إلاَّ من سيف الدين الآمدي[٣].

وكان في كلِّ ليلة ثلاثاء وجمعة يعقد في جامع دمشق مجلساً للمناظرة يحضره أكابر العلماء للاستفادة منه[٤]، وكان ممَّن يحضر في ليالي الجمع الملك المعظَّم، فيصغي إلى بحثه ومجادلته، وكان الآمدي حين يأخذ في البحث والمناظرة لا يقدر أحد من العلماء على مجاراته[٥].

أمَّا العالِم الثاني، فقادمٌ من مصر، وهو المقرئ النحوي أبو عمرو عثمان بن عمر، المعروف بابن الحاجب، لأنَّ أباه كان جندياً حاجباً للأمير عزّ الدين موسك الصلاحي[٦]، وكان في نحو السادسة والأربعين من عمره[٧]، وقد برع في عِلْمَي القراءات والعربية حتى فاق فيهما أقرانه، وكان متقناً لمذهب مالك بن أنس[٨].
وكان على شدة ذكائه عفيفاً متواضعاً، عنده حياء وإنصاف، وقد تصدَّر للتدريس في

---

(١) «مرآة الزمان» (وفيات سنة ٦٣١هـ) بتحقيقي.

(٢) «عيون الأنباء»: ص٦٥٠.

(٣) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٣٠٧.

(٤) المصدر السالف.

(٥) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٨.

(٦) «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٤٨، «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٢٨٧.

(٧) ولد في آخر سنة (٥٧٠هـ)، وقدم دمشق سنة (٦١٧هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٥٠، و«المذيل»: ٢/ ٩٠.

(٨) «المذيل»: ٢/ ٩٠، «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٥٠.

زاوية المالكية في جامع دمشق، وازدحم الطلبة على حلقته ـ وفيهم أبو شامة[١] ـ ينهلون من علمه وأخلاقه[٢].

وكان ممَّن قدم معه من مصر تلميذه الأثير ظهير الدين عبد الغني بن حسان المصري، فقد كان محبًّاً لشيخه، كثيرَ الاعتناء بكلامه، لا يكاد يفارقه في حلِّه وترحاله، وقد علَّق عنه أشياء لم يعلِّقها أحد ممَّن لازمه، وكان ظهير الدين كشيخه صريح الود، لا يجامل ولا يماري في حق، على سخاوة نفس حتى اشتهر كرمه وجوده بين الناس[٣].

وفي حلقة الشيخ ابن الحاجب يتعارف الشابان أبو شامة وعبد الغني، وينمو هذا التعارف مع الأيام، حتى يثمر صداقة حميمة، يغذوها ما يجمع بينهما من حبٍّ للعربية، وما يوائم بين روحيهما من خصال، ومع عبد الغني يقضي أبو شامة أجملَ أوقاته وأمتعَها، فهو فيها مع أخْلَصِ أصدقائه، وأقربِهم إلى قلبه[٤].



(١) «المذيل»: ٢/ ١٤.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٩٠، «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٤٩.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٥.

(٤) المصدر السالف.

في المدرسة العادلية الكبرى

على مقربةٍ من جامع دمشق، قبالة دار العقيقي، كان المعظَّم يكمل ما بدأه أبوه من بناء المدرسة العادلية الكبرى، هذه المدرسة التي سيقضي فيها أبو شامة سنوات مديدة من عمره، وفيها سيؤلف أشهر كتبه «كتاب الروضتين»[1].

كان السلطان نور الدين محمود بن زنكي هو أوَّل مَنْ فكَّر في إنشاء مدرسة في هذا المكان، ليدرِّس فيها الفقيه الإمام قطبِ الدين النيسابوري، وقد شرعَ في بنائها إلاَّ أنَّ وفاته سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) حالت دون إتمامها[2].

وتمرُّ السنون، ويبقى ما بناه نور الدين على حاله، ويراه الفتى أبو شامة، وهو يمرُّ بقربه في غدوِّه ورواحه[3].

حتى إذا كانت سنة[4] (٦١٢هـ/ ١٢١٥م) يعزم العادل على بناء المدرسة من جديد، ليدرِّس فيها هذه المرة تلميذ قطب الدين النيسابوري، وزوج ابنته شيخ الشافعية فخر الدين ابن عساكر[5]، فيزيل تلك العمارة التي بناها نور الدين، ويشرع

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٦٤.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٦٣-٢٦٤.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٦٤.

(٤) «المذيل»: ١/ ٢٥٦.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٦٥.

في بنائها هذا البناء المحكم[١]، إلاَّ أنَّ حريقاً ينشب فيها بعد سنتين يأتي على ما بنى منها[٢]، ويموت العادل سنة[٣] (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) بعد حريقها بسنة، ولم يتمَّ البناء بعد، فيشرع في إتمامه الملك المعظم، ويبني فيها تربةً لوالده.

ويشارف البناء على الانتهاء سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) وينقل المعظم في موكب مهيب تابوت أبيه العادل من قلعة دمشق ـ حيث دفن ـ إلى تربته فيها[٤].

وما إن يتم عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) حتى يتكامل بناؤها، وتغدو المدرسة مهيَّأة ليتولاَّها الشيخ فخر الدين ابن عساكر، تنفيذاً لرغبة العادل، غير أنَّ المعظم يعدل عنه انتقاماً منه، لأنَّ الشيخ فخر الدين أنكر عليه سماحه بإظهار الخمر، وتضمينها في دمشق عقب وفاة العادل[٥]، ويفوِّض التدريس فيها إلى قاضي قضاته الأثير لديه جمال الدين المصري[٦]، فيكون أول مَنْ يُلقي درساً فيها[٧].

ويصوِّر لنا أبو شامة ـ وكان في جملة مَن حضر من طلابها ـ افتتاح المدرسة بهذا الدرس الأول تصويراً دقيقاً، حتى لكأنَّنا على بعد الزمان أحد شهوده، فلنستمع إليه، وهو يقول: «وحضر درسه أعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء، وحضره السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل، وتكلَّم في الدرس مع الجماعة، وكان الاجتماع بإيوان

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٦٤.

(٢) «المذيل»: ١/ ٢٥٦.

(٣) «المذيل»: ١/ ٣٠٣، ٣٠٥.

(٤) «المذيل»: ١/ ٣٥١.

(٥) كان العادل بن أيوب قد حظر الخمور والقيان في دمشق سنة (٦١٢هـ)، وبقي الأمر على ذلك حتى وفاته سنة (٦١٥هـ)، فأعاد المعظَّم ما كان أبوه أبطله في رجب سنة (٦١٥هـ)، فأنكر عليه الشيخ فخر الدين ابن عساكر، فأسرّها المعظم في نفسه. انظر «المذيل»: ١/ ٢٥٦ـ٢٥٧، ٣٠٨، ٣٦٥ـ٣٦٦.

(٦) «المذيل»: ١/ ٣٦٦.

(٧) «المذيل»: ١/ ٣٨٧.

المدرسة، وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيري، ويليه شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين ابن عساكر، ثم القاضي شمس الدين بن الشيرازي، ثم القاضي محيي الدين يحيى بن الزكي. وجلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرِّس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري، وإلى جانبه شيخنا سيف الدين الآمدي، ثم القاضي شمس الدين يحيى بن سني الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، ودارت حلقة صغيرة، والناس وراءهم متصلون ملء الديوان، وكان في تلك الحلقة أعيان المدرِّسين والفقهاء، وقبالة السلطان فيها شيخنا تقي الدين بن الصلاح... وكان مجلساً جليلاً»[١].

ومنذ ذلك اليوم سيصبح أبو شامة أحد طلاّب المدرسة العادلية، الساكنين فيها، فهي المأوى وبها المثوى[٢]، وسيلازم فيها حضور دروس قاضي القضاة جمال الدين المصري، وكان يلقي فيها درسين، درساً في الفقه، وآخر في التفسير، مبتدئاً من فاتحة الكتاب، وكان يحضر درسه جماعة من الفضلاء، وتثار فيه مباحث حسنة[٣]، ولربما كان أبو شامة يتشاغل أحياناً أثناء سماعه الدرس بنطق القاضي، وهو يلثغ بالقاف، محيلاً لها إلى همزة[٤].

وكان يرى هذا القاضي بكرة كل يوم جمعة، ويوم ثلاثاء، يجلس بإيوان المدرسة ـ وقد اتخذه مجلساً للحكم ـ لإثبات الكتب، وقد اصطفَّ في جوانب الإيوان شهود البلد.. وساد المجلس سكونٌ وجلال[٥].

كان أبو شامة يحضر درسه ويراه عن بعد، ولم يتقرَّب إليه يوماً بكلمةٍ أو سؤال.

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٥١-٣٥٢.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٦٤.

(٣) «المذيل»: ١/ ٣٨٧-٣٨٨.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٨٥، «مفرج الكروب»: ٤/ ١٧٢-١٧٣، «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٥٧.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٨٨.

وكذلك كان أبو شامة يرى الملك المعظم يأتي كل جمعة ـ إذا كان بدمشق ـ إلى تربة والده العادل، يجلس فيها مع أمرائه وخواصه إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة، فيخرج المعظم حينئذ ماشياً إلى تربة عمه صلاح الدين المجاورة للكلاسة شمالي جامع دمشق، فيصلي الجمعة بها مع الناس[١].



(١) «المذيل»: ١/٣٩٨.

عـام الأحـزان

ما كانت أيامه في تلك السنين لتستمرَّ في هدوئها وهناءتها وهو يقضي ساعاتها في المدرسة العادلية الكبرى، متنقِّلاً بين حلقات شيوخها، أو جالساً في جامع دمشق بصحبة شيخه علم الدِّين السخاوي، أو مستمعاً تحت قبة النسر في مجلس شيخه فخر الدين ابن عساكر، أو متردِّداً إلى المدرسة العزيزية حيث شيخاه تقي الدين خزعل، وسيف الدين الآمدي، أو إلى المدرسة الرواحية حيث شيخه تقي الدين ابن الصلاح، أو صاعداً كل جمعة إلى جبل قاسيون لحضور درس شيخه موفق الدين ابن قدامة، أو مستمتعاً في أويقات فراغه بصحبة صديقه الأثير عبد الغني بن حسان المصري.

في زحام شواغله هذه يُفجع قلبُ أبي شامة بوفاة أمه في سادس رجب سنة (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) تاركةً حُلُمَها وهو في بداية طريقه، ويتجمَّل أبو شامة بالصبر راضياً بقضاء الله، وفي مكانٍ ناءٍ في جبل قاسيون، في طريق الكهف إلى جانب الوادي يختار لها قبراً هناك[1] يضم جسدها الطاهر، ربما كان قريباً من قبر شيخ المقادسة وزاهدهم أبي عمر، أخي شيخه الموفق، وطالما كان يزوره، ويفيض

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٥٥.

الدمع على قبره[١]، ويكتوي القلب المفجوع بألم الفراق، فيتمنَّى أن يرجع ذات يوم إلى قربها، ويدفن عند قبرها[٢].

ولم تكد تمضي أربعةُ أيام على وفاة أمه حتى يعاجلَه الحزن بوفاة أحبّ شيوخه إلى قلبه، فخر الدين ابن عساكر[٣]، وتخرج دمشق لتشييع شيخها، ويغصّ جامع دمشق بالناس، ويصلِّي عليه أخوه زين الأمناء، ويخرجون بجنازته إلى ناحية الميدان الأخضر بالشَّرف القبلي، وقد امتلأتِ الطرق بالناس، ويتمنَّى أبو شامة، وهو يرى جنازة شيخه تتهادى فوق الأيدي المرفوعة نائية عنه أن يكون ممن يحملها مع الحاملين، ولكن هيهات!.. إذ مَنْ كان يقدر من الناس على الوصول إلى جنازته، لقد وقف أجناد الملك العزيز بن العادل وعزّ الدين أيبك حولها بالدبابيس والعصي يمنعون مَنْ يحاول الاقتراب منها[٤].

وبحبٍّ غامر يقاوم به جفاء النسيان يحدِّد أبو شامة موقع قبره، فهو على يسار المار مغرباً في طريق الشرف القبلي، مقابل لرأس الميدان الأخضر، قبل الوصول إلى قبر شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري بقليل[٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) «المذيل»: ١/ ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣٥٥.

(٣) توفي الشيخ فخر الدين ابن عساكر يوم الأربعاء عاشر رجب سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، انظر «المذيل»: ١/ ٣٦٦.

(٤) «المذيل»: ١/ ٣٦٦-٣٦٧.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٦٧.

وقد أُزيلت مقبرة الصوفية حيث دفن الشيخ فخر الدين ابن عساكر، وزال معها قبره، وجزء من ذاكرة دمشق، وقام مكانها معهد للطب ومستشفى، ولم يبق منها سوى قبور ثلاثة مهجورة، منزوية بغربة وإهمال بين الأبنية، أحدها قبر شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله.

وما يكاد أبو شامة يفيق من أحزانه حتى يستقبله عيد الفطر بحزن جديد، لقد توفي شيخه موفق الدين ابن قدامة[١]، وكما خرجت دمشق لتوديع شيخ الشافعية فخر الدين ابن عساكر تخرج في وداع شيخ الحنابلة موفق الدين، حيث دفن بجبل قاسيون خلف جامع الحنابلة في مقبرتهم المشهورة[٢]، ويرى راءٍ في منامه ليلة وفاة الموفق كأنَّ مصحف عثمان ـ رضي الله عنه ـ قد رُفِعَ من جامع دمشق إلى السماء[٣].



(١) توفي الشيخ موفق الدين ابن قدامة يوم السبت أول أيام عيد الفطر سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، ودفن من الغد.

(٢) أزيلت كذلك هذه المقبرة، وزال معها قبر الموفق، وقامت مكانها بيوت ودكاكين.

(٣) «المذيل»: ١/ ٣٧٠.

في طريقه إلى الحج

ربَّما تخفيفاً عن قلبه المثقل بالحزن، وشوقاً إلى الحرمين الشريفين يعزم أبو شامة في سنة (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م) على الحجِّ مع والده[١]، وكان والده قد غدا خبيراً بطريق الحج وشؤونه، وهذه هي حجته الرابعة[٢]، ويأزف وقت الرحيل، فينضمان إلى قافلة الحج الشامي، مع أميرها شجاع الدين علي بن السلار[٣]، ويسلكان طريق تبوك نحو المدينة المنورة[٤].

وفي الطريق، والشوق يحدوه إلى البيت الحرام، وزيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام، يعنُّ له ـ وقد آنس في نفسه القدرة على النظم ـ أن ينظم قصيدة يذكر فيها منازل الحجاج التي ينزلونها في طريقهم من دمشق إلى عرفات. وأن يصف فيها ـ ما أمكن ـ أماكن الزيارات، ويفتتحها بقوله:

ما زلتُ أشتاقُ حَجَّ البيتِ والحَرَمِ وأَنْ أزورَ رسولَ الله ذا الكَرَمِ[٥]

وكان الحج في تلك السنة ـ على خلاف غيرها من السنين ـ حجاً هنيئاً مريئاً،

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٧٤.

(٢) انظر حاشيتنا رقم (٦) ص١٦ من هذا الكتاب.

(٣) «المذيل»: ١/ ٣٧٤.

(٤) المصدر السالف.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

نعمت فيه قافلة الحجّ الشامي برخص الأسعار، والأمن في الطرقات، وحين وصلت سالمةً إلى المدينة المنورة، خصَّها أميرها ـ وكان موالياً للمعظم صاحب دمشق ـ بعناية فائقة على غيرها من القوافل، وكان ـ حرصاً على سلامتها ـ يبعث إليها كل ليلة من جنوده مَنْ يحرسها[(١)].

وأمضى أبو شامة أيامه في المدينة المنورة بين شوقٍ يبوح به للمصطفى ﷺ، وعبرات يسكبها على أعتاب روضته الشريفة، ومشاعر إيمانية تفيض من قلبه، فيودعها أبياتاً في قصيدته. وكان يختلس ساعات يجلس فيها إلى إمام المسجد النبوي أبي عبد الله محمد بن عمر بن يوسف القرطبي، وكان إماماً من أئمة القراءات، العارفين بوجوهها، وقد بلغت منزلته فيها أن جلس بعد وفاة الإمام الشاطبي في مكانه للإقراء، وقد أجاز لأبي شامة رواية ما يصحّ عنه روايته[(٢)].

والتقى في المدينة فيمن التقى صفي الدين حسن بن أبي طالب، وهو صاحب له بغدادي، كان يلتقيه بدمشق، وكان يعمل كاتباً بالمدينة في ديوان أميرها[(٣)].

* * *

وتتابع القافلة طريقها نحو مكة المكرمة، ملبّيةً بالحج، كانت مكة يحكمها منذ نحو سنة الملك المسعود بن الكامل بن العادل[(٤)]، وكان على ظلمه وشدّته حازماً، فقضى على ما كان فيها من اضطراب وقلاقل يثيرها المفسدون، وبخاصة في موسم الحج، فنَعِمَ الناس في أيام دولته بالأمن والخصب[(٥)].

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٧٤.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٢٩ ـ ٣٠، و«الوافي بالوفيات»: ٤/ ٢٦١، و«غاية النهاية»: ٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٣٣، ثم ترقّى حاله حتى أصبح وزيراً، وقد اشتدّ في قمع المفسدين بالمدينة، فقتلوه فيها سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م) انظر «المذيل»: ٢/ ٣٢ـ٣٣.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٧، و«الكامل» لابن الأثير: ١٢/ ٤١٣، و«مفرج الكروب»: ٤/ ١٢٥.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٧٤، ٢/ ١٧، «مفرج الكروب»: ٤/ ١٢١، ٢٦٠.

وكان من عادة الحجاج في ذلك الزمن أن يصلُّوا ركعات في جوف الكعبة المشرفة، فكان سدنتها من بني شيبة يستغلون ذلك، فيأخذون مالاً لقاء فتحهم بابها لمن أرادوا، أو يغلقونه دونهم، فكان الناس يزدحمون عند فتح الباب، حتى إنَّ بعضهم يتسلَّق على رقاب بعض، ولأنَّ الباب مرتفع عن الأرض نحو قامة رجل فكثيراً ما كان بعضهم يقع على بعض، فمنهم مَنْ ينكسر عظمه، ومنهم مَنْ يشج رأسه، ومنهم مَنْ يموت[1]. وقد رأى الكامل بن العادل ـ حاكم مصر ـ أن يُسهِّل هذا الأمر على الحجيج، وذلك بأن يبقي بابها مفتوحاً ليلاً ونهاراً، فأرضى بني شيبة بمالٍ يعوِّضهم عمَّا كانوا يأخذونه من الناس[2].

لم يدرِ الناس ـ وهم في طريقهم إلى مكَّة المكرَّمة ـ بما فعل الكامل، فكان أبو شامة طوال الطريق تتنازعه الأماني، هل يستطيع دخول الكعبة والصلاة فيها؟ وكيف السبيل إلى دخولها مع شدة ازدحام الناس على بابها؟ وما إن يتخيّل ما ينتظره من مشقَّة حتى يبدِّد الهمّ والقلق كلَّ أمانيه[3].

وحطَّت القافلة أخيراً رحالها في مكَّة المكرَّمة، ودخل أبو شامة الحرم الشريف من باب بني شيبة مع الداخلين، وما إن وقع نظره على البيت ـ شرَّفه الله تعالى ـ حتى فوجئ ببابه مفتوحاً، وسُلَّمِه منصوباً، والناس طالعون إليه ونازلون منه من غير ازدحام ومشقة، فعقدت الفرحة لسانه، وهو لا يكاد يصدِّق عينيه، وخوفاً من أن يغلق الباب دونه عَجَّل في طواف القدوم، ثم صعد السلّم مع الصاعدين، فدخل البيت ـ عظَّمه الله تعالى ـ وقد طفح قلبه بالشوق، فسكب العبرات، وصلَّى ركعات، واستغفر ودعا وسبَّح[4]، وقد وصف في قصيدته الحجاج في هذا المشهد الجليل بقوله:

وأسرعوا نحوَ ذاكَ البيتِ حاسرةً ... رؤوسُهُمْ بين مِطْوَافٍ ومُسْتَلِمِ

(١) «المذيل»: ١/ ٣٧٤.

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

(٤) «المذيل»: ١/ ٣٧٤ـ٣٧٥.

والبابُ قد أطلقوه للحجيجِ فلم ... يَرَوْا به مانعاً طُولَ مُقامِهِم[١]

❁ ❁ ❁

وفي الحرم، وقد التفَّ النَّاس فيه حلقات حول الشيوخ من حاجٍّ أو مجاور، فمن محدِّثٍ يحدِّث، ومن واعظٍ يَعِظ، ومن فقيهٍ يفتي، جلس أبو شامة مع مَنْ جلس في حلقة الشيخ الإمام الحجة أبي طالب عبد المحسن بن أبي العميد الخفيفي الأبهري ـ وهو من علماء بغداد وعُبَّادها، وممن حضر حصار عكا مع السلطان صلاح الدين ـ يسمع منه مروياته، ويجيزه بها[٢].

ويلتقي في الحرم فيمن يلتقي شيخاً عالماً بالقراءات قادماً من إربل، هو الشيخ عثمان بن أحمد بن بذَّال الحنبلي، فلربَّما كانا يجلسان في بعض الأماسي يتذاكران في علم القراءات، الفنّ الذي أتقنه أبو شامة، ويتطارحان بعض الأشعار في الزهد والقناعة[٣]، وكان مما أنشده الشيخ عثمان لأبي شامة:

أيا نائماً في ظلام الدُّجَى ... تيقَّظْ فَصُبْحُ الدُّجى قد أضا

أتاك المشيب ولوعاتُهُ ... وولَّى شبابُكَ ثم انقضى

فلو كنت تذكُرُ ما قد جَنَيْتَ ... لضاقَ عليك اتِّساعُ الفضا[٤]

❁ ❁ ❁

(١) «المذيل»: ١/ ٣٧٦.

(٢) «المذيل»: ١/ ٢٧، ٣٧٥، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٥٩ـ٢٦٠.

(٣) كان أبو شامة ينظم بعض الأبيات في تلك الفترة في هذه المعاني، ومما نظمه منها سنة (٦٢٠هـ):

أنا في عزِّ القناعه ... رافل في كلِّ ساعه

ربِّ أتممها بخيرٍ ... في معافاةٍ وطاعه

انظر «المذيل»: ١/ ٢٩ـ٣٠ بتحقيقي.

(٤) «المذيل»: ١/ ٣٧٥.

في نأنأة التأليف
وبداية اهتمامه بالتاريخ

رجع أبو شامة من حجِّه صافيَ النفسِ، منشرحَ الصَّدرِ، وقد ضمَّ بين أوراقه أولى قصائده التي نظمها في منازل الحجَّاج من دمشق إلى عرفات، ووصف فيها أماكن الزيارات، ولا شكَّ أنَّه كان فرحاً بنظمها، إذ شعر وهو ينظمها كيف بدأت اللغة تُسْلِسُ له قيادها، وكيف أنَّ معرفته بالعروض كانت عاصمةً له من الإخلالِ بوزنها، كما أنَّ معرفته بالنحو كانت عاصمةً له من اللحن فيها.

ولا شكَّ أنَّه أطلع عليها صديقه عبد الغني في بعض مجالسه، فاستحسنها، وربَّما أطلع عليها من بعد شيخيه علم الدين السخاوي وتقي الدين خزعل، وهما ممن تمكَّن من النظم، وله قدرة عليه، ولربَّما في لحظة ثقةٍ بالنفس استدعتها كلمة ثناء، خطر له خاطر: لِمَ لا يتصدَّى للتصنيف، وقد لانت له اللغة؟ وكي لا يكون بعيداً عمَّا يحسنه اختار قصائد شيخه علم الدين السخاوي التي مدح فيها النبي ﷺ، ليكتب شرحاً لها[1].

وكانت نفسه مواتية لهذا الشرح، فعهدُهُ قريبٌ بزيارة المصطفى ﷺ، والشوق له

---

(١) هو كتابه «المقاصد السنية في شرح القصائد النبوية»، وهو أول ما ظهر من مصنَّفاته، انظر «المذيل»: ١/ ١٤٢، و«نور المسرى»: ص١٣٠، و«معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣٣٥، وص٥٠٥ من هذا الكتاب.

ما زال يضطرم في القلب، والقلم يتاعف، ولربَّما شعر، وهو منهمكٌ في كتابة هذا الشرح أنَّه قد بدأ يلملم أطراف العلوم، ويجمعها إليه، فقد أتمَّ علم القراءات، وأتقن العربية، وقرأ الفقه، وسمع الحديث، وبدأ قلبه ينتشي بمشاعرِ الرضا، تلك المشاعر التي تنتاب قلب طالب العلم وهو في أوَّل طريقه، وقد خُيِّلَ إليه أنَّه قد علم. حتى كان ذات يوم، وقد حضر كعادته مجلس قاضي القضاة جمال الدين المصري، وهو يلقي درسه في التفسير في المدرسة العادلية[١]، وجرى في أثنائه محاورة بين قاضي القضاة ومَنْ يحضر درسه من أعيان الشيوخ والمدرِّسين حول من تحرم عليه الصدقة من ذوي القربى[٢]، ربَّما كان ذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٣]، فقد جعل الله لذوي القربى الخمس مكان الصدقة، فمَنْ هم ذوو القربى؟ ويفاجأ أبو شامة بقولهم جميعاً، وكأنَّ الأمر بالنسبة لهم لا يستحقُّ عناءَ البحث والسؤال: هم بنو هاشم وبنو عبد المطلب. ويباغت أبو شامة بالجواب، ويتساءل: أحقاً لا يفرِّقُ هؤلاء الكبار بين المطلب وعبد المطلب؟ أحقاً يجهلون أنَّ عبد المطلب هو ابن هاشم، وأنَّ المراد هو المطلب عم عبد المطلب، ويأسى أبو شامة لحالهم وهو يراهم يتمرَّغون بتراب الخطأ، غير أنَّ سنَّهُ، وهو الصغير بين الكبار، تحجزه أن يعلنَ لهم ما يعرفه من أنَّ ذوي القربى الذين تحرم عليهم الصدقة هم بنو هاشم وبنو المطلب من أبناء عبد مناف، لا يشاركهم في ذلك أبناء عبد شمس ونوفل، ألم يسمعوا حديث رسول الله ﷺ: «إنَّما بنو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحد»[٤]؟

---

(١) انظر ص٤٧ من هذا الكتاب.

(٢) ذكر أبو شامة هذا المجلس في «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٥ مغفلاً تعيين المكان واسم قاضي القضاة، وقد استظهرته من سياق سيرته، والله أعلم.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٤١.

(٤) أخرجه البخاري (٣١٤٠) من حديث جبير بن مطعم ﷺ، وهو في «مسند الإمام أحمد» برقم (١٦٧٤١).

ويكتشف أبو شامة أنَّهم أُتُوا ـ على فضلهم ـ من جهلهم بالتاريخ، ويتنبَّه عندئذ إلى ما لم يتنبه له من قبل، فهو أيضاً قد أهمل التاريخ كما أهملوه، وهو أصل من أصول الشريعة. . وباب من أبواب العلم، ويأنف لنفسه أن تقوم ذات يوم مثل مقامهم، وتخطئ مثل خطئهم، فيعقد العزمَ على أن يتمِّم علومَه بقراءة التاريخ، وهو علم ـ كما سيكتشف فيما بعد ـ ليس سهل التحصيل، فهو بابٌ واسع، غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد[1].



(١) انظر «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٥، وقد أضفت إلى ما ذكره أبو شامة تعميقاً للمعنى ما خمّنته قد جال بخاطره، وهو لا يخرج على حدود المنهج التاريخي، وسياق الخبر لا يأباه.

حجَّته الثانية

ويحجُّ أبو شامة في العام التالي (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) حجَّته الثانية، منضمّاً وحده إلى قافلة الحج الشامي، راكباً في المحمل السلطاني المعظَمي[١]، ومع القافلة جماعة من مساحي الأرض بعث بهم المعظم ليمسحوا له طريق الحج من باب الجابية بدمشق إلى جبل عرفات، وليكتبوا له منازل الحجاج فيه منزلة منزلة، ومع المساحين فَعَلة يمهِّدون للحجاج المواضع الوَعْرة فيه[٢].

فهل كان أبو شامة في جملة من بعثه المعظَّم لهذا الأمر؟ وهل كان لقصيدته الميمية التي نظمها في موسم الحج الفائت أثر في إثارة اهتمام المعظم بذلك؟ هذا ما نرجِّحه على الرغم من صمت أبي شامة المطبِق[٣]، وتشعيثه للخبر، وما يجعلنا نميل إلى هذا الترجيح أنَّ أبا شامة نظم في هذه الحجة قصيدة ثانية في منازل الحجاج على قافية الهمزة، فلعلَّه راعى فيها ذكر المنازل وفق هذا المسح الجديد، ولعلَّها كانت مهمَّته في هذه البعثة، وقد افتتح القصيدة بقوله:

(١) «المذيل»: ١/ ٣٧٨.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣٩٨.

(٣) ربما في صمته ـ إذا صحَّ ما نرجِّحه ـ أحبَّ أن ينفيَ أية علاقة له بالسلطان، ولو كانت علاقة عابرة في أيام الشباب، وكان فيها خدمة للحجيج، وهو الذي ظلَّ طوال حياته ينأى بنفسه عنه.

يـا حـبـذا وطـن الـحـبـيـب الـنـائـي[١]

وقد ظلَّ هاجسه طوال حجّته هذه أن يعرف المكان، فبعد أن يطوي لنا خبر وصوله إلى الحرم المكي بقوله: «وكان أيضاً حجاً مباركاً، كثير الخير والأمن في الطريق والحرمين، وباب الكعبة مفتوح للحاج مدَّة مقامهم ليلاً ونهاراً»[٢]. نراه يقف ليحدِّثنا عن مكثه في منى يوم التروية، وتخلُّفه عن ركب الحجِّ الشامي المتوجِّه إلى عرفات، ليتمكَّن ـ وقد خفَّ الزِّحام ـ من رؤية الآثار بمنى والمزدلفة، فيقول: «وخرجت يوم التروية إلى منى، ولم أوافق الركبَ في التوجُّه إلى عرفات في ذلك اليوم، وبتُّ أنا ورفيقي الشهاب غازي الناسخ الفقير ليلة عرفة بمسجد الخَيْف بمنى، ثم أصبحنا، وتوجَّهنا حين طلعت الشمس إلى نحو عرفات، فمررنا على تلك الآثار بمنى والمزدلفة، وحدود الحرم وحدود عرفة، والمسجد الذي بعضه من أرض عُرَنة، وبعضه من أرض عَرَفة، ثم توجَّهنا إلى الموقف، شرَّفه الله تعالى»[٣].

وبينما كان أبو شامة في عرفات سمع من الحاج العراقي خبر وفاة الخليفة الناصر لدين الله في أواخر شهر رمضان، وولاية ابنه الظاهر من بعده[٤]. وكان قد مرَّ على وفاته شهران وعشرة أيام!

وبعد إفاضته من عرفات، ومبيته بمزدلفة، ورميه جمرة العقبة بمنى يدخل الحرم ليطوف طواف الإفاضة مع الطائفين، فيرى الكعبة المشرَّفة، وقد ألبست الكسوة السوداء التي يرسلها خليفة بغداد كل عام، وفي أعلاها الطراز الأبيض الذي يكتب فيه اسم الخليفة الذي نسجت في أيامه، ويقف أبو شامة ليقرأ ما كُتِبَ على هذا الطراز، فيجد اسم الناصر قد كتب في جانبين منه، وفي الجانبين الآخرين كتب

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٨٠.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣٧٨-٣٧٩.

(٣) «المذيل»: ١/ ٣٧٩.

(٤) المصدر السالف.

اسم الظاهر، فيقول: «فعلمت أنَّهم كانوا قد فرغوا من نسج الجانبين عند وفاة الناصر، ثم استأنفوا ما بقي باسم الظاهر»[١].

❁ ❁ ❁

وفي طريق عودته إلى دمشق يشتدُّ شوقه إلى صديقه الأثير عبد الغني، ويهمُّ بإنشاء رسالة تسبقه إليه، يعبِّر له فيها عن تباريح شوقه إليه، ويختار بيتين من شعره ليكونا فاتحة رسالته:

أنتَ الظَّهيرُ على المكارمِ كلِّها ... من رَدَّ ذلك فهوَ عينُ معانِدِ

عبدُ الغنيِّ ولستَ عبداً للغِنى ... بحرُ الفرائد حَبْرُ كلِّ فوائِدِ[٢]

ويردد أبو شامة هذين البيتين، بينما كانت القافلة تتابع طريقها نحو دمشق.



(١) «المذيل»: ١/ ٣٧٩.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٥.

صراع الإخوة
وتفكير أبي شامة في تدوين التاريخ

لم تدم الأُلفة التي جمعت بين الملوك الثلاثة: المعظم والأشرف والكامل في محنة دمياط، فما إن تمَّت هزيمة الصليبيين، واستراحت القلوب من عنائهم، حتى تسلَّل الحسد والخوف إليها، وبدأت تنتاب المعظم هواجس اتفاق أخويه عليه[١]. وربما أثارها بقاء الأشرف في مصر عند أخيه الكامل عقب النصر الكبير.

ولكي يحمي المعظّم نفسه، وقد شعر بضعفه لوقوع بلاده بينهما، الأشرف في البلاد الشرقية: حران وخلاط وميَّافارقين، والكامل في مصر، أرسل سراً إلى جلال الدين خوارزم شاه ملك المملكة الخوارزمية يتقوَّى به[٢]. وأرسل كذلك إلى أخيه شهاب الدين غازي ـ وكان الأشرف قد جعله ولي عهده حين سافر إلى مصر ـ يحثّه على عصيان الأشرف، فاستجاب له[٣].

ولمَّا علم الأشرف بدسائس المعظم عليه خرج من مصر، قاصداً بلاده بالشرق، وفي طريقه مرَّ على دمشق، فعرض عليه المعظم النزول بالقلعة، فامتنع

---

(١) «مرآة الزمان»: (حوادث سنة ٦١٨هـ) بتحقيقي.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣٤٩.

(٣) «المذيل»: ١/ ٣٥٤ـ٣٥٥.

الأشرف خوفاً منه، ونزل بجوسق أبيه العادل، وفي وقت السحر خرج من دمشق يطوي البلاد إلى حرَّان، دون أن يُعْلم المعظَّم برحيله، فبرِحَ الخفاء، واستعلن العداء، وبدت الوحشة بين الإخوة الأعداء(١).

وسارع خليفة بغداد في الصُّلح بين الإخوة، وبخاصة أنَّ سياسة المعظم بتحالفه مع جلال الدين تهدده(٢)، إذ كان جلال الدين يطمع بالاستيلاء على بغداد، وتنصيب نفسه سلطاناً عليها(٣)، وقد هاجم كثيراً من البلاد حولها، واستولى على دقوقا سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) وأوقع السيف في أهلها(٤)، ولولا رجوعه إلى تفليس لإعانة جيشه الذي يقاتل هناك لقصد بغداد(٥). غير أنَّ المعظم أصمَّ أذنيه عن هذه الوَساطة، متعللاً بأنَّ أخويه قد اتفقا عليه(٦).

ولشَغْل الأشرف عنه أرسل المعظّم إلى جلال الدين يحثّه على الاستيلاء على خِلاط ـ وهي من بلاد أخيه ـ حتى يستطيع أن يتفرَّغ للكامل إن قصده من مصر(٧).

وأثمرت سياسة المعظم هذه بتفكيك التحالف بين الأشرف والكامل، فحين حاصر جلال الدين خلاط شعر الأشرف أن لا خلاص له إلاَّ بتصالحه مع المعظم، فقدم دمشق، وتذلَّل له، وقال: نحن مماليكك، وما أنبت الشعر على رؤوسنا إلاَّ أنت. وسأله أن يطلب من جلال الدين الرحيل عن خلاط، فبعث المعظّم إليه، فرحل عنها، وكان قد أقام على حصارها أربعين يوماً(٨).

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٥٤.
(٢) «المذيل»: ١/ ٣٨٥.
(٣) «المذيل»: ١/ ٣٧٧.
(٤) المصدر السالف.
(٥) «المذيل»: ١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨.
(٦) «المذيل»: ١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦.
(٧) «المذيل»: ١/ ٣٨٦.
(٨) المصدر السالف.

وفزع الكامل لما جرى، وأحسَّ أنَّ المعظم بات حقاً يهدِّد مصر إن فكَّر بمهاجمتها مع حليفه جلال الدين، فلكي يشغل المعظم عنه أرسل إلى الإمبراطور فريدريك الثاني يطلب منه القدوم إلى عكا، ووعده أن يعطيه بيت المقدس، وبعض البلاد التي فتحها من قبل عمّه صلاح الدين[١].

وهكذا راح كل من الأخوين يستجلب الأعداء لأخيه، ويرى حياته بموت أخيه!...

❁ ❁ ❁

كان الإمبراطور فريدريك الثاني قد تزوّج من وريثة ما بقي من مملكة بيت المقدس سنة[٢] (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) مما جعل له الحق في إدارتها، فلما جاءته رسالة الكامل تجددت رغبته في أخذ القدس، ورآها فرصة سانحة لتحقيق ما كان يلوِّح به منذ زمن بعيد، وذلك بتجهيز حملة صليبية إلى الشرق يقودها بنفسه[٣]، فسارع إلى إرسال رسول إلى الكامل الذي رحَّب به ترحيباً كبيراً، وكان على رسوله أن يقابل المعظّم في دمشق، ويعرض عليه اتفاق الكامل مع الإمبراطور[٤]. فلما وصل إلى دمشق سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) أغلظ له المعظّم في الجواب، وقال له معرّضاً بأخيه الكامل: قل لصاحبك ما أنا مثل الغير، وماله عندي سوى السيف[٥].

وأخذ المعظّم يستعد للحرب القادمة، وخيَّمت أجواء الحزن والضيق على دمشق، وهي ترى عاقبة هذا الخلاف بين الإخوة الذي بات يهدِّد بضياع بيت المقدس من جديد.

---

(١) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) «الحملة الصليبية الخامسة»: ص٣٦٢.

(٣) «العلاقات السياسية»: ص٢٨٥ وما بعدها.

(٤) «العلاقات السياسية»: ص٢٦٨-٢٦٩.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٩٦.

وبينما كان أبو شامة منهمكاً في إنجاز شرح صغير مختصر لقصيدة الإمام الشاطبي في القراءات «حرز الأماني»[١] راح يتجرَّع غصص هذا الحزن والضيق مع مَنْ يتجرّعه من أهل دمشق، ويرى ذات ليلة في منامه كأنَّ عمر بن الخطاب ﷺ، فاتح القدس، قد أقبل إلى الشام منجداً لأهله على الفرنج، وأبو شامة يمشي إلى جانبه، ملاصقاً منكبه بمنكبه حتى كان الناس يسألونه عنه وعمَّا يريد أن يفعل، وكان أبو شامة يخبرهم عنه، فكأنَّه كان واسطة بينه وبين الناس[٢].

هل كان أبو شامة ـ وهو الرَّازح تحت الشعور بالعجز ـ يبحث عن دور له في كشف هذه الغمَّة؟

ربَّما تجلى له هذا الدور، وهو يرى في منامه كذلك ذات ليلة كأنَّ المسلمين في صلاة الجمعة في حرٍّ شديد، وأبو شامة خائف عليهم من العطش، ولا ماء، ثم ينظر إلى بئر ماء، وإلى جانبه حوض، فيخطر له أن يستقي من ذلك البئر، ويسكب في الحوض حتى يشرب منه الناس إذا انصرفوا من الصلاة، وكان شخص قبله لا يعرفه قد استقى دلواً أو دلوين، فيأخذ منه أبو شامة الدلو، فيستقي دلاء كثيرة لم يعرف عددها، ويسكب في الحوض[٣].

فهل كان من معاني هذا الدور أنَّه يريد أن يعلِّم الأمة الأخذ بأسباب الحياة؟

* * *

ويحرِّكه الشوق إلى القدس، وقد أثاره الخوف عليها، فيسافر إليها في رحلة جماعية في آخر شعبان سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) بصحبة الفقيه عزّ الدين بن عبد السلام، فيزور الأقصى والخليل، وما بتلك الديار من الآثار، ويقضي هناك أربعة عشر يوماً من رمضان، ثم يعود إلى دمشق[٤].

---

(١) «إبراز المعاني»: ١/ ٦٩.
(٢) «المذيل»: ١/ ١٣٩.
(٣) المصدر السالف.
(٤) «المذيل»: ١/ ٣٩٦ـ٣٩٧.

وتعاوده الأحلام من جديد، فيرى عقب عودته ذات ليلة في منامه كأنَّه والفقيه عزّ الدين بن عبد السلام داخل باب الرحمة بالبيت المقدس، وقد أرادا فتحه، وثَمَّ مَنْ يمنع من فتحه، ويدفعونه لينغلق، فما زالا يعالجان الباب حتى فتحا مصراعيه فتحاً تاماً بحيث أسندا كلَّ مصراع إلى الحائط الذي خلفه(١).

وتتضح معالم الخلاص لأبي شامة، فلا بدَّ للأمة كي تنهض من كبوتها من حاكم عادل كعمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ ومن عالِمٍ ناصح، يفتح للأمة باب الرحمة، ويأخذ بأيديها إلى أسباب الحياة.

ويصحو أبو شامة من أحلامه ليرى بؤس الواقع، فبينما كان المعظم يجهِّز عساكره إلى نابلس يسقط فجأة صريع المرض في منتصف شوال ـ ولعلّه سقي السم ـ ويعاني آلام المرض حتى يوم الجمعة الفاتح من ذي الحجة سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) حيث يموت في صباحه عن سبع وأربعين عاماً(٢)؛ والأمة أحوج ما تكون إلى قائد في هذه الأوقات العصيبة، وتبكي دمشق ملكَها، فهو على ما فيه قد تفرَّد من بين ملوك عصره بالجمع بين الجهاد، والاشتغال بأنواع العلوم. . . وكان عديم الالتفات إلى ما يرغب فيه الملوك من الأبَّهة والتعظيم(٣)، وهي صفات تغفر له ما عداها عند أبي شامة، ويتولّى من بعده ابنه الناصر داود، وهو في الحادية والعشرين من عمره(٤).

ويزداد بموت المعظم طمع الصليبيين بالبلاد، فيخرجون من عكا وصور وبيروت إلى مدينة صيدا ـ وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين، وسورها خراب ـ فيستولون عليها، ويعمرون سورها، ولم تجد صيدا من يدافع عنها؛ لأنَّ أسوار الحصون القريبة منها مثل تبنين وهونين مخربة كذلك(٥).

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٣٩.

(٢) «مرآة الزمان» (وفيات سنة ٦٢٤هـ)، و«المذيل»: ١/ ٢٨.

(٣) «المذيل»: ١/ ٣٩٨.

(٤) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢١٩.

(٥) «الكامل لابن الأثير»: ١٢/ ٤٧٧ـ٤٧٨.

وفي غمرة هذه الحوادث المتلاطمة يخطر في بال أبي شامة أن يدوِّن ما يجري في زمانه مما يعاينه(١)، فهو لا يملك إلاَّ الكلمة، فليدوّن ما يراه، مما يجري تحت سمعه وبصره، عساه بذلك أن يخدم الأمة بكتابة هذا التاريخ، كي تستفيد تجربة في قراءته. خطر في باله ذلك الخاطر، وراحت الأيام تؤجل الشروع فيه.

وتعاوده الأحلام، يستنجدها على هذا الخذلان الذي أصاب ملوك الأمة، فيرى فيما يرى النائم ليلة الثلاثاء تاسع صفر سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٨م) كأنَّ عمر بن الخطاب قد جاء للنصرة، وعليه برد يمان، ويقول لأبي شامة: سنأمر من ينادي بالرحيل إلى الساحل، ووعد بأن يستخلف على الشام إذا عاد رجلاً شريفاً شجاعاً(٢)، ويقصُّ أبو شامة رؤياه هذه على الناس، فيستبشرون بهذه الرؤيا(٣). فهل تحققت هذه الرؤيا حين بعث الكامل لابن أخيه الناصر منشور الولاية(٤)؟

كان الناس في دمشق في خوف عظيم من أن يأتيَ الصليبيون من الساحل، أو يأتي الكامل من مصر، وقد غدا بعد موت أبيه العادل كبير البيت الأيوبي، فلربما اطمأنوا بعض الاطمئنان حين أرسل منشور الولاية للناصر، وأقرّه على حكم مملكة دمشق.

ومن ثَمَّ تستعيد دمشق بعض عافيتها، ويغير جنودها على بلاد صور، ويعودون محمَّلين بالغنائم بعد أن أثخنوا في الصليبيين(٥).

أمَّا الكامل فقد كان يرمي من وراء ذلك إلى تطمين الناصر داود، ريثما يتضح له موقف الإمبراطور فريدريك الثاني، المتأهّب للقدوم إلى الشرق.

---

(١) «المذيل»: ١/ ٢٤.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٥.

(٣) المصدر السالف.

(٤) المصدر السالف.

(٥) المصدر السالف.

ولا شكَّ أنَّ الكامل وجد نفسه بعد موت المعظم في موقف صعب، وشعر بندم شديد على استقدام الإمبراطور، إذ لم يبقَ له حاجة إليه[١]، فخصمه العنيد الذي كان وراء استدعائه قد غاب، والإمبراطور القادم لاستلام بيت المقدس محروم من الكنيسة، ورسائل البابا إليه تحثّه على عدم تسليمه بيت المقدس كيلا يكتسب بذلك شرفاً ونصراً في حربه مع البابوية[٢]، وهو يخشى ـ إن لم يفِ للإمبراطور بما وعده ـ أن ينفتح له من جديد باب محاربة الصليبيين الذي لم يستطع إغلاقه إلاَّ من وقت قريب، فما عليه إن أرضى الصليبيين بمدينة القدس، وهي خراب، ثم إنَّه قادر على انتزاعها منهم متى شاء[٣].

وربَّما لم يخرج الكامل من حيرته وأفكاره إلاَّ عند اقتراب وصول الامبراطور إلى عكا، حينئذ غلَّب جانب اتفاقه مع الإمبراطور، وأرسل إلى الناصر داود متحرِّشاً به، طالباً منه تسليم قلعة الشوبك، وهو العارف بمنزلتها عنده، وأنَّها عزيزة عليه[٤]، ويأتيه جواب الناصر داود المتوقَّع، وهو رفض تسليمها إليه[٥]، فيتخذه الكامل ذريعة لمهاجمة الناصر، ويخرج من مصر بعساكره المتوافرة في شهر رمضان سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٨م)، ويصل إلى غزة، ويخيِّم بتلّ العجول، ويبعث ولاته إلى نابلس والقدس والخليل وغيرها من الأعمال التابعة للناصر داود، فينزعج الناصر لذلك[٦]، ويرسل إلى عمّه الأشرف موسى بن العادل، مستنصراً به[٧].

❁ ❁ ❁

(١) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ١٢٥.

(٢) «العلاقات السياسية»: ص٣٠١.

(٣) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٤٢.

(٤) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٢٦هـ).

(٥) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٢٥.

(٦) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٢٦ـ٢٢٧.

(٧) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٢٨.

وحانت أخيراً للأشرف الفرصة التي طالما انتظرها، فدمشق هي مطمع آماله ومهوى فؤاده، فسار إليها على عجل، وقد ازَّينت لقدومه، ودخل قلعتها مع الناصر داود في العشر الأخير من رمضان سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٨م) والناصر في غاية أفراحه![١]

ووصل الإمبراطور فريدريك الثاني بعد أيام إلى عكا عن طريق قبرص في يوم الخميس (٥) شوال سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٨م)[٢] ومعه نحو خمس مئة فارس بعد أن سبقته إليها قوات الحملة، مدركاً أنَّ ما استجدَّ من أحداث لم تعد في صالحه[٣]، وأنَّه لم يبقَ له غير سلاح المفاوضات والاستعطاف لتحقيق هدفه، واستلام بيت المقدس[٤].

وتنفيذاً لما عزم عليه الأشرف من الاستيلاء على دمشق، اقترح على الناصر داود أن يمضيَ في صحبته إلى نابلس ويقيم فيها، بينما يتابع هو طريقه إلى الكامل في غزة لإصلاح الأمر معه. فأجابه الناصر إلى ذلك، ورحلا معاً من دمشق[٥].

ولما وصل الأشرف إلى غزة خفَّ الكامل لاستقباله، وعاد به إلى معسكره بتل العجول[٦]، وهناك سرعان ما اتفقا على أخذ البلاد من الناصر داود، وأن تكون دمشق للأشرف، وقد انضمَّ إليهما من عسكر الناصر داود عمُّه الصالح إسماعيل بن

---

(١) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) «العلاقات السياسية»: ص٣٠١.

(٣) «الحملة الصليبية الخامسة»: ص٣٦٣ - ٣٦٤، «العلاقات السياسية»: ص٢٩٤.

(٤) «الحملة الصليبية الخامسة»: ص٣٦٤.

(٥) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٣٠.

(٦) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٣٠، وقد رجحت رواية ابن واصل هذه على رواية أبي شامة التي تقول: إنَّهما اجتمعا بالقدس، وهناك اتفقا على أخذ البلاد من الناصر، لأنَّ رواية ابن واصل متسقة مع الأحداث، ثم إنَّه لم يذكر أحد من المؤرخين أنَّ الكامل ذهب إلى القدس في تلك الفترة. انظر «المذيل»: ٢/ ٦.

العادل، وابنُ عمّه شهاب الدين محمود بن المغيث عمر بن العادل، وجاء مناصراً لهم كذلك المظفّر شهاب الدين غازي بن العادل[١].

وأُسقط في يد الناصر حين علم باجتماع أعمامه عليه، ووقوفهم ضده، وأنهم عازمون على القبض عليه، فانكفأ إلى دمشق، وأخذ يستعد للحصار القادم[٢].

❁ ❁ ❁

وكانت المفاوضات قد بدأت بين الكامل والإمبراطور فريدريك الثاني، وراحت الرسل تتردَّد بينهما، إلى أن اتفقا أخيراً بعد نحو ستة أشهر على أن يسلِّم الكامل بيت المقدس للإمبرطور دون قراه، وأن يبقى سوره خراباً، ويبقى الحرم الشريف من الصخرة المقدَّسة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين[٣]، ويتعهَّد الإمبراطور لقاء ذلك بمحالفة الكامل ضد أعدائه حتى لو كانوا من الصليبيين، وأن تعقد هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات[٤]، وأبرم هذا الاتفاق في يافا في (٢٢) ربيع الأول سنة (٦٢٦هـ/ ١٨شباط ١٢٢٩م)[٥].

وأرسل الكامل إلى القدس مَنْ نادى بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الصليبيين، وتعالى الصراخ والبكاء بين أهل القدس، وعَظُمَ ذلك على المسلمين، وأنكروا ما فعله الكامل واستشنعوه، إذ كان فتح هذا البلد الشريف، واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمِّه صلاح الدين.

وقد دافع الكامل عمَّا أقدم عليه بأنَّ الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنَّه إذا قضى غرضه، واستتبَّت الأمور له، يستطيع تطهيره من الفرنج

(١) «المذيل»: ٢/ ٦.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٤١ ـ ٢٤٢، و«الكامل»: ١٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٤) «الحملة الصليبية الخامسة»: ص٣٦٥.

(٥) «الحملة الصليبية الخامسة»: ص٣٦٤، «العلاقات السياسية»: ٣١٤.

وإخراجهم منه، وقال: إنَّا لم نسمح لهم إلاَّ بكنائس وآدر خراب... والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله[١].

ولم تُقنع كلماتُ الكامل هذه أحداً من خصومه، فما إن سمع المسلمون بتخلي الكامل عن القدس، ودخول الإمبراطور إليه حتى قامت القيامة في بلاد الإسلام، واشتدت العظائم، وأقيمت المآتم، وتوغَّرت قلوب أهل دمشق عليه، ووجد الناصر بذلك فرصة للتشنيع عليه، وتأليب القلوب ضده، فأشار على واعظ دمشق سبط ابن الجوزي أن يجلس في جامع دمشق، وأن يذكر ما جرى على بيت المقدس، فجلس بالجامع، وقد غصَّ بالناس، إذ لم يتخلَّف من أهل دمشق أحد، وحضر الناصر داود على باب مشهد علي، وتجاوبت قلوب الحاضرين، وهي تسمع ما يقوله سبط ابن الجوزي، بصوتٍ باكٍ حزين: انقطعت عن بيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، كم جرت على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفت، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت، أحسن الله عزاء المسلمين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تُسكَبُ العبرات، لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات:

أَعَـيْـنـيَ لا تَـرْقَـى مـن الـعَـبَـراتِ ... صِلِي بـالـبُـكـا الآصـالَ بـالـبُـكُـراتِ
على المسجدِ الأقصى الذي جلَّ قَدْرُهُ ... عـلـى مـوطـنِ الإخـبـاتِ والـصَّـلـواتِ
على منزلِ الأملاك والوحي والهُدَى ... عـلـى مـشـهـدِ الأبـدال والـبَـدَلاتِ
على سُلَّم المِعْراج والصَّخْرة التي ... أنافتْ بما في الأرض من صَخَرات
«مـدارِسُ آيـاتٍ خَـلَـتْ مـن تِـلاوةٍ ... ومنزلُ وَحْيٍ مُوحِشُ العَرَصاتِ»[٢]

وعلا ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم، وكان يوماً مشهوداً[٣].

---

(١) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٤٣ـ٢٤٤.

(٢) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٢٦هـ)، وانظر «كتاب الروضتين»: ٤/ ٣٣٥ـ٣٣٦.

(٣) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٤٥ـ٢٤٦.

حصار دمشق
وبداية تدوين أبي شامة للتاريخ

ويسارع الكامل في إرسال عساكره إلى دمشق، فينزلون قبليها وراء مسجد القدم، ويقطعون عنها أنهارها: باناس والقنوات، ثم يزيد وثورا، وينهبون بساتينها، ويخربون رباعها، ويحرقون بعض قصورها، وتتأذّى أشجارها بانقطاع الماء، ويخرج إليهم جيش دمشق مع أهلها، وتجري بينهم وقعات، فيقتل قوم ويجرح آخرون، ويُهدم كثير من الخانات التي كانت خارج السور، وبخاصة ما كان منها على أبواب دمشق(١).

كانت قلوب أهل دمشق مع الناصر داود، وسيوفهم معه، فكانوا يخرجون كل يوم مع عساكره، ويقاتلون أشدَّ القتال، وكان بعضهم يصعد على منارة دمشق، ليصف لأهلها ما يشاهده من المعارك(٢).

وكان أبو شامة يعيش وقائع هذا الحصار ـ وهو أول حصار يشهده ـ كسيرَ القلب، كاسفَ البال، أحقاً ما يراه؟ في القدس تغمد السيوف في وجه الصليبيين، وفي دمشق تشهر لتذبح أهلها! ولم تقوَ أحلامه هذه المرة أن تنتشله من وهدة هذا

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٠.

(٢) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٥٢ـ٢٥٣.

الخذلان المذل، فيعزم مع صديقه زين الدين أحمد بن يوسف الفرغاني على أن ينأيا بأنفسهما عن هذا الواقع المؤلم، ليجاورا في المدينة المنورة أو مكَّة المشرَّفة[١]، عساهما أن يجدا من الأمن والسكينة ما يفتقدانه هنا، فراحا ينتظران بصبر أشهر الحج، لينضما إلى قافلة الحجيج[٢]، ولكن يقطع عليهما انتظارهما سهم عائر ينطلق في القتال الدائر يوم الجمعة (٢٣) جمادى الأولى سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، فيصيب كتف صديقه زين الدين[٣].

كان زين الدين من فقراء الصُّوفية، ممَّن يسيح في البلاد، لا يأوي إلى عائلة، ولا يقيِّده همُّ الكسب، وكان قد حجَّ من العراق، فلمَّا قضى حجّه سافر إلى مصر، ثم أتى إلى دمشق سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م)، وكان شاباً رقيق القلب، مرهف الشعور، مولعاً بإنشاد الأشعار الرقيقة[٤].

وعلى الرغم من جرحه النازف وآلامه ما كان لينسى أن ينشد صديقه أبا شامة عشية يوم إصابته بيتين من الشعر جميلين كان قد سمعهما في بغداد من شيخه شهاب الدين السُّهْرَوَرْدي:

شربتُ الهوى والخمرَ صِرْفاً كلاهما فكان الهوى عندي أشدَّهما سُكْرا

أما والهوى لو ذقت طعماً من الهوى لما كنتَ من بعد الهوى تشرب الخمرا[٥]

ويصغي أبو شامة إلى كلمات صديقه الجريح بعيون دامعة، وربَّما تساءل: أين رقَّة هذا القلب من قسوة هذه الأيام؟

ويشتد القتال يوم السبت، ويتقدَّم عسكر الكامل إلى دور البلد من جوانبه،

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٤.

(٢) انقطع الحج من الشام في هذه السنة، والسنين التي تليها، انظر «المذيل»: ٢/ ١٨.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٤.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٥.

(٥) المصدر السالف.

ويدخلون الميدان الأخضر، وتدور رحى معركة عظيمة يُقتَل فيها ناسٌ كثير، ويُجرح فيها جَمٌّ غفير، ويُنهب قصر حجاج والشاغور، وتشتعل فيهما النيران، غير أنَّ عسكر الكامل يضطر إلى الانسحاب آخر النهار إلى خيامهم، وقد خلَّفوا وراءهم قتلى وجرحى من الفريقين، ويستمرُّ نزيف دمشق[١].

ويأبى أن يلتئم جرح القلب الرقيق، ويموت زين الدين يوم الاثنين (٢٦) جمادى الأولى[٢]، بعد يومين من إصابته، تاركاً صديقه أبا شامة يتجرَّع كأس الحزن والحصار.

* * *

كان أبو شامة يقضي نهاره أثناء هذا الحصار القاسي في تتبع وقائعه وأخباره، وما يجري خلاله من حوادث، يتلقَّفها مما يشاهده أو يسمع عنه، وفي لياليه الطويلة كان يجلس في غرفته في المدرسة العادلية الكبرى ـ حيث كان يسكن ـ يستعيد رواية تلك الوقائع مع الأصحاب والأصدقاء، وذات ليلة استبدت به رغبة شديدة في تسجيلها، فإذا به يستلّ ورقة من أوراقه، وعلى ضوء الشموع، يسجِّل فيها بخطِّه المتقن وقائع أول حصار يشهده:

الأحد تاسع جمادى الآخرة: وصل الكامل محمد إلى دمشق، ونزل بالقرب من مسجد القدم، وأمر بإجراء نهري يزيد وثورا لأجل سقي الأراضي، وخرج إليه ابن الفاضل أحمد بن عبد الرحيم بأمان منهما، ونفذ الناصر من جهته في آخر النهار جماعة من كبراء البلد من العلماء: خطيب الجامع جمال الدين الدولعي، وقاضي القضاة شمس الدين الخُوَيِّي، والقاضي شمس الدين ابن الشيرازي، وجمال الدين الحصيري شيخ الحنفية إلى الكامل نيابةً عنه في الخدمة والسلام، ثم عاودوا من الغد.

الثلاثاء الحادي عشر من جمادى الآخرة: خرج عزّ الدين أيبك أستاذ الدار إلى

(١) «المذيل»: ٢/ ١٠.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٤.

الكامل باستدعائه، وجرى الحديث في الصلح، وعاد ليلاً، ومضى وعاد مرات، وكان يأتي إليه عماد الدين بن شيخ الشيوخ، فلم ينتظم صلح في الظاهر.

السبت خامس عشر جمادى الآخرة: وقعت بينهم وقعة قبالة باب الحديد، وفي الميدان، وما بين ذلك، وكان النصر فيه لأهل البلد.

الأحد سادس عشر جمادى الآخرة: وقع الحريق والنهب من ناحية باب توما، وأحرقت الطاحونة الأحد عشرية والحرشنية، والتي في مرج الشيخ، وطاحونة الأُشنان، أحرق بعضها ثم أطفئ، ونهبت الدور حول ذلك، ووقع الجرح والقتل.

وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة: خرَّبوا قريات من قرى الغوطة، وأخرجوا منها أهلها، منها: جوبر، وجديا، وزملكا، ثم خربت سقبا وغيرها، والأسعار كلَّما مرت تغلو، والخوف حول البلد، وقد انقطع عنه الجلب، وبلغت أوقية الأشنان تسعة أفلس ـ وحكى لي والدي أنَّ شخصاً اشترى أوقية الأشنان بأربعة عشر فلساً ـ وبلغت أوقية الجبن نصف درهم، ورطل اللحم ستة دراهم، وأمَّا الخبز فكان ـ بحمد الله ـ موجوداً كثيراً، وكان أطيب شيء فيه وهو المثلث يباع رطله بثلاثة عشر قرطاساً، وسمعت والدي وجماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدِّمة في دولة أولاد صلاح الدين يحكون أنَّهم ما رأوا أشدَّ من هذا الحصار.

ثم إنَّهم زحفوا من ناحية الميادين مراراً، والكرّة عليهم، واتخذوا مسجد خاتون ومسجد الشيخ إسماعيل وخانقاه الطاحون والجوسق الذي في آخر الميدان الأخضر حصوناً وظهراً لهم.

أوائل رجب: وأحرق الناصر لأجل ذلك مدرسة أسد الدين وخانقاه خاتون وما يليها من الخانات والدور، وبستان ابن يُمْن، والحمام، وخربت خانقاه الطواويس.

الأحد تاسع رجب: زحفوا آخر النهار إلى أن وصلوا إلى محاذاة الباب الحديد.

ليلة الأربعاء رابع عشر رجب: خرج الناصر إلى الكامل، واجتمع به، ثم اجتمعا مرات حتى تقرَّر الصلح بينهما على أن يبقى له مما كان في يده: الكرك، وثلثا نابلس، وقرايا من الغور والبلقاء.

ليلة السبت خامس عشر رجب: رأى شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي ليلة السبت كأنَّ قائلاً يقول له: بعد شهر تكون دمشق كأنَّها جنَّة الخلد.

الاثنين مستهل شعبان: دخل عسكر الكامل دمشق.

الجمعة ثاني عشر شعبان: رحل الناصر من دمشق إلى بلاده التي بقيت عليه.

الأحد ليلة الخامس عشر من شعبان: كان الناس فيها في أطيب عيش، لأنَّ الصلح انتظم أول شعبان، وما زال البلاد والناس في ترق من زوال الشعث وكثرة الخيرات، ولهم في ليلة نصف شعبان موسم معلوم، يحتفلون فيه، ويكثر الوقيد في المساجد، لكن عادتهم كل سنة تكثر الزحمة والضراب والنهب والعياط، ولم يكن في هذا النصف مثل ما كنَّا نعرف في غيره، بل كان الناس في سكون مع قلّة زحمة، وهم في سرور الصلح والرخص. فقلت: هذه الجنة التي أشار إليها المنام.

الثلاثاء سادس عشر شعبان: دخل الكامل وإخوته دمشق، فزار قبر والده، ثم خرج إلى مقامه بجوسق العادل.

الخميس ثامن عشر شعبان: دخل الكامل والأشرف القلعة.

أواخر شعبان: تسلَّم الأشرف دمشق، وأعطى الكامل عوضها جملة من بلاد الشرق، منها: حران والرها، ورأس عين، والرقة، والموزَّر.

تاسع رمضان: رحل الكامل صوب الشرق[1].

❁ ❁ ❁

كان الحصار قد طال على دمشق، وكثرت الجراح فيها، وسيف العطش مُصْلَتٌ

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٠-١٣.

عليها، وقد أقبل الصيف بحرارته اللاهبة، وانشغل الناس عن ثماره الناضجة، فذوت الفواكه على أغصانها، وارتفعت الأسعار.

ونفدت خزائن الناصر دفاعاً عنها، حتى إنَّه اضطر إلى ضرب ما عنده من الأواني الفضية والذهبية دراهم ودنانير، وأنفقها، حتى أتى على أكثر ما عنده من الذخائر[١]. فرأى أنَّ الإذعان للصلح قد يبقي عليه بعض بلاده، فخرج إلى الكامل، واجتمعا مرات حتى انتظم الصلح بينهما على أن يبقى له مما كان في يده: الكرك، وثلثا نابلس، وقرايا من الغور والبلقاء[٢]، وكم بكى بين يدي الكامل على قلعة الشوبك، أعزّ مكان إلى قلبه لحصانتها، متوسّلاً إليه أن يبقيها عليه، غير أنَّ الكامل أصمَّ أذنيه، قائلاً له: أنا ما لي حصن يحمي رأسي، وَهَبْ أنك وهبتني إياه. فسكت الناصر سكوت العاجز[٣].

وفي يوم الاثنين أول شعبان فتحت دمشق أبوابها، ودخلها عسكر الكامل حتى غصّت بهم، ووقف الدمشقيون ينظرون بعيونهم الدامعة إلى أعداء الأمس، وهم ينتشرون في سكك مدينتهم وأسواقها ودروبها، وقلوبهم تتقطّع حسرات من الحزن، ويغلب البكاء بعضهم فيعلو عويله، حتى لكأنَّه قد فُجِعَ بموت ولد أو أب[٤].

ويرحل ملكهم المحبوب الناصر داود من دمشق يوم الجمعة ثاني عشر شعبان، وهو يتعثَّر بأذيال الهزيمة[٥]، وتخضع دمشق للأشرف بعد أن أعطى أخاه الكامل عوضها جملة من بلاد الشرق[٦]، وبعد سنين حين يبني الأشرف قصره بالنيرب

---

(١) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٢.

(٣) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٢٦هـ) بتحقيقي.

(٤) «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٥٧.

(٥) «المذيل»: ٢/ ١٢.

(٦) «المذيل»: ٢/ ١٣.

المعروف بالدهشة، وصُفَّة بقراط، اللذين يسلبا عقل من يراهما لجمالهما، وحسنهما، يقول: إني بعت ممالك الشرق كلها بهذين الموضعين، إذ ليس ثمرة الملك إلا الاستمتاع بالملاذ والراحات[١].

وربَّما تعزى أبو شامة بعض العزاء ـ وهو يغالب حزنه ـ بلقاء شيخين جليلين، أولهما القاضي بهاء الدين بن شداد، كاتب سيرة صلاح الدين «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وكان قد قدم من حلب، وفي صحبته أكابرها وعدولها لعقد النكاح بين العزيز بن الظاهر غازي بن صلاح الدين وبين ابنة الكامل فاطمة خاتون، وكان أبوه الظاهر قد خطبها له قبيل وفاته سنة (٦١٣هـ/ ١٢١٦م)، وقد تمَّ العقد في سحر يوم الأحد سادس عشر رجب في مسجد خاتون على صداق مبلغه خمسون ألف دينار[٢]، فيلتقيه أبو شامة حين يدخل دمشق مع الداخلين، فيجيزه ابن شداد بجميع ما يرويه[٣].

وممن دخل دمشق كذلك الإمام الشيخ الزاهد الورع، رشيد الدين عبد العزيز بن أبي محمد بن أبي الطاهر، المعروف بابن عوف، من ذرية الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف، ومفتي الإسكندرية في مذهب مالك بن أنس، فيجتمع به أبو شامة في المدرسة العادلية يوم الأربعاء (١٠) شعبان مع شيخه أبي عمرو بن الحاجب[٤].

❁ ❁ ❁

وتلملم دمشق أحزانها، فتبني ما تهدَّم من حاراتها، وتصلح ما تشعّث من بيوتها، واحترق من طواحينها ومدارسها، وتدفن قتلاها، وتداوي جرحاها، وتحاول في كبرياء قبول حاكمها الجديد، وقد فرضه السيف عليها.

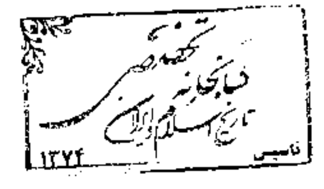
---

(١) «مفرج الكروب»: ٥/ ١٤٤.

(٢) «مفرج الكروب» ٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٣٢.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٤.



وبينما كان أبو شامة يلملم جراحه كذلك، إذا بالموت يخطف أقرب أصدقائه إلى قلبه وأحبِّهم إليه، ظهير الدين عبد الغني بن حسان المصري، الذي كان أنيسه في وحشة تلك الأيام، فتعصر قلبه مرارة اللوعة وفاجعة الفراق، فيبكيه بكلمات حزينة قائلاً: «لم يكن لي صاحب أخصّ منه، كنتُ آنسُ به وبحديثه، وفي أضيق ما أكون من الهمِّ أجتمع به، فيزول عنِّي، رحمه الله»[1].

ومَنْ لهمِّه الآن؟ ويتلفَّت حوله فلا يرى إلاَّ ما تركه الحصار من دمار في القلوب والبيوت، ومن ظلمة الحزن تشعُّ في قلبه فكرة، لِمَ لا يبثّ أوراقه ما يجده ويكابده في حياته بعد فقده أصدقاءه وشيوخه؟ ألم تغيبهم القبور واحداً بعد الآخر، فَلِمَ لا ينتشلُ معانيهم الجميلة وصفاتهم الحميدة من حفرة النسيان والعدم، ليبقيهم معه أحياء على الورق؟ أما آن له أن يدوِّن تاريخه الذي فكَّر فيه منذ زمن؟

ويكبُّ على أوراقه ليكتب فيها أول مؤلفاته التاريخية، وهو في السابعة والعشرين من عمره، تاريخ هو أقرب إلى الذكريات، ومن ثَمَّ لم يعنِّ نفسه في البحث له عن عنوان، وبنفسٍ تفيض بالحزن والأسى، يخطّ مقدِّمته، وكأنَّها مرثية من المراثي: «الحمد لله الذي بإرادته تتغيَّر الأحوال، وعلى وفق مشيئته تتصرّف الأفعال، الذي انفرد بالبقاء، وكتب على غيره الزوال، وجعل الدنيا متنقلة لا تدوم على حال، وقضى على أهلها بالإدبار والإقبال، فكم ممَّن يؤمّل الآمال فتخترمه دونها الآجال، وكم ممن يفجأه النَّوال، ولم يكن يخطر له ببال، فالحمد لله الكبير المتعال، ذي المعارج والطول، والإكرام والإجلال، وصلى الله على نبيه ورسوله، وصفيِّه وخيرته من خلقه، وخليله المفضال، سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، خير صحب وآل، وبعد:

فإنَّه عنَّ لي بمشيئة الله تعالى أن أؤرِّخ في زماني مما عاينته، وبلغني مما استثبتّه، لأنَّ في ذكر التواريخ معتبراً، وفيها عن الغرور بالدنيا مزدجراً، لا سيّما إذا

(١) «المذيل»: ٢/ ١٥، وقد توفي في (١٠) شوال سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م).

ذكر من مات في كلِّ سنة من المعارف والإخوان، والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان، فإنَّ ذلك مما يزهّد ذوي البصائر في الدنيا، ويرغِّبهم في الحياة العليا، والاستعداد لما هم ملاقوه، والإقلاع عمَّا هم عن قليل مفارقوه.

وكان مما حداني إلى ذلك كثرة مَن يموت من المعارف، فأردت إثباتهم لعلَّ بمطالعتهم أجد قلباً على الإقبال على الآخرة يساعف.

وبدأت بالتاريخ من موت السلطان عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي، الملقَّب بالملك المعظّم، صاحب دمشق وأعمالها، والبيت المقدس وأعماله بعد أبيه العادل، لأنَّ بعده جرت أمور شاهدتها، وأحوال عرفتها، وهو الوقت الذي خطر لي فيه تدوين التاريخ، وأذكر من قبل هذا ما أنا مستحضر له»[١].

ويفتتح تاريخه بعد هذه المقدمة الحزينة بأهم ما وقع في سنة (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) إذ فُجِعَ الناس فيها بوفاة إمامين كبيرين، شيخي مذهبيهما، أحدهما شيخ الشافعية في وقته علماً وعملاً أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن، المعروف بفخر الدين ابن عساكر[٢] والثاني شيخ الحنابلة موفق الدين، أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، المقدسي، من علماء المسلمين وعُبَّادهم[٣].

ثم يوجز ما جرى بعدهما من الحوادث مرتَّبة على السنين، حتى آخر سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م)[٤] حيث يطلق بعدها لقلمه العنان في وصف ما شاهده من وقائع وأحداث[٥].



(١) «المذيل»: ١/٢٣ـ٢٤، وانظر مقدمتي لتحقيقه ص ٩ ـ ١٢.

(٢) «المذيل»: ١/٢٤ـ٢٦.

(٣) «المذيل»: ١/٢٦.

(٤) «المذيل»: ١/٢٦ ـ ٢٩.

(٥) انظر «المذيل»: ٢/٥، وما بعدها.

رحلته إلى مِصْر

وكان التاريخ قد ملك عليه عقله وقلبه، فهو منذ أن بدأ اهتمامه به، انكبَّ على كتبه يطالعها، وعلى حوادثه وأخباره يدوِّنها، جامعاً شواردها من أفواه شيوخه، ومما يطلع عليه من كتاب وقف أو محضر اجتماع، أو قصيدة شاعر، أو مراسلات سلطان، حتى استطاع في مدة وجيزة أن يقف على جملة من أحوال المتقدمين والمتأخرين من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والخلفاء والسلاطين، والفقهاء والمحدِّثين، والأولياء والصالحين، والشعراء والنحويين، وأصناف الخلق الباقين[1].

وتاقت نفسه لمعرفة المزيد، فتشوَّف إلى زيارة مصر، موطن شيوخه، وموئل علمهم: علم الدين السخاوي، وتقي الدين خزعل، وأبي عمرو بن الحاجب، وموطن صديقه الحبيب ظهير الدين عبد الغني، ولطالما حدَّثوه عنها، وأفاضوا في أخبارها.

ويغادر دمشق مع القافلة المتجهة إلى مصر في آخر شهر ربيع الآخر سنة[2] (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)، وبدل أن يؤمّ القاهرة يتابع طريقه إلى دمياط، فتكون أولى محطاته، فيصل إليها في يومٍ من أيام جمادى الأولى، ويقيم فيها نحو شهر[3].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٣.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٢٣.

(٣) المصدر السالف.

كانت دمياط في ذاكرته وقلبه منذ حاصرها الصليبيون سنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) يومها راح يتتبع أخبار حصارها الآثم، وصمودها الرائع، ثم سقوطها المفجع تحت سنابك خيل الصليبيين في (٢٥) شعبان سنة (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) وما يزال يذكر ألم شيخه السخاوي، وهو يصف له برجها العظيم، برج السلسلة[١].

ها هو الآن في دمياط، وقد تطهّرت من دنس الصليبيين سنة (٦١٨هـ/ ١٢٢١م)، وها هو الآن يقف أمام برجها العظيم، قفل مصر، فيراه كما وصفه شيخه حقاً.

ويزور فيمن يزور شيخ دمياط أبا الحسن بن قُفْل، وهو ممن عاش محنتها، فإذا هو شيخ كبير، كان يحكي لكلٍّ من يزوره ما فعل الصليبيون بدمياط وقت استيلائهم عليها، كان أهلها قد فتحوا لهم أبوابها بعد أن عجز سلطانهم الكامل عن نصرتهم، مغترين بما بذل لهم الصليبيون من الأمان، حتى إذا رفعوا أعلامهم على سورها، غدروا بأهلها، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً، وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء، وأخذوا منبر جامعها، وكان من الأبنوس، والمصاحف، ورؤوس القتلى، وبعثوا بها إلى بلادهم آية على انتصارهم، وحوَّلوا جامعها كنيسة[٢].

كان الشيخ يحكي، وأبو شامة يصغي، ودمياط تحاول لملمة أحزانها وجراحها وقد مضى على محنتها نحو عشر سنين.

❁ ❁ ❁

وينتقل أبو شامة في جمادى الآخرة إلى القاهرة، ويقيم فيها نحو خمسة أشهر[٣]، ولعلَّ أول مَنْ زار فيها قبر الإمام العالم الزاهد أبي القاسم الشاطبي في القرافة بتربة سارية[٤]، وما تزال في سمعه أحاديث شيخه السخاوي ـ وكان من

---

(١) انظر ص٣٢ من هذا الكتاب.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣١٥.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٢٣.

(٤) «المذيل»: ١/ ٦٠.

أجل أصحابه ـ عن زهده وورعه وعلمه، وقد كانت قصيدته في القراءات «حرز الأماني» من أوائل ما حفظ بعد كتاب الله[١]، هذه القصيدة التي نبغت في آخر الدهر أعجوبة لأهل العصر، وكل عصر، فنبذ الناس سواها من مصنَّفات القراءات، وأقبلوا عليها لما حوت من ضبط المشكلات وتقييد المهملات، مع صغر الحجم وكثرة العلم، وكان شيخه السخاوي هو الذي شهرها بين الناس، وبيَّن معانيها، وكم قرأ هذه القصيدة بين يدي شيخه، وكم سمعها منه، وفي كلِّ مرَّة كان ينفتح له من فوائدها باب، ومن معانيها ما لم يكن في حساب، وقد اختصَّه شيخه فيها بمعاني لم يودعها كتابه حين شرحها، ولم يعرفها أصحابه[٢].

ويجد عند أصحاب الشاطبي، ومَنْ قرأ عليه من الإعجاب به مثلما كان يجد عند شيخه السخاوي، فيقول:

رأيت جماعة فضلاء فازوا ... برؤية شيخ مصر الشاطبيّ
وكلّهم يعظمه ويثني ... كتعظيم الصحابة للنبيّ[٣]

ومن هؤلاء الأصحاب ـ الذين التقاهم أبو شامة ـ الشيخ أبو الطاهر محمد بن الحسين بن عبد الرحمن الجابري، من ولد الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه.

وكان الجابري يخطب في جامع عمرو بن العاص[٤]، فكان أبو شامة ـ وقد أعجب بتدينه ـ يجتمع به كلما سنح له الوقت، ولربَّما طلب الجابري من أبي شامة، وقد عرف منزلته في العلم أن يقرئ في الجامع شيئاً من علوم العربية، فكان ممن

---

(١) انظر ص ٢٤ من هذا الكتاب.

(٢) «إبراز المعاني من حرز الأماني»: ١/ ١٠٧.

(٣) «غاية النهاية»: ٢/ ٢١.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٣٥ـ٣٦.

قرأ عليه عزّ الدين أيبك المحيوي[١]، غلام الوزير محيي الدين ابن ندى الجزري[٢].

وفي القاهرة يلتقي مرة أخرى إماماً من أئمةِ القراءات هو محمد بن عمر بن يوسف القرطبي[٣]، وكان قد التقاه في المدينة المنورة في حجته الأولى سنة[٤] (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م). ويجتمع مرة أخرى كذلك بالقاضي ابن شداد، وكان قد التقاه بدمشق سنة[٥] (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، وكان ابن شداد قد قدم القاهرة من حلب لإحضار ابنة الكامل فاطمة خاتون زوجة العزيز بن الظاهر، فيجلس عند قبر

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٧٥.

(٢) الوزير محيي الدين محمد بن شمس الدين محمد بن سعيد بن ندى الجزري، وزر لصاحب جزيرة ابن عمر بعد والده شمس الدين محمد، وذلك سنة (٦١٠هـ/ ١٢١٣م) وكان الكامل محمد بن العادل قد التقاه، وهو في طريقه إلى حرّان بعد استيلائه على دمشق سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، فأعجب به لما رأى فيه من معرفة وفضل وفهم في الأمور السياسية، فاستأذن صاحب الجزيرة فيه، وأقدمه معه إلى القاهرة، وضمَّه إلى حاشيته ومستشاريه، ولربَّما التقاه أبو شامة في رحلته هذه.
ثم بعد وفاة الكامل سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) أقام الوزير بدمشق، وكان قد ألَّف كتباً في السياسة، منها: «لطائف الوزارات»، وكتاب «معالم التدبير»، وكتاب «مراشد الملك»، وكتاب «ضوابط الملك»، وكتاب «وظائف الرياسة»، وكتاب «التذكرة الملوكية»، وكانت وفاته في دمشق سنة (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) وقد ذكر مَنْ ترجم له أنَّ أبا شامة كان من روّاد مجلسه. انظر ترجمته في «الوافي بالوفيات»: ١/ ١٧٣.
والعجيب حقاً أنَّ أبا شامة يسكت عن هذه العلاقة، بل إنَّه لا يترجم له في «مذيله» في سنة وفاته، وهو الذي أخذ على نفسه فيه أن يترجم للمعارف والأصدقاء، وليس فيه إلاّ هذه الإشارة العابرة التي ذكرها في ترجمة عزّ الدين أيبك المحيوي من أنَّه عتيق محيي الدين بن المدرس، وزير الجزيرة، انظر «المذيل»: ٢/ ١٧٥.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٢٩-٣٠.

(٤) انظر ص ٥٤ من هذا الكتاب.

(٥) انظر ص ٨١ من هذا الكتاب.

الشافعي، وهناك يسمع عليه أبو شامة دروساً في الحديث النبوي الشريف[١].

ويحضر دروس الزين النحوي يحيى بن معطي، وكان آية في حفظ كلام النحويين[٢].

ويزور في دار الحديث الكاملية بين القصرين الشيخ الحافظ أبا الخطاب ابن دحية، وكان يدرس بها، ويأخذ منه إجازة[٣].

وقد حضر عنده ذات يوم، وهو يُقرأ عليه «صحيح مسلم»، وكان قد وصل فيه إلى حديث أنس بن مالك[٤] ﷺ أنَّ نبيّ الله ﷺ ومعاذ بن جبل رديفه على الرحل، قال: يا معاذ. قال: لبيك رسول الله وسعديك، قال: يا معاذ. قال: لبيك رسول الله وسعديك. قال: يا معاذ. قال: لبيك رسول الله وسعديك، قال: ما من عبد يشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله إلاَّ حرّمه الله على النار. قال: يا رسول الله، أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: إذاً يتّكِلوا. فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً[٥].

وكان أبو شامة يستشكل هذا الحديث، ويقول: أي إثم كان يلحقه لو لم يخبر به حتى تجنَّب الإثم بإخباره، غايته أن يقال: جاءت آثار وأخبار تقتضي الأمر بالتبليغ والنهي عن الكتمان نحو ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾، «بلِّغوا عنِّي ولو آية»، «نضَّر الله امرءاً» ونحو ذلك، إلاَّ أنَّ هذه الأشياء غايتها أن تكون عامّة في جميع ما سُمع من النبي ﷺ حتى تتناول محلّ النزاع، وفي محلّ النزاع دليلٌ يخصّه يقتضي منع الإعلام، والخاص مقدَّم على العام[٦].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٣٢، و«وفيات الأعيان»: ٧/ ٩٩، ومن هذه الأحاديث التي رواها نسخة في مكتبة بودليان بأكسفورد، انظر مقدمة «النوادر السلطانية» ص(٨).

(٢) «المذيل»: ٢/ ٢٣.

(٣) «المذيل»: ١/ ٣٧٣، ٢/ ٣٥.

(٤) «شرح الحديث المقتفى»: ص١٠١.

(٥) «صحيح مسلم»: ١/ ٦١ رقم (٥٣).

(٦) «شرح الحديث المقتفى»: ص١٠١.

ووجدها أبو شامة فرصة حين سمع الحديث، فأورد على الشيخ أبي الخطاب هذا الإشكال، فما كان من أبي الخطاب إلاَّ أن صاح، وقال: هذا جدل، والتفت إلى أبي شامة بعضُ أصحاب الشيخ، مشيرين إليه أن يسكت، فسكت(١).

وكان مما سمعه أبو شامة من أبي الخطاب كتاب ألَّفه في «أداء ما وجب من بيان وضع الوضاعين في رجب»(٢).

ويغتنم أبو شامة وجوده في القاهرة، فيزور دار الوزارة، ويطَّلع على بعض ما فيها من وثائق ومراسلات، وينسخها، ومما اطلع عليه توقيع كُتِبَ في ذي القعدة سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٧م) عن خليفة مصر يومئذ الحافظ لدين الله، وعليه علامته: الحمد لله ربّ العالمين(٣).

واطلع على كتب وزير مصر الأفضل عباس بن أبي الفتوح، ورأى علامته في الكتب: الحمد لله وبه أثق(٤). ووقف على نسخة سجل بإسقاط المكوس بمصر قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد العصر ثالث صفر سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) عن السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في أيام نور الدين(٥)، ووقف على كتب بخط صلاح الدين(٦)، والقاضي الفاضل(٧).

ويزور قلعة الجبل، ويلتقي فيها الأمير أبا الفتوح بن العاضد، وهو ابن آخر

---

(١) «شرح الحديث المقتفى»: ص١٠١.
ثم لاح من بعد لأبي شامة الجواب، وهو أن ليس في الحديث صريح نهي، وإنَّما فيه احتمال، فتردَّد معاذ في ذلك، ثم ترجَّح عنده بأَخَرَةٍ أنَّه لا نهي فيه، فأخبر به. انظر «شرح الحديث المقتفى»: ص ١٠١-١٠٢.

(٢) «الباعث على إنكار البدع و الحوادث»: ص ١٢٦، ١٦٧.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٧٩.

(٤) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣١٤.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٣٢.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢٣-٢٤.

(٧) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٨٥، ٢/ ١٩٥.

الخلفاء الفاطميين، وهو محبوس فيها، يرسف في أغلاله، ويسأله أبو شامة عن بعض الوقائع التي عاصرها، فكان مما أخبره به أنَّ أباه العاضد استدعى صلاح الدين في مرضه، فأوصاه بنا، فالتزم إكرامنا واحترامنا[١].

وكان صلاح الدين بعد موت العاضد سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) قد أقام أبناء الفاطميين في إيوان القصر، واحترز عليهم في ذلك المكان، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا، فيكثروا[٢].

ثم أُخرجوا من القصر سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) بعد صلب عمارة اليمني، وكان قد حاول قلب دولة صلاح الدين، وإرجاع الفاطميين[٣].

ومما أخبره به أبو الفتوح أنَّ صلاح الدين جعلهم في دار برجوان، في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، وكان عيشهم فيها طيباً، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها، وأُبعدوا عنها[٤].

وكان أبو شامة يدوِّن بشغف كلّ ما يسمعه، وحين شعر أنَّ كل ما أحبَّ أن يحصل عليه قد جمعه عزم على الخروج إلى الإسكندرية، ولكن قبل أن يغادر القاهرة توفي في مستهلّ ذي الحجة سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) شيخه زين الدين النحوي، فحضر الصلاة عليه تحت القلعة، وكان ممن حضر السلطان الكامل، ثم ودَّع أبو شامة شيخه، وهو يُدفن بالقرافة، وودَّع القاهرة[٥].

❁ ❁ ❁

ويصل إلى الإسكندرية في ذي الحجة، ويقيم فيها نحو أربعة أشهر[٦]، ولعلَّ

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٩٢.
(٢) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٩٣.
(٣) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٨٩.
(٤) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٩٢.
(٥) «المذيل»: ٢/ ٢٣.
(٦) المصدر السالف.

أول من زار فيها قبر حافظها الكبير أبي طاهر السِّلَفي، داخل الباب الأخضر[١]، فقد كانت منزلته عنده كمنزلة الشاطبي في القاهرة، ويسعى إلى لقاء أصحابه، فيلتقي منهم في جامعها المقرئ المحدث أبا الفضل جعفر بن علي بن أبي البركات بن جعفر بن يحيى الهَمْداني[٢]، ويلتقي مقرئ الإسكندرية الشيخ عيسى بن عبد العزيز بن عيسى بن عبد الواحد الإسكندراني، وكانت له مسموعات كثيرة على الحافظ السِّلفي، وهو من كبار القراء، فيجيزه بجميع ما يرويه[٣].

غير أنَّ الزيارة التي تركت في نفسه أثراً لا يمحى هي زيارته إلى زاهد الإسكندرية الشيخ محمد بن منصور بن يحيى القَباري مع جماعة من الفضلاء، كان للشيخ محمد بستان يفلحه ويزرعه بنفسه، ويأكل من ثماره وزرعه، ويتورّع في تحصيل بذره، حتى إنَّه كان إذا رأى ثمرة ساقطة تحت أشجاره، ولا يشاهد سقوطها، يتورَّع من أكلها، خوفاً من أن تكون من شجرة غيره، قد حملها طائر، فسقطت منه في بستانه.

حين زاره أبو شامة كان الشيخ محمد في الواحدة والأربعين من عمره، وقد وافقه يسقي بستانه في جِرار ماء من الخليج على حمارٍ له، وكان الماء في الخليج قليلاً، قال أبو شامة: «فأجلسنا إلى أن تمَّ عمله، ثم قدّم لنا من ثمر غيطه، وكذا كانت عادته مع كل مَنْ يزوره من الملوك وغيرهم»[٤].

وستبقى صورة هذا الشيخ المترفِّع عن الدنيا وحطامها، الزاهد بما في أيدي الناس، القانع بما تخرجه أرضه من ثمار، في ذاكرة أبي شامة، وسيكون له تأثير عليه في القادم من أيامه[٥].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٥٤.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٤٦-٤٧.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٢٥، وانظر ترجمته في «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٢٠٦-١٢١٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٣١٥.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٩٨-١٩٩.

(٥) انظر ص ١٩٠ من هذا الكتاب.

العودة إلى دمشق
وتلمذته على تاريخ دمشق لابن عساكر

ويعود أبو شامة إلى دمشق في سابع ربيع الآخر سنة[1] (٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م) بعد غيبة عنها دامت نحو سنة، وقد ازداد معرفةً وفهماً، وثقةً بما حصّله من العلوم تمكّنه من الانصراف للتأليف فيها[2]، فعلم القراءات قد أتقنه، والتقى أئمته، وأخذ عنهم، وفي الفقه بلغ منزلة تؤهّله للتصدي للفتوى، وثمّة مسائل فيه يودّ لو يفرد لها تصنيفاً، أمّا في التاريخ فما تجمّع لديه من أخباره ووقائعه، وتراجم رجالاته تملأ مجلّدات. فكيف سينظم هذه المعلومات المتناثرة، ويضمّ شواردها؟ كيف سيخرج منها مؤلّفاً في التاريخ يسلكه في عداد المؤرّخين؟ لقد رجع حقاً بعد سفره إلى تدوين وقائع عصره في تاريخه الذي هو أشبه باليوميات، غير أنَّ هذه الكتابة لا تستنفد ما عنده من معارف، ولا تلبّي طموحَه في أن يكون مؤرِّخاً، وهنا خطرت في باله فكرة، راح يقلِّبُها في ذهنه أياماً وليالي، لم لا يتخرج في التاريخ بأكبر مؤرِّخي دمشق الحافظ ابن عساكر؟ ألم يتلق سائر علومه عن كبار شيوخها، فَلِمَ لا يكون تلميذاً لهذا المؤرِّخ الكبير؟ ولئن فاته زمنه عن إدراكه إنَّ كتابه بين يديه،

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٢٤.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٣٨.

وهو أكبر كتاب وضع في هذا الفنّ على طريقة المحدِّثين، هذه الطريقة التي يأنس إليها، وقد غدا كتابه بحق تاريخ الإسلام، فلم لا يلخِّصه، ويهذِّبه، ويزيده فوائد مما تجمع لديه؟ فمن خلال عمله هذا سيطلع على تاريخ الإسلام اطلاعاً شاملاً، وسينقاد قلمه للكتابة فيه.

وحين استوت لديه هذه الفكرة انقطع إليها، وراح يقضي سحابة نهاره في المدرسة العادلية الكبرى مع «تاريخ دمشق» في مجلَّداته الثمانين، قارئاً وملخِّصاً، ومؤلِّفاً في آن(١).

ولعلَّه عُيِّن في نحو هذه الفترة إماماً للصلاة في محراب العادلية(٢).

وأحياناً كان يختلس بعض ساعاته يقضيها في ملازمة شيوخه، ومنهم تقي الدين ابن الصلاح، الذي تصدَّر في منتصف شعبان سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) للتدريس في مدرسته الجديدة التي بنيت له، وهي دار الحديث الأشرفية(٣).

وفي نحو هذه الفترة شعر بحاجته إلى سَكَنٍ يأوي إليه، فكان زواجه الأول الذي رُزِقَ منه بمولودة في (٢٣) شوال سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م) سمَّاها أم الحسن فاطمة، ويبدو أنَّ مزاجه في ذلك اليوم لم يكن رائقاً، فقد سجّل في تاريخه يوم ولادتها بعبارة صمّاء لا ترشح منها مشاعر الأبوة، بَلْهَ الغبطة، ولا يكاد يستشف منها صلة النسب، فقد كتب: «وفيها ولدت أم الحسن فاطمة بنت عبد الرحمن بن

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٥-٢٦، و«المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٠، ٢/ ١٢٥.

(٣) جوار باب قلعة دمشق الشرقي، كانت داراً للأمير صارم الدين قيماز النجمي، وله بها حمام، فاشترى ذلك الملك الأشرف موسى بن العادل، وأمر ببنائها سنة (٦٢٨هـ) دار حديث. وأخرب الحمام، وبناه مسكناً للشيخ المدرس بها، وجعل شيخها تقي الدين ابن الصلاح. انظر «الدارس في تاريخ المدارس»: ١/ ١٩-٢٠، و«مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٣٠هـ) بتحقيقي.

إسماعيل في الثالث والعشرين من شوال، جعلها الله ذرية مباركة[١]». ولولا هذا الدعاء لما عرف القارئ أنَّ أبا شامة إنَّما يتحدَّث عن ولادة ابنته!...

فلِم هذا الجفاء؟ سؤال يتركنا فيه أبو شامة حيارى، غير أنَّني أنزِّهه ـ وهو الفقيه ـ أن يكون مبعثه أنَّه رزق بأنثى.

ويبوح لنا أبو شامة بمرضه الذي ألَمَّ به في شعبان سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م) هذا المرض الذي حال بينه وبين حضور جنازة شيخه تقي الدين ابن باسوية، وكان شيخاً مشهوراً بالقراءات، وقد كان أجاز لأبي شامة رواية جميع ما يرويه[٢].

وفي أوائل شوال سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م) قدم دمشق فيمن يقدمها لطلب العلم شاب من إربل في الرابعة والعشرين من عمره، هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خَلِّكان، ويلتقيه أبو شامة في حلقة شيخه ابن الصلاح في دار الحديث الأشرفية على مدار عام كامل قضاه ابن خلكان في دمشق ملازماً لابن الصلاح[٣]، فأيّ أثر تركه هذا اللقاء في نفسيهما؟ وهل سيذكرانه في أيامهما القادمة حين يجتمعان معاً بعد نحو ربع قرن[٤]؟

وبعد نحو ثلاث سنين من ولادة ابنته فاطمة يُرزق في (٢٥) ذي القعدة سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م) بمولوده الثاني، وربما فاجأه مخاض امرأته في الساعة الأولى من ذلك اليوم، وضاق الوقت عن استدعاء قابلة له، وقد كاد الوليد يخرج من بطنها، فأسرع أبو شامة إلى تلقيه بيديه، فكان هو قابله[٥].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٢٩.

(٢) «المذيل» : ٢/ ٣٤ ، وسيعاود المرض أبا شامة في تلك الأيام في بعض السنين ، انظر ص ١٧٣ ـ ١٧٤ من هذا الكتاب.

(٣) «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٤٤.

(٤) انظر ص ٢٩٠ من هذا الكتاب.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٧١.

وفي فرح لم يستطع إخفاءه يكتب في تاريخه في حوادث تلك السنة: «وفيها في الساعة الأولى من يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع وثلاثين وست مئة، ولد لي مولود ذكر سمّيته محمداً، وكنيته أبا الحرم، جعله الله مباركاً وذرية طيبة»[١].

وقُدِّر لابنه محمد أن يعيش يتيم الأم، فهل ماتت أمه بعد ولادته بقليل[٢]؟..

وبينما كان أبو شامة يعيش أفراحه في تلك الأيام بولادة ابنه محمد، وقد انهمك في تأليف كتابه «المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول ﷺ»[٣] كان الأشرف موسى بن العادل سلطان دمشق يرقد في قلعتها، وهو يعاني آلام مرضه، وقد أشفى منه على الموت[٤]، وزاده ألماً ما بلغه من طمع أخيه الكامل في دمشق[٥]، وبخاصة أنَّ الأشرف لم يكن له ولد يخلفه، فجعل أخاه الصالح إسماعيل بن العادل ولياً لعهده[٦]، ولم ينلْ ذلك رضا الكامل، وهو كبير البيت الأيوبي، فوقعت الوحشة بين الأخوين، وأسفرت عن نفسها بطلب الأشرف من جيشه الاستعداد لمهاجمة مصر، وخيَّم عسكره في الكسوة جنوبي دمشق إيذاناً بذلك[٧].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٣٩.

(٢) ذكر أبو شامة أنَّ أمه توفيت، غير أنَّه لم يحدِّد سنة وفاتها، فلعلَّها توفيت بعد ولادته بقليل، لأنَّها لم تنجب بعده غيره، ويبدو أنَّ أبا شامة قد انصرف إلى تربية ابنه اليتيم، وكان حَدِباً عليه، ولم يتزوَّج من امرأة أخرى إلاَّ قبيل وفاة ابنه محمد بقليل، انظر «المذيل»: ٢/ ٧١، وص١٣٣ ـ ١٣٤ من هذا الكتاب.

(٣) فرغ أبو شامة من تصنيفه سنة (٦٣٥هـ)، انظر «المحقق» ص٢٩.

(٤) «مفرج الكروب»: ٥/ ١٣٧.

(٥) «مفرج الكروب»: ٥/ ١٤٤.

(٦) «مفرج الكروب»: ٥/ ١٤٧.

(٧) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٢٤٠.

وحاول الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام أن يثني الأشرف عن عزمه، فصعد إلى قلعة دمشق لعيادته، مذكراً إياه بالخطر القادم من الشرق، حيث التتار يجتاحون كالعاصفة المدن الإسلامية، ناشرين الخراب والموت أينما حلّوا، طالباً إليه أن ينقل عسكره إلى جهة التتار، فإن منَّ الله عليه بالعافية قاتلهم، وإن قضى في مرضه أثابه الله على نيته في جهادهم.

واستجاب الأشرف له، وأمر في الحال ـ والشيخ حاضر ـ بنقل معسكره إلى الشرق، إلى منزلة يقال لها القصير. ثم قال للشيخ: زدني من نصائحك ووصاياك. فقال له الشيخ عز الدين: السلطان في مثل هذا المرض، وهو على خطر، ونوّابه يبيحون فروج النساء، ويدمنون الخمور، ويرتكبون الفجور، ويتنوعون في تمكيس المسلمين، ومن أفضل ما تلقى الله به أن تتقدّم بإبطال هذه القاذورات، وإبطال كل مكس، ورفع كل مظلمة.

وكذلك استجاب الأشرف له، وودّع الشيخُ السلطانَ المريض، ونزل من قلعة دمشق، وقد شاع في البلد ما جرى بينهما، وباشر الشيخ بنفسه تبطيل بعض المنكرات، إلاَّ أنَّ الصالح إسماعيل بن العادل لم يرق ذلك له، فوقف دون إمضاء الأمر إلى نهايته[١].

ويموت الأشرف في أول نهار يوم الخميس رابع محرم سنة[٢] (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) ويلي دمشق بعده أخوه الصالح إسماعيل بعهد منه[٣].



ويأتي الكامل من مصر بعساكره في أواخر شهر ربيع الآخر سنة[٤] (٦٣٥هـ/

(١) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٢٤٠ـ٢٤١.
(٢) «عيون الأنباء»: ص٦٧٢.
(٣) «المذيل»: ٢/ ٤١.
(٤) المصدر السالف.

١٢٣٧م)، وينزل قرب دمشق عند مشهد القدم، وتحدق عساكره بها، ويقطع المياه عنها، ويشدد حصارها، فترتفع الأسعار، ويستعد الصالح إسماعيل للدفاع عن نفسه، فينصب المجانيق على أبواب دمشق، وكيلا يدع لجيش الكامل موطئ قدم قرب أسوارها أمر بتخريب ما حول السور من دور ومساكن وطواحين، وترمي مجانيقه بصخورها الصُّمِّ على أهل دمشق خارج السور، فتخرب العقيبة والطواحين خراباً شنيعاً، وتحرق قصر حجاج والشاغور، ويتفنن الصالح إسماعيل بالعيث في التخريب، ومصادرة الناس، وكأنَّه يرى أن لا بقاء له بدمشق إلا بإحراقها، فذاقت دمشق على يديه من الموت والخراب ما لم تذقه من الجيش المهاجم، وأصبح سكان تلك الأماكن مشردين على الطرقات يستجدون، وبعضهم آثر الموت في داره[١].

وحين أُلقيت للصالح إسماعيل بعلبك وبصرى عوضاً عن دمشق، كفّ عن التخريب[٢]، وعقد الصلح مع أخيه الكامل في يوم الأربعاء الفاتح من جمادى الأولى سنة[٣] (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م).

وعاش أبو شامة مرارة تلك الأيام، وهو لم ينسَ بعد ما حلّ بدمشق من دمار قبل تسع سنين، ولم يطاوعه قلمه أن يصف ما حلّ بها الآن من خراب، فما أشبه الليلة بالبارحة، فاكتفى في تاريخه بقوله: «فجرى نحو من الحصار المتقدم سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) إلاَّ أنَّ هذا الحصار كان أكثر خراباً في ظاهر البلد، وحريقاً ومصادرة»[٤].

وسقطت دمشق مرة أخرى جريحة بأيدي سلاطينها، ويلتقي أعداء الأمس

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٣٥هـ) بتحقيقي، و«المذيل»: ٢/ ٤١.

(٢) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٣٥هـ).

(٣) «المذيل»: ٢/ ٤١.

(٤) المصدر السالف.

القريب، وقد ساد فيهم وفاق الأصدقاء، وكأنَّ دماءً لم تسفك ودوراً لم تخرب، ويحضر الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام إلى قلعة دمشق، مسلماً على السلطان الكامل، فيكرمه الكامل غاية الإكرام، ويجلسه إلى جانبه، وكان أخوه الصالح إسماعيل يقف خلفه، ويسأل الكاملُ الشيخ عز الدين، وهو يشير إلى الصالح: إنَّ هذا له غرام برمي البندق[1]، فهل يجوز ذلك؟ ويجيب الشيخ عز الدين بهدوء: بل يحرم عليه، فإنَّ رسول الله ﷺ نهى عنه، وقال: «إنَّه يفقأ العين ويكسر العظم»[2].

وربَّما تساءل الشيخ عزّ الدين في سرِّه: رمي البندق يحرم، ولكن هل يحلّ رمي المجانيق، وحرق الناس في دورهم؟ ويبدو أنَّ الشيخ عزّ الدين آثر الصمت في هذه المرة، وربَّما كان يتمزق من الغيظ، وهو يلقي درسه الأول في الزاوية الغربية من جامع دمشق بعد أيام من لقائه مع الكامل[3].



---

(١) البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها، وهي فارسية بلفظها واستعمالها، فقد اقتبسها العرب عنهم في أواخر خلافة عثمان ؓ، وكانوا يرمون هذا البندق عن الأقواس كما يرمون النبال، ثم صار لها شأن كبير في أيام العباسيين، وبخاصة في أيام الخليفة الناصر المتوفى سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) إذ جعل رميها فنًّا لا يتعاطاه إلاَّ الذين يشربون كأس الفتوة ـ وكان يحتوي الماء والملح ـ ويلبس سراويلها من الخليفة مباشرة أو من أحد رسله بالوكالة. وقد تفنَّنوا في رمي البندق بالأنابيب، وذلك بضغط الهواء من مؤخرة الأنبوب بما يشبه أنابيب البنادق.
ولمَّا اخترع البارود صار يُرمَى به من تلك الأنابيب، وسميت هذه الآلة بندقية نسبة إليه. انظر «مفرج الكروب»: ٣/ ٢٠٧ حاشية رقم (١) نقلاً عن «تاريخ التمدن الإسلامي» لجرجي زيدان: ج٥/ ١٥٩ـ١٦٠، و«الروضة الندية» لصدِّيق حسن خان: ٢/ ١٨٧.

(٢) كذا رواه العزّ بن عبد السلام، والحديث في كراهية خذف الحصى والنهي عنه، ولفظه: «ولكنها تفقأ العين، وتكسر السنّ». أخرجه البخاري (٤٨٤١)، ومسلم (١٩٥٤) (٥٥) من حديث ابن مغفل، وهو في مسند أحمد (٢٠٥٦١).

(٣) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٢٤٢ـ٢٤٣.

بيد أنَّ الكامل لم يمتع في انتصاره، إذ لم يمضِ على استيلائه على دمشق سوى شهرين ونصف تقريباً، حتى وقع فريسة مرضٍ شديد أدَّى إلى وفاته في أول ليلة الخميس (٢٢) رجب سنة[١] (٦٣٥هـ/١٢٣٨م) وحيداً في غرفة صغيرة بدار العقيقي، لم يؤنس وحشة ساعته تلك أحد من أمرائه، وحاشيته لشدة هيبته، ولم يعلموا بموته إلاَّ حين دخلوا عليه، فلم يحزنَ عليه أحد[٢].

وسارع الأمراء، وابنا شيخ الشيوخ: عماد الدين وفخر الدين إلى الاجتماع، كي يتشاوروا فيمن يخلف الكامل في دمشق، وانفضّ اجتماعهم دون أن يصلوا فيه إلى قرار.

وتفاءل أهل دمشق بقرب رجوع ملكهم الناصر داود بن المعظم عيسى حاكماً عليهم، وكان الناصر في دار سامة الجيلي، فأرسل إليه أمير أبيه عزّ الدين أيبك ناصحاً له بالمسارعة في كسب ولاء أمراء أبيه المعظم، قائلاً له: أخرج المال، وفرِّقه في مماليك أبيك، والعوام معك وتملك البلد، ويبقى أمراء الكامل في القلعة محصورين. إلاَّ أنَّ الناصر داود أبطأ في فهم الرسالة.

وما إن أطلَّ صباح يوم الجمعة حتى أعلن أمراء الكامل وفاته، واجتمعوا ثانية في القلعة، وتداولوا فيما بينهم، وكانت الآراء تحوم حول الناصر داود والجواد يونس بن مودود بن العادل، وكان عماد الدين بن شيخ الشيوخ يكره الناصر داود لما كان يظهره الناصر من الاستخفاف به في مجالس الكامل، وكان أخوه فخر الدين بن شيخ الشيوخ يميل إليه، غير أنَّ كفة عماد الدين كانت الأرجح في ميزان الآراء، فتمَّ الاتفاق على الجواد يونس.

وأرسل أمراء الناصر داود الموالون له يخوفونه المقام بدمشق، قائلين له: قم واخرج، أيش قعودك في بلد القوم؟ فركب الناصر داود من باب دار سامة، واتجه نحو القلعة، فظنَّ أهل دمشق أنَّه طالع إليها، وقد تمَّ له الأمر، فلمَّا رأوه ينحرف

(١) «عيون الأنباء»: ص٦٧٢.

(٢) «مرآة الزمان» (وفيات سنة ٦٣٥هـ) بتحقيقي.

عنها، معرِّجاً على باب الفرج، صاحوا: لا . . لا . . وانقلبت دمشق، وخرج الناصر داود من باب الفرج نحو القابون، وسارع أمراء الجواد إلى ضرب الناس بالدبابيس، فأنكوا فيهم، فهربوا.

وفتح الجواد الخزائن، وفرَّق الأموال، وخلع الخِلَع، وتأليفاً لقلوب أهل دمشق أبطل المكوس، ونفى الخواطئ.

وأقام الناصر داود بالقابون أياماً، ثم أرسل إليه الأمراء أنَّ القوم يأتمرون بك، فسار في الليل إلى عجلون[1].

هكذا استقرَّ الأمر بعد الكامل، فقد ولي ابنه العادل بن الكامل الديار المصرية ودمشق، والجواد يونس بن مودود نائبه فيها، وولي ابنه الأكبر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل الجزيرة وديار بكر وربيعة[2].



(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٣٥هـ).

(٢) «المذيل»: ٢/ ٤٣ ـ ٤٤.

الصراع على دمشق
وأبو شامة أحد عدولها

لم يمضِ على ولاية الجواد يونس دمشق سوى ثلاثة أشهر ونصف حتى توفي قاضي قضاتها شمس الدين يحيى بن هبة الله المعروف بابن سني الدولة في خامس ذي القعدة سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٨م) وولي القضاء بعده بيومين شمس الدين أحمد بن خليل الخُوَيِّي[١]، وسكن في المدرسة العادلية الكبرى، على عادة القضاة في ذلك الزمن، وكان لطيفاً، متواضعاً، عفيفاً، كثير المداراة، محبباً إلى الناس[٢]، وكان على تمكنه في الأمور الشرعية فصيح اللسان، بليغ البيان[٣]، وقد عرف الخُوَيِّي لأبي شامة قدره، وقد جمعت بينهما المدرسة العادلية، فحين عَدَّل جماعة من أهل دمشق، كان أبو شامة واحداً منهم[٤]، وفي هذا دلالة على ما عُرف عن أبي شامة من نزاهة وصدق، وقد كان المعدَّل يحضر مجلس الحكم عند قاضي القضاة[٥].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٥٢.

(٣) «عيون الأنباء»: ٦٤٦ ـ ٦٤٧.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٤٥.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٨٨.

ولم تكن دمشق في تلك الأيام قد استتبَّ أمرها لواليها الجديد، الذي أظهر ميله إلى الاستقلال عن مصر، مما أغضب العادل الثاني بن الكامل، فاستدعى أولاد شيخ الشيوخ الأربعة: فخر الدين، وعماد الدين، ومعين الدين، وكمال الدين، وقال لهم معاتباً: أنتم ضيَّعتم عليَّ ملك دمشق، فإنَّ أبي الكامل فتحها، وهو مالكها، فسلمتم دمشق وخزائن أبي إلى الجواد، فتغلب على دمشق، وضيَّع الخزائن، وما أعرف عود دمشق إليَّ، وانتزاعها من يد الجواد إلاَّ منكم.

وعرف عماد الدين أنَّ العادل يعنيه، لأنَّه هو الذي مال إلى الجواد وعيَّنه، فضمن للعادل رجوع دمشق إليه.

وعاد عماد الدين من القاهرة إلى دمشق، ولمَّا وصل التقاه الجواد، وأنزله في القلعة تكريماً له، واطمئناناً إليه، فطالبه عماد الدين بتسليم دمشق إلى العادل، مهدداً إيَّاه بمجيء العساكر المصرية إليه واعتقاله إن أبى، أما إنْ قَبِلَ فسيعطيه العادل إقطاعاً جيداً بالديار المصرية، ويحسن إليه.

فراوغ الجواد في الجواب، وراح يدبِّر مساومة تكون أرجح في ميزان الربح، فهو يعلم حقاً أن لا طاقة له بقتال العادل، ولذلك إن سلّم له دمشق فلن يعطيه إلاَّ إقطاعاً صغيراً بالديار المصرية لن يرضي طموحه بعد أن ذاق لذَّة الملك، ويعلم أنَّ الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل غير راضٍ عمَّا آل إليه من ملك أبيه، وأنَّه يمد عينيه إلى القاهرة، فماذا لو عرض عليه دمشق نكاية بالعادل، على أن يعوِّضه عنها سنجار والرقة وعانة؟ وحين استوى له هذا الرأي سارع بإرسال خطيب جامع دمشق كمال الدين بن طلحة[١] إلى الصالح أيوب يعرض عليه دمشق، فما كان من الصالح أيوب إلاَّ أن أجابه على الفور، فقد أتاه الفرج من حيث لا يحتسب، وحلف لابن عمِّه الجواد على العوض المذكور[٢].

---

(١) تولَّى خطابة جامع دمشق بعد وفاة خطيبه جمال الدين الدولعي، وخطب يوم الجمعة (٢١) شعبان سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م)، انظر «المذيل»: ٢/ ٤٢، ٤٥.

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/ ١٩٨ ـ ٢٠٠.

وما إن تمَّ الاتفاق بينهما حتى سار الصالح أيوب نحو دمشق، والفرح يستخفه، ولمَّا علم الجواد بقربه خاف من عماد الدين أن يفسد عليه أمره، فدسَّ إليه من قتله[١].

ووصل الصالح أيوب إلى دمشق في مستهلّ جمادى الآخرة سنة (٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م)، وزيّن البلد لقدومه، وخرج الجواد لاستقباله، ودخل الصالح أيوب قلعة دمشق إيذاناً بتملكها، وانتقل الجواد منها إلى دار السعادة عند باب النصر[٢].

وقدم إليه عمّه الصالح إسماعيل من بعلبك مهنئاً ومبايعاً، فاطمأنَّ إليه الصالح أيوب، وتحالفا وتعاهدا أن يسيرا معاً إلى مصر لإزاحة العادل عنها، ثم رجع الصالح إسماعيل إلى بعلبك ليهيئ أسباب ذلك[٣].

وانزعج العادل في مصر، وأمه وخواصُّه من قدوم الصالح إلى دمشق، وعلموا أنَّه لا بدَّ قاصدهم لما يتحققونه من ميل عسكر مصر إليه، لأنَّه أكبر من العادل، وأحسن سيرةً منه، وأعظم هيبة، وأجدر بالقيام بأعباء الملك، وخافوا منه خوفاً شديداً[٤].

وبدأت ترد إلى الصالح أيوب كتب بعض أمراء المصريين، يحثُّونه فيها على القدوم إلى الديار المصرية، ويعلمونه أنَّه متى دخل سيناء انضمَّت العساكر كلها إليه[٥].

فخرج الصالح أيوب من دمشق في (٢) رمضان سنة (٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م) مطمئناً إلى تحالفه مع عمِّه الصالح إسماعيل، فلم يخلف في دمشق حامية تدافع عنها في غيابه، وأقام في نابلس ينتظر وصول عمِّه حسب الاتفاق[٦].

* * *

(١) «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.
(٢) «المذيل»: ٢/ ٤٧، و«مفرج الكروب»: ٥/ ٢٠٣ـ٢٠٤.
(٣) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٣٦هـ)، «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٠٦.
(٤) «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٠٦ـ٢٠٧.
(٥) المصدر السالف.
(٦) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٣٦هـ).

بيد أنَّ الصَّالح إسماعيل كان في بعلبك يحيك الدسائس بغية الاستيلاء على دمشق أثناء غياب الصالح أيوب عنها، فعقد تحالفاً مع صاحب حمص الملك المجاهد، وأرسل ابنه إلى معسكر الصالح أيوب تمويهاً وإظهاراً للولاء[١].

أمَّا في دمشق، فكان متولي ديوانها نجم الدين بن سلام[٢] يفرق الأموال في داره، ويكسب ولاء أمرائها، تمهيداً للصالح إسماعيل في تملكها، ولم يكن أحد يجرؤ على إخبار الصالح أيوب بما يجري هيبة منه[٣].

فلمَّا تمهد للصالح إسماعيل أمر دمشق، رحل عن بعلبك بعساكره، وقصدها من عقبة دمر، وكذلك رحل عن حمص المجاهد في عسكره، وقصدها من جهة ثنية العُقاب، وذلك في شهر صفر سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) فاجتمعا على دمشق، ولم يشعر الناس بهما إلاَّ وهما على أبوابها بكرة النهار، في جمع عظيم من الخيّالة والرجَّالة، وليس في دمشق من يمنع عنها، فتسلَّق جماعة من أصحاب الصالح إسماعيل من خان ابن المقدم الذي يلي باب الفراديس، ونزلوا منه، وكسروا قفل باب الفراديس، وساعدهم على ذلك جماعة ممن استمالهم نجم الدين بن سلام، فدخل الصالح إسماعيل والملك المجاهد دمشق يوم الثلاثاء (٢٧) صفر سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م)، وطيب الصالح إسماعيل قلوب أهل دمشق، قائلاً لهم: ادعوا للسلطان العادل، فأنا نائبه وغلامه[٤].

ومضى إلى داره بدرب الشعارين، فنزلها، وكان نجم الدين بن سلام أول

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٣٦هـ)، «مفرج الكروب»: ٥/ ٢١٦.

(٢) هو الحسن بن سالم بن علي بن سلام، نجم الدين، كان تولى ديوان دمشق سنة (٦١٢هـ)، ودام عليه، وقد توفي سنة (٦٤٣هـ)، انظر «المذيل»: ٢/ ٧٥ ـ ٧٦.

(٣) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٣٦هـ).

(٤) «المذيل»: ٢/ ٥٠، «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٢٨ـ٢٣٠.

الداخلين عليه، فرقص بين يديه، وهنَّأه، وقال له: إلى بيتك جئت[١]. ونزل الملك المجاهد في داره قرب جامع دمشق[٢].

وفي الغد زحف الصالح إسماعيل والملك المجاهد إلى القلعة، حيث امتنع فيها الملك المغيث بن الصالح أيوب مع جماعة قليلة، فخربت بذلك دار الحديث الأشرفية، وغيرها من الدور والحوانيت تحت القلعة، واضطر الملك المغيث إلى تسليمها للصالح إسماعيل بالأمان، فاعتقل في برج من أبراجها[٣].

وكان الصالح أيوب لمَّا بلغه عزم الصالح إسماعيل والملك المجاهد على قصد دمشق، وانتزاعها منه، أرسل إليها أستاذ داره الأمير حسام الدين بن أبي علي لحفظها، فوصل إليها وقد دخلاها، فرجع إلى الصالح أيوب، وشاع بين جنده خبر سقوطها، ففسدت نياتهم، وعلموا أن لا مقام لهم معه وقد صارت البلاد لغيره، وبخاصة أنَّ أولادهم وأهاليهم في دمشق، ففارقه بعض أمرائه إليها، ولم يبقَ معه من مماليكه السبعين غير خمسة أو ستة منهم، وألفى الصالح أيوب نفسه في العراء، بلا ملجأ ولا وزر يحميه، وقد تلاشى أمره، فخف إليه ابن عمِّه الناصر داود، فقبض عليه، وسجنه بقلعة الكرك[٤].

وتقرباً إلى الرعية ولّى الصالح إسماعيل الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام خطابة جامع دمشق في العشر الآخر من ربيع الآخر سنة[٥] (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) بعد أن عزل خطيبه كمال الدين بن طلحة[٦]، ولربَّما طمع في أن يلجم لسانه بثقل هذا المنصب

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٣٧هـ).

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٢٩.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٥٠، «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٢٩ـ٢٣٠.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٥٠، «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٣٠ـ٢٣٨.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٥٣.

(٦) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٢٤٠.

الخطير، ولم يكتم أبو شامة فرحه بهذا التعيين، وقد رأى فيه إنصافاً لصاحبه، فكتب في تاريخه: «تولّى الخطابة بدمشق أحقّ الناس بالإمامة الشيخ عزّ الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي، مفتي الشام يومئذ، ناصر السنة، قامع البدعة»[١].

❁ ❁ ❁

في تلك الأثناء كانت الهدنة التي عقدها الكامل مع الإمبراطور فريدريك الثاني قد انتهى أجلها في الفاتح من محرم سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) وكانت أوربة قد استعدت قبل ذلك لإرسال حملة صليبية إلى الشرق، وقد وصلت الحملة إلى عكا في آخر محرم[٢]، وعلى رأسها تيبالد كونت شامبانيا، وملك نافار مع جيش من ألف فارس[٣]، وقد اختلفت الآراء حول الجهة التي ستقصدها الحملة، أتتجه نحو مصر حيث سلطانها العادل الثاني يعاني من ميل عسكره إلى أخيه الصالح أيوب؟ أم تتجه إلى دمشق حيث تعاني من اضطرابها وضعفها؟ وأخيراً قرَّر تيبالد أن يهاجم المعقلين المصريين في عسقلان وغزة، ثم يتوجه إلى دمشق بعد أن يكون قد أمَّن حدودها الجنوبية[٤].

وخرجت الحملة من عكا في ربيع الأول سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) إلى غزة، حيث منيت هناك بهزيمة مفاجئة، انكفأ تيبالد على إثرها مع فلول جيشه نحو طرابلس[٥].

وانتهز الناصر داود صاحب الكرك هذه الهزيمة، وتوجّه بعساكره ومَنْ معه من

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٥٣.

(٢) «الحملة الصليبية الخامسة»: ص٣٦٥ ـ ٣٦٦، «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٣٧٢.

(٣) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٣٧٢.

(٤) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٣٧٢ـ٣٧٣.

(٥) المصدر السالف: ٣/ ٣٧٤ـ٣٧٦.

أمراء الصالح أيوب نحو بيت المقدس، وكان الصليبيون قد بنوا فيها قلعة تضم برج داود، مخالفين في ذلك شروط صلحهم مع الكامل، فهاجم القلعة، ونصب عليها المجانيق، حتى تمَّ له فتحها في يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) بعد حصار دام نحو واحد وعشرين يوماً، وجلا عنها الصليبيون، فدمَّر الناصر داود القلعة وبرج داود، والاستحكامات التي أقاموها، ثم رجع إلى الكرك، تاركاً القدس بيد الصليبيين على ما شرط لهم الكامل، مجردة من أسباب الدفاع عنها[١].

وقد حلا لبعض المؤرِّخين أن يصوِّر ما قام به الناصر داود على أنَّه فتح لبيت المقدس، حتى إنَّ بعض الشعراء بالغ فشبهه بفتح صلاح الدين لها[٢]!..

❁ ❁ ❁

لربما لم يبالِ أبو شامة بعودة الصالح إسماعيل إلى حكم دمشق من جديد، فما دامت ثمرة الملك عند الأمراء هي الاستمتاع بالملاذ والراحات، فكلّهم سواء، ولربَّما رضي بعض الرضا، وهو يرى صاحبه الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام يعتلي كل جمعة منبر جامع دمشق، ناصحاً للأمة، ومشفقاً عليها، ومبيناً لها طريق نجاتها. ولربَّما أنس بعض الأنس وهو في إيوان العادلية، صارفاً جلّ وقته في إنجاز مؤلفاته، مستغرقاً في تهذيبه تاريخ دمشق لابن عساكر واختصاره، وقد شارف على الانتهاء منه، مستمتعاً بما يضيفه إلى بعض تراجمه وأخباره مما اقتنصه من فوائد، وما قيّده من شوارد[٣]، ولربما زاده رضاً إلى رضاه صحبته لقاضي قضاة دمشق شمس الدين أحمد بن الخليل بن سعادة الخُوَيِّي، وقد وجد في ملازمته له بمجالس الحكم، وفي سكناه بالعادلية لطفاً وورعاً، فقد كان ملازماً الصلاة

(١) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٣٧٦-٣٧٧، «نزهة الأنام»: ص١١٨.

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٤٧.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٦.

والصيام وقراءة القرآن، وكان في درسه فصيحاً، حسن العبارة، وفي قضائه متحرياً للعدل، مدارياً للناس، متحبباً إليهم، لقد كان حقاً كريم النفس، محباً للخير[١]، وقد أعجب أبو شامة بكتابه في العروض أيّ إعجاب، وقد وقف على نسخة منه بخط القاضي، فمدحه أبو شامة ببيتين، يعترف فيهما ببراعته في هذا الفن:

أحـمـدُ بـنُ الـخـلـيـلِ أَرْشَـدَه الـلَّـ ـهُ لـمـا أَرْشَـدَ الـخـلـيـلَ بـنَ أحـمـدْ

ذاك مُـسْـتَـخْـرِجُ الْـعَـرُوضِ وهـذا مُـظْـهِـرُ الـسِّـرِّ مـنـه والـعَـوْدُ أحـمـدْ[٢]

غير أنَّ السعادة التي كان أبو شامة يتفيأ ظِلَّها في العادلية سرعان ما تقلَّص بوفاة هذا القاضي، وذلك ظهر يوم السبت (٧) شعبان سنة[٣] (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م) وهو في نحو الخامسة والخمسين من عمره، وتولّى القضاء بعده رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل الجيلي[٤]، وتستقبل العادلية ساكنها الجديد، وينقلب فيها كل شيء.



(١) «المذيل»: ٢/ ٥٢، و«عيون الأنباء»: ٦٤٦ـ٦٤٧.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٥٢.

(٣) المصدر السالف.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٥٢ ـ ٥٣.

السنوات العجاف

كان رفيع الدِّين الجِيلي فقيهاً في المدرسة العذراوية داخل باب النصر، وكان على ذكاء ودراية بعلم الطب وعلوم الأوائل، وقد تميَّز بهما، وله مجلس للمشتغلين عليه فيهما، وكان فصيح اللسان، شغوفاً بالمطالعة[1]. غير أنَّه بقي في دمشق خاملاً، لم ينبه ذكره، فتركها، وانتقل إلى بعلبك أيام حكم الصالح إسماعيل لها، وهناك انعقدت أواصر الصحبة بينه وبين وزيرها أمين الدولة أبي الحسن بن غزال المسلماني ـ وكان يهودياً، وأسلم في صباه[2] ـ وهو على معرفة كذلك بعلم الطب، فولى رفيع الدين قضاء بعلبك[3].

فلما استولى الصالح إسماعيل على دمشق، فوَّض أمور مملكته لوزيره أمين الدولة[4]، وولَّى رفيع الدين المدرسة الشامية البرانية، وهي من كبريات المدارس في ذلك الوقت[5]. وكان أن اتفقت وفاة القاضي شمس الدين الخُوَيِّي،

---

(١) «عيون الأنباء»: ص٦٤٧ ـ ٦٤٨.

(٢) «عيون الأنباء»: ص٧٢٣، «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٣٦.

(٣) «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ١٠٩.

(٤) «عيون الأنباء»: ص٧٢٣.

(٥) «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٣٧.

فأشار أمين الدولة على الصالح إسماعيل بتولية رفيع الدين قاضياً للقضاة[١]، وهكذا ارتفعت منزلة رفيع الدين في دمشق بعد خمول.

وكان أمين الدولة قد وضع خبرته وذكاءه وحنكته السياسية في خدمة سيِّده الصالح إسماعيل، وكان الصالح إسماعيل لا يرضيه مثل المال، وقد مَدَّ عينيه إلى أموال رعيته لا يحجزه عنها حاجز، وفي سبيل إشباع نهمه اشتدَّ أمين الدولة بمصادرة أملاك أهل دمشق، ووجد في القاضي رفيع الدين خير مِعْوان على هذه المهمَّة، فاتخذه أداةً في ذلك[٢].

وأظهر رفيع الدين حرصاً على امتلاك المال لا يقلّ عن حرص صاحبيه، ومن ثَمَّ شهدت دمشق في تلك الفترة حملة منظّمة لإفقار أهلها، وتوسَّل رفيع الدين في سبيل ذلك بفنونٍ من المكر والخديعة، فقد اتخذ شهود زور ووكلاء، فكان يستدعي إلى مجلس قضائه الرجل الثري، فيثبت عليه مُدَّعٍ ألف دينار، ويحضر شهود الزور، فيشهدون عليه بذلك، فيُسْقط في يد الرجل، ويتحيَّر، وهنا يظهر رفيع الدين بمظهر القاضي النصوح الشفوق، فيقول للثريّ المتحيّر: صالح غريمك. فيجدها الرجل فرصةً للخلاص من السجن، فيصالح على النصف، وهو لا يكاد يصدِّق أنَّه قد نجا حقاً من هذه المحنة[٣].

حتى مال الأيتام لم يكن بنجوة من جشع هذا القاضي، فقد كتب إلى نوّابه القضاة بإحضار ما تحت أيديهم من أموال اليتامى[٤].

وكان لا يحكم بين الناس إلاَّ بمال يأخذه جهراً من الخصمين، ولم يكتفِ

---

(١) «عيون الأنباء»: ص٦٤٧ ـ ٦٤٨.

(٢) «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/١٠٩، و«عيون الأنباء»: ص٧٢٣، و«أخبار الأيوبيين»: ص١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣) «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/١٠٩ ـ ١١٠.

(٤) «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/١١٠.

بذلك، بل أراد أن ينتشر الفسق والفجور في دمشق، فسمح بالاختلاط في جامع دمشق أيام المناسبات بين الرجال والنساء، قائلاً: ما هو أعظم من الحرمين! فغصَّ الجامع بالرجال والنساء، وخاصة في ليلة النصف من شعبان[1].

وفاض قلب أبي شامة بالغمِّ من هذا الساكن البغيض، فتوقَّف عن الكتابة في تاريخه، إذ افتقد المكان الآمن الذي كان يدوِّن فيه بهدوء وقائع عصره، ودليلنا على ذلك سياق الأحداث، والأسلوب الذي كتب به من بعد حين استدرك في تاريخه أخبار هذه السنين العجاف.

* * *

لبث الصالح أيوب في السجن بضع شهور حتى قرَّر الناصر داود الإفراج عنه في أواخر رمضان سنة[2] (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م) طمعاً في أن يساعده الصالح أيوب حين يغدو سلطان مصر على استرداد أملاك أبيه المعظم، وبخاصة دمشق، ومن ثَمَّ أمر الناصر داود بقطع الخطبة للعادل، وخطب للصالح أيوب، واتفقا على قصد الديار المصرية، وتسامع أصحاب الصالح أيوب بهذا الخبر، فراحوا يتقاطرون إليه من كل ناحية[3].

في تلك الأثناء قبض أمراء مصر على العادل، وأرسلوا يستحثون الصالح أيوب على القدوم إليهم[4].

فخرج الصالح أيوب ومعه الناصر داود إلى مصر، فوصل إليها، وقبض على أخيه العادل ليلة الجمعة ثامن ذي القعدة سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م) ثم دخل بعساكره القاهرة[5].

---

(١) «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ١١٠.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٥٠.

(٣) «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٥٩.

(٤) «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٦٣.

(٥) «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٦٥-٢٦٦.

وأُسقط في يد الصالح إسماعيل في دمشق، وخاف أشد الخوف من الصالح أيوب، لما كان أسلفه في حقِّه من أخذ دمشق منه بعد أن صالحه، وحلف له وتوثَّق منه، ولِمَا كان من اعتقاله لولده الملك المغيث، وخوفاً من أن يبغته الصالح أيوب والناصر داود في مهاجمته، ألقى بنفسه في أحضان الصليبيين متحالفاً معهم، وقد تمَّ له ذلك في ذي الحجة سنة[(١)] (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م) واتفق معهم على أن يعضِّدوه على الصالح أيوب لقاء تسليمه لهم حصن شقيف أرنون، وصفد، وهما حصنان كبيران[(٢)].

وارتاع المسلمون لهذا الاتفاق، وأنكر الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام خطيب جامع دمشق هذا التحالف غاية الإنكار، وأطلق لسانه في الصالح إسماعيل، وساعده في ذلك شيخ المالكية أبو عمرو بن الحاجب، فأكثرا من التشنيع عليه فيما فعل[(٣)].

وصار الصليبيون إثر هذا الاتفاق يدخلون دمشق، ويبايعون أهلها، وكان أكثر ما يشترون منهم السلاح، وقد اشتهرت دمشق بصناعته، وبخاصة السيوف الدمشقية، فأصدر الشيخ عزّ الدين فتوى بتحريم بيعهم السلاح، وجدَّد إنكاره على الصالح إسماعيل، وزيادة في الإنكار عليه ترك الدعاء له في خطبة الجمعة، فصار يدعو إذا فرغ من الخطبتين، قبل نزوله: اللهم أَبرِم لهذه الأمة أمراً رَشَداً، تعزُّ فيه وليَّك، وتُذِلُّ فيه عدوَّك، ويُعمَل فيه بطاعتك، ويُنهى فيه عن معصيتك.

وكأنَّ في ترك الخطبة للسلطان دعوى لعزله، فخاف الصالح إسماعيل من مغبّة ذلك، فعزل الشيخ عزّ الدين عن خطابة الجامع، والتدريس بالزاوية الغربية فيه، وسجنه مع الشيخ أبي عمرو بن الحاجب في قلعة دمشق[(٤)].

---

(١) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٣٧٨.

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٠١ـ٣٠٢، و«السلوك» للمقريزي: ج١/ ق٢/ ٤٨٦.

(٣) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٠٢ـ٣٠٣، «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٢١٠.

(٤) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٢٤٣ـ٢٤٤.

ويرقب أبو شامة هذه الأحداث، ويتألَّم منها كما تألَّم شيخاه، غير أنَّه آثر ألاَّ يجهر بإنكاره، فعلى بُعْدِ خطوات منه في المدرسة العادلية كان يقبع القاضي رفيع الدين الجيلي، يد الصالح إسماعيل التي يبطش بها، فلم يجد إلاَّ أوراقه يبثُّها ألمه، فكتب في تاريخه في حوادث سنة (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م): «وفيها سلم حصن شقيف أرنون إلى الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ سلطان دمشق، وأنكر ذلك عليه شيخا الشافعية والمالكية بدمشق ابن عبد السلام وأبو عمرو، فعزل ابن عبد السلام عن خطابة دمشق بذلك السبب، وسجنا بقلعة دمشق، وتولّى الخطابة بجامع دمشق والتدريس بالزاوية الغربية خطيب بيت الأَبَّار عماد الدين داود بن عمر بن يوسف المقدسي الشافعي»[1].

ويتوفى والده إسماعيل، فيلجمه الغمّ عن الكتابة فيه إلاَّ بضع كلمات، يقول فيها: «في ثالث عشر ربيع الأول توفي والدي رحمه الله، ودفن على أبيه بباب الفراديس»[2].

ويتوفى فيها كذلك عَلَمُ التصوُّف الشيخ محيي الدين بن عربي، فيقتضب الحديث عنه بكلمات تدلُّ على عدم صلته به، ولا تحمل في طياتها مدحاً ولا ذمَّاً، ولا إعجاباً ولا نفوراً، فهل آثر أن يتريَّثَ في أمره، وبخاصَّة أنَّه كان على علاقة مع ابنه سعد الدين محمد[3]؟ فقد كتب فيه: «وفي الثاني والعشرين من ربيع الآخر توفي بدمشق المحيي بن العربي، واسمه محمد بن علي بن محمد بن العربي، أبو عبد الله الطائي الحاتمي، قرأته من خطه، ودفن بمقبرة القاضي محيي الدين بجبل قاسيون، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق يوم الجمعة، وشيعته إلى الميدان بسوق الغنم، وكانت له جنازة حسنة، وله تصانيف كثيرة، وكانت عليه سهلة، وله

(١) «المذيل»: ٢/ ٥٤.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٢٩.

شعرٌ حسن، وكلام طويل على طريق التصوف وغيره، وهو من بلاد الأندلس، طاف في البلاد شرقاً وغرباً، وأقام بمكَّة مدة»[١].

فهل كان يكتب هذه الكلمات، وليس بعيداً عن مسامعه قول صاحبه فيه الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، سجين قلعة دمشق آنذاك[٢]؟

وقد بقي الشيخ عزّ الدين في القلعة حتى آخر سنة (٦٣٨هـ/ ١٢٤١م) حيث أخرج منها مع الشيخ أبي عمرو بن الحاجب، فمضى ابن الحاجب إلى الكرك، فأقام فيها عند الناصر داود[٣]، أمَّا الشيخ عزّ الدين، فمضى إلى مصر، حيث وصل إليها في أول سنة[٤] (٦٣٩هـ/ ١٢٤٠م) فتلقَّاه الصالح أيوب بالإكرام والتعظيم والاحترام لمنزلته في العلم، ولما صدر عنه من التشنيع على خصمه اللدود الصالح إسماعيل[٥].



(١) «المذيل»: ٢/ ٥٤ـ٥٥.

(٢) انظر قول الشيخ عزّ الدين في ابن عربي في «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٤٨ـ٤٩.

(٣) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٠٣.

(٤) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٢١٠، و«المذيل»: ٢/ ٥٧.

(٥) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٠٣.

الأمل في الخلاص
وشروع أبي شامة في «كتاب الروضتين»

وخلت دمشقُ من شيخيها الجليلين، وعَلَتْها الكآبة، وأصابها الجفاف، فأمسكت السماء، وغارت الآبار، ونقصت الأنهار، وهلكت الزروع والثمار[1]، وزاد الجو قتامةً بما كان الناس يتشاكون فيه من ظلم القاضي رفيع الدين[2].

ولربما تساءل أبو شامة في نفثة غضب: أما لهذا الليل من فجر؟ وكان في تهذيبه تاريخ دمشق لابن عساكر قد قرأ فيه ترجمة الملك العادل نور الدين، فأطربه حقاً ما رأى من آثاره، وسمع من أخباره، مع تأخُّر زمانه، وتغيُّر خلانه، ثم وقف على سيرة سيد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين[3]، فأحس، وهو المفجوع بعصره، أنَّهما في المتأخرين كالعمرين - ﷺ - في المتقدمين، عدلاً وجهاداً، فخطرت في باله فكرة: لِمَ لا ينشئ كتاباً في التأريخ لدولتيهما، يتضمَّن التقريظ لهما، والتعريف، فلعلَّه يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك[4].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٥٦.

(٢) «عيون الأنباء»: ص٦٤٨.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٦.

(٤) المصدر السالف.

ولاحت له دولتا نور الدين وصلاح الدين روضتين في صحراء عصره المترامية، فهل تهوي إليهما قلوب ملوك عصره، فيحاولون التشبُّه بهما؟ إنَّه لن يكتب لهم عن العمرين، فقد بَعُدَ زمانهما، ويشعرون بالعجز عن التشبُّه بهما، أمَّا نور الدين وصلاح الدين، فهما من بعض ملوك دهرهم، ولن يعجزوا عن التشبُّه بهما[١].

وعكف أبو شامة على مصادره يجمعها، وعلى وثائقه يرتِّبها، وعلى الأخبار يستخرجها، استعداداً لإنشاء «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية».

وريثما يتمُّ له ذلك، ضمَّت يداه طفله محمداً ذا السنوات الأربع، فرأى فيه الأمل الذي يضيء حُلكة تلك الأيام، فراح يبدِّد وحشتها بالسعي في إسماعه من مسندي عصره، وتحصيل الإجازات له، عساه أن يعوِّض في ابنه ما فاته وهو صغير[٢]، ولم ينسَ أحياناً أن يصحب معه إلى مجالس السماع ابنته فاطمة[٣].

* * *

ولعلَّ البدر المعلم أول شيخ سعى إليه أبو شامة مصطحباً ابنه محمد ليسمعه عليه، وقد كان البدر معلِّماً في مكتب جاروخ جوار المدرسة العادلية الكبرى، وكان يروي الثمانين للآجُرِّي عن الحافظ أبي طاهر السِّلَفي سماعاً، فقرأها أبو شامة، وسمعها الابن على الشيخ بقراءة أبيه[٤].

وتحصيلاً للأسانيد العالية سعى أبو شامة بابنه إلى مجالس سماع المسندين، فأسمعه من الشيخ أبي الطاهر إسماعيل بن ظفر بن أحمد النابلسي بجبل قاسيون، وكان متفرِّداً بطريقين: عن اللبان عن أبي علي الحداد، وعن أبي سعيد الصفار عن الفراوي[٥].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٦.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٥٥.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٤٧، ٦١، ١٤٠.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٥٧.

(٥) المصدر السالف.

وأسمعه كذلك من الشيخ المسند تاج الدين أبي الحسن محمد بن أبي جعفر إمام الكلاسة، وكان مسند وقته، ذا سماعات جمّة صحيحة، وأصول جليلة[١].

وأسمعه من الشيخ عزّ الدين عبد العزيز بن عثمان بن أبي طاهر الإربلي، إمام دار الحديث النورية، وكان شيخاً حسناً، مسنداً، أسمعه عليه كثيراً من الكتب والأجزاء[٢].

وأسمعه من الشيخ تاج الدين عبد الجليل الأبهري الصوفي، وكان من أهل الحديث، ذا سماعات كثيرة، وبخطّه طباق جمّة[٣].

وأسمعه كذلك من الشيخ تقيّ الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني، وكان شيخاً صالحاً، مشتغلاً بالحديث سماعاً وكتابة وإسماعاً[٤].

وسعى به إلى أصحاب حافظ دمشق ومؤرخها أبي القاسم ابن عساكر، فأسمعه من الشيخ عزّ الدين عبد العزيز بن محمد بن الحسن، ويعرف بابن الدجاجية، وكان له سماع من الحافظ أبي القاسم، وهو ابن خمس سنين أو نحوها، فأسمعه أشياء من تصانيف الحافظ أبي القاسم ومروياته بسماعه لها منه[٥].

وكذلك أسمعه من الشيخ زكي الدين أبي إسحاق إبراهيم بن الشيخ المسند أبي طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعي، وكان شيخاً مسنداً صالحاً، ويروي بكثرة عن الحافظ أبي القاسم، فأسمعه أشياء من أمالي الحافظ وغيرها[٦].

وأسمعه من المُخَلِّص عبد الواحد بن عبد الرحمن بن عبد الواحد بن هلال

(١) «المذيل»: ٢/ ٧٠.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٨٠.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٦٨.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١١٨-١١٩.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٥٩-٦٠.

(٦) «المذيل»: ٢/ ٦٠-٦١.

العدل، وكان من أصحاب الحافظ أبي القاسم، فأسمعه عليه أجزاء بقراءته وقراءة غيره[١].

وأسمعه من شيخ الشيوخ أبي محمد عبد الله بن حموية، وكان شيخاً متواضعاً، عالماً فاضلاً، ديِّناً، صحيح الاعتقاد، وكان قد سمع من الحافظ أبي القاسم ابن عساكر، والفقيه قطب الدين النيسابوري، وأبي الفرج الثقفي، وأبي طاهر الخشوعي، فأسمعه عليه كثيراً، وأجازه بجميع ما يرويه[٢].

وأسمعه «صحيح البخاري» من الشيخة أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب بقراءته عليها، وقراءة غيره[٣].

وأسمعه «صحيح مسلم» من الشيخ زين الدين أبي زكريا المالقي، ومن الشيخ تاج الدين أبي العباس أحمد بن القاضي شمس الدين بن الشيرازي، وكان خيِّراً، متواضعاً، فاضلاً، أميناً، ثقةً[٤].

وسعى به إلى مجلس سماع شيخه تقي الدين بن الصلاح، فأسمعه عليه معظم «السنن الكبير» للبيهقي، وجملة من تصانيفه[٥]، منها كتاب «المناسك»، وحين مرَّ فيه ابن الصلاح على ذكر ما ابتدعه الناس من صلاة ركعتين عقب الفراغ من السعي على المروة، قال: إنَّه ينبغي أن يكره ذلك، لأنَّه ابتداع شعار. وهنا التفت إليه أبو شامة قائلاً: فكيف صلاة الرغائب؟ فتبسَّم ابن الصلاح، ولم يرد[٦].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٦٣.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٦٤.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٦٣.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٦٠، ٦٥ ـ ٦٦.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٦٨ـ٦٩.

(٦) «الباعث على إنكار البدع والحوادث»: ص٢١٠ـ٢١١، وكان ابن الصلاح قد انتصر لصلاة الرغائب حين أنكرها الشيخ عز الدين بن عبد السلام سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م)، انظر «الباعث»: ص١٤٩ـ١٥٠، وص ٤٨٦ من هذا الكتاب.

وأسمع ابنه محمداً كذلك من الشيخ الفقيه أبي الفتوح عمر بن أسعد بن المنجى الحنبلي، وكان فقيهاً، يدرِّس بالمدرسة المسمارية، وكان يروي عن أبي المعالي بن صابر، والقاضيين: ابن الشهرزوري، وابن أبي عصرون[١].

وأسمعه من الشيخ الحافظ تقي الدين أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفيني، وكان عالماً بالحديث، ديِّناً، متواضعاً[٢].

ولم يفتْ أبا شامة أن يحصل لابنه إجازة من الشيخ أبي الفضل جعفر بن علي بن أبي البركات بن جعفر بن يحيى الهَمْداني، المقرئ المحدِّث، وهو من أصحاب الحافظ أبي طاهر السِّلَفي، وكان قد قدم دمشق صحبة الناصر داود بن المعظم[٣]، سنة[٤] (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م).

وكذلك حصل له إجازة من الشيخ عماد الدين عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي، وكان شيخاً حسناً لطيفاً، وكان له رواية من الثقفي وغيره[٥].

وكان يرافق أبا شامة إلى مجالس السماع هذه صاحبه الشيخ شمس الدين محمد بن المبارك السنجاري[٦].

ولا ريب أنَّ أسارير أبي شامة كانت تتلألأ بالفرح، وهو يرى عقب انتهاء مجلس السماع، وقد كتب اسم ابنه محمد بخط دقيق في طباق السماع في جملة الأسماء.

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٦١-٦٢.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٦٢.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٤٦-٤٧.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٤١.

(٥) «المذيل»: ٢/ ١٤٠.

(٦) «المذيل»: ٢/ ١١٦.

وزال الظلم عن دمشق. . . ولكن

لم يحصل الناصر داود صاحب الكرك على ما كان يؤمّله من مساعدة الصالح أيوب له في استعادة دمشق، فانضمَّ نكاية به إلى عدويه: الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص[1]، واتفقت كلمة الثلاثة على محاربة الصالح أيوب[2]، وبخاصة بعد علمهم بمكاتبته للخوارزمية، وطلبه الاستعانة بهم على حربهم، وبما أنَّهم لا طاقة لهم به فزعوا إلى الصليبيين يستنجدون بهم، واتفقوا معهم على أن يتنازلوا لهم عمَّا بقي بأيدي المسلمين من بيت المقدس، وهو الحرم الشريف بما يحويه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى، إضافةً إلى تسليمهم طبرية وعسقلان وكوكب. وكان سفيرهم إليهم الملك المنصور، وقد قدم عكا لإبرام هذا التحالف، وهكذا خُلِّي بين المسجد الأقصى والصليبيين، ووقعت القدس بكاملها مرة أخرى أسيرة في أيدي الصليبيين، وذلك سنة[3] (٦٤١هـ/١٢٤٣م).

كانت دمشق في تلك الفترة تضجُّ بالشكوى من ظلم القاضي رفيع الدين الجيلي، وقد استعلى بمنزلته عند أمين الدولة، فتمادى في غيّه، ولم يعد يراعي

---

(١) تولى حمص بعد وفاة والده الملك المجاهد سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، انظر «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٥٤ ـ ٢٥٦، و«المذيل» ٢/ ٥١ ـ ٥٢.

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/ ٢٧٨.

(٣) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٣٢ـ٣٣٤.

أيسر مظاهر السلوك التي تليق بقاضي المسلمين، فصار يقعد في مجلس الحكم وهو سكران، ويخرج إلى صلاة الجمعة مخموراً، وغدت داره مثل الحانات[(١)]، وبسلامة نية اعتقد شمس الدين محمد بن سعد؛ كاتب الصالح إسماعيل أن لا علاقة للسلطان بذلك، فكتب إليه مشفقاً وناصحاً:

يامالكاً لم أجد لي من نصيحته ... بداً وفيها دمي أخشاه منسفكا

اسمع نصيحةَ مَنْ أوليته نِعَماً ... يخافُ كُفْرانَها إن كفَّ أو تركا

والله ما امتدَّ ملك مدَّ مالِكُهُ ... على رعيته من ظلمه شبكا

وزيره ابن غزال والرفيع به ... قاضي القضاة ووالي حربه ابن بكا

جماعة بهم الآفات قد نُشِرَتْ ... والشَّرْعُ قد مات والإسلامُ قد هلكا

ما راقبوا اللهَ في سرٍّ وفي عَلَنٍ ... وإنَّما يرقبون النجمَ والفلكا

والآن قد حَكَموا واستوثَقُوا حَلِفاً ... وصيّروك لهم في صيدهم شركا

إن كان خيراً ورزقاً واسعاً فلهم ... أو كان شراً وأمراً سيئاً فلكا

وقد نصحت فَقُمْ واقْبَلْ نصيحة مَنْ ... ما كان في قولهِ خرقاً ولا أفكا

واستدرِكِ الأمرَ واسترْ ما جنوه بهم ... تلفَ الرشاد وإن أصررت منهمكا

فعن قريبٍ ترى آثارَ فِعْلَتهم ... فيهم وفيكَ إذا ما سترهم هتكا[(٢)]

وما لم يكن يدريه ابن سعد الكاتب أنَّ رفيع الدين كان يدلُّ على الصالح إسماعيل بما يحمله إلى خزائنه من أموال الرعية، بل بلغ به إدلاله أن تشوفت نفسه إلى منصب الوزارة، فراح يسعى في إفساد العلاقة ما بين الصالح إسماعيل ووزيره أمين الدولة، ليحلَّ محلّه، فلمَّا أحسَّ أمين الدولة بدبيب السعاية، كاشف الصالح إسماعيل بها، طالباً إليه التخلّص منه، قائلاً له: هذا الرفيع قد أكل

---

(١) «مرآة الزمان» (وفيات سنة ٦٤٢هـ) بتحقيقي، وانظر «المذيل»: ٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) «مرآة الزمان» (وفيات سنة ٦٥٠هـ)، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ٩١ـ٩٢.

البلاد، وأقام علينا الشناعات، والمصلحة عزله ليتحقق الناس أنَّك ما أمرته بهذه الأشياء[١].

ووجدها الصالح إسماعيل نصيحة تحفظ مركزه، فعزل القاضي رفيع الدين، وقبض على أعوانه، وولّى القضاء محيي الدين يحيى بن محيي الدين محمد بن الزكي[٢].

ويستخف الفرح أبا شامة لنهاية هذا القاضي، فيكتب في تاريخه في حوادث سنة إحدى وأربعين وست مئة عبارات ترشح بالشماتة، قائلاً: «وفيها يوم الجمعة بعد الصلاة صبيحة عيد الأضحى قبض على أعوان القاضي الرفيع الجيلي الظَّلَمة الأرجاس، وكبيرهم الموفق حسين بن عمر بن عبد الجبار الواسطي، المعروف بابن الرواس ـ لا رحمهم الله ـ وسجنوا، ثم عذبوا بالضرب والعصر والمصادرات[٣].

وفي يوم الجمعة الآتي ثامن عشر ذي الحجة تحقق صرف هذا القاضي الظالم وعزله، ثم أخرج من داره، وسجن بالمدرسة المقدمية بباب الفراديس، ثم أخرج ليلاً، وذهب به، فسجن بمغارة أفقه من نواحي البقاع، ثم انقطع خبره»[٤].

وهكذا لم يعلم أبو شامة ولا أهل دمشق بما حلَّ بالقاضي رفيع الدين، فبعد أن أخرجه أمين الدولة من دمشق ليلاً، وبعث به إلى منطقة نائية عن أعين الرقباء، إلى مغارة أفقه، وهي على حافة منحدر يشرف على مهواة سحيقة ينساب في قعرها نهر إبراهيم، شهد عليه هناك عدلان من عدول بعلبك ببيع أملاكه لأمين الدولة، ثم كُتِّف بالحبال، ودفع في تلك المهواة، فسقط يتهاوى إلى قعرها السحيق، غير أنَّ

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٢هـ)، «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٤١ـ٣٤٢.

(٢) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٢هـ).

(٣) «المذيل»: ٢/ ٦٣.

(٤) المصدر السالف.

ثيابه علقت بصخرةٍ من صخورها، فارتطم بها، فرمي بالحجارة، وظلَّ أنينه يسمع، ويتخافت حتى مات، وذلك في آخر ذي الحجة سنة[١] (٦٤١هـ/ ١٢٤٤م).

وتناهى من بعد إلى سمع أبي شامة بعض ما حدث له، غير أنَّه لم يتيقن منه، فكتب في تاريخه: «وذكروا أنَّه توفي ـ لا رحمه الله ـ فمنهم من قال: ألقي من شاهق، ومنهم مَنْ قال: خنق»[٢].

ولم يتحقَّق الناس من موته إلاَّ بعد زمن، إذ كتب أبو شامة في حوادث سنة اثنتين وأربعين وست مئة: «وفيها تحقق موت القاضي الظالم، الوضيع الملقَّب بالرفيع»[٣].

* * *

وسار الخوارزمية في أوائل محرَّم سنة (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) لنصرة الصالح أيوب، وهم في نحو عشرة آلاف فارس، وانضمَّ إليهم جماعة من الأمراء القيمرية، وأصحابهم وأتباعهم، فقطعوا الفرات، وأجفل الناس بين أيديهم، وكانوا لا يمرُّون بموضع إلاَّ نهبوه، وعاثوا فيه فساداً.

وفي طريقهم إلى غزَّة، هاجموا بيت المقدس، وقتلوا مَنْ فيه من الصليبيين، وسبوا ذراريهم ونساءهم، وعفوا كل أثر لهم، وعادت القدس إلى أيدي المسلمين مخضَّبة بالدماء.

ولمَّا وصلوا إلى غزة أرسلوا إلى الصالح أيوب يخبرونه بقدومهم إليه لنصرته، ويطلبون منه إنفاذ عساكره إليهم ليحاربوا عمَّه الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص[٤]. فأرسل إليهم عسكراً مقدماً عليهم أجلَّ مماليكه الأمير ركن الدين بيبرس.

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٢هـ)، و«عيون الأنباء»: ص٦٤٧ـ٦٤٨.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٦٣.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٦٤.

(٤) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٣٦ـ٣٣٧.

وفي دمشق جهَّز الصالح إسماعيل عساكره، وقدَّم عليهم الملك المنصور لخبرته في قتال الخوارزمية، وانتصاره عليهم مرَّتين، مؤملاً أن ينتصر عليهم في الثالثة.

ورحل المنصور بعساكره وعسكر دمشق مع الصليبيين المتحالفين معهم، وقد استعدوا وحشدوا، وأرسل الناصر داود عساكره كذلك معاضداً لهم، قاصدين الخوارزمية ومن معهم من عسكر مصر.

وفي جمادى الأولى سنة (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) وقع المصاف بين الفريقين في موضع بين عسقلان وغزَّة، فانكسر المنصور ومَنْ معه من الصليبيين كسرةً عظيمةً، وأخذتهم سيوف المصريين والخوارزمية، فأفنوهم قتلاً وأسراً، ولم يُفلت منهم إلاَّ قليل، وأُسر من عسكر دمشق وعسكر الكرك جماعة مقدمون، ونهبت جميع أثقال الدمشقيين.

ومضى المنصور، وفلول عسكره وعسكر دمشق في أسوأ حال، ودخل دمشق، وهو لا يكاد يصدق بالنجاة، ووصل إلى مصر أسارى الصليبيين، ومعهم جماعة من الأمراء والأعيان من جيش دمشق وحمص والكرك، وكان يوم دخولهم القاهرة يوماً مشهوداً[١].

وكانت قلوب أهل دمشق مع الجيش المصري، فما إن بلغهم خبر انتصاره حتى فرحوا به، وقد عبَّر عن فرحتهم أبو شامة فيما كتبه في تاريخه في حوادث جمادى الأولى: «وفي هذا الشهر كسر الفرنج ـ لعنهم الله ـ ومن انضمَّ إليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة بين عسقلان وغزة، وغُنم منهم أموال عظيمة، وأُسِرَ من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم، وقُتِل منهم مقتلة عظيمة، وذُهِبَ برؤوس المقتلين والمأسورين إلى مصر»[٢].

---

(١) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٣٧ـ٣٣٩.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٦٥.

ودبَّ الرعب في قلب الصالح إسماعيل، وراح يستعدّ لحصار دمشق القادم، مطبقاً سياسته في كل حصار، وذلك بتخريب البلد خارج السور. فخرّب رباعاً كثيرة حول البلد، وخرّب جسر باب توما، وسدَّه، فارتفع ماء نهر بردى، فغرقت المساكن التي على حافته بين جسري باب توما وباب السلامة[١].

وجهَّز الصالح أيوب عساكره لفتح دمشق، مقدّماً وزيره معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ أميراً عليهم.

ويرحل معين الدين في عسكر مصر عن القاهرة، ويصل إلى غزَّة، وهناك ينضمُّ إليه الخوارزمية ومَنْ بغزَّة من العساكر المصرية، فيرحل بهم إلى بيسان، فينزلها، ويرتِّب أموره فيها، ثم يقصد دمشق، فيبلغ أسوارها في أواخر سنة (٦٤٢هـ/ ١٢٤٥م)، ويضرب حصاره عليها[٢]، ويقطع الخوارزمية الطرق على الناس، ويزحفون إليها من كل ناحية.

ويبعث الصالح إسماعيل إلى معين الدين استهزاءً به سجادة وإبريقاً وعكازاً، ويقول له: اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بقتال الملوك. مشيراً إلى أنَّه ابن شيخ الشيوخ المشرف على خوانق الصوفية[٣]. فيبعث إليه معين الدين بجنك وزمر وغلالة حريري أحمر وأصفر، قائلاً له: السجادة تصلح لي، وأنت أولى بهذا. يشير إلى انشغاله باللهو والغناء[٤].

ويشتدُّ الحصار على دمشق، وكان أشدّ أيامه يوم الاثنين ثامن محرم سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) فقد ركب معين الدين في العساكر، وزحفوا من كلِّ ناحية، ورموا النيران من قصر حجاج، وضربوا بالمجانيق على باب الجابية وباب الصغير،

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٦٥.

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٤١.

(٣) الخوانق جمع، مفردها خانقاه، وهي رباط الصوفية، انظر «منادمة الأطلال»: ص٢٧٢.

(٤) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٣هـ).

وكانت قد نصبت المجانيق كذلك داخل البلد، وترامى الفريقان، فأُحرق قصر حجاج والشاغور، واستولى الحريق على مساجد وخانات ودور عظيمة[١].

وفي اليوم التاسع من محرم بعث الصالح إسماعيل الزراقين، فأحرقوا جوسق العادل، وأمر بتخريب عمارة العقيبة خارج باب الفراديس، وباب السلامة، وباب الفرج، فنهبت أموال الناس، ورموا على الطريق، وقد احترق بعضهم، وآثر نسوة الاحتراق في بيوتهن على الفضيحة[٢].

وأحرق حكر السُّمَّاق خارج باب النصر، واشتدَّ الغلاء، وعَظُمَ البلاء، وفي أول ربيع الآخر أمر الصالح إسماعيل بإحراق العقيبة[٣].

وبينما كانت دمشق تعاني أهوال الحصار والحريق يتوفى مفتي الشام ومحدثها الإمام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن الصلاح في يوم الأربعاء (٢٦) ربيع الآخر سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) بدار الحديث الأشرفية، ويُصلى عليه في جامع دمشق بعد صلاة الظهر، ويحضر الصلاة عليه أبو شامة، ويشيّعه إلى باب الفرج، ثم يعود إلى مسكنه في المدرسة العادلية الكبرى، ليكتب في تاريخه في وصف جنازته: «وحمل على الأصابع، فصلي عليه بعد صلاة الظهر، وكانت على جنازته هيبة ووقار، وجمع متوفر، ورقة شديدة، وإخباتٌ وخشوع، ثم خُرج به إلى باب الفرج، ورجع الناس بسبب الحصار، وخرج معه نفر دون العشرة إلى مقابر الصوفية، فدفن بها، رحمه الله، حضرت الصلاة عليه بالجامع، وشيعته إلى باب الفرج، ومنه استفدت علمي الحديث والفقه صغيراً وكبيراً»[٤].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٦٦.

(٢) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٣هـ)، «المذيل»: ٢/ ٦٦.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٦٦.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٦٨-٦٩.

ويتصدر أبو شامة بعد وفاته للفتوى[١].

وتطول أيام الحصار، ويرى الصالح إسماعيل قلّة عسكره، وفناء ذخيرته، وقد تخلّى عنه حلفاؤه الحلبيون، وليس له مدد، فيرسل وزيره أمين الدولة إلى معين الدين يطلب له الأمان، على أن يسلِّمَ إليه دمشق[٢]، وينعقد الصلح في يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) ويخرج في الليل الصالح إسماعيل إلى بعلبك، والملك المنصور إلى حمص، مخلِّفين دمشق خراباً[٣].

ويدخل معين الدين يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى دمشق، وينزل في دار سامة، وهي الدار التي كان ينزل فيها المعظم ومن بعده ابنه الناصر داود، ويستبشر الناس بخلاصهم من عسف الصالح إسماعيل وظلمه، ويستبشر معهم أبو شامة، فيكتب في تاريخه فرحاً: «وزال الظلم عن البلد والمصادرات، والخوف والوجل، جعله الله فتحاً مباركاً برحمته»[٤].

فهل زال الظلم حقاً عن البلد كما أمل أبو شامة وأهل دمشق؟



---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٠، ١٤٨، ٢/ ١٥٣.

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٤٨-٣٤٩.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٧١.

(٤) المصدر السالف.

إقصاء أبي شامة عن مشيخة الإقراء

ما إن استقرَّ معين الدين بن شيخ الشيوخ في دار سامة حتى افتتح عهده الجديد بعزل محيي الدين يحيى ابن الزكي عن القضاء، وولاَّه صدر الدين أحمد بن قاضي القضاة يحيى، المعروف بابن سني الدولة(١).

كان صدر الدين في نحو الثالثة والخمسين من عمره، وكان قد سمع الحديث، وبرع في الفقه وأفتى، وناب في القضاء عن أبيه سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) ثم ولي وكالة بيت المال(٢)، وكان مدرِّساً في المدرسة الإقبالية والجاروخية(٣).

فلربَّما تفاءل به أهل دمشق خيراً، وهو يتخذ مكانه على عادة القضاة في المدرسة العادلية الكبرى، ولكن هل تفاءل به أبو شامة، وهو قديم المعرفة به، منذ أيام شيخه فخر الدين ابن عساكر، حيث كانا يلتقيان، على ما بينهما من فارق في السن، في حلقته بجامع دمشق(٤)؟ ولربما أبان أبو شامة عن شيء من توجسه منه، وذلك بإغفاله ذكر تاريخ ولايته القضاء، وهو يورد حوادث تلك السنة في تاريخه.

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٣هـ)، و«ذيل مرآة الزمان»: ١/ ٣٨٥، و«المذيل»: ٢/ ١٤٠.

(٢) «طبقات الشافعية» للإسنوي: ١/ ٥٤٨.

(٣) «الوافي بالوفيات»: ٨/ ٢٥٠.

(٤) المصدر السالف.

وسرعان ما بدَّد هذا القاضي تفاؤل أهل دمشق به، فقد عدَّل رجلاً يسمَّى جمال الدين اليزدي، وهو معروف في دمشق بالفسق، فهو سكير، مقامر، زان، متهم باللواط، تارك للصلاة، فخلع عليه خِلْعة العدول، الطيلسان، وأحضره مجلسهم، وكان فيهم أبو شامة، وقد صُدم أهل دمشق بتعديل هذا الفاسق حتى قال فيه أحد شعرائهم:

طاب شربُ المُدَامِ في رمضان ... واصطفاق العيدان عند الأذانِ

والزِّنى واللِّواط في حَرَمِ اللَّـ ... ـه وترك الصَّلاة بالقُرآنِ

منذ صار اليزديُّ في سكك الشا ... م يطوفُ الحاناتِ بالطَّيْلَسانِ

يا عدولَ الشآم قد سمح القا ... ضي لأصحابه بنيل الأماني

قامروا واشربوا وقودوا ولوطوا ... وافسقوا والحدوا إذن بأمانِ

وارفعوا عنكم التَّسَتُّرَ بالفِسْـ ... ـق فلا حاجة إلى الكتمانِ[١]

وكذلك جعل أبا النجيب نصر بن أبي العز بن أبي طالب الشيباني، المعروف بالنجيب بن الشقيشقة شاهداً عدلاً، وهو معروف بين أهل دمشق برقة الدين والكذب، بل إنَّه أسند إليه عقد الأنكحة، متقرِّباً في تعيينه من أحد أرباب الجاهات كان النجيب على صلة به، وفجع الناس بتعيينه، فقال فيه أحد شعرائهم:

جَلَسَ الشُّقَيْشَقَةُ الشَّقيُّ ليشهدا ... بأبيكما ماذا عدا ممَّا بدا

عجباً لمحلول العقيدة جاهلٍ ... بالشرع قد أَذِنُوا له أن يَعْقِدا

هل زُلْزِلَ الزِّلْزالُ أم قد أُخْرِجَ الد ... جال أم عَدِمَ الرِّجال ذوو الهُدَى[٢]

وجاء بالشاعر الخليع أبي بكر محمد بن محمد الإسعردي، المعروف بالنور الإسعردي، فأجلسه مع الشهود تحت الساعات[٣].

---

(١) «فوات الوفيات»: ١/ ١٣٨-١٣٩.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٣٠-١٣١.

(٣) «عيون التواريخ»: ٢٠/ ١٨٩، «فوات الوفيات»: ٣/ ٢٧١-٢٧٦.

وعاش الناس يتقلَّبون من جديد تحت كوابيس القاضي رفيع الدين الجيلي، وقد تسمى هذه المرة بصدر الدين!

* * *

وفي غمرة انشغال دمشق بأخبار قاضيها الجديد يتوفى فجأة ابن أبي شامة محمد، غرسه الذي كان يتعاهده ويرعاه، متنقلاً به بين مجالس السماع وحلقات العلم، وتموت بموته أحلام أبي شامة في أن يرى ابنه ذات يوم عالماً كبيراً، ذا أسانيد عالية، يُرحل إليه، ولنا أن نتخيل الوالد المفجوع، وقد مدّد جسد ابنه الصغير على مغتسله، ودموعه تتقاطر على خديه حزناً ورحمة، بينما كان يباشر تغسيله وتكفينه، ويتذكر في تلك اللحظة ساعة ولادته، وكيف كان هو قابله[1]، وبألم بالغ يكتب من بعد في تاريخه خبر موت ابنه، متعمِّداً إبهام تاريخ وفاته، وكأنَّه لا يقوى على تذكره، فيقول: «وفي يوم الجمعة آخر جمعة في الشهر[2] توفي ولدي أبو الحرم محمد ـ جمعني الله وإياه في الجنَّة ـ ودفنته عند أمه بمقبرة ابن زويزان المجاورة لمقبرة الصوفية، على حافة الطريق إليها ـ رحمهما الله وإيانا ـ وأنا كنت قابله وغاسله، وبلغ من العمر ثماني سنين ونصفاً، وسمع من كتب الحديث وأجزائه ومن سائر العلوم شيئاً كثيراً على جملة من المشايخ نحو مئة وأربعين شيخاً»[3].

وشتَّان ما بين يومي ولادته ووفاته!..

ويبدو أنَّ أبا شامة كان قد تزوَّج قبل نحو سنة (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) من امرأة، ثم لأمرٍ ما طلَّقها، وهي حاملٌ، فأبقاها في داره، لتعتدَّ فيه ريثما تلد، وأجرى النفقة عليها، وقد ولدت له من بعد بنتاً سماها زينب، توفيت بعد وفاة ابنه محمد

---

(١) انظر ص٩٥ من هذا الكتاب.

(٢) يعني في (٢٦) جمادى الأولى سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م).

(٣) «المذيل»: ٢/ ٧١.

بأربعة أيام[١]، ولعلَّها توفيت عقب ولادتها بقليل، إذ لم يذكر أبو شامة تاريخ ولادتها كعادته في ذكر تواريخ ولادة أبنائه، ولم يذكر أين دفنها، والراجح أنَّه دفنها بمقبرة ابن زويزان إلى جانب قبر أخيها[٢] محمد[٣].

وهكذا تتوالى أحزانه، ويلفي نفسه وحيداً لا زوجة له ولا أولاد إلاَّ ابنته فاطمة شقيقة ابنه محمد، ذات الأعوام الاثني عشر ربيعاً.

ويبدو أنَّ جسده لم يقوَ على تحمُّل أثقال هذه الأحزان، فوقع مريضاً[٤] يعاني أوجاع الجسد والروح.

* * *

وما كاد أبو شامة يبل من مرضه، وتلتئم جراح روحه حتى يتوفى شيخه الحبيب علم الدِّين السخاوي، بمنزله بالتربة الصالحية، في ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة سنة[٥] (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، ولما يمضِ على وفاة ولده سوى خمسة عشر يوماً، وتخرج دمشق من الغد لوداع شيخها، وكان يوماً مطيراً، والأرض موحلة، ويخرج أبو شامة يودِّع شيخه، ويصلِّي عليه بالجامع، وخارج باب الفرج، ويشيِّعه إلى سوق الغنم، ثم يرجع إلى مسكنه، إذ لم يقوَ على متابعة السير نحو جبل

(١) «المذيل»: ٢/ ٧١.

(٢) يؤيد ذلك أنَّه قال حين توفي ابنه إسماعيل: ودفنته بجنب إخوته بمقبرة ابن زويزان، انظر «المذيل»: ٢/ ١٦٠.

(٣) يبدو أنَّ أبا شامة قد أبقى امرأته المطلقة في بيته، وقد تزوجت من غيره، وأنجبت من زوجها ولداً ذكراً بعد نحو سنة، ذكره أبو شامة في تاريخه، فقال: «وفي رجب ولد بمنزلي عبد العزيز بن أحمد بن عبد الجبار الزينبي، أخو ابنتي زينب من أمها، جعله الله موفقاً سعيداً». انظر «المذيل»: ٢/ ٨١.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٧٢.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٧٣.

قاسيون، حيث تربته، وهي مسافة بعيدة على رجل قريب عهد بالمرض[١]، وفي البيت يجلس إلى تاريخه ليكتب فيه، والحزن يعتصر قلبه: «وكان على جنازته هيبة وجلالة، ورقة وإخبات، وختم بموته موت مشايخ الشام يومئذ، وفقد الناس بموته علماً كثيراً، ومنه استفدت علوماً جمَّة، كالقراءات والتفسير وفنون العربية، وصحبته من شعبان سنة أربع عشرة، ومات وهو عنِّي راضٍ، والحمد لله على ذلك»[٢].

وكان الشيخ علم الدين السخاوي قد أقرأ الناس بجامع دمشق في حلقته عند رأس يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ نيفاً وأربعين سنة، ثم لما بنى الصالح إسماعيل بن العادل تربة لوالدته، ولي السخاوي مشيخة الإقراء فيها، وجعل شرطه لتوليها أن يكون شيخها أعلم أهل البلد بالقراءات[٣].

فتولاّها بعد السخاوي فخر الدين محمد بن عمر بن عبد الكريم الحميري، المعروف بابن المالكي، وكان يقرئ القرآن في حلقة طاوس بجامع دمشق[٤] غير أنَّ أيامه لم تَطُلْ فيها، إذ توفي ليلة السبت ثامن عشر شعبان سنة[٥] (٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م)، أي بعد وفاة السخاوي بنحو شهرين وأربعة أيام، فانعقدت إمامة الإقراء بعد وفاته لأبي شامة.

* * *

كان أبو شامة قد غدا من كبار علماء القراءات في دمشق، بل إنَّه صار أكبرهم بعد وفاة شيخه السخاوي، واشتهر بذلك بين المشتغلين بهذا الفن، وأقرُّوا بإمامته فيه، وبخاصة بعد تأليفه كتاباً في الأحرف السبعة بعنوان: «المرشد الوجيز إلى

(١) «المذيل»: ٢/ ٧٤.
(٢) المصدر السالف.
(٣) «غاية النهاية»: ١/ ٥٦٩، ٢/ ٢١١، و«الدارس في تاريخ المدارس»: ١/ ٣٢١.
(٤) «المذيل»: ٢/ ١٣٤، «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣٣١.
(٥) «المذيل»: ٢/ ٧٥.

علوم تتعلق بالكتاب العزيز»(١)، وتصديه لشرح الشاطبية في القراءات شرحاً موسعاً يحيط بها(٢)، ومن ثم تطلعت نفسه لتولي مشيخة الإقراء في التربة الصالحية تنفيذاً لشرط واقفها.

وكان للسخاوي تلميذ آخر نجيب هو أبو الفتح محمد بن علي بن موسى الأنصاري، الدمشقي، وهو من أجلِّ أصحاب السخاوي كذلك(٣)، غير أنَّه يصغر أبا شامة بنحو ستة عشر عاماً، إذ كان أبو شامة وقتئذ في نحو الرابعة والأربعين، وأبو الفتح في نحو الثامنة والعشرين، ولربما لم يتوقع أبو شامة وقتئذ أن يكون أبو الفتح منافساً له في مشيختها، فهو الأعلم والأكبر، والأطول ملازمة لشيخه السخاوي، ولربَّما فوجئ حقاً وهو يرى أمير دمشق معين الدين بن شيخ الشيوخ، وقاضي قضاتها صدر الدين ابن سني الدولة، يرشِّحان أبا الفتح لتولي مشيختها، متخذين منه أداةً لإقصاء أبي شامة عنها، حسداً له، ونكاية به.

لا ريب أنَّ أبا شامة، وهو أحد عدول دمشق، لم يكن ليرضى عن تعديل هذا القاضي للفاسقين(٤)، ولم يكن ليرضى عمَّن عيَّن هذا القاضي، فأطلق لسانه فيهما.

ولربَّما كان لموقف أبي شامة من كمال الدين التفليسي نائب القاضي الأثر الأكبر في ذلك، حين ردَّ عليه وعلى القاضي فيما أتياه من العبث بعقود الأنكحة. إذ كان القاضي صدر الدين قد أذن لتاج الدين عبد الرحمن بن عبد الباقي الحنفي بعقد نكاح على مذهبه، ثم أذن القاضي صدر الدين لنائبه الشافعي كمال الدين

---

(١) ألَّفه قبل سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٨م)، لأنَّه أشار إليه في «كتاب البسملة الأكبر»: ص١٤٥، وقد ألَّفه في ذلك العام، وانظر ص ١٨٩، ٥٠٤ من هذا الكتاب.

(٢) هو الكتاب الكبير من إبراز المعاني، وقد شرع فيه قبل سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٨م)، إذ أشار إليه في «كتاب البسملة الأكبر»: ص١٢٤، وقد ألَّفه في ذلك العام، وانظر ص٤٨٣ ـ ٤٨٤، ٤٩٧ من هذا الكتاب.

(٣) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣٣١.

(٤) انظر ص١٣١ ـ ١٣٢ من هذا الكتاب.

التفليسي بنقض هذا العقد، وقد أثارت هذه القضية في حينها إنكاراً على الناقض والآذن، وتصدَّى أبو شامة لذلك العبث، فألَّف تصنيفاً ينقض فيه حكم القاضي ونائبه، ولمَّا ردَّ عليه كمال الدين أتبعه أبو شامة بتصنيف آخر سمَّاه «إقامة الدليل الناسخ لجزء الفاسخ»[١].

لم تكن تلك السنين الخداعة تحتمل صدق أبي شامة، وصدعه بالحق[٢]، فلم يرضَ معين الدين بن شيخ الشيوخ والقاضي صدر الدين أن يكون لأبي شامة منزلة أعلى من منزلته، فأظهرا الأمر، وكأنَّ بين أبي شامة وأبي الفتح مساواة في الحق بتولي هذا المنصب[٣]، وهما بحاجة إلى مَنْ ينصف بينهما، فعيَّنا الشيخ الإمام علم الدين القاسم بن أحمد بن موفق اللورقي، القارئ في التربة العادلية، حكماً بينهما[٤].

ولربما قَبِلَ أبو شامة بهذا التحكيم، وهو على يقين بأنَّ لا منافس له في مشيختها، ويجتمعون، ومعهم القاضي صدر الدين، ويسألهما الشيخ علم الدين اللورقي عن قول الشاطبي في باب وقف حمزة وهشام:

وفي غير هذا بين بين ومثله يقول هشام ما تطرف مسهلا[٥]

ويكتب أبو شامة بثقة العالم جواباً عن سؤاله بحثاً فيما يتعلَّق بالهمز في أصله وتقسيمه، ومذاهب النحاة فيه، وتعليل ذلك، ثم يذكر ما يتعلَّق بالبيت المذكور من اللغة والإعراب والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي وغير ذلك.

ويقتصر أبو الفتح على ما يتعلق بالوقف على الهمز فقط، ويقرأ الشيخ

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٧١، ١/ ١٤٣، وانظر ص٤٨ من هذا الكتاب.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٦.

(٣) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣٣١.

(٤) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣١٠ ـ ١٣١٢، ١٣٣١.

(٥) «إبراز المعاني»: ٢/ ١٤.

علم الدين اللورقي جوابيهما، ويعجب ببحث أبي شامة، فيقول فيه: هذا إمام من أئمة المسلمين، ويقول في أبي الفتح: هذا مقرئ[١].

ويتعلَّق القاضي صدر الدين بظاهر كلام اللورقي، فاهماً منه ما يريد أن يفهمه، فيقول: ما المقصود في وقفها إلاَّ المقرئ. ويوليها أبا الفتح.

ويتميز أبو شامة من الغيظ، وهو يرى إبعاده عن مشيختها بهذه الخديعة المكشوفة، فيخرج من مكان الاجتماع، وهو ينفخ غاضباً، ملتفتاً إلى الشيخ علم الدين اللورقي بانزعاج، قائلاً بأسى: يا شيخ ذبحتني. ويشعر الشيخ علم الدين أنَّه قد خدع هو الآخر، فيعتذر لأبي شامة بصوت متهدج، قائلاً: والله ما قصدت لك إلاَّ خيراً، وما علمت أنَّهم إلى هذا الحدّ من الجهل في فهم كلامي[٢].

ولن يغفر أبو شامة لعلم الدين اللورقي موقفه هذا، فيكتب من بعد في ترجمته له: «كان معمَّراً، مشتغلاً بأنواع من العلوم، على خلل في ذهنه»[٣].

ويكتم أبو شامة ما جرى له، فلا يشير إليه في تاريخه، بيد أنَّه يبوح به بعض البوح في قصيدته الفلاحة الرائية، عانياً نفسه:

وغدا المُسْتَحِقُّ حيرانَ نَدْما نَ من الغُبْنِ ينظرُ العَيْشَ شَزْرا
ثَبَّتَ الله بعضهم بغنى النَّفْـ ـس فلم يكترثْ وقد عاش دَهْرا[٤]

ولعلَّه تعزَّى نحواً من العزاء، وهو يتذكر موقفاً مشابهاً لشيخه فخر الدين ابن عساكر، حين أبعد عن مشيخة العادلية، وهو أحقّ الناس بها، فكتب يقول: «فسبحان مَنْ جعل فيه أفضل أسوة وعمدة، لمن ظلم من المشايخ والفضلاء بعده»[٥].

---

(١) «غاية النهاية»: ٢/ ٢١١.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٨٨، ويرد عليه الذهبي في «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣١٠ ـ ١٣١٢ بقوله: كذا قال أبو شامة، بل كان من أذكياء النحاة والمتكلِّمين، رحمة الله تعالى عليه.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٨٥.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٦٦.

ولعلَّه أرضي في تلك الفترة بتوليته مشيخة الإقراء بالتربة الأشرفية[١].

* * *

وربما في نحو هذه الفترة جرت لأبي شامة محنة، كانت ترمي للنيل من سمعته ونزاهته، لم يطاوعه قلمه على كتمانها، وهو الكتوم، فندت عنه بإشارة عابرة، وهو يترجم لفقيه شافعي ضرير، كان يدرس بالمدرسة الأمينية، وكان يسكن في أحد بيوت منارة جامع دمشق الغربية، وهو تقي الدين عيسى بن يوسف بن أحمد الغَرَّافي.

فقد ابتلي الغرافي بسرقة مال له من بيته، فاتهم به شخصاً كان يقرأ عليه ويلازمه، ويقضي حوائجه، ويقوده من المدرسة إلى البيت، ومن البيت إلى المدرسة، فأنكر الشخص المتهم ذلك، وتعصبت له أقوام عند والي البلد، فوقع الناس في عرض الغرافي من اتهامه مَنْ ليس من أهل التهم، ومن كونه جمع ذلك المال وهو وحيد غريب، ونسبه الناس إلى أنَّه غير صادق فيما ادَّعاه، فزاد الهم على الغرافي من ضياع ماله، والوقوع في عرضه، ولم يقوَ على احتمال ما ألمَّ به، فآثر الموت على الحياة، ففي يوم الجمعة سابع ذي القعدة سنة (٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م) وجد الغرافي مشنوقاً بالمئذنة الغربية[٢].

وبعد أن يسوق أبو شامة هذه القصة في تاريخه مبدياً تعاطفه مع الغرافي، يقول: «وجرى لي أخت هذه القضية، وعصمني الله سبحانه بفضله»[٣].

فمن اختلس مال أبي شامة؟ ومن الشخص الذي اتهمه أبو شامة؟ وهل راودت أبا شامة فكرة الانتحار؟ أسئلة لا يسعفنا أبو شامة بالإجابة عنها.

---

(١) أشار أبو شامة إلى توليته مشيخة الإقراء في التربة الأشرفية، غير أنَّه لم يعين تاريخها، انظر «المذيل»: ١/ ١٤٩، ٢/ ٢٢١.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٧٤.

(٣) المصدر السالف.

ويلتف حول أبي شامة محبُّوه، يسرون عنه، ويمدحه بعض مريديه الأدباء بقصيدة يعرِّض فيها بأعدائه:

أيها الحاسدون فَضْلَ شهابِ الدِّ ... ين عبدِ الرحمن رَبِّ المعالي
لا تُطيقونَ ما أطاق دَعُوا السَّعْـ ... ـي فلن تُدْرِكُوه غيرَ خيالِ
حاز مُذْ كان بالقناعة عِزًّا ... مَعْ بهاءٍ وهيبةٍ وجلالِ
واعتلاءٍ على الأماثل في بَثِّ ... جوابٍ له وحُسْنِ سؤالِ
ناشِرُ العِلْم قائِلُ الحقِّ كم قد ... نَصَرَ الشَّرْعَ عن صحيح الجِدالِ
صائِنٌ نَفْسَهُ وما فيه من عِلْـ ... ـمٍ ودِيْنٍ عن مِهْنَةٍ وابتذالِ
وسواه في الذُّلِّ إن خاب أو أنْـ ... ـجَحَ يسعى أيَّامَهُ والَّليالي
فارساً راجلاً يَمُرُّ ويأتي ... نحو قاضٍ وتارةً نحو والي
ذو التَّصانيفِ المُغْنيات بعون اللَّـ ... ـه عن مُتْعباتِ قِيْلٍ وقالِ
مَنْ يُرِدْ قَدْرَ فَضْلِهِ فليطالعْ ... كُتْبَهُ فَهْيَ عَيْنُ عينِ الكمالِ
وَهْوَ مِنْ نَفْسِهِ النَّفيسةِ في عِزٍّ (م) ... ومن عِلْمِهِ رَخِيُّ البالِ[1]

❀ ❀ ❀

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

حصار الخوارزمية دمشق

كان الخوارزمية قد فارقوا معين الدِّين بن شيخ الشيوخ عقب الصلح، ورحلوا نحو داريا غاضبين، فنهبوها، وأتلفوا مزروعاتها[١]، وسبب عصيانهم أنَّهم كانوا يمنُّون أنفسهم بإقطاعات كثيرة عند الصالح أيوب في مصر لكسرهم أعداءه في معركة غزَّة، بل كانوا يعتقدون أنَّهم يستحقُّون أن يقاسمهم البلاد[٢]، وها هم قد حاصروا دمشق حتى خضعت له، وإذا بالصلح يعقد من وراء ظهورهم لا يدرون به، فرأوا مصلحتهم في تبديل ولائهم، فكاتبوا الصالح إسماعيل في بعلبك، وحلفوا له[٣]، وكانوا قد استمالوا من قبله الناصر داود صاحب الكرك، فمال إليهم، وانقلب أعداء الأمس إلى أصدقاء، واتفقت كلمةُ الجميع على محاربة السلطان الصالح أيوب[٤].

وبادر الصالح أيوب، وقد بلغه مرض معين الدين، إلى تعيين الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني أميراً على دمشق، وكتب إليه وهو بنابلس يأمره

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٣هـ).

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/٢٤٩.

(٣) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٣هـ).

(٤) «مفرج الكروب»: ٥/٣٤٩.

بالتوجه إليها، فمضى إلى دمشق، وبعد دخوله إليها بأيام[١] توفي معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ليلة الأحد (٢٢) رمضان سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٦م)، فصُلّي عليه بجامع دمشق[٢]، ولم يحضر أبو شامة جنازته، ولم يصلّ عليه، كما فعل من قبل مع أخويه تاج الدين وعماد الدين، ربما لما يجد في قلبه منه[٣]. ثم حُمل إلى جبل قاسيون، فدفن في تربة أخيه عماد الدين[٤].

وضرب الخوارزمية حصارهم من جديد على دمشق[٥]، وضايقوها، وقطعوا عنها المواد، ولم تقوَ دمشق، وهي المنهكة، على تحمُّل حصارين متعاقبين، فاشتدَّ بها الغلاء اشتداداً لم يعهد في الأعمار مثله، ولم يسمع بنظيره في عصر من الأعصار في بلد من البلاد، على حدِّ تعبير ابن واصل[٦]، وراح الجوع والوباء يفتك بأهل دمشق، وجلس أبو شامة إلى أوراقه بقلب يملؤه الحزن والغمّ مسجلاً في تاريخه وقائع هذا الحصار، ذاكراً بدقة ثمن كل سلعة، وكأنّه لا يصدق أن ترتفع أثمانها هذا الارتفاع، فكان ما كتب:

«وفيها اشتدَّ الغلاء بسبب قطع الخوارزمية الطرقات، ففي ثامن عشر شوال بلغت غرارة القمح ست مئة درهم ناصرية، وبيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم إلى أربعة دراهم على تفاوت الأخبار، والله يكشف هذا الضرّ برحمته، وكان ذلك في تاسع آذار، وبقيت الصعاليك مرميين بالطرقات، كانوا يطلبون لقمة، ثم صاروا يطلبون لبانة، ثم صاروا يطلبون فلساً يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها كما يطعم

---

(١) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٤٩.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٧٦-٧٧.

(٣) انظر «المذيل»: ٢/ ٤٧، ٦٤، وكان لمعين الدين يد في إقصاء أبي شامة عن مشيخة القراء، انظر ص١٣٦ ـ ١٣٧ من هذا الكتاب.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٧٧.

(٥) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٣هـ).

(٦) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٥٢-٣٥٣.

الدجاج، وشاهدت ذلك بعيني. ثم اشتد الغلاء زيادة على ذلك، فبلغ في آخر شهر شوال المذكور كل غرارة حنطة بمئة دينار صورية، ثم ناصرية، ثم سمعت أنَّه بيع عشرة غرائر بعشرة آلاف درهم، وكتب بها وثيقة على المشتري إلى أجل شهرين، واشتريت أنا الخبز كل رطل بأربعة دراهم غير مرة»[١].

وينضم إلى الخوارزمية في حصار دمشق في ثالث ذي القعدة الصالح إسماعيل بعساكره آتياً من بعلبك[٢]، فيشتد ارتفاع الأسعار، فيكتب أبو شامة: «ثم تفاقم الأمر في حادي عشر ذي القعدة، فبيع الخبز الأسود كل أوقيتين بدرهم، وخبز الشعير كل أوقيتين ونصف بدرهم، وبلغت الغرارة في ثاني عشر ذي القعدة ألفاً ومئتي درهم وخمسين درهماً فضة ناصرية، وبيع الدقيق كل أوقية وربع أوقية بدرهم، وكل رطل بنحو عشرة دراهم، وبيع الشعير كل كيل بخمسين درهماً، الغرارة بست مئة درهم، والزبيب كل أوقيتين بدرهم، ثم بيع أوقية ونصف بدرهم، وكذا الدبس، وبلغت الحلاوة الجوزية من الدبس كل أوقية بدرهم... وبيع الباقلا الأخضر كل رطل بدرهم وربع، والرز باللبن ثلاث أواق ونصف بدرهم، والرز اليابس كل أوقية بدرهم، واللحم الرديء كل رطل بستة دراهم.

ولم تزل الأسعار في اشتداد وارتفاع إلى أن بيع مدّ الحنطة بعشرين درهماً ونحوها، وبلغت الغرارة ألفاً وخمس مئة درهم، وبيع الخبز كل أوقيتين إلاَّ ربع بدرهم، والرطل بسبعة دراهم في يوم عيد النحر وقبله»[٣].

قد لا تعني الآن هذه الأسعار لكثير منَّا شيئاً، ولكن في ذلك العصر كان وراءها نفوس تزهق، وحرمات تنتهك، فمما ذكروه من أخبارها أنَّ الناس أكلوا الميتات والجيف والدم، والقطاط والكلاب، وبات الناس على الطرقات، وأنتنت

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٧٧-٧٨.

(٢) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٣هـ).

(٣) «المذيل»: ٢/ ٧٨.

الأزقة والحارات، وضجر الناس من تغسيل موتاهم وتكفينهم لكثرتهم، حتى إنَّهم كانوا يحفرون الآبار، ويرمون الموتى بعضهم على بعض(١)، بل ذكروا أنَّ إنساناً كانت له دار تساوي عشرة آلاف درهم عرضها للبيع، فلم تزد على ألف وخمس مئة درهم، فاشترى بها غرارة واحدة من القمح، فقامت عليه غرارة واحدة من القمح بعشرة آلاف درهم، وذكروا أنَّ إنساناً مات في الحبس، فأكل لحمه أهل الحبس(٢).

* * *

وتلفت الصالح أيوب حوله يبحث عن حلفاء له، يخلِّصون دمشق من محنتها القاسية، فكاتب المنصور إبراهيم بن شيركوه، صاحب حمص، يستميله إليه، فما زال به حتى استطاع أن يبعده عن حليفه القديم الصالح إسماعيل(٣)، وكاتب كذلك الحلبيين، ناصحاً لهم ومحذراً من أنَّ هؤلاء الخوارزمية لا عهد لهم، ولا يؤمن شرهم، وقد أخربوا البلاد، والمصلحة أن نتفق عليهم، فمال الحلبيون إلى قوله، واستشعروا خطر الخوارزمية، وطمعهم وعيثهم في البلاد، وإذا كانوا الآن يحاصرون دمشق، فمن يدري أيَّ بلاد تكون تحت حصارهم غداً؟ فأجابوا الصالح أيوب إلى حربهم، وبدؤوا يستعدون للقائهم(٤).

وعلم الخوارزمية بما يبيّت لهم الملك المنصور والحلبيون، فاجتمعوا في مرج الصُّفَّر مع الصالح إسماعيل وعزّ الدين أيبك صاحب صرخد، وكان الناصر داود بن المعظم قد أرسل إليهم عسكره، واتفقوا على مهاجمة الملك المنصور في حمص قبل أن يباغتهم، قائلين: إنَّ دمشق ما تفوتنا، والمصلحة أن نسير إليهم.

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٣هـ).

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٥٢ ـ ٣٥٤.

(٣) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٣هـ).

(٤) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ)، «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

وساروا نحو حمص، وعلى إثرهم خرج جيش دمشق معاضداً للمنصور، وتنفَّس أهل دمشق الصُّعَداء[١].

وفي يوم الجمعة الفاتح من محرَّم سنة[٢] (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، وقع المصاف بين الملك المنصور صاحب حمص، ومعه جيش حلب وحماة ودمشق، وبين الخوارزمية، ومعهم الصالح إسماعيل وعزّ الدين أيبك، وجيش الناصر داود صاحب الكرك، على القصب، وهي منزلة قبيل حمص على مرحلة منها، فانهزم الخوارزمية هزيمة منكرة قبيحة، تبدَّد بها شملهم، وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان، وحُمل رأسه إلى حلب، فنصب بباب قلعتها[٣]، وساق خلفهم الملك المنصور يسبي نساءهم، ويغنم أموالهم حتى وصل إلى بعلبك[٤]، وهرب الصالح إسماعيل وعزّ الدين أيبك، ومن سلم من عسكرهما عرايا جياعاً، ووصلوا إلى حوران[٥]. فاعتصم عزّ الدين أيبك بقلعته صرخد[٦]، وهام الصالح إسماعيل على وجهه لا يجد مكاناً يأوي إليه، فقد خاف دخول بعلبك فيحاصر فيها، ويؤخذ، فيقتله الصالح أيوب بابنه المغيث[٧].

ووصل خبر كسرتهم إلى دمشق يوم السبت ثاني شهر محرم[٨]، ووردت البشائر بذلك إلى الديار المصرية، فزينت المدينتان: القاهرة ومصر، والقلعتان: قلعة الجبل وقلعة الجزيرة[٩]، أمَّا دمشق فحسبها في فرحها بالنصر أن وجدت أخيراً

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ)، «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٥٣ـ٣٥٤.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٧٩.

(٣) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٤) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ).

(٥) المصدر السالف.

(٦) المصدر السالف.

(٧) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ)، «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٦١.

(٨) «المذيل»: ٢/ ٧٩.

(٩) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٥٩.

ما تأكله، فنزلت الأسعار، وكتب أبو شامة في تاريخه: «فبيع الخبز كل رطل بدرهم ونصف، والحمد لله على هذه النعم، ونسأله المزيد بفضله وكرمه»[١].

وصلح الحال ما بين المنصور والصالح أيوب، وحصل بينهما التصافي والتواد[٢]، فدخل المنصور دمشق، وأقام بها[٣]، غير أنَّه لم يمتع بنصره، إذ ما لبث أن مرض، ثم توفي في حادي عشر صفر سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) بالبستان الأشرفي بالنيرب ظاهر دمشق، ونقل إلى حمص، فدفن فيها[٤].

❁ ❁ ❁

وكانت طائفة من الخوارزمية قد مضت عقب الهزيمة إلى البلقاء، فنزل إليهم الناصر داود صاحب الكرك، وصاهرهم، وأطلع عائلاتهم إلى الصلت، ثم ساروا إلى نابلس، واستولوا عليها[٥].

فجهَّز الصالح أيوب الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالعساكر، وأرسله إلى الشام، فلمَّا وصل إلى غزَّة عاد مَنْ كان بنابلس من الخوارزمية إلى الصلت لحماية عائلاتهم، فقصدهم الأمير فخر الدين، وقاتلهم، فكسرهم في (١٧) ربيع الآخر سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) وكان الناصر داود معهم، فانكفأ إلى الكرك، وتبعه الخوارزمية، فلم يمكنهم الناصر داود من دخولها[٦]، فساروا نحو حلب، ومعهم الصالح إسماعيل، مستجيراً بصاحبها الناصر يوسف، وقد ضاقت عليه السبل، فتلقَّاهم الناصر يوسف، وقبض على الخوارزمية، وملأ منهم السجون،

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٧٩.

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٥٩.

(٣) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ).

(٤) «المذيل»: ٢/ ٧٩.

(٥) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ).

(٦) المصدر السالف.

وأنزل الصالح إسماعيل في دار جمال الدولة الخادم، فالتفت شمس الدين لؤلؤ، أمير جيش حلب إلى الناصر يوسف، وقد رأى الصالح إسماعيل بعد استبداده وتحكمه خائفاً طريداً تلفظه البلاد، قائلاً للناصر يوسف ناصحاً له: أبصر عواقب الظلم[١].

وبقيت بعلبك ـ وقد آثر صاحبها سلامته على سلامتها ـ وحيدة خائفة، فخرج إليها أمير دمشق حسام الدين بن أبي علي، وشدد عليها الحصار، وكان فيها نور الدين محمود بن الصالح إسماعيل وإخوته، وكان في قلعتها الساماني، مملوك الصالح إسماعيل، فاتفق مع الأمير حسام الدين بن أبي علي على تسليمها له، فتسلَّمها بالأمان[٢]، ورتّب أمرها، ثم عاد إلى دمشق، ومعه أولاد الصالح إسماعيل، فاعتقلهم، ثم بعث بهم إلى ابن عمِّهم الصالح أيوب بمصر، وبعث معهم أمين الدولة وزير الصالح إسماعيل، وأستاذ داره ناصر الدين بن يغمور[٣].

وكان أمين الدولة معتقلاً في دمشق منذ الثاني من شهر رجب سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، وقد احتيط على ماله[٤]، وكان له من الأموال واليواقيت والجواهر والتحف والذخائر ما لا يوجد في خزائن الخلفاء والسلاطين، وقيمة ما ظهر ثلاثة آلاف ألف دينار، غير الودائع التي كانت له عند أصدقائه والتجار، ووجدوا له عشرة آلاف مجلد من الكتب النفيسة والخطوط المنسوبة[٥].

فأودع السجن في قلعة القاهرة مع جماعة من أصحاب الصالح إسماعيل[٦].

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ).

(٢) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ)، «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٦١.

(٣) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٦١.

(٤) «عيون الأنباء»: ص٧٢٣ـ٧٢٤.

(٥) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٨هـ).

(٦) «عيون الأنباء»: ص٧٢٤.

ثورة أبي شامة على الفساد

لمَّا فتحت بعلبك، وتمهَّد الأمر للسلطان الصالح أيوب، فكر في القدوم إلى دمشق التي عانت من ويلات الحصار، فبعث إلى نائبه فيها الأمير حسام الدين بن أبي علي ـ وكان من أهل ثقته ـ يطلب منه القدوم إلى القاهرة، ليستنيبه فيها، وأرسل إلى دمشق عوضاً عنه الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح، فاتفق وصوله إليها يوم سفر حسام الدين منها[1].

وحين وصل الأمير حسام الدين إلى القاهرة استنابه بها الصالح أيوب، وبسائر الديار المصرية، وأنزله بدار الوزارة، وفوَّض أمور الملك كلها إليه، وأقامه في ذلك مقام نفسه.

ثم سافر الصالح أيوب إلى دمشق[2]، فدخلها يوم الخميس (١٩) ذي القعدة سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٧م) وقد تزيَّنت له، وخرج الناس لاستقباله[3].

وتأليفاً لقلوب أهلها، وتضميداً لجراحاتهم، ولما نالهم من فقر وغلاء أثناء الحصار راح يفرِّق الأموال على أغنيائها وفقرائها، ويتصدَّق على مدارسها وربطها،

---

(١) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٧٢ـ٣٧٣.

(٢) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٧٣.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٨١ ـ ٨٢.

فوزَّع على أرباب بيوتاتها أربعين ألف درهم، وخلع على أعيانها الخلع السنية[١]. وفرَّق على الفقراء نحو تسعين ألف درهم، غير أنَّه لم يصل إلى أيديهم منها إلَّا القليل، إذ أغار عليها مَنْ تصدَّى لتوزيعها من أعوان قاضي القضاة صدر الدين ابن سني الدولة[٢].

وانفجر أبو شامة غضباً، وهو يرى أيدي الفقراء تعود صفراً إلى جيوبهم، بينما أعوان القاضي صدر الدين ينتهبون مالهم دون رقيب أو حسيب، ملوثين هذا العهد الجديد بهذه الخيانة، فنظم قصيدة الصدقات[٣] بنحو أربع مئة بيت، كاشفاً بها أسماء أعوان هذا القاضي، فاضحاً حالهم، غيرَ مبالٍ بما قد تجرُّه عليه عداوتهم له، ولم يصل إلينا من هذه القصيدة التي يبدو أنَّها ذاعت في تلك الأيام سوى بيت واحد، ذكره أبو شامة في ترجمة أحد هؤلاء الأعوان، وهو رضي الدين ابن النجار، فقال:

ومنهُمُ ابنُ النَّجَّار الأعرج سِمْسا ... ر القضايا في دار قاضي القضاة[٤]

فهل كان أبو شامة يعلن بإذاعة هذه القصيدة أنَّه لن يصمت بعد اليوم عن الفساد والمفسدين، وأنَّه سيحاربهم ويفضحهم؟..

* * *

وكان قد قدم مع الصَّالح أيوب من مصر الأمير ضياء الدين أبو الحسين محمد بن إسماعيل بن عبد الجبار، ويعرف بابن أبي الحجاج المقدسي[٥]، صاحب ديوان الجيش، وكان ذا اطلاع واسع على التاريخ[٦]، وأتاح له منصبه وقربه من

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ).

(٢) «المذيل»: ٢/ ٨٢.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٣٨.

(٤) المصدر السالف.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٨٢.

(٦) «المذيل»: ٢/ ٩٣.

رجالات الدولة أن يكون على معرفة دقيقة بأحداث عصره، وقد نزل بالمدرسة العادلية الكبرى[١]، وهناك خلا به أبو شامة، وكان التاريخ ثالثهما.

وأعجب أبو شامة حقاً أثناء مذاكرته له بسعة علمه بهذا الفن، حتى قال فيه يوماً: «لم ألقَ أحداً يعرف علم التاريخ مثله»[٢]، ودوَّن عنه أخباراً أودعها في أوراقه[٣]، ولربَّما في أثناء هذه المذاكرات قد أطلعه أبو شامة على ما تجمَّع لديه من أخبار دولتي نور الدين وصلاح الدين، وأنَّه بصدد تأليف كتاب عنهما، وباح له بحبِّه الكبير لهما، وأنَّه يتمنَّى أن يأتي سلطان يترسَّم خطاهما، ولربَّما استعادا أخبار عصرهما، وما آلت إليه الأمور من ارتكاس وعجز، فهل رأيا في ذلك اليوم أنَّ الصالح أيوب هو الأقرب إلى منهج صلاح الدين وهو يعيد وحدة بلاد الشام ومصر؟ فجيشه الآن بقيادة فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ينازل طبرية لفتحها[٤] بعد أن تنازل عنها للصَّليبيين الصالح إسماعيل، فهل يعيشان حقاً تباشير عهد جديد؟

* * *

كان الصالح أيوب في تلك الأثناء يعيد للبلاد وحدتها، فبعد أن أقام بدمشق خمسة عشر يوماً[٥] خرج إلى بعلبك يرتِّب أمورها، ويأمر بإصلاح سورها وتحصينها، ثم أحبَّ أن يحمي دمشق من كلِّ طارق، فاستولى على ما يجاورها من حصون قد تهددها، فصالح عزّ الدين أيبك ـ وكان من أعدائه ـ وتسلَّم منه حصن صرخد، ثم توجّه إلى بانياس، وتسلّم من ابن عمه السعيد بن العزيز بن العادل حصن الصبيبة، ثم تسلَّم من الناصر داود حصن الصلت[٦].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٨٢.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٩٣.

(٣) انظر «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٨٣، و«المذيل»: ١/ ٢٧٠ـ٢٧١.

(٤) «مفرج الكروب»: ٥/ ٣٧٨.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٨٢.

(٦) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ)، «المذيل»: ٢/ ٨٢.

ولمَّا اطمأنَّ إلى أمر دمشق عاد إلى مصر، وفي طريقه مرَّ على القدس، وفرَّق على أهلها ألفي دينار مصرية، وكان سورها قد خَرَّبه عمُّه المعظم عيسى منذ سنة (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) فأمر بعمارته[١].

ولم يمضِ على رجوع الصالح أيوبَ إلى مصرَ سوى شهر أو أشفَّ حتى قرعت طبول النصر في دمشق والقاهرة، فقد جاء الخبر إلى دمشق في عاشر صفر سنة (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م) بفتح طبرية[٢]، وعودتها إلى حظيرة الإسلام. ثم قرعت مرة أخرى في دمشق في أواخر جمادى الآخرة سنة (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م) تبشِّر بفتح عسقلان[٣].

كان أبو شامة في تلك الأيام متصدِّراً للفتوى بالمدرسة العادلية الكبرى، وإماماً في مسجدها، وكان يؤمّه المستفتون إلى صدر إيوانها حيث كان يجلس بين أوراقه في مكتبتها العامرة[٤]، وقد فرغ من تصنيف كتابه «البسملة الأكبر»[٥].

وتزوج من فتاة في الرابعة عشرة من عمرها[٦]، هي ابنة خالة أخيه إبراهيم[٧]، واسمها ست العرب ابنة شرف الدين محمد بن علي بن ذنو، الأندلسي، المُرْسي، وكان والدها من أهل الفضل والرياسة، ومن وجوه بلده، ويرتفع نسبه إلى بني عبد الدار بن قصي من قريش[٨]، ويبدو أنَّ والدها قد هاجر مع مَنْ هاجر إلى دمشق من الأندلسيين.

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٤هـ)، وانظر ص٣٢ من هذا الكتاب.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٨٢، «مفرج الكروب»٥/ ٣٧٨.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٨٢.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٤٠.

(٥) فرغ من تصنيفه في (٢٧) رمضان سنة (٦٤٥هـ/ ١٢٤٨م)، انظر ص١١ من «كتاب البسملة».

(٦) «المذيل»: ٢/ ١٢٢.

(٧) «المذيل»: ٢/ ٢٢١.

(٨) «المذيل»: ٢/ ١٢٠.

وكان أبو شامة في ذلك الوقت يدرّس بالمدرسة الشامية البرانية[١]، فكثيراً ما كان يسلك الطريق إليها من العادلية، ماراً بقرب قلعة دمشق.

* * *

وقد اتفق له أثناء مروره بها ضحوة يوم الاثنين (١٩) ربيع الأول سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) أن رأى صبياً مملوكاً، كان قد صلب تحت القلعة، ينزلونه بعد موته، وقد اسودَّت أعضاؤه، فتفطَّر قلب أبي شامة ألماً لمرأى هذا الصبي الصغير، وقد انتهى هذه النهاية القاسية.

كان هذا الصبي مملوكاً تركياً لبعض أمراء السلطان الصالح أيوب، وكان يوصف بالشجاعة والشهامة، وهو ممن غزا عسقلان في السنة الفائتة، وقتل فيها جماعة من الصليبيين، لم تشفع له شجاعته وصغر سنه، فقد اتهم بقتل سيده، وكان يدافع عن نفسه أمراً لم يرضَ وقوعه فيه، فحكم قاضي القضاة صدر الدين ابن سني الدولة بصلبه، ونفّذ الحكم نائب دمشق جمال الدين بن مطروح، فصلب ظهر يوم الجمعة (١٦) ربيع الأول على حافة نهر بردى تحت القلعة في آخر سوق الدواب، وجعل وجهه مقابل الشرق، وسمرت يداه وعضداه ورجلاه، وبقي مصلوباً حتى مات ظهر يوم الأحد، ولم ينزلوه إلاَّ ضحوة الاثنين من الغد حيث رآه أبو شامة، وهو في طريقه إلى المدرسة الشامية البرانية[٢].

وإظهاراً لشفقته، وتعبيراً عن أساه وحزنه ساق أبو شامة أخبار صلب هذا الصبي وموته في تاريخه، مدققاً في تفاصيلها، لا يكاد يفوته منها خبر، فقال: «وكان منه في صلبه عجائب، فمن ذلك أنّه جاد بنفسه للصلب غير ممتنع ولا جازع، بل مدَّ يديه فسمّرتا، ثم سمّرت رجلاه، وهو ينظر، لم يتأوَّه، ولم يتغيّر وجهه، ولا حرَّك شيئاً من أعضائه، وأخبرني مَنْ شاهد ذلك منه جماعة، وبقي إلى

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٨٦، وتسمى المدرسة الحسامية كذلك.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٨٥، ٨٦.

أن مات صابراً ساكتاً، لم يئن، ولم يشتكِ، ولم يزد على نظره إلى رجليه وجانبيه، تارة يميناً، وتارة شمالاً، وتارة ينظر إلى الناس، بل إنَّه استسقى ماء، فلم يُسْقَ، وتألّمت قلوب مَنْ عنده رحمةً وشفقة على خلق الله تعالى من أنَّه صبي صغير، وقد ابتلي بمثل هذا البلاء، والمياه تتخرق بجوانبه وهو ينظر إليها، ويتحسَّر على قطرة منها، وهو صابر على ذلك، فسبحان مَنْ له الأمر والحكم.

ومنها أنَّه أسرع إليه الموت تخفيفاً من الله تعالى عليه، فإنَّه بقي يومين وليلتين، وأخبرت أن جماعة من الرجال جرى لهم مثل هذا الصلب والتسمير، وأنَّ المنية تأخرت عنهم أياماً زيادة في عذابهم.

وكان قد أصابه في اليوم الثاني اختلال، فلم يبقَ يحسّ بالألم والعطش، ولم ينتظم كلامه، بل صدرت منه ألفاظ دالة على اختلاله، خفّف الله تعالى بذلك عنه، وقد كان يغفي أحياناً، ثم ينتبه مرعوباً لشدة الألم، فتتقطع لذلك قلوب الناظرين إليه غير أنَّه يذكر الله تعالى.

وأُخبِرت أنَّ بعض الموكلين به سأله في غداة يوم السبت أو الأحد عن حاله، فكان جوابه أن قال: طيب مع الله.

وبلغني أنَّه لمَّا سُمِّر لم يُسمع منه سوى كلمة واحدة، وذلك أنَّ الذي سمّره لمَّا وضع المسمار في العضد صادف العظم، فقال له: يا فتى تجنبِ العظم.

وبلغني أنَّ الذي سمَّره توفي ذلك اليوم أو الذي بعده، وهذا من عجائب ما اتفق، فأُخبر الصبي بذلك إرادة إعلامه أنَّ الله تعالى جازاه بفعله، فقال الصبي، وهو في تلك الشدة: هو في حل، لا ذنب له. أي أنَّ الذنب لمن أمره بذلك.

وكان رحمه الله من أجمل الصبيان، وأحسنهم وجهاً، وأطولهم شعراً، وكان في حالة صلبه مكشوف الرأس، والذؤابة من شعره مسترسلة خلفه، فلعبت بها الرياح، فأدارتها إلى صدره، فبقي يتناولها بفِيه يولع بها، ويتشاغل بالعبث بها.

وبلغني أنَّه قال: لي يومان ما صليت. كالمتأسف على ما فاته من الصلاة، وبعضهم قال: يوم علّقوه كان صائماً. وكانت له نفس أبية، وقوة شديدة»[١].

هل كان أبو شامة، وهو يطيل أخباره على غير عادته يريد أن يصوِّر ما كان في عصره من ظلمٍ وقسوة؟ عصر يصلب النقاء والجمال والنفس الأبية[٢]؟..

وبقلب يعرف معنى الظلم، وبإحساس أبٍ قريب العهد بفقد ابنه الحبيب، يرثي أبو شامة هذا الصبي المصلوب، الذي تحدَّى جلاَّديه بإقدامه على الموت غير ممتنع ولا جازع، فيقول:

ومُصْطَفَّةٍ أقدامُهُ شِبْه قائمٍ	مُصَلٍّ بإخباتٍ مطيعٌ لربِّهِ
تسمّرتِ الأعضاءُ منه فلم يُطِقْ	سجوداً فأوما للسُّجود بقلبهِ
تمكَّنتِ الآلامُ منه مسمَّراً	بستٍّ فكان الموتُ أيسرَ خَطْبهِ
فيالكَ ممنوعاً من الماء ضِلَّةً	تَفَتَّتِ الأكبادُ من عُظْمِ كَرْبِهِ
ويا لك مصلوباً بظُلْمٍ وقسوةٍ	تَقَطَّعَتِ الأحشاءُ من سوء صَلْبِهِ
فيا عجباً ممن أشار بصَلْبِهِ	ألا اعجبْ وأخبرْ عن قساوةِ قَلْبهِ
صبيٌّ صغيرٌ فائِقُ الحُسْنِ ناسِكٌ	شجاع له الإقدامُ في يوم حَرْبِهِ

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٨٥ـ٨٧.

(٢) انتقد الأستاذ محمد كردعلي أبا شامة في تطويله ذكر هذه الحادثة، فقال: «وقد أطال في أشياء لا تهم التاريخ بحال، مثل قصة الصبي التركي المصلوب، كتب فيها أربع صفحات، وحقّها أن تكتب بأربع كلمات، أو تحذف لأنَّها خالية من الفائدة على ما رأينا». انظر مجلة المجمع العلمي بدمشق مج٥/ ج٣/ ١٤٤، وانظر ما كتبناه عن منهج أبي شامة في «المذيل» ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤ من هذا الكتاب.

صبورٌ على هذي الشَّدائد كلِّها إلى أن أتاه الموتُ قاضٍ لنحبهِ[1]

وهكذا يعلن أبو شامة مرة ثانية بصوتٍ عالٍ انحيازه للضعفاء والمظلومين، ضد هؤلاء الفاسدين الجائرين.



(١) «المذيل»: ٢/٨٧ ـ ٨٨.

صعود المماليك

لم تمرّ إعادة فتح المسلمين لبيت المقدس سنة (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) دون أن يتنادى الغرب لحملة صليبية لاسترجاعه، وكان ممن استجاب لها لويس التاسع ملك فرنسا[١].

كان الصالح أيوب على علم بأخبار هذه الحملة من خلال الإمبراطور فريدريك الثاني، صديق والده الكامل، وقد عرفه أنَّها ستتجه نحو مصر، وبدأ الصالح أيوب يعدّ العدّة لمواجهتها[٢].

بيد أنَّ استيلاء صاحب حلب الناصر يوسف على حمص، وإخراجه صاحبها الأشرف موسى، وكان حليفاً للصالح أيوب، اضطر الصالح أيوب للمجيء إلى دمشق في الفاتح من شعبان سنة[٣] (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) خوفاً من أن يتقدَّم الناصر يوسف صوب دمشق، وجهّز عساكره على عجل، وأرسلها مع الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى حمص، لإخراج الناصر منها، ولم يكن في الجيش من القوات ما يكفي لحمل المجانيق إلى حمص، فسخّر الفلاحين في حملها، وكان الرفت

---

(١) «العلاقات السياسية»: ص٣٤٧.

(٢) «العلاقات السياسية»: ص٣٤٧، «مفرج الكروب»: ٤/ ٢٤٧.

(٣) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٦هـ)، «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ١٧٧، «وفيات الأعيان»: ٦/ ٢٥٩.

شتاء، فهرب الفلاحون تاركين الأرض دون زرع، مما أدّى إلى خراب الشام في ذلك الموسم[١].

وبينما كان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على حصار حمص، جاء الخبر للصالح أيوب، وكان المرض قد ألمَّ به، بأنَّ الحملة الصليبية قد شارفت على الوصول إلى مصر[٢]، فاستجاب لوساطة الشيخ نجم الدين البادرائي سفير الخليفة، ورفع حصار جيشه عن حمص[٣]، وبادر بالرحيل إلى مصر في يوم الاثنين (٤) محرم سنة[٤] (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) محمولاً في محفة حتى وصل إلى أشموم طناح[٥]، وكان قد جمع في دمياط ـ تحسباً لكل طارئ ـ من الأقوات والأسلحة شيئاً كثيراً، وشحنها برجال قبيلة بني كنانة، وهم من البدو المشهورين بالشجاعة، للدفاع عنها، وأمر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن ينزل على جيزتها ليكون في قبالة الفرنج إذا قدموا إليها[٦].

وقد قدموا في (٢٠) صفر سنة[٧] (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) غير أنَّ جميع هذه الاستعدادات سرعان ما تقوضت، فما إن نزل الصليبيون على ساحل دمياط في اليوم التالي[٨] من جهة برجها، حتى تراجع الأمير فخر الدين إلى دمياط، فاستبدَّ الذعر بسكانها، فقرّر الانسحاب منها، فانسحب معه الكنانيون الموكلون بالدفاع عنها، فدخلها الصليبيون في (٢٢) صفر سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) دون قتال[٩].

---

(١) «مرآة الزمان» (حوادث سنة٦٤٦هـ).

(٢) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٥١.

(٣) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٦٤٦هـ).

(٤) «المذيل»: ٢/ ٩٠.

(٥) «وفيات الأعيان»: ٥/ ٨٥، «السلوك» للمقريزي: ج١/ ق٢/ ٣٣٣.

(٦) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٣٣، «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٥١.

(٧) «المذيل»: ٢/ ٩١.

(٨) المصدر السالف.

(٩) «المذيل»: ٢/ ٩١، «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٥٢.

واستبدَّ الغضب بالصالح أيوب لانهيار كل ما أعدَّه، فأمر بشنق أمراء بني كنانة على تخاذلهم في الدفاع عن دمياط، واندفع بعساكره من أشموم طناح، وهو محمول في محفة، إلى المنصورة كي يشرف على تنظيم الدفاع عنها[١].

ووصل إلى دمشق خبر استيلاء الصليبيين على دمياط، وربما رفعاً لمعنويات أهلها قيل لهم: وجرت وقعة عظيمة هلك فيها داوية الفرنج[٢].

ولإحكام أمر دمشق عزل الصالح أيوب نائبها جمال الدين يحيى بن مطروح، وكان قد تغيَّر عليه[٣]، وأرسل عوضاً عنه الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، فدخلها في عاشر ربيع الأول سنة[٤] (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م).

❁ ❁ ❁

كانت مصر في زمن فيضان النيل، فآثر لويس التاسع البقاء في دمياط، منتظراً هبوط مياه النيل، خوفاً من أن يواجه مصيراً يشبه مصير الحملة الخامسة، حتى إذا هبطت في رجب سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) ووصلت إليه أمداد من فرنسا، قرر الزحف نحو القاهرة، فخرج بجيشه في (١٢) شعبان سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) من دمياط، وسلك الطريق المتجه جنوباً نحو المنصورة[٥].

كان الصالح أيوب في ذلك الوقت على فراش الموت، وما لبث أن توفي بالمنصورة في (١٥) شعبان سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) فأُخفي موته، وأرسل إلى ولده تورانشاه المقيم بحصن كيفا ليقدم إلى مصر[٦].

---

(١) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٥٤-٤٥٥.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٩١.

(٣) «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٢٧٤.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٩٠.

(٥) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٥٥.

(٦) «المذيل»: ٢/ ٩٢.

وببطء وحذر كان لويس التاسع يتقدم، فالطريق إلى المنصورة تعترضه فروع النيل، وكان أكبرها البحر الصغير الذي ينبع من فرع النيل الرئيسي جنوبي المنصورة، ويسير مجتازاً أشموم طناح إلى بحيرة المنزلة، فيعزل بذلك ما يعرف بجزيرة دمياط، وقد أبقي الأمير فخر الدين معظم قواته خلف هذا البحر الصغير، وقد استطاع لويس التاسع أن يصل إلى البرمون في رمضان سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م) ويعسكر بجيشه على ضفاف البحر تجاه المنصورة، لا يفصل بينه وبين المسلمين إلاَّ هذا البحر الصغير، وأقام هناك يتربَّص[١].

كان تورانشاه بن أيوب قد تنكّر، وقدم مع النجابين على زيهم، وعبر البلاد، دون أن يكتشفه أحد من ملوك الأطراف، فدخل دمشق يوم الثلاثاء (٢٩) رمضان سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م)، فنزل بقلعتها، وأحسن إلى أهلها[٢]. وقد اتفق في تلك الفترة قدوم الرحالة المغربي علي بن موسى بن سعيد، صاحب كتاب «المغرب في حلى المغرب» إلى دمشق، فتعرف إلى تورانشاه، وأصبح من ندمائه[٣].

وفي المدرسة العادلية الكبرى التقى ابنُ سعيد أبا شامة، وكان قد فرغ من اختصاره تاريخ دمشق، فسمع منه ما تيسَّر له[٤].

ولم يطل تورانشاه مقامه في دمشق، فرحل عنها نحو مصر يوم الاثنين (٢٦) شوال سنة[٥] (٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م).

* * *

(١) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٥٧-٤٥٨.
(٢) «المذيل»: ٢/ ٩٢.
(٣) «مقدمة المغرب»: ١/ ٧.
(٤) «نفح الطيب»: ٢/ ٢٩٩.
(٥) «المذيل»: ٢/ ٩٢.

كان لويس التاسع ما يزال في معسكره دائب البحث عن طريقة يستطيع من خلالها عبور البحر الصغير، وقد واتته الفرصة في أواخر شوال سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م) إذ قدم إلى معسكره أحد الأقباط، وعرض عليه أن يدلَّه على مخاضة يعبرون منها[١].

فما إن أطلّ فجر الرابع من ذي القعدة سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م) حتى كان الصليبيون يشرعون في اجتياز المخاضة، وتولى روبرت أخو الملك لويس التاسع قيادة مقدمة الجيش[٢]. وحين لاح له المعسكر الإسلامي ـ وكان خارج المنصورة ـ لم يستطع مقاومة إغراء الهجوم عليه دون إذن من أخيه[٣].

كان المعسكر الإسلامي غاراً عند الفجر، آمناً من أن يؤتى من قبل الصليبيين، وإذا به يفاجأ على حين غرة بهجومهم عليه، بل إنَّهم يدخلون خيامه، وتُذهل المسلمين الصدمةُ بادئ ذي بدء، ويلقى عدد منهم مصرعه، من بينهم أمير الجيش فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وصديق أبي شامة ضياء الدين محمد بن أبي الحجاج، صاحب ديوان الجيش[٤].

وسرعان ما يصحو الجيش من ذهوله، ويتولّى قيادته مماليك السلطان الصالح أيوب، وفي مقدمتهم ركن الدين بيبرس البندقداري، وبخطة عسكرية بارعة يستدرج الصليبيين إلى داخل مدينة المنصورة، تاركاً لهم أبوابها مفتوحة، إغراء لهم على دخولها، وقد أسكرهم نصرهم المفاجئ، وبينما هم يطوفون في شوارعها وأزقتها ينقضّ عليهم المماليك من كل صوب حتى يفنوهم عن آخرهم، ويقع روبرت أخو الملك لويس التاسع بين القتلى[٥].

---

(١) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٥٨.

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف: ٣/ ٤٥٩.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٩٣.

(٥) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٦٠.

وتصك مسامع لويس التاسع أنباء هذه الهزيمة، وقد كاد جيشه يتم اجتياز المخاضة، فيبادر على الفور إلى إقامة معسكره، خوفاً من هجوم متوقع من المماليك[١].

وما توقعه قد حدث، إذ لم يلبث المماليك، وقد أحسوا بطعم النصر، أن خرجوا من المنصورة، واشتبكوا معه في قتال دام حتى غروب الشمس، ثم تراجعوا بانتظام نحو المنصورة، وقد أدَّى هجومهم هذا إلى إفقاد الصليبيين المبادرة إلى القتال، فعسكروا في مكانهم قرب المنصورة[٢].

وتوالت على معسكرهم هجمات المماليك، حتى وصل تورانشاه بن الصالح أيوب إلى المنصورة في (١٨) ذي القعدة سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م) فأعلن حينئذ موت السلطان الصالح أيوب بعد كتمانه نحو ثلاثة أشهر[٣].

وظلَّ لويس التاسع قابعاً في معسكره نحو شهرين عاجزاً عن الحركة[٤]، وهجمات المماليك تتوالى عليه، حتى قرَّر أخيراً الرجوع إلى دمياط[٥].

وفي صبيحة يوم الأربعاء (٢) محرَّم سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) بدأ الصليبيون يتقهقرون نحو دمياط، والمماليك يتربَّصون بهم، حتى إذا حانت لهم الفرصة انقضوا عليهم، فوقع الصليبيون بين قتيل وأسير[٦]. واختبأ الملك لويس التاسع في كوخ بقرية مُنْية عبد الله، شمالي شرمساح، فألقي القبض عليه، وحُمِل مكبَّلاً بالأغلال، وسجن في دار إبراهيم بن لقمان بالمنصورة[٧].

---

(١) «تاريخ الحروب الصليبية»: ٣/ ٤٦٠.
(٢) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٦١-٤٦٣.
(٣) «وفيات الأعيان»: ٥/ ٨٦.
(٤) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٦٣.
(٥) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٦٤.
(٦) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٦٥، «المذيل»: ٢/ ٩٣-٩٤.
(٧) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٦٥-٤٦٦، و«المذيل»: ٢/ ٩٤.

وبعد مفاوضات يسترجع المسلمون دمياط في (٢٦) محرَّم سنة[١] (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م).

وكان تورانشاه قد أرسل إلى دمشق في (١٦) محرَّم ملابس الملك لويس التاسع إعلاناً بالنصر، فيلبسها أميرها جمال الدين موسى بن يغمور، ويخرج بها إلى الناس ليروها عليه، وكان فيمن رآها أبو شامة، فيصفها بتاريخه بقوله: «وهي أسكرلاط أحمر، تحته فرو سنجاب، وفيها بكلة ذهب»[٢].

❁ ❁ ❁

وبينما كانت دمشق تعيش أفراح هذا النصر العظيم، إذ جاءها في أوائل صفر سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) نبأ مقتل السلطان تورانشاه على يد مماليك أبيه[٣].

وكان تورانشاه قد توجس خيفة من تعاظم نفوذ مماليك أبيه بعد انتصارهم، فراح يحيك الدسائس ضدهم وضد زوجة أبيه شجرة الدر، ويبدو أنَّه قد قرَّر التخلص منهم[٤]، فعاجلوه قبل أن يعاجلهم، فبينما كان في فارسكور، وقد جلس في دهليز خيمته بعد السماط، وذلك يوم الاثنين (٢٧) محرَّم سنة[٥] (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) تقدَّم نحوه ركن الدين بيبرس البندقداري، فقتله، وغيب قبره[٦].

ولقد هال أبا شامة مقتله، وانزعج له، وراح يستقصي أخباره ممن حضر مقتله، وقد أخبره ذلك الشاهد أنَّه ضُرِبَ أولاً، فتلقَّى الضربة بالسيف، فجرحت يده، واختبط الناس، وذلك عقيب فراغهم من الأكل على السماط، فأُظهر أنَّ ذلك كان

---

(١) «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٣/ ٤٦٧.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٩٤.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٩٥.

(٤) «السلوك» للمقريزي: ج١/ ق٢/ ٣٥٨-٣٥٩.

(٥) «شفاء القلوب»: ص٤٢٨.

(٦) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٥٩-٣٦٠.

من بعض الملحدة الحشيشية، ثم أشار بعضهم على الباقين بإتمام الأمر فيه، وقال: بعد جرح الحية لا ينبغي إلاَّ قتلها. فركبوا، وتسلَّحوا، وأحاطوا بخيمته وبرجه الخشب، لأنَّه كان في الصحراء، نازلاً بإزاء الفرنج، فدخل البرج خوفاً منهم، فأمروا زراقاً بإحراق البرج، فامتنع، فضربت عنقه، ثم أمروا زراقاً آخر، فرمى البرج بنفط، فأحرقه، فخرج من بابه، وناشدهم الله في الكفِّ عنه، والإقلاع عمَّا نقموا عليه، وطلب تخلية سبيله، فلم يُجب إلى شيء من ذلك، فدخل في البحر إلى أن وصل الماء إلى حلقه، فرجع، فضربه البندقداري بالسيف، فوقع في الماء، فضربه بالسيف ضربة واحدة على عاتقه، فنزل السيف من تحت إبط اليد الأخرى، فوقع قطعتين(١).

وأخبره السيف بن الشهاب جلدك ـ وكان أبوه والي القاهرة ـ أنَّه لما قُتل رمي في جُرْف على حافة البحر، ورُدم عليه التراب، فبقي هناك ثلاثة أيام، ثم كشفه الماء، فنقل من ثَمَّ إلى الجانب الآخر من البحر فدفن هناك.

وقد حكى له السيف بن الشهاب جلدك صفة نقله، وهو أنَّه جُرَّ في الماء بصنارة، والجار له راكب في مركب، والصنارة بيده يجره في الماء كأنَّه حوت إلى أن عَدَّى به إلى الجانب الآخر، فدفنه هناك، فكان قتله والناس في غفلة وبهتة من أمرهم، وعوجل فلم يجد ناصراً.

ولمَّا فُرغ من قتله نادوا: لا بأس، الناس على ما هم عليه، إنَّما كانت حاجة فقضيناها، واستبدوا بالأمر(٢).

وقد عبَّر أبو شامة عن صدمته، وهو يعيش تمزق الإحساس في شهر واحد بين نصر كبير وفاجعة عظيمة، فكتب في تاريخه: «فانظر إلى هاتين الواقعتين العظيمتين الغريبتين كيف اتفقتا في شهر واحد، إحداهما في أوله، وهي كسرة الفرنج الكسرة

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٩٥ـ٩٦.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٩٦.

العظمى التي استأصلتهم، والثانية في آخره: قتل السلطان على هذا الوجه الشنيع»[١].

وانقضت بمقتل تورانشاه دولة بني أيوب في مصر، واستبدَّ المماليك البحرية بالأمر، واجتمع أمراؤهم وأهل المشورة فيهم بالدِّهليز السلطاني، واتفقوا على إقامة شجرة الدر أم خليل، زوجة الصالح أيوب في مملكة مصر، وأن تكون العلامات السلطانية على التواقيع تبرز من قبلها، وأن يكون مقدم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي، وهو واحد منهم، وحلفوا له على ذلك في عاشر صفر سنة[٢] (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) وكاتبوا أمراء الشام باتباعهم[٣].



(١) «المذيل»: ٢/ ٩٦.
(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٢.
(٣) «المذيل»: ٢/ ٩٧.

دمشق تحت حكم النَّاصر يوسف
وإنجاز أبي شامة «كتاب الروضتين»

كانت غالبية أمراء الشام من الأكراد القيمرية، وكان هواهم مع البيت الأيوبي، وقد أغضبهم مقتل السلطان تورانشاه، فلم يجيبوا المماليك لما طلبوه، وسارع كبيرهم الأمير ناصر الدين القيمري إلى مكاتبة الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين، صاحب حلب، يخبره بامتناعهم عن الحلف لشجرة الدر، ويحثّه على المسير إلى دمشق حتى يسلِّموها إليه[١].

فخرج الناصر يوسف من حلب في عساكره في أواخر ربيع الأول سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، وفي يوم الأحد (٧) ربيع الآخر فتحت له دمشق أبوابها، وفي يوم الأربعاء (١٠) ربيع الآخر دخل الناصر يوسف قلعة دمشق، وأمن الناس، وزال عنهم الباس[٢].

ولم يكن أهل دمشق أقل استياء بقتل السلطان تورانشاه من أمرائها، ولعلَّ انزعاج أبي شامة من مقتله يعبِّر عن انزعاج أهلها، فهو أول سلطان أيوبي يقتل على يد مماليكه.

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٦٦-٣٦٧، «شفاء القلوب»: ٤١٢-٤١٣، «الوافي بالوفيات»: ١٢/ ٤٢٢.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٩٧.

وحين وصل الخبر إلى مصر بدخول الناصر يوسف دمشق، وقع اضطراب في القاهرة، وقبض المماليك البحرية على مَنْ يتهم بالميل إليه[١].

وتحصيناً لموقعهم الجديد اتفق المماليك على إقامة الأمير عزّ الدين أيبك في السلطنة، فخلعت شجرة الدر نفسها من المملكة، فكانت مدة حكمها ثمانين يوماً، وتزوجت الأمير عزّ الدين أيبك في (٢٩) ربيع الآخر سنة[٢] (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) وأقيم عز الدين أيبك في السلطنة، ولقَّبوه بالملك المعز، وزينت القاهرة ومصر[٣].

ولإضفاء شرعية على حكمهم أقاموا في ثالث جمادى الأولى سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) الملك الأشرف مظفّر الدين موسى بن يوسف بن الملك المسعود يوسف بن الكامل بن العادل سلطاناً، وله من العمر نحو ست سنين[٤]، وليس له من السلطنة سوى اسمها.

❁ ❁ ❁

لم تكن صدمة أبي شامة بمقتل السلطان تورانشاه تعني ترحيبه بصاحب حلب الناصر يوسف غداة دخوله دمشق، فهو يعلم حقاً أنَّ شيئاً لن يتغير، وأن همَّ ملوك عصره لم يعد يتعدى الاستمتاع بمباهج الملك، والاقتتال فيما بينهم في منازعات لا تكاد تنتهي، تاركين الأمة وحدها في العراء تواجه أعداءها، حتى الانتصار الكبير سرعان ما يحيلونه باختلافاتهم إلى هزيمة منكرة.

ولعلنا نستشف رأي أبي شامة هذا مما كتبه في تاريخه حين رفض العالم الشافعي كمال الدين محمد بن طلحة منصب الوزارة، وقد عرضه عليه الناصر يوسف، فقال: «فأيقظه الله تعالى وزهده في رياسات الدنيا، وتزهد وانقطع»[٥].

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٦٧.
(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨.
(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩.
(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٦٩.
(٥) «المذيل»: ٢/ ١٠٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

هكذا إذن لم يبقَ للعالم في هذا الزمن كي ينجو بدينه، وقد يئس من الإصلاح إلا أن يتزهد وينقطع عن دنيا الحكام والناس.

ولا ريب أن أبا شامة كان يعيش أياماً حزينة، وهو يرى جيش دمشق يخرج من أبوابها لقتال المماليك في مصر، تاركاً الصليبيين يضمدون جراحاتهم عقب هزيمتهم في المنصورة.

إذ لم يمضِ على دخول الناصر يوسف دمشق سوى خمسة أشهر حتى كان قد أعدَّ العدة لإعادة مصر إلى الحظيرة الأيوبية، فبعد أن تسلم القلاع المجاورة لدمشق كبعلبك وبصرى وصرخد وعجلون والسلط، تقدم بعساكره صوب غزة، ومعه الصالح إسماعيل بن العادل، حاكم دمشق القديم[١]، ووصل في آخر شوال سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥١م) إلى العريش[٢]، ثمَّ تقدَّم بجيشه نحو القاهرة، ووصل إلى منزلة الكراع، وهي قريبة من الخشبي في الصحراء، حيث كان بانتظاره جيش المماليك بقيادة المعز عز الدين أيبك سلطان مصر الجديد[٣]. وفي يوم الخميس (١٠) ذي القعدة سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥١م) اصطدم الجيشان، واقتتلا قتالاً شديداً، فانكسر المماليك أولاً، وانهزم أكثرهم إلى القاهرة ومصر، وساق خلفهم بعض أمراء الناصر يوسف، وكان مع الناصر جمعٌ كبير من مماليك أبيه العزيز، وكان هواهم مع المماليك البحرية، لأنَّهم أتراك مثلهم، ولكراهتهم الأمير شمس الدين لؤلؤ قائد جيش الناصر، فساقوا بأطلابهم وأصحابهم، وانضمُّوا إلى جيش المعزّ، ودخلوا في طاعته، فتضعضع جيش الناصر يوسف وقد أوشك على الانتصار، وكان الناصر يوسف قد بقي في قلةٍ من عسكره تحت سناجقه، فأشار المماليك العزيزية على المعزّ بأن يقصد سناجق الناصر يوسف، لعلَّه يظفر به، فيقتله، فحمل المعزّ بجماعة

(١) «المذيل»: ٢/ ٩٨.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٩٧.

(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٢، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

من عسكره على سناجق الناصر يوسف ظناً منه أنَّه تحتها، غير أنَّ الناصر يوسف كان قد خرج من تحت سناجقه، مبتعداً عن المعركة خوفاً على نفسه، فلما لم يظفر المعز به، رجع بمن معه.

وكان الأمراء القيمرية من جيش الناصر يوسف قد اجتمعوا ليهنئ بعضهم بعضاً بالنصر، وتفرَّق أصحابهم وراء الغنائم يجمعونها، ولم يبقَ معهم إلاَّ نفر يسير من مماليكهم، ولم يدروا بما جرى، فصادفهم المعز عند رجوعه من تحت سناجق الناصر يوسف، فقاتلهم، فقتل شمس الدين لؤلؤ قائد جيش الناصر، والأمراء: حسام الدين القيمري، وضياء الدين القيمري، وأسر أكابر الدولة، ومنهم الصالح إسماعيل بن العادل[١].

وانهزم الناصر يوسف نحو دمشق[٢]، ولم يعلم بقية أمرائه الذين ساقوا خلف المماليك بهزيمته إلى أن وصلوا إلى العباسة، ثم بلغهم ما جرى من بعد، فاتفق رأيهم على الرجوع إلى الشام[٣].

أما المعز فإنه بعد أن قتل من قتل من جيش الناصر يوسف، وأسر من أسر رحل يريد القاهرة، فدخلها يوم السبت (١٢) ذي القعدة سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥١م)، والأسرى بين يديه، وفيهم الصالح إسماعيل بن العادل، وحين وصل في طريقه إلى تربة الصالح أيوب أحدق به المماليك البحرية، وصاحوا: يا خوند، أين عينك ترى عدوك إسماعيل؟ ثم ساروا به إلى قلعة الجبل، فاعتقلوه بها إلى يوم الأحد (٢٧) ذي القعدة حيث أخرجوه إلى ظاهر القلعة، وخنقوه حتى مات، وكان عمره يوم قتل نحو خمسين سنة[٤].

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.
(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٧٥.
(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٧٦.
(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٩، «المذيل»: ٢/ ٩٨.

وفي أواخر ذي القعدة سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥١م) يصل الناصر يوسف إلى دمشق يجرُّ أذيال الهزيمة[١]!

* * *

في تلك الأثناء كان أبو شامة قد ألـمَّ به مرض في أوائل ذي القعدة سنة[٢] (٦٤٨هـ/ ١٢٥١م) انقطع على أثره عن المدرسة العادلية الكبرى، حيث كان يفتي ويصلي ويؤلف[٣]، وعن حلقته بجامع دمشق حيث كان يُسمع اختصاره وتهذيبه لتاريخ دمشق لابن عساكر[٤]، وأقام في بستانه الصغير في الصالحية فوق نهر يزيد، يستشفي فيه[٥]، وكان لا يزال يعاني من عقابيله لما قدم دار الحديث الأشرفية في (١٩) ذي القعدة لوفاة قارئها المجد الإسفراييني، فصلى عليه أبو شامة ظاهر باب النصر، ولم يقوَ على تشييعه إلى مقابر الصوفية حيث دفن[٦].

ولم يبلَّ من مرضه إلاَّ في أوائل ذي الحجة سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥١م) حيث عاود الجلوس في ثامنه بجامع دمشق ليتم إسماع تاريخ دمشق[٧]، وفرحاً بعودته سالماً معافى أنشده بعض الأدباء الملازمين له قصيدة، قال فيها:

هو الشيخ شيخ العِلْم والحِلْم والهُدَى ... وناهيك عن عِلْمِ القراءة من فَحْلِ
هَنَاءٌ له منا بصحَّةِ جسمه ... فَصِحَّتُهُ في جِسْمِهِ صِحَّةُ النَّقْلِ[٨]

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٩٧ ـ ٩٨.
(٢) «المذيل»: ٢/ ٩٨.
(٣) «المذيل»: ٢/ ١٢٥.
(٤) «المذيل»: ١/ ١٤٦ ـ ١٤٧.
(٥) «المذيل»: ١/ ٣٠٥، ٢/ ١٢٥.
(٦) «المذيل»: ١/ ٩٨.
(٧) «المذيل»: ١/ ١٤٧.
(٨) المصدر السالف.

ويبدو أنَّ أبا شامة كان في ذلك الوقت في المرحلة الأخيرة من تأليفه «كتاب الروضتين»، وقد خيف أن يقعده المرض عن إتمامه، وإلى هذا أشير في القصيدة، بقوله:

فحاشا ندى التصنيفِ أن لا يَثُجَّ من غزيرٍ وحاشا الرَّوْضتين من المَحْلِ
وحاشا الفتاوى أن تُعَطَّلَ بعده وحاشا جمالِ البحث يخلو من الحَفْلِ[١]

❁ ❁ ❁

ويعود أبو شامة إلى المدرسة العادلية الكبرى، وينهمك في إتمام «كتاب الروضتين» حتى يفرغ منه في بدايات عام[٢] (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) وقد استوفى فيه أخبار الدولتين النيرتين، دولة نور الدين محمود بن زنكي، ودولة صلاح الدين يوسف بن أيوب[٣].

وعلى الرغم من أنَّ الكتاب قد عقده على ذكر أخبار هاتين الدولتين، فإنَّه وجد قلمه ينشدُّ لسوق ما جرى بعد وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) من منازعات بين أولاده: الأفضل علي، والعزيز عثمان، والظاهر غازي، وأخيه العادل أبي بكر بن أيوب، فشرع يسردها حتى وصل فيها إلى سنة[٤] (٥٩٢هـ/ ١١٩٥م) ثم كتب في آخره مؤذناً بختامه، ومؤكداً ما كتبه في مقدِّمته عن غايته التي تغيَّاها من تأليفه: «والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد»[٥].

هذه هي الأمور الثلاثة التي جمعت بين نور الدين وصلاح الدين، فعاشت الأمة في ظلِّهما في روضتين وارفتين من عزة وأمن، فهل دعوته هذه ستلقى آذاناً صاغية من ملوك عصره، وهم في نزاعاتهم يعمهون؟

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٢) «المذيل»: ٢/ ١٠٠.
(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٦، ٤/ ٤٣٣.
(٤) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٣.
(٥) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٤.

يبدو أنَّ أبا شامة لم يكن يؤمل الكثير من ملوك عصره الأيوبيين، والمشهد أمام ناظريه، وهو المؤرخ، مما يدعو إلى الأسى، بل لعلَّه تنبَّأ بما سيحلُّ بالبيت الأيوبي في الشام عن قريب، وقد عايش انهياره في مصر، ولذا لم يجد أمامه إلاَّ كلمة القاضي الفاضل يختم بها كتابه: «أما هذا البيت، فإنَّ الآباء منه اتفقوا، فملكوا، وإنَّ الأبناء منهم اختلفوا، فهلكوا، وإذا غرب نجم فما في الحيلة تشريقه، وإذا بدأ خريق ثوب فما يليه إلاَّ تمزيقه، وهيهات أن يسدّ على قدر طريقه، وقد قُدِّر طروقه»[١].

ويطوي أبو شامة كتابه، وفي جامع دمشق في حلقته عند رأس زكريا عليه السلام ينشره[٢]، ويُسْمعه لمن تحلق حوله من الناس، علَّهم يعون ويتدبَّرون دروس التاريخ، ويعتبرون[٣].

* * *

حين فرغ أبو شامة من إسماع «كتاب الروضتين» سنة[٤] (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) شعر أنَّ صورة ما جرى بعد وفاة صلاة الدين لم تكتمل فصولاً[٥]، وفي إتمامها تبصير للناس فيما هم فيه الآن، فراح يزيد فيه ما جرى من وقائع بين سنتي[٦] (٥٩٣ ـ ٥٩٧هـ/ ١١٩٧ ـ ١٢٠١م).

وبينما كان يكتب وقائع تلك السنوات في المدرسة العادلية الكبرى، حيث كان يسكن، عاوده المرض من جديد في رمضان سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) ثم عاوده

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٤.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٠٠، و«كتاب الروضتين»: ١/ ٢٢، ٢٤.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٠٠.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٤.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٨٣.

المرض نفسه مرة ثالثة في رمضان سنة[١] (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)، فكان أبو شامة يأوي في مرضه إلى بستانه الصغير فوق نهر يزيد في الصالحية، يعيش فيه مع آلامه وأوجاعه[٢].

وانشغل في تلك السنين عن التأريخ لوقائع عصره، فلم يدوّن في تاريخه منها إلاَّ القليل، وانكبَّ على إتمام ما استحسن زيادته في «كتاب الروضتين»، حتى بلغ فيه إلى سنة[٣] (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م).

وكان في أثناء قراءاته في تواريخ تلك الفترة يقع على أخبار فاته تدوينها في «كتاب الروضتين»، فيلحقها في أماكنها فيه، حتى تجمعت لديه منها زياداتٌ كثيرة، فعنَّ له أن يعاود نسخه وتبييضه من أوله، مضيفاً إليه هذه الزيادات، وقد فرغ من نسخ المجلدة الأولى منه في (١١) رمضان سنة (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) فكتب في آخره: «آخر المجلدة الأولى من كتاب الروضتين، فرغ منها مصنِّفها في حادي عشر شهر رمضان المبارك سنة إحدى وخمسين وست مئة، واشتملت هذه النسخة المبيضة على زيادات كثيرة فاتت النسخ المتقدِّمة على هذا التاريخ المنقولة من المسودة، وكل ما ينقل من هذه النسخة هو الأصل الذي يعتمد عليه، ويركن إليه، والله الموفق في جميع الأمور، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، وكتبه عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الشافعي مصنفه، عفا الله عنه»[٤].

وما كاد يضع القلم من نَسْخ هذه المجلدة حتى يعاوده مرضه، ذلك المرض الذي بات يعاوده كل عام في رمضان[٥]، وفي غمرة معاناته لآلامه تتوفى ابنته

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٢.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٢٥.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٤.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٢.

رقية، ذات العامين وخمسة أشهر، في شوال سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) وهي ابنته الأولى من زوجته ست العرب، فيدفنها بمقابر الصوفية عند قبر خال أمها الجمال أبي الزهر[1].

وينكفئ أبو شامة إلى بستانه وئيد الخُطَا، وجسمه العليل ينوء تحت وطأة حزنه الجليل.



(١) «المذيل»: ٢/ ١٠٢.

الخطـر التَّـتري

في «كتاب الروضتين» أرَّخ أبو شامة لدولتي نور الدين وصلاح الدين في بلاد الشام ومصر، راسماً ملامح نهوض الأمة تحت حكمهما، راجياً ملوك عصره الاقتداء بهما، وهم يواجهون الصليبيين من الغرب، وما يقذفه البحر من جيوشهم وحملاتهم.

وكان ثمة خطر قادم من الشرق، كان هؤلاء الملوك سادرين عنه، برغم ما يتناهى إلى سمعهم مما يفعله التتار من تدمير وقتل وخراب في مدنه، وقد قضوا على الدولة الخوارزمية التي كانت سداً يحول بينهم وبين التتار.

وبعقل المؤرِّخ الذي يحاول أن يستكشف راح أبو شامة يتساءل: كيف استطاع هؤلاء التتار، وهم قوم من الهمج الهامج، أن يخترقوا تحصينات المدن الإسلامية في ذلك الشرق البعيد، وأن يهزموا الدولة الخوارزمية، تلك الدولة القوية، حتى بات خطرهم يتهدد العراق وبلاد الشام؟ وكأنَّه يريد بذلك أن يرصد تاريخ الأمة في انكسارها بعد أن رصده في نهوضها.

لقد أنفق أبو شامة سنوات طويلة من عمره، وهو يجمع أخبار نور الدين وصلاح الدين، ويؤلف بينها بذكاء واقتدار حتى استقام له هذا الكتاب المحكم: «الروضتين»، فهل سينفق من عمره مثل تلك السنين حتى يعرف حقاً ما جرى في ذلك الشرق البعيد؟..

وفي أثناء بحثه الدائب يقع على كتاب فيه أخبار هذه الدولة الخوارزمية، ألفه كاتب مطلع على أحوالها، مداخل لآخر سلاطينها؛ جلال الدين منكبرتي، إذ كان كاتباً في ديوان إنشائه، هو شهاب الدين محمد بن أحمد بن علي النسوي، وسمّاه «سيرة السُّلْطان جلال الدين منكبرتي»[١]، فيرى أبو شامة أنَّ اختصار هذا الكتاب أجدى وأعمّ نفعاً من تأليف كتاب في أخبارها، وبخاصة أنَّ مؤلفه النسوي قد عاصر أواخر الدولة الخوارزمية، واطلع على دخائل أحوالها.

ويعكف أبو شامة على اختصار هذا الكتاب بعد فراغه من «كتاب الروضتين»، وكأنَّه يوازن من خلاله بين حكم نور الدين وصلاح الدين، وكيف نهضت الأمة في بلاد الشام ومصر من كبوتها بعدلهما وحسن سياستهما، وبين حكم علاء الدين محمد بن تكش وابنه جلال الدين، وكيف أوقعا الأمة في الشرق تحت ذلّ الهزيمة بظلمهما وسوء تدبيرهما، فهل كان أبو شامة يعاود مخاطبة ملوك عصره، وهو يرسم لهم صورة للأمة في حال صلاحها بالعدل، وصورة للأمة في حال فسادها بالظلم والقهر؟

ويسمِّي مختصره «نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلالية»[٢]، ويفتتحه بمقدمة يقول فيها: «أما بعد، فإني جمعت في كتابين مطول ومختصر ما كان في زمن آبائنا من مناقب سلطانين جليلين، متتابعين ببلادنا الشامية، جمعت فيهما من أخبارهما ومآثرهما ما غبَّر في وجوه من قبلهما من الملوك، فكيف من بعدهما؟ فسقى الله عهدهما، وسميت الكتاب المطول بالروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، والآخر مختصره.

---

(١) طبع كتابه طبعتين، أولاهما في القاهرة سنة (١٩٥٣م) بتحقيق حافظ أحمد حمدي، والثانية في موسكو سنة (١٩٩٦م) بتحقيق ضياء الدين موسى بونياروف، وهي الأصح والأحسن، وانظر حاشيتنا رقم (٣) ص٤٦١ ـ ٤٦٢ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٤٥٩ ـ ٤٦٦ من هذا الكتاب.

ثم إني أردت الوقوف على أخبار ملكي بلاد العجم في زماننا، اللذين قهرا العباد، ثم خربت في ولايتهما البلاد، واستولى على تلك الديار، الكفرة التتار، لعنهم الله، وسفك أولئك الملاعين، دم الكبير والصغير من المسلمين، وجرى في تلك المدة من العجائب والغرائب ما لم يتقدم مثله، وما أظنه يأتي إن شاء الله تعالى، فإنَّها من أفظع المصائب. فوجدت قد جمع أخبار تينك الدولتين الكاتب الفاضل شهاب الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد النسوي، المعروف بالمنشئ، الذي كان في صحبتهم وخدمتهم، مطلعاً على أحوالهم، متصرفاً في أعمالهم، جَمَعَ ما جرى من ذلك مجلدة واحدة، فاختصرت المقاصد منها، على عادتي في مثل ذلك، والغرض الأهم ـ كما ذكر ـ من إثبات الآثار، وإخلاد الأخبار، إفادة التجربة والاعتبار.

أمَّا السلطانان فهما علاء الدين محمد بن تكش بن إيل رسلان بن أتسز بن قطب الدين محمد بن نوشتكين، وولده جلال الدين منكبرتي، المعروف بخوارزم شاه. . .»[1].

وتابع أبو شامة سرد أخبارهما بحسّ المؤرِّخ الذي يستشفّ الخطر القادم من ذلك الشرق البعيد.

❁ ❁ ❁

وممن كان يتحسس كذلك من خطر التتار، قائد جيش الناصر يوسف الأمير شمس الدين لؤلؤ، ولكي يأمن شرّهم أشار على الناصر يوسف بأن يواليهم بالهدايا والتحف، فأرسل الناصر يوسف في سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) إلى منكوقاآن خان التتار الأمير زين الدين الحافظي[2] ـ وهو طبيب ذو منزلة رفيعة، إذ كان إلى براعته في

(١) «نزهة المقلتين»: الورقة ٢.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٣.

الطب على معرفة بأساليب الحرب والجندية[١] ـ محملاً بهدايا كثيرة، وتحف جليلة[٢].

وقد رجع الأمير زين الدين الحافظي في سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، ومعه للناصر من خان التتار طمغ، وهو كتاب أمان، فصار الناصر يوسف يحمله في حياصته، وقد اطمأنَّ إلى أمانهم[٣]، وفي كل سنة صار يحمل إلى بايجوا، نائب خان التتار في بلاد العجم الهدايا والتحف السنية[٤].

وكان الناصر يوسف بعد هزيمته في موقعة الكراع بمصر[٥] قلقاً من جهة المعز عز الدين أيبك، وقد بلغه في سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) أنَّ المعز عازم على قصده، فسيِّر الناصر يوسف عساكره إلى غزة، ليحفظوا بلاده، وكان المعز قد خرج كذلك بعساكر مصر، ونزل على الباردة في أطراف بلاده، يتحيَّن غِرَّة للهجوم على دمشق[٦].

وكانت الأخبار قد بدأت تتوارد منذ سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) باستعداد التتار لأخذ العراق، وأنَّ منكوقاآن قد كلف أخاه هولاكو بذلك[٧]، فأرسل الخليفة المستعصم بالله الشيخ نجم الدين البادرائي للسعي بين المعز والناصر في الصلح[٨]، وكان الناصر قد خرج بعساكره من دمشق، وأقام على الغور[٩].

---

(١) «عيون الأنباء»: ص٦٦٨ ـ ٦٦٩.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٣.

(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٣، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٧٩.

(٤) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٣.

(٥) انظر ص ١٦٩ ـ ١٧٠ من هذا الكتاب.

(٦) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٨١.

(٧) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٨٣.

(٨) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٨٥.

(٩) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٤.

وبعد مفاوضات طويلة وعسيرة تمَّ عقد الصلح بينهما في سنة (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) على أن يُعطى المعزّ من بلاد الناصر يوسف القدس الشريف وبلاده، وغزة وبلادها، وجميع البلاد الساحلية إلى حدود نابلس، وأن يطلق المعز كل من هو في أسره من الملوك والأمراء الذين أسرهم في موقعة الكراع، واستحلفهم الشيخ نجم الدين البادرائي على ذلك، وعاد كل منهما إلى مستقر ملكه[١].

* * *

وكانت الأوضاع في مصر قد بلغت غاية الاضطراب، فقد قويت شوكة المماليك البحرية، واستفحل أمرهم، واجتمعت كلمتهم على الأمير فارس الدين أقطاي، وهو كبيرهم ومقدمهم[٢]، واطَّرحوا المعز، فليس له معهم أمر ولا نهي، و لا حل ولا عقد، ولا يسمع أحد منهم له قولاً، وقد استولى أقطاي على الأمور كلها[٣]، وكثر فساد أتباعه، فكانوا يأخذون أموال الناس ونساءهم وأولادهم، ولا يقدر أحد منهم على منعهم، وكانوا يدخلون الحمامات، ويأخذون النساء منها غصباً، وكثر ضررهم[٤]، واتفقوا فيما بينهم على قتل المعز، فخاف على نفسه منهم، وقر رأيه على التخلص من أقطاي[٥]، وقد ثقل عليه، فراح يتحيَّن الفرص، حتى كان يوم الأربعاء ثالث شعبان سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) فبعث إليه ليأخذ رأيه في أمر من الأمور، فركب إليه أقطاي على غير أهبة ولا اكتراث، مدلاً بقوته، فعندما دخل من باب القلعة، وصار في قاعة العواميد، أُغلق بابها، ومنع مماليكه من الدخول معه، فغدا وحيداً، حينئذ خرج عليه جماعة بالدهليز قد أعدوا لقتله، وهم قُطُز وبهادر

---

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٤، و«السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٤.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٨٨.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٥) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٤.

وسنجر، مماليك المعز، فهبروه بالسيوف حتى مات، ووقع الصريخ في القلعة والقاهرة بقتله، فركب في الحال من أصحابه نحو سبع مئة فارس، ووقفوا تحت القلعة، وفي ظنّهم أنَّه لم يقتل، وإنَّما قبض عليه، وكان من أعيانهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، فلم يشعروا إلاَّ ورأس أقطاي قد رمي إليهم، فتبلبل رأيهم، وتفرقوا بأجمعهم، وخرجوا في الليل من القاهرة هاربين، فمنهم من قصد الملك المغيث بالكرك، ومنهم من قصد الملك الناصر يوسف بدمشق[١]، وكان فيهم بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي، فخرج الناصر يوسف إلى لقائهم، وخلع عليهم، وأقطع ركن الدين بيبرس نابلس، وراح المماليك يحثّون الناصر يوسف على قصد مصر، وهو يدافعهم[٢].

واستقلَّ المعز بسلطنة مصر، ولم يعد بحاجة إلى سلطنة الأشرف موسى الاسمية، فخلعه منها، فكان موسى آخر مَن خُطب له من الأيوبيين بالسلطنة في مصر[٣]، وكتب إلى الناصر يوسف يحذّره غائلة البحرية، ويخوفه عاقبة شرهم[٤]، غير أنَّ الناصر أصم أذنيه عن سماع كلامه، ووجدها فرصة ليستعيد من المعز بعض البلاد التي أخذها منه، فكتب إليه يطلب البلاد التي أخذها بالساحل، لأنَّها من إقطاعات البحرية، فأعادها المعز إليه، فأقرَّ الناصر كل إقطاع منها بيد من كان له[٥].

❁ ❁ ❁

ولم يبقَ للناصر يوسف كي يعيش ناعم البال، وقد نال الأمان من التتار، وتم

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٢) «الروض الزاهر»: ص٥٦، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣، «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٤.

(٣) «شفاء القلوب»: ص٤٥٠.

(٤) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٤، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٩٣.

(٥) المصدران السالفان.

صلحه مع المعز، إلا أن يعقد الصلح مع الصليبيين في عكا، وقد تم له ذلك سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م)، فأبرم معهم هدنة مدتها عشر سنين وستة أشهر وأربعون يوماً، أولها مستهل محرم سنة[١] (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م).

وقد توج إنجازاته بزفافه من ابنة السلطان علاء الدين كيقباذ ملك سلاجقة الروم، وكان عقد عليها، فقَدِمَتْ إليه في سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م)، فاحتفل بقدومها، وبالغ في عمل الوليمة لها[٢].

ولم يزعجه في أفراحه ما بلغه في أواخر سنة (٦٥٣هـ/ ١٢٥٦م) من عبور هولاكو بجيشه نهر جيحون في طريقه نحو العراق، وفي استيلائه على قلاع الإسماعيلية[٣]، إذ كان في تلك الأثناء قد أنهى إنشاء مدرسته الناصرية الكبرى، وافتتحها في سابع محرم سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، وولى تدريسها قاضيه الأثير صدر الدين ابن سني الدولة، وحضر درسه الأول فيها مع أمرائه وأعيان الشام، وجمهور أهل الحل والعقد في دمشق[٤].

كان هولاكو قد أتمَّ استيلاءه على قلعة الموت في ذي القعدة سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، وشرع في مهاجمة الأكراد والتركمان والشهرزورية، ووصلت غاراته إلى ديار بكر وميافارقين ورأس عين وسروج، فقتلوا ونهبوا وسبوا، واستولوا على بلاد الأكراد وقلاعهم وأخربوها، فانهزم أكثرهم إلى الشام لاجئين[٥] بأولادهم ونسائهم، وكانت عدتهم نحو ثلاثة آلاف، فأشار الأمراء القيمرية على الناصر يوسف باستخدامهم ليكثر جمعه، وليكونوا قوة تقف ضد المماليك البحرية،

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٩٣، «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٥.
(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٩٤.
(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٥.
(٤) «الدارس»: ١/ ٤٦٠، «عقد الجمان» للعيني (حوادث ٦٤٨ ـ ٦٦٤): ص٢٧٤.
(٥) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٥.

فاستخدمهم، وخلع عليهم وأحسن إليهم، وأعطاهم الأموال والإقطاعات[١].

وبقي الناصر يوسف غارقاً في اطمئنانه برغم ما يجري، مستنيماً للأمان الذي ناله من منكوقاآن ملك التتار، وقد أفرط في اعتداده بهذا الأمان حتى إنَّه تجاهل هولاكو نفسه، فلم يبعث إليه بالهدايا كما كان يفعل مع بايجوا من قبل[٢].



(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٨.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٣، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٧٩.

العُزْلــة

كانت علاقة أبي شامة في المدرسة العادلية الكبرى مع القاضي صدر الدين ابن سني الدولة تسوء على مَرِّ الأيام، إذ كان وهو أحد العدول، وقد تصدَّر للفتوى فيها لا يسكت عمَّا يراه أخطأ فيه من أحكام، أو جار فيها[1]، وكان القاضي وقد علت منزلته عند الناصر يوسف[2] يزداد إزعاجاً له، علَّه يتخلَّص منه، فأطلق أعوانه يكيدون له، ويسمعونه مُرَّ القول، ويغتابونه، وما قصيدته فيهم بمنسية[3]، بل راحوا يؤلبون الناس عليه، ويتصامم عنهم أبو شامة بالإكباب على تصانيفه يؤلفها، وبجلوسه في حلقته بجامع دمشق، راضياً بحب من يحبه من مريديه[4]، وقد استبعد من المناصب الكبيرة التي يؤهله علمه لها، ولم يترك له إلاَّ بعض المدارس الشافعية هو فيها مدرس، وهو منصب يناله من حصل شيئاً من علم الفقه، لا من قارب فيه حد الاجتهاد[5]، وكان يعلم حق العلم أن هذه المناصب الكبيرة لا تنال إلاَّ بإراقة ماء المحيا لأصحاب الجاه والسلطان، وهيهات أن يفعل[6].

---

(١) انظر ص ١٣٦ ، ١٥٠ ، ١٥٣ من هذا الكتاب.

(٢) «عقد الجمان» (حوادث سنة ٦٤٨ ـ ٦٦٤): ص٢٧٤.

(٣) انظر ص ١٤٩ ـ ١٥٠ من هذا الكتاب.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٤٤ ـ ١٤٩.

(٥) «المذيل»: ١/ ١٤٥.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٤٦، ١٤٩.

ويبدو أنَّ حملتهم عليه اشتدت، وربما شاركهم فيها بعض الطلبة ممن كان يدرسهم في تلك المدارس، فضاقت عليه نفسه مما يحيط به في المدرسة العادلية وتلك المدارس من وجوه كالحة، وقلوب غادرة، وكان هجومهم عليه يستدعي منه أحياناً دفاعاً، بل واستماتة في الدفاع، والمرض يفتك بجسده بين آن وآخر، فخاف أن تباغته المنية، وهو يتمرَّغ في أوحال خصامهم، فللخلاص من هذا البلاء بدأت تخطر في باله فكرة الاعتزال، أن يعتزل التدريس، وأن يهجر المدرسة العادلية الكبرى، لينصرف ناعم البال إلى ما وهب حياته له من العلم النافع[١]، وربَّما كان يعيش ألم هذا الشعور، وهو يقتبس من الغزالي في «الإحياء» ما قاله الخطابي في «العزلة»، وهو يصنِّف كتابه الجديد: «خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول»[٢]: «دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك، فليس لك منهم مال ولا جمال، إخوان العلانية أعداء السر، إذا لقوك تملّقوك، وإذا غبت عنهم سبعوك[٣]، من أتاك منهم كان عليك رقيباً، وإذا خرج كان عليك خطيباً، أهل نفاق ونميمة، وغل وخديعة، فلا تغترّ باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم بل الجاه والمال، وأن يتخذوك سُلَّماً إلى أوطارهم، وحماراً في حاجاتهم، إن قصرت في غرض من أغراضك كانوا أشدَّ أعدائك، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك، ويرونه حقاً واجباً لديك، ويعرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم، فتعادي عدوهم، وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم، وتنتهض لهم سفيهاً، وقد كنت فقيهاً، وتكون لهم تابعاً خسيساً، بعد أن كنت متبوعاً رئيساً، ولذلك قيل: اعتزال العامة مروءة تامة»[٤].

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) ألَّفه أبو شامة قبل سنة (٦٥٥هـ ـ ١٢٥٧م) إذ فرغ من نسخ إحدى نسخه في ثامن محرم سنة (٦٥٥هـ)، انظر مقدمة المحقق ص٣٠.

(٣) جاء في هامش الأصل: سبع فلان فلاناً إذا اغتابه وأكل لحمه.

(٤) «خطبة الكتاب المؤمل»: ص١٧٢-١٧٣ وانظر «العزلة» للخطابي: ص١١١ ـ ١١٢.

كان قرار الاعتزال ينمو مع الأيام في فكره، ويترسخ، حتى إذا عاوده المرض للمرة الخامسة في رمضان سنة[١] (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) حسم أمره، وبدأ بترك المدرسة العادلية الكبرى[٢]، بعد أن قضى فيها نحو ثلاث وثلاثين سنة[٣]، واتخذ بيتاً له في حارة الخاطب[٤]، وقد كتب، وهو مريض أبياتاً يعلِّل فيها تركه لها، ومما قاله:

نَزَّهْتُ نَفْسي وعِرْضي ... وصُنْتُ هذه البقيَّةْ
لمَّا انعزلتُ ببيتي ... قولاً وفِعْلاً ونيَّةْ
وبقيتْ عُلَقٌ بالـ ... ـمدارس الشَّافعيَّةْ
وسوف أَخْلُصُ منها ... حقاً وَرَبِّ البريَّةْ
إنيَ عبدٌ ضعيف ... أخاف بَغْتَ المنيَّةْ
ولستُ أرضى لنفسي ... دوام هذي البليَّه[٥]

* * *

وذات ليلة، وبينما كان يتقلَّب مع آلامه وأحزانه، وقد قارب الثالثة والخمسين، وبيته خالٍ من عبث طفل ومناغاته، بعد أن تخرم الموت أولاده، ولم يبقَ له إلاَّ ابنته فاطمة من زواجه الأول، دعا الله سبحانه وتعالى أن يرزقه ولداً ذكراً، ربما ليخفف ما في قلبه من حزن شفيف على فقد ابنه محمد[٦].

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٢.

(٢) يبدو أن آخر كتاب قرأه فيها هو «نور المسرى في تفسير آية الإسرا»، وذلك يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الأولى سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م)، انظر «نور المسرى» ص١٣٤.

(٣) دخلها طالباً سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م)، انظر ص٤٧ من هذا الكتاب.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٢٨.

قلت: وحارة الخاطب في حي مئذنة الشحم في دمشق، وما تزال تحمل هذا الاسم، وهي نسبة إلى محسن بن عبد الله الهاشمي الخاطب الدمشقي، كان خطيب دمشق أيام الأخشيديين، وتوفي سنة (٣٤٧هـ)، انظر «ثمار المقاصد» ص٦٧ حاشية رقم (٥).

(٥) «المذيل»: ١/ ٣٢، ١٥٠ـ١٥١.

(٦) «المذيل»: ٢/ ١٠٦.

ويستجيب الله تعالى له، ويرزقه مولوداً ذكراً بعد صلاة الصبح من يوم السبت (٢٥) شوال سنة (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، فيسمِّيه أحمد، ويكنيه أبا الهدى[١].

ويسعى بالطفل إلى الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني، وكان شيخاً صالحاً، مشتغلاً بالحديث سماعاً وكتابة، فيستجيزه، فيجيزه الشيخ رواية جميع ما يجوز له وعنه روايته[٢]، وكأنَّه بهذه الإجازة يستأنف ما كان قد بدأه مع ابنه محمد.

وفي أواخر ذي الحجة سنة (٦٥٣هـ/ ١٢٥٦م) يفرغ أبو شامة من شرحه الأصغر لقصيدة الشاطبي في القراءات بعد أن تورَّك عليه نحو ستة أشهر[٣]، وكان قد اختصره من شرحه الكبير لها الذي وقف فيه عند باب الهمزتين من كلمة، وقد بلغ نحو مجلدة[٤]، ثم تابع شرحه الأصغر حتى تمَّ، فكان في مجلدين، وسمَّاه «إبراز المعاني من حرز الأماني»[٥].

* * *

لا ريب أنَّ أبا شامة قد شعر ببعض الارتياح عقب تركه المدرسة العادلية الكبرى، فقد نأى بنفسه عمَّا كان يعانيه فيها من فساد وظلم يشيعه القاضي صدر الدين وأعوانه، غير أنَّه ما زال حرج الصدر لملابسته التدريس في بعض المدارس الشافعية، ولما لتلك المدارس من علاقة بالقاضي بحكم منصبه، ولما كان يلاقيه فيها من أعوانه، شيوخها ومدرسيها، ومن بعض طلابها من جفاء في اللقاء، وغدر حين تمكنهم الفرصة، وكانت عداوتهم له تنطلق غيبة على ألسنتهم، وحسداً في عيونهم[٦].

وقد بلغ أبو شامة في ضيقه حداً أنَّه كان أحياناً يغبط الأصم على صممه، ويراه

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٠٦.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١١٨ ـ ١١٩.

(٣) «إبراز المعاني»: ١/ ٦٩.

(٤) «إبراز المعاني»: ١/ ١٠٧.

(٥) «المذيل»: ١/ ١٤٢، وانظر ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ من هذا الكتاب.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٥٠.

نعمة كبرى تريحه من سماع أحاديث الناس ولغوهم، وتعينه على الانقطاع للعبادة[١].

وربما استضرى أعداؤه عليه، وهم يرون منزلة القاضي في علو، ومنزلة أبي شامة في انحدار، وقد بلغ القاضي صدر الدين أعلى منازله يوم افتتح الناصر يوسف مدرسته الناصرية الكبرى في سابع محرم سنة (٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) وولاَّه تدريسها، وقد حضر مع أمرائه وأعيان الشام، وجمهور أهل الحل والعقد افتتاح الدرس الأول فيها[٢].

لقد كانت الطريق إلى المناصب الكبرى معروفة لأبي شامة، ولكنَّه وهو العالم حقاً كان يتنكبها عن عمد، ويرى أنَّها طريق تزري بالعالم وعلمه[٣]، ولكي ينأى بنفسه عما يزري بها كان لا بدَّ أن ينفذ قراره في الاعتزال نهائياً عن دنيا التدريس في المدارس، فما إن فرغ من إعادة النظر في كتابه «المرشد الوجيز»، وانتهى من كتابته يوم الأحد (١١) ربيع الأول سنة[٤] (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، ثم أتمَّ إسماع كتابه «المحقق من علم الأصول» بالتربة الأشرفية في يوم الاثنين (٢٦) شعبان من العام نفسه[٥]، حتى كان قد عقد عزمه على تنفيذ قراره، متخذاً من مرضه الذي ربما عاوده في رمضان سنة[٦] (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) مناسبة لإعلان هذا القرار، فنظم فيه أبياتاً، يؤرّخ فيها لقراره، يقول فيها:

أردتُ راحةَ سِرّي ... مِمَّا يُضَيِّقُ صَدْرِي
لِمَا أُلاقي من الخَلْـ ... ـق مِنْ جَفَاءٍ وغَدْرِ
وَحَسَدٍ واغتيابٍ ... فيا ضياعَ العُمْرِ
فاخْتَرْتُ أن أتنحَّى ... وأستقِلَّ بأمري

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٠٦.
(٢) «الدارس»: ١/ ٤٦٠.
(٣) «المذيل»: ١/ ١٥٠.
(٤) انظر ص٥٠٤ من هذا الكتاب.
(٥) «المحقق من علم الأصول»: ص٣٢.
(٦) «المذيل»: ١/ ٣١.

فلستُ أمشي إلى مَنْ يُرَى خطيرَ القَدْرِ
لأجلِ دُنْيا، فمشيي إليه بالعِلْم يُزْري
لكنْ إلى عالمٍ أو شيخ نبيهِ الذِّكْرِ
أمَّا إذا أحوَجَتْني ضرورةٌ من فَقْرِ
ولا تكون، فَرَبِّي يَمُنُّ فيها بصَبْرِ
يا رب فاشرح صدري للخير واشْدُدْ أزري
ولا تَكِلْني إلى الخَلْـ ـقِ أنتَ حَسْبي وذُخْري
هَبْ لي مَدَى الدَّهْر سِتْراً حتى أوسَّدَ قبْري
واختِمْ بخيرٍ وأعظِمْ من جَنَّةِ الخُلْدِ أَجْري[1]

ولم يكن قرار أبي شامة هذا سهلاً، إذا عرفنا أنَّ المدارس في ذلك العصر، وما لها من أوقاف، تكاد تكون مصدر رزق العالم الوحيد، وقد تخلّى عنها أبو شامة، ولم يبقَ له من مورد يعيش منه إلاَّ بستانه الصغير فوق نهر يزيد في الصالحية[2]، إنَّه سيفلح أرضه، ويأكل من ثمارها، والفلاحة عمل شاق على من انقطع في حياته للعلم وتحصيله، ثم إنَّها كانت تزري بالإنسان في ذلك العصر[3]، غير أنَّ أبا شامة كان في تلك الأيام ـ ربما ـ مسكوناً بزاهد الإسكندرية الشيخ محمد بن منصور بن يحيى القباري، الذي انقطع عن دنيا الناس ببستانه يزرعه ويسقي ثماره، ولن ينسى أبو شامة زيارته له في الإسكندرية في مطلع شبابه[4].

* * *

(١) «المذيل»: ١/٣١ـ٣٢، ١٥٠.

(٢) «المذيل»: ١/٣٠٥.

(٣) انظر ترجمة جمال الدين بن جرير، وزير الأشرف، في «مرآة الزمان» (وفيات سنة ٦٣٦هـ).

(٤) انظر ص٩٢ من هذا الكتاب.

وفي بُحْران مرضه الذي كان يعانيه في عزلته يرى فيما يراه النائم ليلة الثلاثاء (٢١) ذي الحجة سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٧م) الشيخ الواعظ سبط ابن الجوزي وقد توفي، غير أنَّه يراه في حالة منكرة، وفي الصباح يتحقق ما كان قد رآه في منامه، وتبلغه وفاته حقاً بمنزله في جبل قاسيون، فيسأل الله العافية[١].

وكما تجنب أبو شامة لقاء سبط ابن الجوزي في حياته، برغم ما يجمع بينهما من حب للتاريخ، وبرغم حضور مجالس وعظه في جامع دمشق، وإعجابه بها، يتخلَّف عن حضور جنازته، متعللاً بمرضه، وقد حضرها خلق عظيم، في مقدمتهم السلطان الناصر يوسف، والأمراء، والقضاة، والشيوخ، وأعيان دمشق[٢].

وأنَّى يكون اللقاء بين مَنْ عاش حياته في جاه عريض عند الملوك، وتأتي الملوك وأرباب الدول إليه زائرين وقاصدين[٣]، وبين مَنْ ينأى بنفسه عن كل ذي جاه أو سلطان. . .؟

* * *

في العزلة يجد أبو شامة سكينة الروح في بيته مع زوجته ست العرب[٤]، وقد استراح مما كان يصطرع في نفسه، متفيئاً فيه ظلال ودها وأُنسها ولطفها، ومتمتعاً بعذوبة حديثها، وسحر ذكائها، متملياً من محاسنها، ولربما اكتشف فيها ـ وقد ضمهما بيت بعيداً عن المدرسة العادلية وصخبها ـ خلالاً وصفات لم يكن يلحظها فيها، وفي سكينة هذه الحياة الزوجية يتنبَّه أبو شامة إلى أنَّ عشرة من الأعوام قد تقضَّت منذ تزوجها، وها هي الآن في ربيع أنوثتها، وقد بلغت الرابعة والعشرين[٥]،

(١) «المذيل»: ٢/ ١١٧.

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٢٠.

(٥) «المذيل»: ٢/ ١٢٢، وانظر ص ١٥٢ من هذا الكتاب.

بينما هو يدنو من السادسة والخمسين، وتهب عليه نسائم الحب، فيتوهج جمر القلب في خريف العمر، ويكتب لها قصيدة طويلة[1] يعدد فيها صفات هذه الزوجة الودود في مملكتها الصغيرة بيتها، ويبوح لها فيها بحبِّه الكبير، ويتجرأ حقاً فيثبتها في تاريخه، متحدياً بذلك تقاليد عصره الذي كان فقهاؤه ومؤرِّخوه يخنقون مشاعرهم ولا يعلنونها في حياتهم العامة، بَلْهَ الخاصة، ولا يسمحون لأحد أن يطلّ من خلال كتبهم على داخل بيوتهم، ولا أعرف أحداً من مؤرخينا أدخلَنَا بيته، ووصف لنا زوجته غير أبي شامة.

فهي ـ كما وصفها ـ ولود، ودود، حرة، قرشية، لطيفة، نظيفة، شكور، عفيفة، غريرة، رحيمة، حلوة، قنوع، مدارية، رقيقة القلب، سريعة دمع العين، خدوم، خفيفة الروح، حنانة، ذكية، على فصاحة في لفظها، وجمال في نطقها، مقتصدة، تحفظ مال زوجها، دائبة العمل في بيتها، رغم وجود خادمة قد تكفيها، فما إن تنتهي من الكنس والطبخ والغسل ورعاية ابنها حتى تحيك في مغزلها، أو تطرِّز ثيابها، أو تخطّ لوحات بخطِّها الجميل، لا يتسلَّل الملل إليها، وقد أوتيت صبراً على أصعب الأشغال وأدقها.

وهي غالباً ما تقضي نهارها صائمة، وليلها قائمة، وإذا ما طرق باب بيتها طارق، فإنَّها لا تجيبه، لأنَّ كلام الأجنبيِّ حرام عليها، وبقاؤها في بيتها أحبّ إليها من الخروج إلى الأسواق، ولا تصغي إلى كلام جاراتها اللواتي يغرينها بالخروج للفرجة، وإذا ما اضطرت فخرجت لحاجة عرضت لها، فإنَّها تخرج متسترة، لا تكشف حتى بنانها، تمشي غير متلفتة، ولا متكلمة في طريقها.

وتعويذة لكمالها من عين الحسود يذكر أبو شامة أن ليس لها من عيب سوى أنَّها سريعة الغضب، ويرتفع صوتها حين تغضب، ويتساءل أبو شامة بلسان

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٢٠-١٢٢.

المحب: هل يسقط هذا العيب مناقبها عند الحسود أم لا؟ بيد أنَّه وهو الزوج العاشق كان لا يرى لها مثيلاً.

تقل نظيراً في نساء زماننا فلا تعذلوني في محبتها عذلا[(١)(٢)]



(١) «المذيل»: ٢/ ١٢٠ـ١٢٢.

(٢) يبدو أن هذه القصيدة الفريدة في تراثنا قد صدمت معاصري أبي شامة ومَنْ جاء بعدهم لمعانيها التي رأوها مبتذلة لا تليق بجلال الشعر كما عرفوه، فقال الصفدي في «الوافي بالوفيات»: ١٨/ ١١٦: «وقد نظم الشيخ شهاب الدين أبو شامة قصيدة تناهز الأربعين بيتاً في زوجته، فسمج ـ عفا الله عنه ـ فيها ما شاء، وبرد ما أبرد».
وبعيداً عن القيمة الشعرية لهذه القصيدة، وعن الظروف التي أملتها على أبي شامة، فإنَّها صورت لنا بتفصيل دقيق، جانباً من حياة المرأة في ذلك العصر، امرأة من عامة الشعب، وهي تغسل وتطبخ وتطرز، وترعى ولدها وزوجها، بلفظ معبِّر، وعفوية آسرة، وهي صورة لا تعجب من اعتاد أن يرى المرأة في الشعر عيوناً كحيلة، وأردافاً ثقيلة!..

ما قبل سقوط بغداد

لم تطل فترة الصفاء بين الناصر يوسف والمعز عز الدين أيبك، فقد ساء المعزَّ أن يسترجع الناصر يوسف منه البلاد الساحلية في الشام، وأن يقطعها للمماليك البحرية الفارين من مصر عقب مقتل الأمير فارس الدين أقطاي[1]، وبدأت تلوح بينهما نذر الحرب، فسارع الخليفة المستعصم بالله، وقد استولى التتار على قلاع الإسماعيلية[2]، وقربوا من حدوده الشرقية إلى إرسال الشيخ نجم الدين البادرائي في أواخر سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٧م) لتجديد الصلح بينهما[3]، وقد تقرَّر فيه أن يكون للملك المعزّ ما كان للسلطان الصالح أيوب من الساحل ببلاد الشام مع ملك مصر، وألا يؤوي الناصر يوسف عنده أحداً من المماليك البحرية[4].

ويبدو أنَّ هذا الشطر الثاني من الاتفاق كان سرياً، إذ لم يشعر به المماليك البحرية إلاَّ من خلال تغير الناصر يوسف عليهم، وذلك بالإعراض عنهم، وترك الإحسان إليهم، بل إنَّ رواتبهم صارت تتأخر أشهراً كثيرة، وأحسَّ الأمير ركن الدين بيبرس بهذا التغير، وهو يرى الهدايا المتبادلة بين الناصر يوسف والمعز أيبك،

---

(١) انظر ص ١٨١ ـ ١٨٢ من هذا الكتاب.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٥.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٩٧.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٩٨.

وكان يبلغه ما كان يكتبه عنه المعز أيبك للناصر يوسف من المكاتبات الباطلة، فرأى ألا بدَّ له من مغادرة دمشق، فاستأذن الناصر يوسف في الذهاب إلى نابلس، وكانت إقطاعه[١].

* * *

لم يكن الملك المعز أيبك في سعيه لتثبيت حكمه في مصر، ولإلقاء هيبته في القلوب يتورع حتى عن القتل، فقد قتل خلقاً كثيراً، وشنق عالماً من الناس بغير ذنب اقترفوه، ليوقع في القلوب مهابته[٢]، وبرغم أنَّه تخلَّص من غريمه القوي الأمير فارس الدين أقطاي، وشتّت أتباعه في البلاد، وطاردهم، وعلى رأسهم الأمير ركن الدين بيبرس وقلاوون الألفي، غير أنَّ متاعبه لم تنته، فقد كانت زوجته شجرة الدرّ، وقد ذاقت خمرة السلطة، مستبدّة بأمور مصر، ولا تطلعه عليها[٣]، وأخفت عنه ذخائر السلطان الصالح أيوب، بل إنَّها منعته حتى من الاجتماع بزوجته الأولى أم ابنه علي، وألزمته بطلاقها[٤]، فتغيّر عليها، وراودته نفسه على قتلها[٥]، وربَّما كيداً لها، وخلاصاً من سلطانها بعث إلى الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة، وإلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنتيهما[٦].

ولم تكن شجرة الدر ـ وهي المرأة القوية المتسلِّطة، صاحبة الفضل على المعز فيما وصل إليه ـ لترضى بذلك[٧]، فأخذت تدبّر في مقتله[٨]، وأرسلت نصراً

---

(١) «الروض الزاهر»: ص٥٥ـ٥٦.
(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٥.
(٣) المصدر السالف.
(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٠٣.
(٥) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٠١.
(٦) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٩٨.
(٧) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٥.
(٨) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٣٩٨.

العزيزي، وهو ممن يخلص لها الولاء، بهدية إلى الناصر يوسف، وتعلمه أنَّها قد عزمت على قتل المعز والتزوج به، وتمليكه مصر، غير أنَّ الناصر يوسف خشي أن يكون في كلامها خديعة له، فلم يجبها[١].

وقد علم صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ بما تدبره شجرة الدر للمعز، فأرسل إليه يحذّره منها، ويعلمه أنَّها خامرت عليه الناصر يوسف، فازداد ما بينهما من جفاء[٢]، فترك القلعة، وأقام بمناظر اللوق أياماً كي يتدبر أمره معها[٣]، وقد هداه تفكيره إلى إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة كخطوة أولى لتجريدها من سلطانها[٤]، فبيت هذا العزم في نفسه، فلمَّا بعثت إليه شجرة الدر يوم الثلاثاء (٢٤) ربيع الأول سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) تعزم عليه أن يعود للقلعة، تظاهر بالرِّضا، وطلع إلى القلعة في آخر النهار، وهو يتحيَّن الفرصة لتنفيذ ما عزم عليه، غير أنَّ شجرة الدر كانت أسرع منه، فقد أعدَّت له خمسة من أتباعها ليقتلوه، منهم محسن الجوجري، ونصر العزيزي، فما إن دخل الحمام ليلاً حتى أغلق عليه الباب محسن الجوجري وغلام كان عنده شديد القوة، ومعهما جماعة، فأخذ بعضهم بأنثييه، وبعضهم بخناقه، فاستغاث المعز بشجرة الدر، فأدركها من الرحمة ما يدرك المرأة وهي ترى زوجها في غاية عجزه وضعفه، فقالت: اتركوه، فأغلظ لها محسن الجوجري في القول، ثم قال لها: متى تركناه لا يبقي علينا ولا عليك. ثم قتلوه[٥].

وبعثت شجرة الدر في تلك الليلة أصبع المعز علامة على قتله وخاتمه إلى

---

(١) «السلوك»: ج١/ق٢/٤٠٢.
(٢) المصدر السالف.
(٣) «السلوك»: ج١/ق٢/٤٠٣.
(٤) «السلوك»: ج١/ق٢/٤٠٢.
(٥) «السلوك»: ج١/ق٢/٤٠٣.

الأمير عز الدين أيبك الحلبي، وقالت له: قم بالأمر، فخاف، ولم يرضَ[١].

وإخفاء لمقتله أشيع أنَّ المعز مات فجأة في الليل، وأقاموا الصائح في القلعة ينعاه، فلمَّا سمع مماليكه بموته لم يصدقوا بذلك، وقد تركوه في آخر النهار صحيح البدن، معافى، وقام الأمير علم الدين سنجر الغتمي، وهو يومئذ كبير المماليك البحرية، ومعه مماليك المعز إلى الدور السلطانية، وقبضوا على الخدام والحريم، وعاقبوهم، فأقروا بما جرى، وعند ذلك قبضوا على محسن الجوجري، واستطاع نصر العزيزي الفرار نحو الشام[٢].

ولما رأت شجرة الدر أنَّه قد أحيط بها، وعلمت أنَّ خطتها قد انكشفت، عمدت في لحظة يأس وغيرة إلى ما عندها من الجواهر واللآلئ، وهو شيء كثير، فكسَّرته في الهاون[٣]، ولمَّا تمكنوا من القبض عليها أراد مماليك العز قتلها، فحماها مماليك الصالح أيوب، ونقلت إلى البرج الأحمر بالقلعة[٤].

واجتمع الأمراء يوم الخميس (٢٦) ربيع الأول سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) وأقاموا ابن المعز نور الدين علي سلطاناً على مصر، ولقَّبوه بالملك المنصور، وعمره نحو خمس عشرة سنة، وأقيم الأمير سيف الدين قطز، مملوك المعز[٥] نائباً للسلطنة كما كان في زمن المعز، فصار مدبر دولة الملك المنصور نور الدين علي[٦].

وحُملت شجرة الدر يوم الجمعة (٢٧) ربيع الأول إلى ضرتها أم السلطان

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٠٣.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٠٤.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٠٣.

(٥) من الخطأ الشائع ما يكتبه بعض كتبة التاريخ من المعاصرين من أن قطز من المماليك البحرية، وإنَّما هو من مماليك المعز، انظر «المذيل»: ٢/ ١٣٨.

(٦) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٠٥.

علي، وقد كانت بينهما غيرة شديدة، فضربها الجواري بالقباقيب، إلى أن ماتت يوم السبت (٢٨) ربيع الأول سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، فألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياماً حتى أنتنت، فحملت في قفة، ودفنت بتربتها قريب المشهد النفيسي[1].

* * *

ووصلت أخبار هذه الحوادث المؤلمة إلى دمشق في أوائل شهر ربيع الآخر سنة[2] (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) عقيب وقوعها بأيام قليلة، كان أبو شامة في تلك الأيام يجلس بحلقته في جامع دمشق، وقد التفَّ حوله بعض أصحابه يقرؤون عليه «كتاب الروضتين»[3]، ولا ريب أنَّ هذه الأخبار زادته كرهاً لهؤلاء المماليك الذين استبدوا بالملك، لا يرعون حرمة دم، ولا يحفظون مالاً ولا عرضاً، حقاً أنهم افتتحوا عهدهم بالانتصار على الفرنج في المنصورة، ولكنهم لوّثوا انتصارهم بما سفكوه من دماء في شوارع القاهرة، ألم يشنقوا الرجال ترسيخاً لهيبتهم؟ ألم يعتدوا على نساء المسلمين وأولادهم؟ وإذا كانت مهمة السلطان في رأي أبي شامة في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، فإنَّ مهمة أعظم تنتظره، وهي النظر في مصالح العباد[4]، إذ لا معنى للجهاد إذا كان معه تضييع حق العباد.

وأكبَّ أبو شامة في بيته على أوراقه يسجل فيها تلك الحوادث، ويبدو أن نصراً العزيزي، وقد فرَّ إلى الشام، وهو أحد أركان المؤامرة، قد أشاع فيها، تبرئة لنفسه، أنَّ المعز مات فجأة، وأنَّ شجرة الدر بريئة من دمه، ويتلقف أبو شامة هذه الشائعة دون أن يتحقق منها، فيدوّن في تاريخه: «وفي أوائل شهر ربيع الآخر جاءنا

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٠٤.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١١٩.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٤.

الخبر من ديار مصر بموت ملكها حينئذ عز الدين أيبك التركماني، أحد مماليك نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل بن أيوب، وهو الذي غلب عليها بعد قتل ابنه المعظم بن الصالح بن الكامل، ويلقب بالملك المعز، وكثر الظلم والقتل بتلك الديار من المماليك المعروفين بالبحرية في أموال المسلمين، ونسائهم وأولادهم إلى أن قتل رفيقه فارس الدين أقطاي. ثم مات هذا التركماني بداره بغتة، ولا يُعلم سبب موته، وتعصب أصحابه لإقامة ابنه مقامه، ولقّبوه بالملك المنصور نور الدين علي، وضُرب الدرهم باسمه، واتهموا زوجة التركماني أنَّها قتلته، فأعدموها، وكانت جارية لسيدهم الملك الصالح أيوب بن الكامل، تكنى أم خليل، بابن له منها دَرَجَ، وتلقب شجرة الدر، والله تعالى يصلح أمور المسلمين»[(١)].

❁ ❁ ❁

في نابلس كان الأمير ركن الدين بيبرس يرقب هذه الأحداث، ويرى أنَّه الأحق بملك مصر عقب مقتل المعز، أليس هو صاحب الانتصار في المنصورة؟ أليس هو من قتل السلطان تورانشاه ليفسح للمماليك أن يحكموا؟ أهكذا يبعد عن مصر، ويعيش مطارداً تتقاذفه البلاد، بينما يستولي عليها أحد مماليك المعز؟

ويرى الفرصة قد سنحت، فيترك نابلس في شوال سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) وينضم مع فرسانه السبع مئة إلى الملك المغيث صاحب الكرك، ويطمعه بالاستيلاء على مصر، والظروف مواتية، فيرسل المغيث عسكره مع ركن الدين بيبرس، فيسير إليها، غير أنَّ هذا الجيش الصغير لن يستطيع مهما تبلغ شجاعة قائده أن يتغلَّب على جيش مصر القوي، وقد خرج إلى الصالحية بقيادة سيف الدين قطز لمنعه عنها، وتقع المعركة بينهما في يوم السبت (١٥) ذي القعدة سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) مسفرة عن هزيمة بيبرس وعسكر الكرك، ويعود سيف الدين قطز إلى القاهرة منصوراً، بينما يقبع بيبرس في قلعة الكرك يتآكله الغيظ، متربصاً فرصة أخرى[(٢)].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١١٩ـ١٢٠.

(٢) «الروض الزاهر»: ص٥٧ـ٥٨، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٠٦.

سقوط بغداد

كان هولاكو في أثناء إقامته بهمذان عقب قضائه على الإسماعيلية قد أتمَّ استعداداته كلها لغزو العراق، والاستيلاء على بغداد؛ حاضرة الخلافة الإسلامية، وبدأ جيشه الكبير في شوال سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) يزحف نحوها[١].

وكان قلبه يستعر حنقاً على الخليفة المستعصم بالله، فقد أرسل إليه، وهو يحاصر قلاع الإسماعيلية، طالباً نجدة منه، غير أنَّ الخليفة تجاهل طلبه، واستمع إلى نصيحة أمرائه: الدويدار الصغير وسليمان شاه، وهما يحذرانه منه، قائلين له: إنَّ هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة، وليس محتاجاً إلى نجدتنا، وإنَّما غرضه إخلاء بغداد من رجالها حتى يتملَّكها بسهولة[٢].

وأبدى هولاكو ـ بعد استيلائه على قلاع الإسماعيلية ـ بعض غضبه، وهو يعاتب الخليفة على إهماله تسيير النجدة إليه، وشاور الخليفةُ من حوله فيما يفعله، فأشار عليه الوزير مؤيد الدين بن العلقمي بإرضاء هولاكو ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه[٣]، وباشر الخليفة على الفور في تهيئة هذه الهدايا، غير أنَّ

---

(١) «تاريخ مختصر الدول» لابن العبري: ص٢٦٩.

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

الدويدار الصغير وأصحابه عارضوا الوزير في إشارته ـ وكان بينهما عداوة ـ وقالوا للخليفة: إنَّ الوزير إنَّما يريد مصانعة هولاكو بما يبعثه إليه من الأموال، تدبيراً لنفسه، وهو يروم تسليمنا له، فلا تمكنه من ذلك. فأبطل الخليفة ما كان قد عزم عليه، واقتصر على إرسال شيء نزر من الهدايا[١].

فازداد هولاكو غضباً على غضب من هذه الهدية المحتقرة، وأرسل إلى الخليفة أن يبعث إليه بواحد من هؤلاء الثلاثة: إمَّا الوزير، وإما الدويدار الصغير، وإما سليمان شاه[٢].

ولم يقدِّر الخليفة خطورة الموقف، فلم يبعث إليه بأي واحد منهم[٣]، ظناً منه أن هولاكو لن يقدم على محاربته، فهيبة الخلافة، وحرمتها في العالم الإسلامي تصده عن ذلك، ولئن غامر وهاجمه إن جيوش أمراء المسلمين في بلاد الشام ومصر ستهب للدفاع عنه، بل إنَّ أسوار بغداد ستحميه، ولن ينازعه هولاكو في بغداد إن ترك له العراق كله، قائلاً: بغداد تكفيني، حتى عامة المسلمين كانوا مطمئنين إلى أنَّ الخلافة عصية على الهزيمة، وهي التي قصمت أعداءها على مر القرون[٤].

* * *

كان جيش هولاكو في زحفه يقترب من العراق، وقد أمر هولاكو سونجاق نوين أن يسير بقطعة من الجيش إلى إربل، ويجتمع ببايجو نوين القادم من بلاد الروم[٥]، ويقصدان بغداد من غربي دجلة[٦]، أما هو فتابع سيره نحوها من طريق حلوان من

(١) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧٠.
(٢) المصدر السالف.
(٣) «البداية والنهاية» (حوادث سنة ٦٥٦هـ)، «عقد الجمان» (حوادث ٦٤٨ـ٦٦٤): ص١٧٢.
(٤) «محنة الإسلام الكبرى»، مصطفى طه بدر: ص١٦٣، «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧٠.
(٥) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٦.
(٦) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧٠.

الشرق[١]، وقد استصحب معه آلات الحصار وغيرها، وأجفل أهل السواد بين يديه إلى بغداد، ملتجئين إليها، حتى امتلأت بهم شوارعها، وضاقت على سعتها، فقعدوا في الطرقات والدكاكين، وغلت الأقوات، ووقع الناس في الخوف الشديد، والويل العظيم[٢].

ولما وجد الخليفة أنَّ هولاكو قد قرب من بغداد بادر إلى الأمير الدويدار الصغير ـ وكان مقدماً على عشرة آلاف فارس ـ يأمره بالخروج من بغداد بالعساكر ليتصدى له، فخرج[٣]، ونزل قريباً من بعقوبا[٤]، وأمر مرشداً الخصي أن يخرج في باقي العسكر إلى خانقين، غير أنَّ الأمراء امتنعوا من المسير تحت لوائه، وربما كان امتناعهم تعبيراً عن استيائهم مما وصلت إليه حالتهم من سوء، إذ كان الخليفة قد أهمل حال الجند، ومنعهم أرزاقهم، وأسقط أكثرهم من دساتير ديوان العرض، وآلت أحوالهم إلى سؤال الناس، وبذل ماء وجوههم في الأسواق والجوامع[٥].



لما بلغ الدويدار الصغير وصول سونجاق نوين وبايجو نوين إلى غربي دجلة، عبر دجلة، ونزل حيال حربى[٦]، وأرسل طليعة أحد أمرائه، وهو أيبك الحلبي ليتحسس له أخبار التتار، فوقع عليه التتار، فأخذوه أسيراً، وحملوه إلى هولاكو، فأمنه هولاكو، وطيَّب قلبه، فانحاز إليهم إبقاءً على حياته، وصار يسير أمام جيش التتار

(١) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧٠.
(٢) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٥.
(٣) «عقد الجمان»: ص١٦٩.
(٤) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٤ـ١٥٥.
(٥) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٤.
(٦) المصدر السالف.

يعرفهم الطريق، ويكتب كتباً إلى بعض أصدقائه يخذلهم عن قتال التتار، قائلاً لهم: ارحموا أرواحكم، واطلبوا الأمان، لأنَّ لا طاقة لكم بهذه الجيوش الكثيفة(١).

ولكن جيش الخليفة على الرغم مما لحقه من إهمال كان يفيض إيماناً بنصر الخليفة، واحتقاراً لهولاكو، فيجيبونه قائلين: من يكون هولاكو؟ وما قدرته ببيت عباس؟ مِن الله ملكهم، ولا يفلح من يعاندهم، ولو أراد هولاكو الصلح لما داس أرض الخليفة، ولما أفسد فيها، والآن إن كان هولاكو يختار المصالحة فليعد إلى همذان، ونحن نتوسل بالدويدار ليخضع لأمير المؤمنين متخشعاً في هذا الأمر، لعلَّه يعفو عن هفوة هولاكو(٢).

* * *

بيد أنَّ التتار، وبحركة مفاجئة، توجهوا نحو الأنبار، فتبعهم الدويدار الصغير، ولما تجاوز قنطرة باب البصرة بفرسخ واحد لقي عسكر سونجاق نوين في انتظاره، فاصطدموا بقتال شديد يوم الأربعاء في التاسع من محرم سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، فتظاهر عسكر التتار بالهزيمة خديعة له، فتبعهم الدويدار، وقتل منهم عدة، وحمل رؤوسهم إلى بغداد، وما زال يتبعهم سحابة ذلك النهار، وقد أشار عليه أحد أمرائه بأن يثبت مكانه، ولا يتبعهم، فلم يصغِ إليه، فأدركه الليل، وقد تجاوز نهر بشير قرب دُجَيل، فبات هناك مع عسكره وهم يعتقدون أنَّ معركتهم مع التتار قد حسمت، وأنهم قد انتصروا على عدوهم، بل إنَّ بعضهم تسلَّل عائداً إلى بغداد(٣).

فلما أصبحوا حمل عليهم بايجو نوين حملة شديدة، فانهزموا بين يديه، وكان بايجو قد بثق في الليل بثقاً على نهر بشير، ففاض، وملأ الصحراء، وساحت منه

---

(١) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧٠.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧٠، «الحوادث الجامعة»: ص١٥٦، «عقد الجمان»: ص١٦٨ ـ ١٦٩.

مياه دجلة، وأغرقت الطرق والمسالك، فعجزت خيول المنهزمين عن سلوكه، ووحلت فيه، فلم يخلص منه إلاَّ مَنْ كانت فرسه شديدة، وألقى معظم العسكر نفسه في دجلة، فهلك منهم الكثير، ودخل بغداد من نجا منهم مع الدويدار على أقبح صورة[١].

وتبعهم بايجو نوين وعسكره يقتلون فيهم، وغنموا كل ما معهم، ونزلوا بالجانب الغربي من بغداد، وقد خلا من أهله، وشرعوا في الرمي بالنشاب إلى الجانب الشرقي، حيث دار الخلافة[٢].

وارتاع الخليفة لتحطم جيشه بهذه السرعة أشد ارتياع، ولم يبقَ أمامه للدفاع عن بغداد إلا إغلاق أبوابها، فأغلقت[٣].

وكانت سهام التتار تصل إليه، وهو في داره، وذات ليلة، وبينما كانت إحدى جواريه ترقص بين يديه تسليةً له، وتخفيفاً من جزعه، اخترق سهم بعض شبابيك الدار، فقتلها، فازداد الخليفة غمّاً على غمّ، وكان التتار قد كتبوا على السهم سخرية به، وتثبيطاً له: إذا أراد الله أن ينفذ قضاءه سلب ذوي العقول عقولهم[٤].

وزيادة في الاحتراز والتحصن داخل دار الخلافة أمر الخليفة بعمل ستائر من أنواع الخشب كي تحول بين شبابيك الدار ورماة التتار[٥].



ووصل هولاكو إلى الجانب الشرقي من بغداد يوم السبت (١٢) محرم سنة[٦]

(١) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٦.
(٢) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٦، و«خطط بغداد في القرن الخامس الهجري»: ص٢٣.
(٣) «عقد الجمان»: ص١٧٠.
(٤) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٦.
(٥) المصدر السالف.
(٦) «البداية والنهاية» (حوادث سنة ٦٥٦هـ)، و«عقد الجمان»: ص١٧١.

(٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، فوجد أبواب بغداد قد أغلقت، فعرف أنَّ أهلها قد ضعفوا عن لقائه، ولم يبقَ إلاَّ الحصار، فأمر بحفر خندق عميق، وبناء سور يحيط بجهاتها كلها، فبني في يوم وليلة، وعملت له أبواب، ورتب هولاكو عليه أمراء التتار، وشرعوا في عمل ستائر المجانيق، ونصبوها بإزاء سور بغداد، ورتبوا العرَّادات وآلات النفط[1]، وكان أهل بغداد يشاهدون من السور ما يقوم به التتار، وقد نصبوا عليه مجانيقهم كذلك، غير أنها لم تكن ذات جدوى[2].

ثم إن هولاكو أمر بعقد جسر جنوبي بغداد، قرب قرية العقاب، لتضييق الخناق عليها، وليمنع من ينحدر منها إلى واسط، ولم يعلم به أهل بغداد، فكانت سفنهم تصل إليه، فيؤخذ من بها ويقتل، وقد قتل عنده خلق كثير[3].

ولما أحكم التتار حصارهم حول بغداد، جدُّوا في القتال ورمي السور، وابتدؤوا الرمي على برج العجمي[4]، وكان عن يمين سور الحلبة[5]، وهو أقوى الأبراج[6]، وأمر هولاكو أن يكتب على السهام بالعربية تخذيلاً للمقاتلين: كل مَنْ ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وأمواله، وكانوا يرمونها إلى المدينة[7].

كانت أحجار المجانيق تدكّ أسوار بغداد، والسهام تفتك بأهلها، والخليفة في داره قابع، يعاين العجز في نفسه، والخذلان في أصحابه، ولاح له أنَّه لا بدَّ من إرسال رسول إلى هولاكو يسترضيه بالهدايا، اتباعاً لنصيحة وزيره القديمة، غير أنَّ مَنْ حوله من الأمراء كالدويدار الصغير وسليمان شاه، ثنوه عن ذلك، إذ كانوا

---

(١) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

(٣) المصدر السالف.

(٤) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧١.

(٥) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

(٦) «محنة الإسلام الكبرى»: ص١٧٢.

(٧) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧١.

ما يزالون يعتقدون أنهم بالمناورة قد يرفعون الحصار عن بغداد، فحاولوا أن يظهروا رباطة جأش وبغداد تضرب، وقالوا للخليفة: إن سيرت إلى هولاكو الكثير من الهدايا، فإنه سيفسر ذلك بأننا هلعنا وجزعنا كثيراً[1]. فأرسل الخليفة صاحب ديوانه وابن درنوش إلى هولاكو بهدايا نزرة، فسألهم هولاكو: لِمَ لم يأتِ الدويدار وسليمان شاه؟ فكتب إليه الخليفة بأنَّه سيسير إليه وزيره ابن العلقمي، وهو أحد الثلاثة الذين كان قد طلبهم[2].

وخرج الوزير ابن العلقمي من بغداد يوم الاثنين (١٤) محرم سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) في جماعة من مماليكه وأتباعه، وكان أتباعه ينهون الناس عن الرمي بالنشاب، ويقولون: سوف يقع الصلح إن شاء الله، فلا تحاربوا. أمَّا عسكر التتار فكانوا يبالغون في الرمي، ويمطرون برج العجمي بحجارة المجانيق[3].

وبقي الوزير ابن العلقمي في معسكر هولاكو نحو ثلاثة أيام[4]، يتوثق لنفسه منه، متحالفاً معه، استجلاباً لمصلحته، وقد رأى بغداد آيلة للسقوط، وانتقاماً من أعدائه: الدويدار الصغير وسليمان شاه، بل انتقاماً من الخليفة نفسه، ورجع إلى بغداد يوم الخميس (١٧) محرم، وكأنَّه رسول من هولاكو، قائلاً عن لسانه: إنَّ هولاكو قد طلب أحد الثلاثة حين كان مقيماً بنواحي همذان، أما الآن، وهو على أسوار بغداد، فلن يقنع بواحد منهم[5].

فكان لا بدَّ من خروج الدويدار وسليمان شاه إليه، وحاول الدويدار الهروب من بغداد، غير أنَّ الحصار المحكم حولها حال دون هروبه[6]، ويبدو أنَّ الوزير

---

(١) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧١.

(٢) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧١.

(٣) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

(٤) المصدر السالف.

(٥) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧١.

(٦) المصدر السالف.

ابن العلقمي ـ وقد غدا مقرباً من هولاكو ـ قد تولى المفاوضات بين هولاكو والخليفة، وكانت الغاية التي يتغيَّاها هولاكو من هذه المفاوضات هي إخراج الخليفة من بغداد. فكان ابن العلقمي يرجع في كل مرة من عند هولاكو باقتراح جديد يقرب من هذه الغاية.

فقد أصر هولاكو بادئ ذي بدء على خروج الدويدار الصغير وسليمان شاه إليه، أما الخليفة فهو مخير في ذلك، إن اختار الخروج فليخرج، وإلا فليلزم مكانه[١].

ثم إنَّ ابن العلقمي راح يغري الخليفة بالخروج، مطمئناً له على لسان هولاكو بأنَّه سيبقيه في الخلافة كما فعل بسلطان الروم، وتقرباً منه، فإنه يريد أن يزوج ابنته من ابن الخليفة أبي بكر[٢].

وفي مرة ثالثة قَدِمَ ابن العلقمي على الخليفة بمشروع مصالحة بينه وبين هولاكو، على أن يكون نصف الخراج من أرض العراق للتتار، ونصفه للخليفة، غير أنَّ هذا المشروع لن يتم ما لم يمثل الخليفة بين يدي هولاكو[٣].

وبقي الخليفة برغم ما يأتيه من عروض برَّاقة متوجساً حذراً من هذا الخروج، مطمئناً إلى أنَّ أسوار بغداد سوف تحميه.

فواصل التتار رمي الحجارة عليها بالمجانيق، حتى تمكنوا أخيراً من هدم برج العجمي، وانفتح منه ثغرة صعدوا منها إلى السور في يوم الاثنين (٢١) محرم سنة[٤] (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، واشتد القتال على السور نحو سبعة أيام حتى تمكن التتار من الاستيلاء عليه من جهاته كلها في يوم السبت (٢٦) محرم، وعلا التتار

---

(١) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧١.

(٢) «عقد الجمان»: ص١٧٣.

(٣) «البداية والنهاية» (حوادث سنة ٦٥٦هـ)، «عقد الجمان»: ص١٧٢.

(٤) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

السور[١]، وتطاللوا على بغداد، فإذا هي أمامهم مستسلمة، عاجزة عن الدفاع عن نفسها، فأمسكوا عن الرمي[٢].

وسارع أهل بغداد إلى إرسال شرف الدِّين المراغي وشهاب الدين الزنكاني، وهما من أعيان بغداد، ليطلبا الأمان لهم من هولاكو[٣].

وأُسقط في يد الخليفة، ووجد ألا مفرَّ له من الخروج إلى هولاكو، فخرج إليه يوم الاثنين (٢٨) محرم[٤] في موكب كبير في نحو سبع مئة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية، ورؤوس الأمراء والأعيان، فلما صاروا خارج السور، واقتربوا من منزل هولاكو، حُجب الركب عن الخليفة إلا سبعة عشر رجلاً منهم، وأُنزل الباقون عن مراكبهم، فنهبت، ثم قتلوا عن آخرهم[٥]. وأفرد التتار للخليفة خيمة اعتقلوه فيها[٦].

ثم أُحضر الخليفة إلى منزل هولاكو، وقد راعه في طريقه إليه ما رآه في معسكره من مظاهر السطوة والجبروت، ولما مَثُلَ بين يديه، وسأله هولاكو عمَّا بدر منه، اضطرب الخليفة، وتلعثم لسانه[٧]، ثم أعيد إلى خيمته تحت حراسة مشددة.

وتتابع الأمراء على الخروج إلى هولاكو، فخرج الدويدار الصغير وسليمان شاه في يوم الخميس الفاتح من صفر سنة[٨] (٦٥٦هـ/١٢٥٨م).

---

(١) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧١.

(٢) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

(٣) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧١.

(٤) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

(٥) «البداية والنهاية» (حوادث سنة ٦٥٦هـ)، «عقد الجمان»: ص١٧٢.

(٦) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

(٧) «البداية والنهاية» (حوادث سنة ٦٥٦هـ)، «عقد الجمان»: ص١٧٢.

(٨) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

ثم خرج في اليوم التالي ابن الخليفة الأكبر أبو العباس أحمد(١).

ولما تحقق هولاكو من أنَّ بغداد قد ألقت قيادها إليه، واستسلمت له، دخلها في يوم الأحد (٤) صفر سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) دخول المنتصر، ومعه أمراؤه، ليشاهد دار الخلافة، وكان في صحبته نصير الدين الطوسي، وتابعه الجديد الوزير ابن العلقمي، وقد جاب هولاكو أرجاء القصر، وربما أبدى دهشته لما شاهده فيها من جمال وترف، ثم أمر بإحضار الخليفة إليه، فأُحضر محاطاً بجند التتار، فمثل بين يدي هولاكو، وبذلِّ الأسير وخضوعه راح الخليفة يخرج له تحف دار الخلافة وكنوزها من الأموال والجواهر والحلي والزركش والثياب، وأواني الذهب والفضة والأعلاق النفيسة التي تراكمت فيها عبر القرون، وبغطرسة المنتصر راح هولاكو يفرقها على أمرائه، ثم أمر الخليفة أن يفرز جميع النساء اللاتي باشرهن هو وبنوه، ويعزلهن عن غيرهن من حريم القصر، فكن سبع مئة امرأة، فأخرجهن، ومعهن ثلاثة مئة خادم وخصي(٢).

وكان الليل قد خيَّم بوحشته على بغداد، فرجع هولاكو إلى معسكره، وأمر أن يعتقل الخليفة بباب كلواذى(٣).

وما إن أطل صباح يوم الاثنين (٥) صفر حتى نادى منادي هولاكو في معسكره يأمر جنوده باستباحة بغداد، ووضع السيف في أهلها(٤).

وانقضَّ عليها التتار تقتيلاً وتخريباً، وبدؤوا أول ما بدؤوا بأعمام الخليفة وأنسابه في دار الخلافة، فكانوا يطلبونهم واحداً بعد الآخر، فيخرج الرجل منهم بأولاده ونسائه وجواريه، فيحمل إلى مقبرة الخلال التي تجاه المنظرة، فيذبح بها

(١) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

(٢) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧١-٢٧٢، «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

(٣) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧١.

(٤) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٨.

كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارونه من بناته وجواريه، حتى قتلوهم عن آخرهم[١].

أمَّا الفقهاء وأعيان بغداد ومدرِّسوها، فكان الوزير ابن العلقمي يستدعيهم، فيخرجون إليه طمعاً في أمانه، فكان إذا اجتمع لديه طائفة منهم يرسلهم إلى التتار، فيقتلونهم[٢]، حتى إذا فرغوا منهم مالوا على البلد يقتلون كل من قدروا عليه من الرجال والنساء، والولدان والمشايخ، والكهول والشبان، وقد اختبأ بعض الناس في الآبار والمطامير والقنى والمغاوير، وبعضهم كان يغلق عليه أبواب الخانات، فيفتحها التتار بالكسر أو بالنار، فيدخلونها، فيهرب منهم الناس إلى الأسطحة، فيقتلونهم هناك، حتى جرت الميازيب بالدماء في الأزقة، وسالت غزيرة في المساجد والجوامع والربط[٣]، وخربت المكتبات، وأتلفت الكتب[٤].

وظفر الوزير ابن العلقمي لتعاونه مع التتار بأن كان داره أحد الدور الآمنة في هذا الخراب الواسع، فمن دخله كان آمناً[٥]!..

* * *

ورحل هولاكو عن بغداد يوم الأربعاء (١٤) صفر سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) عائداً إلى معسكره في همذان، تاركاً جنوده يستبيحونها، وفي أول مرحلة من مراحل الطريق أمر بقتل الخليفة في ذلك اليوم[٦]، ولم يهرق دمه على عادتهم في قتل

---

(١) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٨، «عقد الجمان»: ص١٧٥.

(٢) «عقد الجمان»: ص١٧٣ـ١٧٤.

(٣) «البداية والنهاية» (حوادث سنة ٦٥٦هـ)، «عقد الجمان»: ص١٧٤.

(٤) «محنة الإسلام الكبرى»: ص١٧٧.

(٥) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٨ـ١٥٩.

(٦) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧٢.

أشرافهم[١]، بل جعل في غرارة، ورفس حتى مات، ودفن، وعفي أثره، وكان له من العمر ست وأربعون سنة وأربعة أشهر[٢].

ثم قتل ولداه أبو العباس أحمد، وأبو الفضل عبد الرحمن[٣].

ثم قتل الدويدار الصغير وابنه، وسليمان شاه، وأمر هولاكو بحمل رؤوسهم إلى الموصل، فحملت وعلقت على أبوابها، ترهيباً لصاحبها، وتخويفاً لأهلها[٤].

ولم يزل التتار في قتل ونهب وأسر، وتعذيب الناس بأنواع العذاب، لاستخراج الأموال منهم، حتى لم يبقَ من أهل بغداد ومن التجأ إليها من أهل السواد إلا القليل[٥].

فلما نودي بالأمان ـ بعد أربعين يوماً ـ خرج من كان مختبئاً تحت الأرض بالمطامير والقنى والمغاوير كأنهم موتى نبشوا من قبورهم، قد تغيرت ألوانهم، واستولى الذهول على عقولهم لما شاهدوه من الأهوال التي لا يعبر عنها بلسان[٦]، حتى إنَّ بعضهم أنكر بعضاً، فلم يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه[٧].

وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها مدينة موحشة خراباً، ليس فيها إلاَّ القليل من الناس، وهم في خوف وبرد وجوع وذلة[٨].

وقد تراكم القتلى في الدروب والأسواق كالتلول[٩]، والدم في الأزقة متخثر

---

(١) «العبر» لابن خلدون: ٥/٥٤٣.

(٢) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٧.

(٣) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٨.

(٤) المصدر السالف.

(٥) المصدر السالف.

(٦) المصدر السالف.

(٧) «عقد الجمان»: ص١٧٦.

(٨) «البداية والنهاية» (حوادث سنة ٦٥٦هـ)، «عقد الجمان»: ص١٧٤.

(٩) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٩.

كأكباد الإبل[١]، وقد هطلت الأمطار عليهم، ووطئتهم خيول التتار، فتغيرت صورهم[٢]، وأنتنت البلد من رائحتهم، وكثر الذباب، وتغير الهواء، ووقع الوباء فيمن نجا من القتل، واجتمع على الأحياء منهم الغلاء والفناء والطعن والطاعون[٣].



(١) «عقد الجمان»: ص١٧٤.

(٢) «الحوادث الجامعة»: ص١٥٩.

(٣) «عقد الجمان»: ص١٧٥ ـ ١٧٦.

ما بعد سقوط بغداد

كان سقوط بغداد صدمة مروعة هزّت وجدان كل مسلم، وأذهلته، وتلجلجت أقلام بعض المؤرِّخين في التأريخ لها، ولاذ أبو شامة بالصمت الحزين في معتزله، وهو يرى آثار هذه الكارثة قد سرت في هواء بلاد الشام وباءً، راح يحصد أرواح الناس، فيتساقطون موتى في طرقاتها[1]، ولم يطاوعه قلمه إلاَّ في نقل ما قاله أحد الناجين من هذه المذبحة الرهيبة في رسالة بعث بها إلى دمشق: والأمر أعظم مما بلغكم من الأخبار[2]. وكأن أبا شامة يريد بهذه الجملة أن يطلق العنان للخيال في تصوير ما جرى بعيداً عن ضيق الكلمات وأَسْرها، عازياً ما حدث إلى مكيدة دبرها وزير بغداد ابن العلقمي[3].

وتحت وطأة الألم من هذه الفاجعة فزع أبو شامة إلى الشعر، علّه يخفف في البوح به بعض ما يعانيه من قهر، وقد استباح التتار مدينة الخلافة، زهرة المدائن، فسقطت تحت سنابك خيولهم وبريق سيوفهم وصرخاتهم الوحشية، وحيدة مخذولة، لم تجد لها ناصراً ومعيناً، ولن تنتهي مأساة المسلمين في بغداد، فطوفان التتار المدمر يجرف في طريقه المدن والناس، فقال:

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٢٧.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٢٥.

(٣) المصدر السالف.

لـم يُـعَـنْ أهـلُـهـا ولـلـكُـفْـرِ أعـوا ... نٌ عـلـيـهـم يـا ضـيـعـةَ الإسـلامِ
وانـقَـضَـتْ دولـةُ الـخـلافـةِ فـيـهـا ... صـارَ مُـسْـتَـعْـصِـمٌ بـغـيـر اعـتـصـامِ
رَبِّ سَـلِّـمْ وصُـنْ وعـافِ بـقـايـا الـ ... ـمُـدْنِ يـا ذا الـجـلال والإكـرامِ
فـحـنـانـاً عـلـى الـحـجـازِ ومـصـرٍ ... وسـلامـاً عـلـى بـلاد الـشَّـامِ[(١)]

وأكاد أتخيل أبا شامة، وهو يردد في مناجاة حزينة: وسلاماً على بلاد الشام، فهل ستكون بلاد الشام بنجوة من هذا الطوفان المدمِّر؟ وهل سيحل في ربوعها السلام كما يتمنّى قلب أبي شامة المشفق الحزين؟

❁ ❁ ❁

كان الناصر يوسف غارقاً في بحر اطمئنانه إلى التتار، وكأنَّه لا يريد أن يبصر ما حوله، وقد قرب منه التتار هذا القرب وهم يحاصرون بغداد، وكأنَّ الأمان الذي ناله منهم تعويذة تدفع شرورهم عنه، فما إن وصل إليه صاحب ميافارقين الكامل محمد بن غازي بن العادل يطلب منه نجدة ليمنع التتار من الدخول إلى الشام حتى استخفَّ برأيه، ولم يصغِ إلى كلامه، بل سوفه وماطله[(٢)].

وما كان يحاذر منه الكامل محمد قد وقع، فما إن عاد إلى ميافارقين، وقد سقطت بغداد، حتى أدركته عساكر التتار، وفي مقدمتها يشموت بن هولاكو، وأحاطت بمدينته، وفي يوم وليلة بنوا حول المدينة سوراً عالياً، وحفروا خندقاً عميقاً، ثم نصبوا عليها المنجنيقات، وشرعوا في القتال، وتصدى لهم الكامل محمد، وقاتل مع عسكره قتالاً شديداً، فلما رأى التتار أنَّ المدينة حصينة، ولن يمكنهم أخذها بالقتال، ضربوا حولها الحصار، ومنعوا الناس من الدخول إليها والخروج منها[(٣)].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١١٥.

(٢) «مختصر تاريخ الدول»: ص٢٧٧، وفيه الأشرف بدل الكامل، وهو وهم، «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٧.

(٣) «مختصر تاريخ الدول»: ص٢٧٧.

وحين بلغ الناصر يوسف سقوط بغداد، وقتل الخليفة المستعصم، بدأ الخوف يتسرب إلى نفسه[١]، وزايله اطمئنانه، وهو يسمع خبر مسارعة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ إلى همذان، ليقدم إلى هولاكو فروض الطاعة والولاء[٢].

وبينما هو في ذهوله وحيرته بدأت تقرع أسماعه كتب هولاكو، يقدم بها إليه رسله، يخبرونه فيها بلغة ظافرة متغطرسة سقوط بغداد وقتل الخليفة، وتدعوه بلغة مهددة متوعدة للمسارعة في المثول بين يديه، وقد قال له في بعضها: فقد أيقظناكم حين راسلناكم، فسارعوا إلينا بردّ الجواب بتة، قبل أن يأتيكم العذاب بغتة، وأنتم تعلمون[٣]. وقال في أخرى: أجب ملك البسيطة، ولا تقولن: لا، وساعة وقوفك على كتابنا نجعل قلاع الشام سماءها أرضاً، وطولها عرضاً، والسلام[٤].

ومع كل رسالة كان الخوف والهلع يدبّ في قلب الناصر يوسف، فيهرع إلى أمرائه يستشيرهم فيما يفعل، وقد استبدت به الحيرة، فيشير عليه أمراؤه أن يمكث في الشام، ولا يسير إلى هولاكو[٥]، وهي مشورة صادفت هوى في قلب الناصر يوسف، فجهز ولده الملك العزيز، وصحبته الأموال الكثيرة والهدايا والتحف، وسير معه طبيبه الأثير زين الدين الحافظي[٦].

ولما وصل العزيز بن الناصر إلى هولاكو بهمذان، وقدم ما معه من الهدايا، سأله هولاكو: لم لا جاء الملك الناصر إلينا؟ فاعتذر العزيز عن أبيه بأنَّ بلاده في وسط بلاد الفرنج، فما يمكنه أن يتركها ويحضر. وتظاهر هولاكو بقبول هذا العذر

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٧ـ١٦٨.

(٢) «مختصر تاريخ الدول»: ص٢٧٦ـ٢٧٧.

(٣) «مختصر تاريخ الدول»: ص٢٧٧ـ٢٧٨.

(٤) «عيون التواريخ»: ٢٠/ ١٣٦.

(٥) «مختصر تاريخ الدول»: ص٢٧٨.

(٦) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٨.

الواهي[١]، وهو لا شك يعلم بأنَّ الناصر يوسف لم يرفع يوماً سيفاً في وجه الفرنج، بل هو في هدنة معهم[٢].

وانتهز زين الدين الحافظي خلوة مع هولاكو، فراح يغريه بالمسير إلى دمشق، قائلاً له: بغداد أخذتها، والشام بلا ملك، ومتى قصدته أخذته، وأنا المساعد فيه، فإن أكثر من بدمشق أهلي وأقاربي[٣].

وكان الناصر يوسف لكي يطمئن إلى أمانه مع التتار، ويطمئنوا إليه، قد طلب من ابنه العزيز أن يطلب من هولاكو نجدة ليستعيد مصر من حكم المماليك. ويبدو أن هولاكو قد تظاهر كذلك بقبول هذا الطلب، ربما تخديراً للناصر يوسف، وقد تحقق من عدم ولائه له لامتناعه من القدوم إليه، ولضعف سيطرته على الشام، فأصدر أمراً بتجهيز هذه النجدة بنحو عشرين ألف فارس[٤].

وأشاع الناصر يوسف خبر هذه النجدة القادمة[٥].

❁ ❁ ❁

لربما ألقت أخبار هذه النجدة الخوف على مصر في قلوب من بقي في الشام من المماليك البحرية، وبخاصة أن رسائل أمراء مصر الناقمين على قطز، واستبداده بالأمر كانت تصل إليهم تترى تحثهم على القدوم إلى مصر، وتسلمها، وكذلك كانت رسائل هؤلاء الأمراء تصل إلى الأمير ركن الدين بيبرس، القابع في الكرك يتحيّن الفرصة السانحة للعودة إلى مصر[٦].

---

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٨.
(٢) انظر ص ١٨٢ ـ ١٨٣ من هذا الكتاب.
(٣) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ٢٣٧.
(٤) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤١٠ ـ ٤١١.
(٥) المصدر السالف.
(٦) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٨.

كان خوف المماليك البحرية من أن تصل حقاً نجدة هولاكو، ويستولي الناصر يوسف على مصر مع التتار، وتضيع من أيديهم هذه الفرصة المواتية الآن التي طالما انتظروها طويلاً. ففارقوا الناصر يوسف، وتوجهوا نحو الكرك لتحريض صاحبها المغيث عمر على أخذ مصر[١].

ولم يكن المغيث ينتظر مثل هذا التحريض، فطموحه بالملك كان أعظم من أن تتسع له الكرك، فما إن انضم إليه هؤلاء المماليك البحرية حتى جمع عسكره واحتشد، وسار بهم إلى مصر ومعه الأمير ركن الدين بيبرس[٢]، فلما بلغ قطز مسيرهم تجهز وخرج من قلعة القاهرة بالعساكر، وحين وصل إلى الصالحية تسلَّل من جيشه إلى الملك المغيث من كاتبه من الأمراء، وصاروا إليه[٣]، ولقيهم قطز وقاتلهم، وأسفرت المعركة عن هزيمة منكرة للمغيث والمماليك البحرية، فاشتدوا فارين نحو الكرك، واستولى عسكر مصر على أثقالهم، وأسروا جماعة كثيرة منهم، وقتل قطز كل من كاتب المغيث من عسكر مصر، واستولى على أمواله وخيوله وأثقاله[٤].



ما كاد الناصر يوسف يتخفف من عبء المماليك البحرية، ويفرح لهزيمتهم مع صاحب الكرك على حدود مصر، حتى ثار عليه الأكراد الشهرزورية، ناقمين عليه تحالفه مع التتار.

وكان هؤلاء الشهرزورية قد قدموا عليه سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) بنسائهم وأولادهم جافلين من هولاكو، فأحسن إليهم، وأعطاهم الأموال والإقطاعات كي يتقوى بهم كما أشار عليه الأمراء القيمرية[٥]، وقد بلغه الآن عنهم أنهم مالوا

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٨، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤١١.
(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٨، «الروض الزاهر»: ص٥٩ ـ ٦٠.
(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤١١.
(٤) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٨.
(٥) انظر ص ١٨٣ ـ ١٨٤ من هذا الكتاب.

لصاحب الكرك الملك المغيث، فخشي الناصر يوسف أن تقوى بهم شوكة الملك المغيث، فيخرج عن طاعته، فزاد في إحسانه إليهم، فلم يزدهم ذلك إلا عصياناً، فأشار عليه الأمراء القيمرية أن يزيد في نفقاتهم، ويسيرها مع الأمير بدر الدين القيمري، لعلّه يستعطف قلوبهم، فيقيموا على الولاء له، فأرسل إليهم الناصر يوسف النفقات والتشاريف مع الأمير بدر الدين القيمري، وسير معه شمس الدين ابن قاضي إربل، وفوجئ الناصر يوسف بعد عدة أيام بعودة شمس الدين يخبره بعصيان بدر الدين القيمري عليه، وبرحيله مع الشهرزورية إلى الملك المغيث[١]، معلناً أنَّ سبب عصيانه تحالف الناصر يوسف وأمرائه مع التتار، وجبنه عن قتالهم[٢].

وما إن انضمَّ الشهرزورية إلى الملك المغيث حتى وجدها فرصة سانحة لتحقيق طموحه في الاستيلاء على دمشق بعد أن أوصدت في وجهه أبواب مصر، فكاتب جماعة من أمراء الناصر يوسف ليضمن ولاءهم له، وبلغ ذلك الناصر يوسف، فخاف خوفاً شديداً، واضطرب وتحيَّر، وتوهم من جميع الأمراء القيمرية وغيرهم، كبيرهم وصغيرهم، وظن أنهم اتفقوا على نزع مملكة دمشق منه، وتسليمها للمغيث، وما فعل بدر الدين القيمري ما فعل إلا بمشورتهم واتفاق منهم[٣].

ولتبديد أوهامه هذه أشار على الناصر يوسف بعضُ غلمانه أن يُحضر الأمراء الأكابر، ويستحلفهم أولاً، ثم يستحلف بقية الأمراء، ومن امتنع من اليمين يحتاط عليه، ويأخذ موجوده ويعتقله، وبذلك يتبين من تحالف ضده من الأمراء ممن بقي منهم على ولائه له[٤]. ورأى الناصر يوسف ألا سبيل أمامه غير هذا السبيل، فتغلب على خوفه واضطرابه، واستجمع شجاعته، وأحضر الأمراء الأكابر،

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٨.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٩.

(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٨.

(٤) المصدر السالف.

واستحلفهم، وطيب قلوبهم، وامتنع جماعة من الأمراء العزيزية؛ مماليك والده، وشكوا إليه قلة رواتبهم، فأزال شكواهم، وأنعم عليهم، فطابت نفوسهم، وحلفوا جميعاً، وحينئذ زايل الناصر يوسف ما كان بقلبه من الخوف والقلق(١).

ولما تهيأ للملك المغيث أمره، خرج بعساكره، ومعه المماليك البحرية والشهرزورية من قلعة الكرك على عزم قصد دمشق، فأشار الأمراء الأكابر على الناصر يوسف بأن يخرج بالعساكر ويلقاه(٢).

في تلك الأثناء جاء الناصرَ كتابٌ من قطز ـ وكان قد بلغته أخبار نجدة هولاكو له ـ يتودد له فيه ويترقق، ويقسم بالأيمان ألا ينازعه في ملك مصر ولا يقاومه، وأنه نائب عنه فيها، ومتى قدم عليه تنازل له عنها، ومما قال في كتابه: «وإن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمت ومن معي من العساكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره...».

فلما قدم على الناصر يوسف كتاب قطز اطمأنَّ من جهة مصر، وتقوى(٣)، وخرج بعساكره من دمشق في أوائل سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) وسار حتى وصل إلى أريحا، وكان على عقبتها المماليك البحرية وعساكر صاحب الكرك، فالتقاهم عسكر الناصر يوسف، وتقاتلوا، فانهزم عسكر المغيث، وكان الناصر يوسف يريد أن يبقي المغيث حليفاً له، فأرسل إليه سراً الأمير جمال الدين بن يغمور، ينصح له بأن يطلع إلى قلعته كيلا يحال بينه وبينها، فمضى المغيث إليها(٤).

وسار الناصر يوسف إلى القدس الشريف، فدخلها يوم الجمعة، وصلى بالحرم في المسجد الأقصى صلاة الجمعة، وأقام أياماً قليلة على القدس، ثم سار بعساكره،

---

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٨ـ١٦٩.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٩.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤١٨.

(٤) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٩.

ونزل على بركة زيزي، وهي قريبة من الكرك، فأقام فيها نحو ستة أشهر، والرسل تتردد بينه وبين الملك المغيث في تسليم المماليك البحرية وإبعاد الشهرزورية[١].

ورأى الأمير ركن الدين بيبرس مصلحته في الانحياز لجانب الناصر يوسف، فأرسل إليه ليحلف له كي يحضر إلى خدمته، ورأى الناصر يوسف أن في ذلك إضعافاً للمغيث، فحلف له، فحضر إليه بيبرس، وأقبل عليه الناصر يوسف، وأحسن إليه، وأعاده إلى إقطاعه بنابلس[٢].

وتمَّ الصلح أخيراً بين الناصر يوسف والمغيث في أوائل رجب سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) وقد نزل المغيث على حكم الناصر، فسلّمه المماليك البحرية، فسيرهم الناصر يوسف تحت الحوطة إلى دمشق، ثم فرقهم على الحصون، واعتقلهم بها[٣]. أما الشهرزورية فتوجهوا إلى الأعمال الساحلية[٤]، وعاد الناصر يوسف إلى مستقر ملكه بدمشق، فرحاً بما أنجزه[٥].

❁ ❁ ❁

كان أبو شامة يرقب هذه الأحداث، وهو في معتزله، مشفقاً مما يجري، عاكفاً على تاريخه يدون فيه أخبار من توفي بدمشق من معارفه، لا يفرق بين عالم وتاجر، وتقي وزنديق، وعاقل ومولَّه، وممن يتوفى في تلك الفترة، في (١٧) صفر سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) الشيخ شمس الدين أبو الفتح الأنصاري، شيخ الإقراء في التربة الصالحية، وبوفاته تشغر مشيخة الإقراء فيها، لأنَّ شرط واقفها أن يكون شيخها أعلم أهل البلد بالقراءات. لقد كان أبو الفتح ذات يوم قبل نحو أربعة عشر عاماً

---

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٩.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٩، «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤١٥.

(٣) «أخبار الأيوبيين»: ١٦٩.

(٤) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٩، «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤١٤.

(٥) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٩.

منافساً لأبي شامة على مشيخة الإقراء فيها، على ما بينهما من فارق في السن والعلم، وكان أبو شامة أحق بها منه، تنفيذاً لشرط واقفها، غير أنَّه أزيح عنها بخديعة، تحالف فيها ضده نائب دمشق وقتئذ معين الدين بن شيخ الشيوخ، والقاضي صدر الدين ابن سني الدولة[١]، ولم يبقَ من آثار هذه الخديعة في نفس أبي شامة الآن إلاَّ غصة، أحس بها وهو يدوّن في تاريخه خبر وفاة أبي الفتح، فهو لا يعترف به شيخاً للقراء، بل ولا يذكره في عداد تلاميذ شيخه علم الدين السخاوي، إنه الشمس أبو الفتح الذي كان يقرئ بالتربة الصالحية[٢]. بهذا التجاهل كان أبو شامة يعبر عن استيائه مما حدث له في سنة (٦٤٣هـ / ١٢٤٦م).

فهل كان يعتقد أنَّ أبا الفتح قد شارك في تلك الخديعة؟ أما الآن فلم تعد تعنيه مشيخة الإقراء، ولا التربة الصالحية، ولا غيرها من الترب والمدارس، إنه يعيش الآن في عزلة وانفراد، غير مؤثر للتردد إلى أبواب أهل الدنيا، متجنباً المزاحمة على المناصب، لا يؤثر على العافية والكفاية شيئاً[٣]، ولا يعنيه من سيتولى مشيخة القراء بعد أبي الفتح، وإن كان شيخاً دونه في الإقراء مثل عبد السلام بن علي بن عمر بن سيد الناس المالكي الزواوي[٤].

وكان أكثر الناس شعوراً بما يعانيه أبو شامة من جحود أخوه إبراهيم، وهو يرى طلاب الأمس وقد غدوا شيوخاً كباراً بينما أخوه أبو شامة على علمه الجمّ وتفننه معتزل في بيته أو بستانه، لا يدري به أحد ، فيرى ذات ليلة فيما يراه النائم أخاه

---

(١) انظر ص ١٣٦ ـ ١٣٨ من هذا الكتاب.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٣٤.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٩.

(٤) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣٥٠، وقد ذكر الذهبي فيه: أنَّه أقرأ بالتربة بعد أبي الفتح الأنصاري مع وجود أبي شامة، وأسندت إليه رياسة الإقراء بالشام.
قلت: وقد فات الذهبي أنَّ أبا شامة في تلك الفترة كان حبيس عزلة اختارها لنفسه.

أبا شامة وكأنَّه متمسك بحبل قد دلي من السماء، وهو مرتفع فيه، فيسأل إبراهيم في منامه رجلاً أن يعبره له، فينكشف لهما البيت المقدس والمسجد الأقصى، فيسأل ذلك الرجل إبراهيم: مَنْ بنى هذا المسجد؟ فيجيبه إبراهيم: سليمان بن داود عليهما السلام(١)، فيقول الرجل: قد أعطي أخوك مثل ما أعطي سليمان. فيقول له إبراهيم: كيف ذلك؟ فيقول الرجل: أليس سليمان قد أوتي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده؟ أليس أعطي كذا وكذا؟ وعدَّد الرجل أنواع ما أُوتي، وفي ذلك كله يقول إبراهيم: بلى. قال الرجل: وكذا أخوك، أُوتي أنواعاً من العلم كثيرة.

ويغدو إبراهيم على أخيه أبي شامة يقصّ عليه رؤياه التي رآها، فيسرُّ بها أبو شامة، ويسجلها في أوراقه(٢).

كان أبو شامة في عزلته هذه في غاية الرضا والسكينة، وتعبيراً عن هذا الرضا ينظم في أواخر جمادى الآخرة سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) بيتين يقول فيهما:

الثَّوْبِ والـلُّقْمـةُ والعـافِيَـهْ ... لـقـانـعٍ مِـنْ عَـيْشـه كـافِيَـهْ
ومـا يَـزِدْ فـالـنَّفْـسُ لـيـسـت بـه ... وإن تـكـنْ مـمـلـكـةً راضِـيَـهْ(٣)

حسبه من دنياه هذا الثوب واللقمة والعافية، وحسبه أنه ساكن النفس في بيته مع ابنته الكبرى فاطمة، وابنه أحمد أبي الهدى ذي السنوات الأربع، وزوجه المخلصة الودود ست العرب، وها هي حامل في شهرها الثاني(٤).

---

(١) صح عن النبي ﷺ أن المسجد الأقصى بني بعد المسجد الحرام بمكة بأربعين سنة، يعني أنه بني قبل سليمان بن داوود عليهما السلام، ويبدو أنه كان يتجدد في بعض العهود، حتى بناه على هيئته الآن في العهد الإسلامي الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، انظر «صحيح البخاري» (٣٣٦٦) مع شرحه فتح الباري: ٦/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩، و«الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» لمجير الدين الحنبلي: ١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٠.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٣٦.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٣٩.

هولاكو في طريقه إلى الشام

مع وصول الملك العزيز بن الناصر يوسف إلى دمشق في منتصف شعبان سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) عائداً من سفارته إلى هولاكو أخذت الأمور تنحو منحى سيئاً بالنسبة للناصر يوسف، فقد أسرَّ إليه ابنه بأن زين الدين الحافظي كان يتقرب إلى هولاكو، ويتردد إليه بمفرده، ويتحدث معه سراً[1]، غير أنَّ الناصر يوسف لم يلتفت إلى قول ابنه، فما كان ليشك في ولاء زين الدين الحافظي له.

بيد أنَّ ما ساءه حقاً، وجعله يتأرجح ما بين الأمل واليأس، تلك الرسالة التي أرسلها هولاكو مع ابنه العزيز يطلب فيها من جديد مثوله بين يديه، قائلاً بلهجة لا تخلو من التهديد: نحن للملك الناصر طلبنا لا لولده، فالآن إن كان قلبه صحيحاً معنا يجيء إلينا، وإلا فنحن نمشي إليه[2].

ووقع الناصر يوسف فريسة للقلق والحيرة من جديد، أيسير إلى هولاكو، وخوفه وفزعه يمنعه؟ أم يبقى في البلاد، وهو غير مطمئن إلى قعوده[3]؟

وبينما كان يكتوي بنار حيرته عاجله هولاكو برسالة جديدة، ارتفعت فيها لهجة

---

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٦٩.

(٢) «مختصر تاريخ الدول»: ص٢٧٨.

(٣) المصدر السالف.

التهديد، فبعد أن يذكره فيها باستيلائه على بغداد، وقتل الخليفة إرعاباً له، يقول: وإذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه تأمن من شره، وتنل خيره، كما قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[١] ولا تعوقن رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وقد بلغنا أنَّ تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان سراي[٢]، فإن كانوا في الجبال نسفناها، وإن كانوا في الأرض خسفناها[٣].

وبرغم ما في هذه الرسائل من طبول للحرب تقرع غير أنَّ الناصر يوسف تصامم عنها، معللاً النفس بأمان قد ناله من التتار، ولن يخفر التتار أمانهم.

ويبدو أن هولاكو قد تعمد إبقاء العزيز عنده نحو سنة[٤]، وهي فترة طويلة تكفي كي يتم استعداداته لغزو بلاد الشام، وعلَّل الناصر يوسف بنجدته له كي يستنيم إلى رضاه عنه، ولا يبدي استعداداً لمقاومته.

ومن ثم فوجئ الناصر يوسف حقاً بما لم يعدَّ نفسه له، إذ بدأت الأخبار تترامى إليه بتحرك هولاكو بجيشه من همذان في رمضان سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) قاصداً بلاد الشام[٥].

وفزع الناصر يوسف إلى مصر يستنجدها، مرسلاً وزيره كمال الدين ابن

---

(١) سورة النجم: ٣٩ ـ ٤١.

(٢) كروان سراي، تعني بلغتهم فندق المسافرين، وجاء في هامش إحدى نسخ «السلوك»: يعني مصر، وعلَّق محققه: ويفهم من هذا أنَّ مصر كانت تعرف في بلاد التتر باسم كروان سراي، وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية إليها من سائر جهات الشرق والغرب في القرون الوسطى.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤١٦.

(٤) أرسل الناصر ابنه العزيز عقب سقوط بغداد، انظر ص٢١٧ من هذا الكتاب.

(٥) مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذاني، تأليف فؤاد عبد المعطي الصياد: ص٤٨.

العديم، المؤرخ المشهور، فلما قدم ابن العديم القاهرة، عُقد مجلس بالقلعة عند الملك المنصور علي، وحضره قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وسئلا عن أخذ أموال العامة، ونفقتها على العساكر، فقال الشيخ عز الدين: إذا لم يبقَ في بيت المال شيء، وأنفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبقَ للجندي إلا فرسه التي يركبها ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء، إلا أنَّه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم... وانفض المجلس.

فوجد الأمير قطز سبيلاً إلى القول، وأخذ ينكر على الملك المنصور علي صغره ولهوه، ويقول: لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبي لا يعرف تدبير المملكة.

فلما كان يوم السبت في (٢٤) ذي القعدة سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) والملك المنصور علي جالس على سرير الملك، وابن العديم حاضر بين يديه، قبض قطز على الملك المنصور، واعتقله في برج الجبل، وجلس على سرير الملك[١]، والتفت إلى ابن العديم قائلاً له: سأنجد الناصر يوسف على التتار، ولن أقعد عن نصرته.

وانهمك في الاستعداد للجهاد[٢].

* * *

ظل الناصر يوسف ـ مع اقتراب جيش هولاكو من بلاد الشام ـ متعلقاً برمق الأمل الأخير، مقنعاً نفسه بأن التتار لن يخفروا ذمته، وأن هولاكو لن يهاجمه،

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤١٦ـ٤١٧.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤١٨.

حتى إذا وصل هولاكو إلى حران ـ وكانت تابعة للملك الناصر يوسف ـ فنزل عليها، وحاصرها، تبدد الوهم الذي كان الناصر يوسف يتعلق بحباله، وتحقق أخيراً أن هولاكو قاصده[١].

فجمع أكابر الدولة والمشايخ، واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بأن يخرج بعساكره إلى ظاهر دمشق استعداداً لقتاله، فخرجت العساكر في أواخر سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) إلى برزة، وخيموا بها، مصممين على لقاء هولاكو وقتاله، غير أنَّ نجم الدين أمير حاجب، والأمير زين الدين الحافظي راحا يخذلان الناس، فحين كان يجتمع الأمراء ويتحدثون بلقاء التتار وقتالهم، ينبري لهم أمير حاجب قائلاً: كل من يقول إنه يلتقي هولاكو يتحدث وما يعرف ما يقول، ومن الذي يلتقي هولاكو، ومعه مئتا ألف فارس؟ ويعضد زين الدين الحافظي قوله، ويذكر عساكر التتار وكثرتهم، وممارستهم للحروب، ويصف عظمة هولاكو وسطوته، وجبروته، وشدة بأسه، واستيلاءه على الممالك، وقتله الملوك، وما في قلوب الناس من الخوف والرعب منه، ويهوِّل على الملك الناصر يوسف أمورهم، ويعظم شأنهم، ويفخم مملكتهم، ويصغر شأن الناصر يوسف ومن عنده من العساكر، وما زال هذا دأبه في كل مجلس حتى تسرب الخوف إلى قلب الناصر، وهو الجبان، فضعفت نفسه، ونفوس أمرائه عن لقاء هولاكو وقتاله[٢].

وذات يوم، وبينما كان زين الدين الحافظي يعظم شأن هولاكو كعادته، ويشير بأن الأفضل ألا يُقاتل، وأن يُدارى بالدخول في طاعته، صاح به الأمير ركن الدين بيبرس، وضربه وسبه، وقال: أنتم سبب هلاك المسلمين. وفارقه إلى خيمته، فمضى زين الدين الحافظي إلى الملك الناصر يوسف يشكو إليه ما كان من الأمير بيبرس[٣].

---

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٠.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٠، «عيون الأنباء»: ص٦٦٩.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤١٩.

وكان الناصر يوسف في معسكره في برزة يتشاغل فيما لا يفيد، ويقضي أوقاته في نظم شعر أو سماع قصيدة[١]، وكان أحياناً يركب من المعسكر، ويمضي إلى بستان أخيه الظاهر بن العزيز يبيت فيه ويستريح!

فلما رأى مماليك الناصر يوسف الأتراك أن الناصر قد فترت همته عن قتال التتار، وأن أمراء الأكراد القيمرية قد وافقوه على ذلك، اتفقوا فيما بينهم على أن يهجموا على الناصر يوسف، وهو في البستان، فيقتلوه، ويقتلوا الأمراء الأكراد، ويملكوا عليهم غيره من الأمراء الأتراك، وقالوا: إن أمراء الأكراد قد قرروا في نفس السلطان ونفوسهم أنهم لن يلتقوا هولاكو ولن يقاتلوه، فإن تركوهم وما قرروا راحت البلاد، واستولى عليها التتار.

فرصدوا الملك الناصر يوسف إلى أن مضى إلى البستان على عادته، وهجموا على البستان في أول الليل، فأحسَّ بهم الناصر يوسف، فانهزم مع أخيه الظاهر، متسورين حائط البستان، وأغذا السير راجلين حتى دخلا قلعة دمشق، وفشلت خطة اغتياله.

فلما أصبح الصباح بلغ الخبر الأمراء القيمرية، فدخلوا قلعة دمشق، ومعهم جماعة من الأمراء الأكابر، وأشاروا على الناصر يوسف أن يكتم ما جرى، ويخرج إلى معسكره في برزة. فوافقهم، وخرج معهم إلى المخيم[٢].

وخاف الأمير ركن الدين بيبرس أن يتهم بما وقع، ففارق الناصر يوسف، ووصل إلى إقطاعه بنابلس، واتفق خروج مماليك الناصر يوسف الذين عزموا على اغتياله هاربين ومعهم جماعة من العسكر، فوصلوا إلى غزة، فمضى بيبرس إلى الساحل، وأقام بين الشهرزورية أعداء الناصر[٣].

---

(١) «الروض الزاهر»: ص٦٢.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٠ ـ ١٧١.

(٣) «الروض الزاهر»: ص٦٢.

وكان قطز قد أرسل عساكر إلى الناصر يوسف نجدة له كما وعده، فعزم الشهرزورية نكاية بالناصر على قتالهم، فأعلم الأمير ركن الدين بيبرس قائد العسكر المصري الأمير جمال الدين النجيبي بما يبيت لهم الشهرزورية، متخذاً بذلك يداً عند قطز، فرجع العسكر المصري، وترك بيبرس الشهرزورية، وأقام بغزة، وأرسل الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى قطز ليستوثق له منه، ويستحلفه[1]، فكتب إليه قطز أن يقدم عليه، ووعده الوعود الجميلة، ففارق بيبرس غزة، ووصل في جماعة إلى مصر بعد طول غياب عنها، فالتقاه قطز، وأنزله بدار الوزارة، وأقبل عليه، وأقطعه قليوب وأعمالها[2].



(١) «الروض الزاهر»: ص٦٢.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٢٠.

سقوط حلب وفرار الناصر يوسف من دمشق

بعد أيام من محاصرة هولاكو حران استولى على قلعتها، واستولى على ما كان بيد الناصر يوسف من بلاد الشرق، وعزم على قطع الفرات، والنزول على حلب[1].

وبلغت تلك الأخبار الناصر يوسف، فاشتد جزعه، وخاف خوفاً عظيماً[2]، واتفق رأي أمرائه على أن يسيِّروا نساءهم وأولادهم وأموالهم إلى الديار المصرية، فوافقهم الناصر يوسف على ذلك، وكان تسارع الأحداث وخطورتها قد سلبته القدرة على التفكير، فأسلم قياده إلى أمرائه، معللاً ذلك بأنهم المشايخ وقد حنكتهم التجارب، فلا يفعلون له ولا لنفوسهم إلا ما فيه المصلحة[3].

فسير الناصر يوسف زوجته وأولاده وأمواله إلى مصر[4]، وخرج معهم نساء الأمراء وأولادهم وذخائرهم وأموالهم، وسيَّر كل واحد منهم جماعة من أجناده صحبة حرمه، وأخذ الجند نسوانهم أيضاً وأموالهم[5]، وخرجت معهم جموع من

---

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧١.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٢٠.

(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧١.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٢٠.

(٥) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧١.

الناس[١]، فتفرقت العساكر، وبقي الناصر في طائفة من الأمراء[٢]، وقد قَلَّ العسكر، فانخرقت الحرمة، وزاد الطمع فيه[٣].

وبعد استيلاء هولاكو على حران، سار إلى سروج، فقتل أهلها عن آخرهم[٤]، وتقدَّم، فنصب جسراً على الفرات قريباً من ملطية، ونصب جسراً ثانياً عند قلعة الروم، ونصب جسراً ثالثاً عند قرقيسيا، وعبرت عساكر التتار جميعها، وارتكبوا عند منبج مذبحة رهيبة، وتفرقت عساكرهم على المدن والقلاع، وتوجه هولاكو نحو حلب[٥].

ووردت الأخبار إلى دمشق بأنَّ التتار قد قطعوا الفرات، وأغاروا على قرى حلب، فدبَّ الخوف والهلع في قلوب الناس، وهرب كثير منهم هائمين على وجوههم في البراري والجبال والحصون، وبعضهم سار إلى مصر، وكان الوقت شتاء، والبرد قارساً، فمات كثير منهم في الطريق، ونهب آخرون[٦].

ولم يثبت في دمشق إلا من قوَّى الله قلبه وإيمانه، وكان أبو شامة واحداً من هؤلاء[٧]، وكانت زوجته ست العرب قد أشهرت في تلك الأيام العصيبة، فولدت في (١٨) محرم سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، ولداً ذكراً، فسمَّاه أبو شامة إسماعيل على اسم والده، وكناه أبا العرب، ووافق يوم مولده رابع كانون الثاني في شدة البرد[٨].

---

(١) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤٢٠.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧١.

(٤) «مختصر تاريخ الدول»: ص٢٧٩.

(٥) المصدر السالف.

(٦) «المذيل»: ٢/ ١٣٨.

(٧) المصدر السالف.

(٨) «المذيل»: ٢/ ١٣٩.

ووصل هولاكو بعساكره إلى حلب، وأرسل إلى الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان نائب الناصر يوسف في حلب، يقول له: إنكم تضعفون عن لقائنا، ونحن قَصْدُنا الملك الناصر والعساكر، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة، وبالقلعة شحنة، ونحن نتوجه إلى العسكر، فإن كانت الكسرة في عسكر الإسلام كانت البلاد لنا، وتكونون أنتم قد حقنتم دماء المسلمين، وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين، إن شئتم طردتموهما، وإن شئتم قتلتموهما. فلم يجب الملك المعظم إلى ذلك، وقال لهم: ليس لكم عندنا إلا السيف.

فلما ورد هذا الجواب غضب هولاكو، وأحاط التتار بحلب في (٢) صفر سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، وهجموا في غد ذلك اليوم[١]، واشتدَّ القتال عليها، وقد استضعفوا من سورها موضعاً عند باب العراق[٢]، فضربوه بالمنجنيقات حتى استولوا عليها في يوم الأحد (٩) صفر سنة[٣] (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، وأخذوا أهلها بالسيف، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأسروا النساء والذرية، ونهبوا الأموال، واستباحوا فيها دماء الناس حتى امتلأت الطرقات من القتلى، وصارت عساكر التتار زيادة في التشنيع تمشي على جيف القتلى، وامتنعت قلعة حلب، فنازلها هولاكو حتى استولى عليها في (١٠) صفر، وخربها، وخرب جميع سور البلد، وجوامعها ومساجدها، وبساتينها، حتى سكنتها الوحشة[٤]، ودام القتل والنهب في حلب حتى يوم الجمعة (١٤) صفر، فأمر هولاكو برفع السيف، ونودي بالأمان[٥]، وقد قتل فيها أكثر مما قتل ببغداد[٦].

---

(١) «عقد الجمان»: ص٢٣٠.

(٢) «مختصر تاريخ الدول»: ص٢٧٩.

(٣) «عقد الجمان»: ص٢٣٠.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٢٢.

(٥) «عقد الجمان»: ص٢٣٠-٢٣١.

(٦) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧١.

ووصل الخبر إلى دمشق بأخذ قلعة حلب، وكان الناصر يوسف يظن أنها لا تؤخذ في عشر سنين لمناعتها(١)، فحينئذ تمزق أهل دمشق كل ممزّق، واضطربوا، وزهدوا في أمتعتهم، وباعوها بأبخس الأثمان، وخرجوا من دمشق هائمين على وجوههم(٢).

واشتد الحال على الناصر يوسف، وخاف خوفاً شديداً، وضاقت حيلته، فاستشار أمراءه، فأشاروا عليه بأن يرحل نحو غزة، ويكاتب المظفر قطز يستصرخه، ويسأله أن يخرج بعساكر مصر لتجتمع كلمتهم، ويتفقوا على لقاء هولاكو وقتاله، واستنقاذ البلاد منه(٣).

فرحل الناصر يوسف عن برزة بعد صلاة الجمعة منتصف صفر سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) بمن بقي معه قاصداً غزة، وترك دمشق خالية ممن يدافع عنها من العسكر، فاختبطت، ولم يثبت بها الناس، فخرجوا بخروج الناصر يوسف، ووقعت فيهم الجفلات، حتى كأنَّ القيامة قد قامت، ومن بقي من أهل دمشق علا أسوارها، وأطلق لسانه بشتم الناصر يوسف وأمرائه، والدعاء عليهم، قائلين: تركتمونا طعماً للتتار، لا كتب الله لكم السلامة(٤).

وكانت أصواتهم تتلاشى كلما ابتعد الناصر يوسف عن دمشق.

ويعكف أبو شامة على تاريخه يسجل فيه هذا الحدث الجلل، مسدلاً الستار على تاريخ الأيوبيين في الشام، بقوله: «وفي منتصف صفر ورد الخبر إلى دمشق باستيلاء التتار على بلاد حلب بالسيف، فهرب صاحبها من دمشق بأمرائه، الموافقين له على سوء تدبيره، وزال ملكه عن تلك البلاد»(٥).

---

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٢.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٢٠.

(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٢.

(٤) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٢، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٢٣.

(٥) «المذيل»: ٢/ ١٣٩.

وأُسلمت دمشق للتتار

في موكب الناصر يوسف المتجه نحو مصر كان زين الدين الحافظي يتحيَّن الفرصة للخروج منه، حتى إذا حانت انسلَّ راجعاً إلى دمشق، وغلَّق أبوابها، فسير الناصر يوسف في طلبه ليجتمع به، فامتنع من الخروج إليه، وجمع أكابر دمشق، واتفق معهم على تسليمها لنواب هولاكو، حقناً لدماء أهلها[1].

وكان التتار قد تسلَّموا حماة وحمص بالأمان[2]، وها هم الآن نواب هولاكو في طريقهم إلى دمشق، وقد رسم لهم ألا يخرجوا عن إشارة زين الدين الحافظي، وأوصاهم بأن يحسنوا إلى أهل دمشق، ولا يتعرضوا إلى أحد من أهلها فيما قيمته درهم واحد[3].

وقد وصل رسل هولاكو إلى دمشق ليلة الاثنين (١٧) صفر سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) بعد فرار الناصر يوسف منها بيومين، وفي جامع دمشق بعد صلاة ظهر يوم الاثنين قرئ فرمان هولاكو، وفيه أمان لأهل دمشق وما حولها[4].



---

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٣.

(٢) «مختصر تاريخ الدول»: ص٢٧٩.

(٣) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤٢٤.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٣٩.

لم تشعرْ دمشق بوطأة التتار عليها إلا بعد نحو شهر، حين أتى إليها في (١٧) ربيع الأول سنة[١] (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) كتبغا نائب هولاكو، وبيدرا[٢]، ومعهما الأمراء والمقدمون، فلقيهم زين الدين الحافظي وكبراء البلد بأحسن ملقى[٣]، وقد جدد لدمشق عهد الأمان، وقرئ الفرمان المتضمِّن له في الميدان الأخضر[٤].

ووصلت عساكرهم ـ وكانوا في نحو عشرة آلاف فارس[٥] ـ من جهة الغوطة، مارين من وراء الضياع إلى جهة الكسوة، وأهلكوا في ممرهم جماعة من أهل قرية خَزْرما وغيرها، كانوا قد تجمَّعوا لقتالهم[٦].

وبادر زين الدين الحافظي إلى جمع الأموال من أهل دمشق، واشترى بها ثياباً قدمها لكتبغا وسائر الأمراء والمقدمين، وواصل حمل الضيافات إليهم كل يوم، إلى أن خرج كتبغا وبيدرا بعد أيام إلى مرج برغوث بداريا[٧]، حيث عسكرا هناك[٨].

وكان هولاكو قد كتب من حلب في (١٥) ربيع الأول سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) منشوراً لنائب قاضي القضاة كمال الدين عمر بن بندار التفليسي يفوض إليه فيه قضاء القضاة بمدائن الشام والموصل وماردين وميافارقين، والأكراد وغيرها، ووصل هذا المنشور إلى دمشق في (٢٦) ربيع الأول، فقرئ بالميدان الأخضر، وقد تضمَّن كذلك تفويضه في جميع الأوقاف، وبخاصة وقف جامع دمشق[٩].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٣٩.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٣.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٣٩.

(٤) المصدر السالف.

(٥) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٨٠.

(٦) «المذيل»: ٢/ ١٣٩.

(٧) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٤.

(٨) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٣.

(٩) «المذيل»: ٢/ ١٤٠.

ولا ريب أنَّ هذا التفويض قد أزعج قاضي القضاة صدر الدين ابن سني الدولة، وأثار حسده على نائبه كمال الدين الذي منحت له هذه السلطات الواسعة، ولم يرضَ أن يهمل هذا الإهمال المزري في هذا العهد الجديد، وهو العريق في منصب القضاء منذ خمس عشرة سنة[١]، فتأهب للسفر إلى حلب، ليقابل سيده الجديد هولاكو[٢]، عساه أن يعيده إلى منصبه، متناسياً ولاءه للملك الناصر يوسف الذي طالما قربه منه، وأثنى عليه[٣].

وممن كان يتشوف لمنصب القضاء كذلك القاضي محيي الدين يحيى بن محيي الدين محمد بن علي ابن الزكي، فهو منذ عزل عن القضاء في تاسع جمادى الأولى سنة[٤] (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) ليليه القاضي صدر الدين، وهو يتحرق للعودة إليه، وها هي الفرصة تسنح له أخيراً، فليهتبلها، وهو الأولى به من غيره، فهو من بيت ولي القضاء كابراً عن كابر، فجدُّه كان قاضي السلطان نور الدين محمود بن زنكي[٥]، وأبوه كان قاضي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب[٦]، وأخوه الطاهر كان قاضي السلطان العادل بن أيوب[٧]، وأي بأس أن يكون هو قاضياً لهولاكو؟ فمن أحقّ منه بمنصب القضاء؟ وشرع يتأهَّب للسير نحو حلب ليقابل هولاكو، سيد البلاد الجديد، عساه أن يظفر بهذا المنصب الرفيع.

وعلى باب هولاكو يلتقي القاضيان[٨]، كل منهما يتمسح بأعتابه، ليستأثر بهذا

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٤٠.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٤٤.

(٣) انظر ص١٨٥ من هذا الكتاب.

(٤) انظر ص١٣١ من هذا الكتاب.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٧٣، ٣٨٨.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٧) «المذيل»: ١/ ٢٩٣، ٢٩٦، ٣١٦، ٣١٨.

(٨) «المذيل»: ٢/ ١٤٤، و«المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣، و«ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ١٣ ـ ١٤.

المنصب لنفسه، ولم يعيرا التفاتاً إلى حلب، تلك المدينة الثكلى المدمرة، بل راحا يتنافسان في كيل المديح والإطراء له[١]، علَّهما يظفران برضاه.

* * *

وينداح جيش التتار، معيثاً الفساد في بلاد حوران والصلت والبلقاء والكرك[٢].

وكان الناصر ـ بعد هروبه من دمشق ـ يقيم بنابلس مع مَنْ بقي من عسكره، ينتظر فيها نجدة مظفر الدين قطز صاحب مصر، ظاناً أنها لن تتأخر عنه[٣]، ويبدو أنه راسل والي قلعة دمشق بدر الدين قراجا، ونقيبها جمال الدين بن الصيرفي، يحثهما على حفظ قلعة دمشق، فإنه واصل قريباً إليها بالعساكر[٤]، واستجاب له الأميران، فأعلنا عصيانهما، وأغلقا أبواب القلعة، وفوجئ التتار بهذا العصيان، فلما بلغ كتبغا ـ وكان يقيم في معسكره بمرج برغوث ـ خف ببعض عسكره إلى دمشق، ونزل محاصراً القلعة في يوم (٦) ربيع الآخر سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، وكان يوماً بارداً، تعصف فيه ريح ماطرة، والسماء تقصف برعودها، وتتوهج بسياط بروقها، فبات أهل دمشق في خوف وفزع من هذه الليلة العاصفة المطيرة، ومن حصار التتار قلعة دمشق[٥]، ولصمودها كان لا بدَّ لكتبغا من انتظار عودة جنوده كي يشدد حصاره عليها.

وكان التتار خلال عيثهم في البلاد قد وصلوا إلى مشارف نابلس[٦]، حيث كان يقيم الناصر يوسف، فلما سمع بمسير التتار إليه رحل عن نابلس نحو غزة، وترك فيها الأمير مجير الدين بن أبي زكري مع جماعة من العسكر[٧].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٨٥.
(٢) «المذيل»: ٢/ ١٤١.
(٣) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠١.
(٤) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٤.
(٥) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٢٦.
(٦) «المذيل»: ٢/ ١٤١.
(٧) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠١.

وما إن قرب التتار من نابلس حتى خرج إليهم الأمير مجير الدين، وقاتل دفاعاً عنها، باذلاً كل جهد في صدهم، فما زال يضرب بسيفه حتى نصل من يده، فصار يقاتلهم بالدبوس، يضرب به، ويتقي به الضرب، ويرفس برجله من يصل إليه منهم حتى قتل من التتار سبعة عشر أو تسعة عشر فارساً، ثم استشهد رحمه الله، فكان التتار يتعجبون من شجاعته[١].

وحين امتلأت أيدي التتار من الغنائم والسبي، عطفوا أعنة خيولهم راجعين إلى دمشق لحصار قلعتها، فتجمعوا من كل أوب، حتى تكامل جمعهم في يوم الأحد (١٢) جمادى الأولى سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، فما باتوا الليلة حتى قطعوا من الأخشاب ما احتاجوا إليه، وكانوا استصحبوا معهم المجانيق تجرها الخيل، وهم ركاب عليها، وقدَّموا قبل ذلك أسلحة تجرها البقر على العجل، وأصبحوا يوم الاثنين (١٣) جمادى الأولى يجمعون الحجارة لرمي المجانيق، فأخربوا من دمشق حيطاناً كثيرة، وأخذوا الحجارة من أساسها، وكذلك أخربوا طرقاً من القنوات لحجارتها، وهيؤوها للرمي، ونصبت المجانيق في ليلة الثلاثاء، وكانت أكثر من عشرين منجنيقاً، وأصبحوا يرمون بها رمياً متتابعاً كالمطر، فأخرب كثيراً من القلعة من غربها، فما أمسوا حتى طلب أهل القلعة الأمان، فأمنوا، وأخرجوا منها يوم الأربعاء (١٥) جمادى الأولى، ونهب ما في القلعة، وأحرق فيها مواضع كثيرة، وهُدِم من أبراجها أعاليها، وخربوا كل بدنة بين برجين[٢] حتى لا تقوى على العصيان.

وإظهاراً لمزيد من الولاء والخضوع كتب زين الدين الحافظي إلى هولاكو، يخبره بعصيان قلعة دمشق، ثم بالاستيلاء عليها[٣].

❁ ❁ ❁

(١) «المذيل»: ٢/ ١٤١.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٤.

وما إن اطمأنَّ التتار إلى دمشق بعد استيلائهم على قلعتها حتى عاودوا العيث في البلاد، فساروا نحو بعلبك، فتسلموها، وحاصروا قلعتها وأخذوها، ثم ساروا إلى نابلس للاستيلاء عليها، وقد خلت من حماتها[١].

وكان الناصر يوسف ما يزال مقيماً في غزة[٢]، ينتظر نجدة مظفر الدين قطز صاحب مصر، وقد انضم إليه فيها مماليكه الذين تآمروا على اغتياله، وكان قد اصطلح معهم[٣]، فلما بلغه كبسة التتار لنابلس رحل عن غزة إلى العريش[٤]، وسير القاضي برهان الدين بن الخضر رسولاً إلى قطز ليجدد له طلب المعاضدة[٥]، ثم دخل الناصر يوسف على إثره صحراء سيناء، وأوغل فيها حتى وصل إلى قطية، فأقام بها، وبعث زوجته الرومية وولده منها إلى مصر[٦].

وكان قطز قد برز بعساكره إلى الصالحية، فلما بلغه وصول الناصر يوسف إلى قطية خافه، وظن أنَّ ذلك عن مكيدة وحيلة يحتال بها لانتزاع مصر منه، فكتب قطز إلى أمراء الناصر يوسف وجميع عسكره والشهرزورية، يعدهم بالإحسان إذا انضموا إليه، فتخلى عن الناصر يوسف أمراؤه وعساكره ـ وكانوا مستائين منه ـ وتقاطروا إلى قطز أرسالاً، ولم يبقَ عند الناصر يوسف إلا ولده العزيز، وبعض الأمراء القيمرية ممن كان يخاف على نفسه من قطز، فعند ذلك سنحت للشهرزورية فرصة للنهب، فنهبوا الناس، وأخذوا أثقال الأمراء وأموالهم، وتوجهوا بها إلى مصر[٧].

---

(١) «السلوك»: ج١/ق٢/٤٢٦.

(٢) «المذيل»: ٢/١٤٢.

(٣) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/٢٠١.

(٤) «المذيل»: ٢/١٤٢.

(٥) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/٢٠٢.

(٦) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٤.

(٧) المصدر السالف.

ولما رأى قطز أنَّ الناصر يوسف بقي وحيداً، قفل راجعاً إلى القاهرة، وطلع إلى قلعة الجبل، ولم تمر إلا أيام يسيرة حتى صادر كل من وصل إليه من غلمان الناصر وكُتَّابه، وأخذ أموالهم، ثم بعث إلى زوجة الناصر يوسف الرومية، وطلب منها كل ما للملك الناصر عندها من الجواهر والذخائر، ولم يتعرض لما يتعلق بها[١].

أما الناصر يوسف، فقد استبدت به الحيرة، وضاقت عليه السبل، فلم يعد يدري إلى أين يتجه[٢]، ثم قادته حيرته نحو الشوبك، ثم إلى الكرك، فبعث إليه المغيث يسأله أن يطلع إلى قلعته، ويقيم عنده، فخاف على نفسه منه، فلم يستجب له[٣]، وعزم على التوجه نحو الحجاز[٤]، ثم فسخ عزمه، وقر رأيه أن يقيم في البلقاء عند بركة زيزي[٥].

❁ ❁ ❁

كان هولاكو ما يزال في حلب حين بلغته الأخبار بوفاة أخيه الأكبر منكوقاآن، وولاية أخيه الأوسط قوبيلاي، فاضطر للعودة إلى فارس، ليدبر أموره عقب هذا الحدث الكبير، فرحل عنها[٦]، وفي طريق عودته حاصر قلعة حارم، ثم غدر بأهلها بعد أن أمنهم، فقتل جميع من كان بالقلعة من الرجال والنساء، والصغار والكبار، حتى الطفل الصغير في المهد[٧].

---

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٤.
(٢) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٤.
(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٤.
(٤) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٤.
(٥) «المذيل»: ٢/ ١٤٢، «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٤.
(٦) «عقد الجمان»: ص٢٧٧ ـ ٢٧٩.
(٧) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٧٩.

ووافق وصوله إلى تل باشر قدوم عساكره التي كانت تحاصر ميافارقين منذ سقوط بغداد[١]، وقد استولوا عليها أخيراً بعد أن فتك الجوع والمرض بأهلها من شدة الحصار وطوله، وكان معهم أسيراً صاحبها الكامل بن غازي بن العادل، فقتله هولاكو، وبعث برأسه ليطاف به في البلاد، ليكون عبرة لمن يجرؤ على مقاتلة التتار[٢].

فوصل الرأس إلى دمشق يوم الاثنين (٢٧) جمادى الأولى سنة[٣] (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، فطيف به في حارات دمشق وأزقتها بالمغاني والطبول[٤]، وقد رفع على رمح قصير، وعلق بشعره قطعة شبكة كتبوا اسمه عليها، ثم علق على باب الفراديس[٥].

ويرى أبو شامة مع أهل دمشق هذا الرأس المرفوع، الذي قاتل صاحبه التتار بشجاعة وعزيمة، وقد صمد لحصارهم العاتي ما يقرب من سنتين إلى أن نفد الزاد، ولم يستطع التتار دخول البلد حتى أتى الجوع على أهلها، فأفناهم، ووجد التتار الكامل طريح الجوع مع من بقي من أصحابه[٦].

وتجيش نفس أبي شامة بمعاني العزة والكرامة، وهو يرى صورة من صور البطولة في زمن التخاذل والخضوع والاستسلام، فيرثيه بأبيات يقول فيها:

ابنُ غازٍ غزا وجاهَدَ قوماً ... أثخنوا في العراق والمَشْرِقَيْنِ
ظاهراً غالباً ومات شهيداً ... بعد صَبْرٍ عليهمُ عامينِ

---

(١) انظر ص٢١٦ من هذا الكتاب.
(٢) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٨٠.
(٣) «المذيل»: ٢/ ١٤٢، «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ٧٦.
(٤) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ٧٦.
(٥) «المذيل»: ٢/ ١٤٢-١٤٣.
(٦) «المذيل»: ٢/ ١٤٣.

لم يَشِنْه أن طِيْفَ بالرأس منه فَلَهُ أُسوةٌ برأسِ الحسينِ
وافَقَ السِّبْطَ في الشَّهادة والحَمْـ ـلِ لقد حاز أَجْرَهُ مرَّتينِ
جَمَعَ الله حُسْنَ ذَيْنِ الشَّهيديـ ـنِ على قُبْحِ ذَيْنِكَ الفِعْلَيْنِ[١]

هكذا شأن أبي شامة لم يستطع الصمت في زمن الخوف، فعبّر عن موقفه من التتار، ووجوب قتالهم، ومن قاتلهم فهو شهيد، بل هو في منزلة الحسين ﵁، وأعظم بها منزلة. فالأبيات لم تكن مجرد كلمات نفث فيها مكروب عما في صدره، بل إنَّها فتوى من مفتي الشام أبي شامة، ولفتواه أثر، وبخاصة وهو العالم الزاهد، المترفع عن المناصب، النقي اليد من أموال الناس، ولطالما تعلق الناس بعلمائهم الأتقياء الأنقياء.



أعوان التتار

بعد رحيل هولاكو عن حلب، قفل القاضيان صدر الدين ابن سني الدولة، ومحيي الدين يحيى ابن الزكي، عائدين إلى دمشق.

وكان هولاكو قد أقبل على القاضي محيي الدين، وخلع عليه، وأنعم عليه بولاية قضاء القضاة في البلاد الشامية بأجمعها[1]، وردَّ صدر الدين خائباً، فلم يقوَ صدر الدين على تحمل قسوة هذه الخيبة، وأن يرجع إلى دمشق معزولاً، وهو الذي تقلب في نعيم هذا المنصب نحو خمس عشرة سنة[2]، وذاقت نفسه حلاوته، ورأى الناس يتحلقون حوله متزلفين إليه، وقد تركت له هذه السنون أعداء وشانئين، سيواجههم الآن دون حام أو نصير، فما إن وصل القاضيان إلى بعلبك حتى ألمَّ بصدر الدين مرضٌ شديد، مات على إثره كمداً، وذلك عقب صلاة الجمعة ثامن جمادى الآخرة سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)[3].

ولم يستطع أبو شامة إخفاء كراهيته لهذا القاضي، الذي طالما آذاه، وطالما عسف في أحكامه تقرباً من أصحاب الجاه، وطالما مد يديه إلى أموال الناس[4]،

---

(١) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٤٠.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٤٤، «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ١٣ - ١٤.

(٤) انظر ١٣٢، ١٤٩ - ١٥٠، ١٨٥ من هذا الكتاب.

وها هي حياته تختم مدحوراً عن باب هولاكو، فيحكي لنا في تاريخه ما آلت إليه حاله بعد وفاته، من خلال الرؤيا التي رآها العلاء علي بن الشيرازي في منامه، وقد قصَّها على أبي شامة، فقد رأى العلاء فيما يرى النائم القاضي صدر الدين بعد موته، فسأله عن حاله، فقال له القاضي: لما وصلت قيل: هاتوا الدرة. إشارة إلى بدء تعذيبه، ويشفق أبو شامة من خاتمة كهذه الخاتمة، فيدعو: اللهم عفوك[١].

ويتابع القاضي محيي الدين يحيى ابن الزكي طريقه إلى دمشق، فرحاً بما ظفر به، فيصل إليها يوم الأحد (١١) جمادى الآخرة سنة[٢] (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م).

وفي يوم الأربعاء (١٤) جمادى الآخرة يُقرأ فرمان ولايته القضاء في جامع دمشق تحت قبة النسر، بحضرة نائب التتار بدمشق إيل سبان، وقد قعدت زوجته معه على طراحة نُصبت لها بين زوجها والقاضي إلى جانب العمود الشرقي في الباب الكبير الأوسط من أبواب النسر بالجامع، وكان في الفرمان توليته القضاء من قنسرين إلى العريش، ونائبه أخوه لأمه شهاب الدين إسماعيل بن أسعد بن حبش[٣].

ويبدو أنَّ أبا شامة كان حاضراً قراءة الفرمان، ولربما جال في خاطره، وهو يرقب هذا المشهد المخزي، موقف شيخه فخر الدين ابن عساكر، وهو يهم بالهجرة من دمشق لرفضه تولي القضاء للعادل زهداً وورعاً[٤]، وما آل إليه حال القضاء في هذه الأيام النحسات حتى وصل إلى هؤلاء القضاة المتهالكين على هذا المنصب، الطالبين له حتى من كافر مغتصب لأرض المسلمين ونسائهم، ليتخذوه مطية للاستيلاء على مال الوقف.

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٤٤.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤، و«ذيل مرآة الزمان»: ١/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٤٤.

(٤) انظر ص٣٠ من هذا الكتاب.

فقد شرع هذا القاضي على الفور في جر الأشياء إلى نفسه وأولاده، ومن يتعلق به مع عدم الأهلية، وراح ينتزع المدارس ممن كان يتولاها، ويضيفها إلى نفسه ومن يلوذ به، وبدأب عجيب وغيظ مكتوم راح أبو شامة يسردها في تاريخه، وكأنّه يريد للتاريخ أن يخلد هذه المساوئ، فقد أضاف هذا القاضي لنفسه وأولاده وأخيه ونحوهم عدة من المدارس كالعذراوية والسلطانية والفلكية والركنية والقيمرية، والكلاسة انتزعها من الشمس الكردي، وانتزع منه أيضاً الصالحية، وسلّمها إلى العماد بن العربي، ونزع الأمينية من العلم أبي القاسم، وسلمها إلى ولده عيسى، ونزع الشومانية من الفخر النقجواني، وسلمها إلى الكمال بن النجار، ونزع الربوة من الجمال محمد اليمني، وسلمها إلى الشهاب محمود بن شرف الدين محمد بن القاضي شرف الدين عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان، وهو من بني عمه.

وكل هذا مع ما وقع منه من التقصير في حق الفقهاء في المدرستين اللتين كانتا في يده من قديم الزمان: العزيزية والتقوية، وعدم إنصافه فيهما، وولى ابنه عيسى مشيخة الشيوخ بخوانق الصوفية، واستناب أخاه لأمه في القضاء، ومعه من المدارس الرواحية، والشامية البرانية مع أن شرط واقفها ألا يجمع المدرس بينها وبين غيرها[1].

وهكذا غدت الأوقاف نهباً لهذا القاضي يتصرف فيها كيفما يشاء.

أما أموال الغائبين عن دمشق، ممن جفلوا من التتار، فقد استولى عليها شمس الدين القمي، يعاونه في ذلك فخر الدين محمد يوسف الكنجي، حتى دواب الناس لم تسلم من العسف، فقد صادرها ابن النغيل، وسخرها للتتار[2].

❁ ❁ ❁

(١) «المذيل»: ٢/ ١٤٤ـ١٤٥.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٥٠.

وكان التتار يواصلون الاستيلاء على القلاع تمهيداً للاستيلاء على مصر، وقد سقطت في أيديهم قلعة الصلت وصرخد وبصرى، ويحاصرون الآن قلعة عجلون[١].

وكان كتبغا ما يفتأ يتسقط أخبار الناصر يوسف المنهزم في البراري، حتى عرف موضعه أخيراً[٢] من خلال طبرداره حسين الكردي، وقد جاءه ذات يوم يطلب منه ضيعة حضر الجولان، ويدله على موضعه، فكتب له كتبغا بها فرماناً[٣]، وأرسل قطعة من جيشه إلى بركة زيزي ـ حيث كان الناصر يوسف يقيم ـ للقبض عليه، فوقع التتار على العرب هناك، وهزموهم، وغنموا أولادهم ونساءهم وأنعامهم، وهرب الناصر يوسف هائماً على وجهه في البراري يصارع العطش هو ومن معه، حتى بلغت شربة الماء نحو مئة دينار[٤]، وهو مبلغ كبير، ثم قبض التتار عليه وعلى ابنه العزيز ومن معه من الأمراء القيمرية[٥]، وساقوه مقيداً إلى كتبغا الذي أهانه وقرعه، وكانت عجلون قد استعصت عليه، فأحضره كتبغا إليها، فأمر الناصر يوسف حاميتها بتسليمها للتتار، فسلمت إليهم[٦]، وبقي معهم في ذل وهوان[٧] حتى قرر كتبغا أن يرسله إلى هولاكو[٨].

ومخفوراً من التتار دخل الناصر يوسف دمشق في يوم الخميس (٦) رجب

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٤٥، و«المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٤.
(٢) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٨٠.
(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٥.
(٤) «المذيل»: ٢/ ١٤٥.
(٥) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٥.
(٦) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٤.
(٧) «المذيل»: ٢/ ١٤٢.
(٨) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٤.

سنة[١] (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) مطأطئ الرأس، مكبلاً بالأغلال، وقد أنكرته دمشق التي تخلى عنها في أحرج أوقاتها، فبقي فيها نحو ثمانية أيام حيث سيق إلى هولاكو مع ابنه العزيز[٢]، أمَّا الأمراء القيمرية فقد سجنوا بقلعة دمشق[٣].

وقد وافى الناصرُ يوسف هولاكو في جبال الطاق من طبرستان[٤]، وربما فوجئ وهو يرى هولاكو مقبلاً عليه، مكرماً له، حتى إنه أجلسه على كرسي قريب منه، وأدناه من مجلس شرابه، فشربا معاً[٥]، وطفق يعده بكل جميل، ممنياً إياه بإعادته إلى مملكته[٦].

والحق أنَّ هولاكو لم يجد ما ينقم به على الناصر يوسف، فهو برغم امتناعه عن المجيء إليه حين طلبه، لم يرفع في وجهه سيفاً، وقد بدَّد جيشه بجبنه شرَّ تبديد، ولم يحسن في حربه معه إلا الهرب حتى وقع بين يديه، فملكٌ كهذا هو ملك مطواع لن يسبب له أية متاعب حين يعيده إلى مملكته، وبخاصة أنَّه سيكون خاضعاً له غاية الخضوع بعد أن أبقى على حياته، وهل يريد هولاكو من خصومه إلا الخضوع؟ أما من يتمرد عليه فليس له سوى القتل.

ومن ثم أرسل إلى كتبغا مرسوماً بقتل والي قلعة دمشق بدر الدين بن قراجا، ونقيبها جمال الدين بن الصيرفي، فطلب كتبغا من زين الدين الحافظي أن يقتلهما بيده، لأنَّه هو الذي كتب إلى هولاكو بعصيانهما[٧].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٤٦.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٥.

(٤) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٨٠.

(٥) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٤.

(٦) «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٨٠.

(٧) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٤.

وفي أوائل شعبان سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) وفي مرج برغوث بداريا، يتقدم زين الدين الحافظي من الأسيرين الموثقين، شاهراً عليهما سيفه، ويتعاورهما بضرباته حتى يقتلا[١].



(١) «المذيل»: ٢/ ١٤٦، «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٤.

أبو شامة والتتار

وتستكين دمشق للتتار، ولم يعد يعلو فيها إلا صوت مؤيد أو خانع، وربما كانت أبيات أبي شامة التي نظمها في رثاء الكامل بن غازي صاحب ميافارقين تناقلها ألسنة الناس في خفوت حتى تناهت إلى مسامع التتار، أو أحد أعوانهم المخلصين، ولربما أطلق أبو شامة، وهو مفتي الشام، والصادع بالحق، لسانه فيهم في مجالسه الخاصة، فإذا بنائب التتار في دمشق إيل سبان يستدعيه في يوم (١٤) رمضان سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) إلى قلعة دمشق، ويهينه على رؤوس الملأ إهانة بالغة، مستبيحاً هيبة العلم، وما ينبغي لمثله من الاحترام والتوقير، بل إنه كيداً بأبي شامة يطلب منه أن يكتب لهم كتاباً بخطه، يلتزم لهم فيه دفع مبلغ كبير من المال ظلماً وقهراً، متذرعاً بذلك إلى قتله إن عجز عن إيفائه[١].

وكان أبو شامة قد أصاب في عزلته شيئاً من الغنى من عمله في فلاحة بستانه وزراعته، وفاض الخير عليه منه، وغدا منزله ذا غلال وافرة، ويبدو أن مساحة بستانه قد اتسعت حتى احتاج فيه إلى أناس يساعدونه في زراعته، بل صار بستانه مثابة للفقير واليتيم والأرملة، يقفون على بابه ليأخذوا نصيبهم من صدقات محصولاته[٢]، غير أنَّ المال الذي ألزمه التتار بدفعه لا تفي به ثروته الصغيرة.

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٥٣.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٨٢.

ولا يستبعد أن يكون زين الدين الحافظي وراء استدعاء أبي شامة، والكيد له بهذه المكيدة، للتخلص منه أو إسكاته، إذ إن طهارة الأنقياء كثيراً ما تثير حفيظة الأشقياء، والغريب حقاً أنَّ أبا شامة قد أغفل ذكر الحافظي هذا إغفالاً تاماً في تاريخه، فلم يشر إليه ولو إشارة عابرة، على الرغم من دوره الكبير في أحداث تلك السنين!

ويخرج أبو شامة من قلعة دمشق متعثراً بغضبه المكتوم، لما لحقه من الإهانة، وقد أثقل كاهلَه الضعيف هذا المبلغُ الكبير.

ولا شك أنَّ خبر استدعاء أبي شامة إلى نائب التتار إيل سبان، وما تعرض له من الإهانة والتهديد بالقتل، وما ألقي على كاهله من حمل ثقيل في تأمين هذا المبلغ الكبير، قد شاع بين الناس، فهفت إليه القلوب الغضبى متعاطفة مع محنته القاسية، وتعلقت به، لأنَّها رأت فيه عالماً مقارعاً للتتار، غير خاضع لهم ولا متهيب، وإلا لسكتوا عنه كما سكتوا عن غيره، ولربما كافؤوه، وفي فترات الخنوع كثيراً ما يتعلق الناس بمن يبدي ولو مقاومة ضعيفة، فكان لمحنة أبي شامة هذه أن رفعته في أعين الناس من عالم متخصص في القراءات والتاريخ، ومن مفتٍ يتصدى لحل مشكلاتهم إلى شخصية فيها ملامح من زعامة تنتمي إليهم حقاً، وتعيش همومهم ومعاناتهم، وتمنحهم بصمودها شيئاً من الثقة والأمل كانوا بمسيس الحاجة إليهما.

ولا شك كذلك أنَّ أبا شامة قد أمضى أيامه تلك مهموماً مغموماً، لا يدري من أين يتدبر هذا المبلغ الكبير، وقد رحل عن دمشق أغنياؤها، ولم يبقَ إلا فقراؤها، فلم يجد من ملجأ له في محنته هذه ـ وهو العالم الورع ـ إلا الله سبحانه وتعالى يفزع إليه في لياليه الطويلة بالدعاء عساه أن يكشف عنه هذه الغمة المدلهمة.

❁ ❁ ❁

وكان أبو شامة يزداد غماً إلى غم، وهو يرى ما يحل بدمشق من إهانة وأذى لم تشهده طوال تاريخها، فبعد نحو ثمانية أيام من محنته، ها هي دمشق تتعرض لمحنة أشد، ففي يوم (٢٢) رمضان سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) يدخل نصارى دمشق من باب توما، رافعين الفرمان الذي جاؤوا به من هولاكو، وفيه اعتناء بهم، وتوصية بحقهم، وصلبانهم مرتفعة، وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم، واتضاع دين الإسلام، ويرشون الخمور على الناس بأبواب المساجد، وقد عبروا من باب توما قاصدين درب الحجر، ووقفوا عند رباط الشيخ أبي البيان، ونادوا بشعارهم، ورشوا الخمور على باب الرباط، وفعلوا مثل ذلك على باب مسجد الحجر الصغير، والمسجد الكبير، بل إنهم ألزموا الناس في دكاكينهم بالقيام للصليب، ومن لم يفعل ذلك أخرقوا به، وأهانوه، وأقاموه غصباً.

وشقوا بالفرمان المرفوع السوق إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم، وقام بعضهم على الدكان الوسطى من الصف الغربي بين القناطر، وخطب وفضَّل دين النصارى، ووضع دين الإسلام، ثم عطفوا من خلف السوق راجعين إلى الكنيسة[١].

ولعلَّهم حسبوا أن غلبة التتار هي نهاية الفتح الإسلامي لهذه البلاد منذ نحو ستة قرون[٢].

وبادر المسلمون مع قضاتهم وشهودهم في صباح اليوم التالي إلى قلعة دمشق، شاكين إلى نائب التتار إيل سبان ما حل بهم من إهانة وأذى، فما كان منه إلا أن أهانهم وطردهم من القلعة شر طردة، مطلقاً جنوده وراءهم ينهالون عليهم ضرباً،

(١) «المذيل»: ٢/ ١٥١.

(٢) انظر «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ٢٣٨.

بل إنه إيغالاً في إحداث الفرقة بين المسلمين والنصارى زار في اليوم التالي كنيستهم، مظهراً تأييده لما فعلوه، وركب المسلمين من ذلك همٌّ عظيم[1].

(١) «المذيل»: ٢/ ١٥١.

معركة عين جالوت

قبل رحيله عن حلب، كان هولاكو قد أرسل أربعة رسل إلى مصر بكتاب يهدد فيه قطز، ويطلب منه الخضوع التام له، فكان من جملة ما قاله له: يعلم الملك قطز وسائر أمراء دولته، وأهل مملكته بالديار المصرية، وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلَّطنا على من حلَّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا، ويعود عليكم الخَطَاء، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد[١].

وكان التتار يواصلون الاستيلاء على القلاع في بلاد الشام بعد رحيل هولاكو، تمهيداً لاحتلال مصر، فرأى قطز أن لا معدى عن قتالهم، فليعاجلهم قبل أن يعاجلوه، فجمع الأمراء للمشاورة، فاتفق رأي بعضهم على موافقته على قتل الرسل، والمسير إلى الصالحية، استعداداً للقاء التتار[٢].

فأحضر قطز رسل التتار الأربعة، فوسَّط واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٢٨.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٢٩.

بالريدانية، وعُلِّقت رؤوسهم على باب زويلة، وهي أول رؤوس تعلق للتتار على هذا الباب[١].

وشرع في تحليف من وافقه من الأمراء على قتال التتار، ونودي في سائر مصر والقاهرة بخروج العساكر إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة دين رسول الله ﷺ[٢]. وكان سائر الأمراء كارهين للقاء التتار، خوفاً منهم، فتقدم قطز لسائر الولاة بإرغام العساكر على الخروج، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع[٣].

فلما كان يوم الاثنين (١٥) شعبان سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) خرج السلطان قطز بجميع عسكر مصر، ومن انضم معه من عساكر الشام يريد الصالحية[٤]، فسار حتى وصل إليها، ولمَّا تكامل عنده العسكر دعا الأمراء، وتكلم معهم في المسير للقاء التتار، فأبوا كلهم عليه، وامتنعوا من المسير، فقال لهم: يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك رجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطية حريم المسلمين في رقاب المتأخرين. فقام الأمراء الموافقون له، فتكلَّموا، وحلفوا له، فلم يسع بقية الأمراء إلا الموافقة على مضض، وانفض الجمع، غير أنَّ الجيش بقي ساكناً لم يتحرك، فما كان من قطز إلا أن ركب في الليل، وحرك كوساته، وقال: أنا ألقى التتار بنفسي. فلما رأى الأمراء مسير قطز ساروا على كره[٥].

وأمر السلطان قطز الأمير ركن الدين بيبرس أن يتقدم في طليعة الجيش

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٢٩.

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

(٤) المصدر السالف.

(٥) المصدر السالف.

ليتحسَّس أخبار التتار، فسار بيبرس إلى غزة، وكان بها قطعة من جيش التتار، فرحلوا عنها، واستولى بيبرس عليها[١].

ووافاه السلطان قطز على غزة، فأقام بها يوماً، ثم رحل عنها آخذاً طريق الساحل، فمرَّ بعكا، وفيها الصليبيون، فخرجوا إليه بالهدايا، فاستحلفهم أن يكونوا على الحياد، لا معه ولا ضده، وأقسم إن تبعه فارس أو راجل منهم يريد أذى عسكر المسلمين أن يرجع ويقاتلهم قبل أن يلقى التتار[٢].

ثم أمر قطز الأمراء، فاجتمعوا، وحضهم على قتال التتار، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوَّفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتار ونصرة الإسلام، وحذرهم عقوبة الله تعالى، وكانت كلمة مؤثرة، فضج الأمراء بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار، ودفعهم عن البلاد[٣].

ولما اطمأن السلطان قطز إلى ولاء أمرائه أمر الأمير ركن الدين بيبرس أن يتقدمه بقطعة من العسكر، فسار بيبرس حتى لقي طليعة التتار، فكتب إلى قطز يعلمه بذلك، وأخذ في مناوشتهم ومراوغتهم حتى وافاه السلطان قطز على عين جالوت[٤].

وكان كتبغا لما بلغه مسير العساكر المصرية جمع ما تفرق من التتار في بلاد الشام، وسار إلى لقائه.

والتقى الجمعان بعد طلوع شمس يوم الجمعة (٢٥) رمضان سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) وفي قلوب المسلمين رهبة عظيمة من قتال التتار[٥]، فتابع السلطان

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٠.

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

(٤) المصدر السالف.

(٥) المصدر السالف.

والأمراء ضرب كوساتهم، وعلا صياح أهل القرى من الفلاحين، فتحيز التتار إلى الجبل، فلما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان قطز، وانتقض طرف منه، فألقى قطز عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: وإسلاماه، وحمل بنفسه ومن معه حملة صادقة أسفرت عن هزيمة التتار، وتشتيت صفوفهم، وسقوط قائدهم كتبغا قتيلاً[١] بسيف الأمير جمال الدين أقوش الشمسي[٢]، وتمكن المسلمون منهم قتلاً وأسراً، وقد أبلى الأمير ركن الدين بيبرس في القتال بلاء حسناً[٣].

وتبع المسلمون التتار المنهزمين إلى قرب بيسان، فإذا بالتتار يعاودون تجميع صفوفهم، ويصدمون المسلمين المهاجمين، فيتزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وتعود الحرب جذعة، ويعلو صوت قطز في المعركة، فيسمعه معظم العسكر، وهو يصرخ: وإسلاماه، وإسلاماه، وإسلاماه، يا الله، انصر عبدك قطز على التتار. ويفيء المسلمون إلى إيمانهم، فيقتلعون التتار من أماكنهم، ويقتلون أكابرهم، ويكسرونهم كسرتهم الثانية، فيتبدَّد جيش التتار بين قتيل وأسير وهارب، وعندئذ يترجل السلطان قطز عن فرسه، ويمرغ وجهه في الأرض، ويقبلها، ويصلي ركعتين شكراً لله على نصره، ثم يركب مقبلاً على عسكره، مبتهجاً بالنصر، وقد امتلأت أيدي عساكره بالغنائم[٤].

ويُقطع رأس كتبغا، ويحمل إلى القاهرة، ليطاف به في حاراتها وأزقتها وسككها، ثم ليعلق على أحد أبوابها[٥].

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٠-٤٣١.

(٢) «البداية والنهاية» (حوادث سنة ٦٥٨هـ)، «عقد الجمان»: ص٢٨٢.

(٣) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤٣١.

(٤) المصدر السالف.

(٥) المصدر السالف.

وينهزم بيدرا ومن بقي معه من التتار، مشتدين في عَدْوهم نحو هولاكو، ليخبروه بنبأ هذه الكسرة العظيمة[١].

وبحس المؤرخ يدرك أبو شامة أهمية هذه المعركة، وأنها من المعارك الفاصلة في تاريخ المسلمين، فيكتب: «وكان ذلك فتحاً مبيناً، ونصراً عزيزاً، نشأ به الإسلام نشأ جديداً[٢]».



(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٥.

(٢) «نزهة المقلتين»: ورقة ٥٢.

وهرب التتار من دمشق

ويتقدم قطز عقب المعركة نحو طبرية، فينزل عليها يوم الأحد (٢٧) رمضان سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، ومنها يرسل كتاباً إلى دمشق، يبشر به أهلها بنصر الله له، وبخذلانه التتار، ويعدهم بوصوله الوشيك إليهم[١].

ويطير الناس فرحاً، وهم لا يكادون يصدقون ما يسمعون، أحقاً هزم التتار أخيراً؟[٢] ويبيتون ليلة الأحد وهم متحرقون شوقاً لوصول السلطان إليهم، في تلك الليلة يتخذ التتار من ظلمتها ملاذاً، ويفرون من دمشق، وقد ملئت قلوبهم رعباً، ويفرّ معهم زين الدين الحافظي وأعوانهم[٣]، ويتسامع الناس بفرارهم، فيهبون من بيوتهم، وقد تمشت في أوصالهم حُمَيّا الشجاعة، ويتتبعونهم قاتلين من ظفروا به منهم[٤].

في تلك الليلة تتنفس دمشق الصعداء، وهي تزيح عنها كابوس التتار، وقد جثم على صدرها سبعة أشهر وعشرة أيام[٥]، ولربما كان أبو شامة من أشد أهلها فرحاً

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٥٠.

(٢) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٥، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٢.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٥٢، «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٥.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٤٩-١٥٠.

(٥) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٥.

لنجاته من القتل، وقد هدده التتار به قبل أيام، ويعجب الناس حقاً من خلاصه السريع من محنته التي لم تدم سوى عشرة أيام[١]، وقد كان يُظَن ألاَّ منجاة له منها، وتزداد منزلته علواً في أعين الناس، بل إن بعضهم عدَّ هزيمة التتار عقاباً لهم من الله لظلمهم إياه، وهذا ما كان يعتقده أبو شامة حقاً، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[٢].

وفي الأبيات التي يوردها أبو شامة في تاريخه ـ وقد أُلمع فيها إلى هذه الآية الكريمة ـ ما يكشف عن هذا المعنى، فكتب: وقيل في ذلك:

تَفَرَّقَ جَمْعُ الكُفْرِ لَمَّا تعرَّضُوا ... أبا شامةٍ ظُلْماً وكُدِّرَ وِرْدُهُ

أرادوا بِهِ كيداً وما هِيْبَ عِلْمُهُ ... فغارَ له الرَّحمنُ إذ هو عَبْدُه[٣]

فما كان بين الجَوْرِ منهمْ وكَسْرِهِمْ ... لدى رمضانٍ غيرَ عَشْرٍ نَعُدُّهُ

فحاشا لمفتي الشَّامِ يُهْمَلُ أمرُهُ ... ويُخفَضُ ذو عِلْمٍ ويُرْفَعُ ضِدُّهُ

له أُسوةٌ بالأنبياءِ وصالحي الـ ... ـبريَّةِ فيهِ ليس يُخْلَفُ وَعْدُهُ

يَعِزُّ علينا ما جرى غيرَ أننا ... نُسَرُّ به حيًّا فلا كان فَقْدُه[٤]

وأتساءل: هل هذه الأبيات هي لأبي شامة، وأخفى نسبتها تورعاً، وخوفاً على نفسه من العُجْب؟ أظنها كذلك، ولعلَّ استعماله صيغة البناء للمجهول في قوله: وقيل في ذلك إشارة كفته مؤنة التصريح، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

وما إن بزغ فجر يوم الاثنين (٢٨) رمضان حتى مال الناس على دور النصارى ينهبونها، ويخربون ما استطاعوا منها، ويقتلون جماعة منهم، ويختفي الباقون،

---

(١) «المذيل»: ٢/١٥٣.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٣) إشارة إلى اسمه عبد الرحمن.
(٤) «المذيل»: ٢/١٥٣.

ويخربون بعضاً من كنيسة اليعاقبة، ويشعلون النار في كنيسة مريم حتى تستحيل كوماً، تشفياً مما كان منهم، ويهمُّ الناس بنهب اليهود، فينتهب قليل منهم، ثم يكف الناس عنهم لأنَّهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى[١].

ويميل الناس على أعوان التتار من المسلمين، ولم تشفع لهم صلاة الفجر في جامع دمشق، إذ بينما كان فخر الدين محمد بن يوسف الكنجي بين المصلين في الجامع فجر يوم (٢٩) رمضان انتدب له من تأذى منه، وألَّب عليه الناس لتعرضه لأموال الغائبين وغيرهم، فيقتل في الجامع، ويبقر بطنه، ويتتبع الناس أشباهه من أعوان الظلمة مثل الشمس بن الماكسيني، وابن النغيل الذي كان يسخر الدواب وغيرهم، فيقتلونهم[٢].

ولم يغمد سيف الانتقام حتى صباح يوم الثلاثاء (٢٩) رمضان، إذ وصل إلى دمشق الأمير جمال الدين المحمدي الصالحي بمرسوم السلطان قطز، ونزل بدار السعادة، فسكن الناس، واطمأنت المدينة[٣].

ويلتفت الناس إلى رأس الكامل بن غازي المعلق على باب الفراديس، فينزلونه[٤]، وتكريماً له يدفنونه في مسجد الرأس داخل باب الفراديس، قرب المكان الذي كان يقال: إن رأس الحسين بن علي ﷺ قد دفن فيه، ويكمل أبو شامة قصيدته في رثائه، بقوله:

ثم واروا في مَشْهَدِ الرأس ذاك الرَّ	أسَ فاستعجبوا من الحالَتَيْنِ
وارتجوا أَنَّه يجيء لدى البَعْـ	ـثِ رفيقَ الحُسين في الحُسْنَيَيْنِ[٥]

(١) «المذيل»: ٢/ ١٥٢.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٥٠.

(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٥-١٧٦.

(٤) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ٧٦.

(٥) «المذيل»: ٢/ ١٤٣، وانظر ص٢٤٢ - ٢٤٣ من هذا الكتاب.

ويصل السلطان قطز بعساكره إلى ظاهر دمشق يوم الأربعاء (٣٠) رمضان سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، وينزل على الجسورة، ويخيم بها، ويعيد بها عيد الفطر، ثم يعبر إلى دمشق في (٢) شوال[١]، وفي يوم عبوره يأمر بشنق جماعة من أعوان التتار، فيشنقون، وكان في جملتهم حسين الكردي[٢] الذي دلَّ كتبغا على مكان الناصر يوسف[٣].

وما إن يستقر في قلعة دمشق حتى يرسل الأمير ركن الدين بيبرس ليلحق بالتتار المنهزمين، فيدركهم بأرض حمص[٤]، وقد سيبوا ما كان بأيديهم من أسرى المسلمين، وتبعجت خيولهم، وتخففوا مما معهم، حتى إنهم رموا أولادهم، وضربوا رقاب من عجزوا عن حمله من نسائهم، وعرجوا نحو طريق الساحل، والناس يتخطفونهم ويقتلون منهم[٥].

كانت قلوب أهل دمشق منتشية فرحاً بهذا النصر الكبير الذي تحقق بعد اليأس منه، إذ كان التتار قد استولوا على معظم بلاد الإسلام، ولم يقصدوا إقليماً إلا فتحوه، ولا عسكراً إلا هزموه، وها هم الآن مدحورون، وتلهج الألسنة المؤمنة بشكر الله تعالى على عظيم نعمته[٦]، وينطلق لسان أبي شامة في مدح السلطان قطز، متعجباً من أن التتار لم يكسروا ويهلكوا إلا بأبناء جنسهم من الترك، فيقول:

غَلَبَ التَّتار على البلادِ فجاءهُمْ ... من مِصْرَ تُرْكيٌّ يجودُ بنَفْسِهِ
بالشَّامِ أَهْلَكَهُمْ وبدَّدَ شَمْلَهُمْ ... ولكلِّ شيءٍ آفةٌ من جِنْسِهِ[٧]

(١) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٦.
(٢) «المختصر في أخبار البشر»: ٢/ ٢٠٥.
(٣) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٦.
(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٢.
(٥) «المذيل»: ٢/ ١٥٢.
(٦) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٥.
(٧) «المذيل»: ٢/ ١٥٠-١٥١.

ويؤوب إلى دمشق ـ وقد زال التتار عنها ـ من فرَّ من أهلها، وكانت الأقوات بها قليلة لاضطراب أحوالها، فترتفع الأسعار، وتعدم الفلوس فيها[١]، ويحسِّن بعض عوام دمشق إلى بعض مماليك السلطان قطز نهب دور النصارى، وقد استمرؤوها، فيهجمون عليها على حين غرة وينهبونها، وما إن يبلغ هذا الخبر السلطان قطز حتى يأمر بالحال بشنق هؤلاء المماليك والعوام، وكانوا قريباً من ثلاثين شخصاً، منعاً لتعدي الرعية على بعضها، ثم يقرر على النصارى واليهود بدمشق جزاء ما اقترفوه مئة ألف وخمسين ألف درهم، فيلتزمون بها، ويجمعونها، ويحملونها إليه بشفاعة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب[٢].

وينهمك السلطان قطز بدمشق في ترتيب أحوال بلاد الشام، وقد امتد سلطانه عليها من حلب إلى حدود مصر، ويرسل إليها نوابه، ويستنيب في دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي[٣]، حتى إذا فرغ من ترتيب أحوال النواب والولاة خرج من دمشق يوم الثلاثاء (٢٦) شوال سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) قاصداً مصر، وكان قد عزم على المسير إلى حلب، فثناه عن ذلك ما بلغه من تنكر الأمير ركن الدين بيبرس له، وتغيره عليه[٤]، ويصحب معه إلى مصر قاضي القضاة محيي الدين يحيى ابن الزكي، وكان قد بذل أموالاً جمّة على أن يقره قطز في منصبه فأبى ذلك، وعزله، وولى القضاء نجم الدين أبا بكر بن القاضي صدر الدين أحمد بن سني الدولة[٥].

ويبلغ هولاكو نبأ كسرة عسكره في عين جالوت، وقتل نائبه كتبغا، وخروج بلاد الشام من يده، فيستشيط غضباً، وهو الذي لم يذقْ من قبل طعم الهزيمة،

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٤.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٦.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٣.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٤.

(٥) «المذيل»: ٢/ ١٤٥.

فلا يرى أمامه سوى الناصر يوسف ليطفئ به جمر غضبه، فيأمر بقتله وجميع مَنْ معه.

واقتيد الناصر يوسف إلى جبال سلماس، حيث قتل يوم الأربعاء (٢٠) شوال سنة[١] (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، وقتل معه أخوه الظاهر وعدة من أولاد ملوك الأيوبيين، ولم يسلم من القتل سوى ابنه الملك العزيز، وقد تشفعت إليه فيه طُقُز خاتون زوجة هولاكو، فشفعها فيه[٢].



(١) هذه رواية محيي الدين المغربي المنجم، وكان مع الناصر يوسف، وشهد مقتله، انظر «تاريخ مختصر الدول»: ص٢٨٠ـ٢٨١، وذكر المقريزي في «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٤ أنَّ مقتله كان في (١٨) شوال.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٦، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٤.
ثم قتل هولاكو من بعد زين الدين الحافظي، وذلك سنة (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م) ولم يمتع بخيانته للناصر يوسف، انظر خبر قتله وأسبابه في «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

مقتل قُطُز وتولي بِيْبَرْس السَّلْطنة

ما كان السلطان قطز، وهو في طريقه إلى مصر، يظن أن تغير الأمير ركن الدين بيبرس عليه، وتنكره له، قد يؤدي إلى قتله، فانتصاره الكبير في عين جالوت يحميه، ولن يجرؤ أحد على قتل سلطان منتصر قد زينت البلاد لاستقباله[1].

ثم إنَّه آوى بيبرس حين ضاقت عليه البلاد، وأولاه ثقته حين قدمه على عسكره، وإن كان لا يطمئن إلى ولائه الاطمئنان التام، وهو الأمير الطموح، وصاحب المنزلة العالية بين المماليك البحرية، ولهذا رفض توليته حلب حين طلبها منه[2]، خوفاً من تفكك البلاد وانقسامها فيما لو سولت له نفسه الانفصال، وهي بعد تواجه خطر التتار.

أما الأمير ركن الدين بيبرس، وقد نفض عنه الآن غبار المعركة التي طالما انتظرها، فقد استيقظت أحقاده القديمة، إنه لا يستطيع أن ينسى أن قطز هو وراء هربه من مصر، وتنقله في البلاد طريداً مهموماً، ألم يقتل أستاذه فارس الدين أقطاي؟ ألم يستولِ على الملك من بعد وهو مملوك عز الدين أيبك؟ إنه لا ينتمي إليهم هم المماليك البحرية، مماليك السلطان الصالح أيوب[3]، الذين دافعوا عن

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٧.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٤.

(٣) انظر ص١٩٨ من هذا الكتاب.

البلاد في معركة المنصورة، وقد حُفظت مصر بسيوفهم، فهم أحق بالملك منه، حقاً لقد آواه قطز لما تعذر عليه المقام بالشام، ولكنه كان سينضوي تحت راية كل من يقاتل التتار، صيانة لبلاد الإسلام، أما الآن، وقد هزم التتار، وكانت له اليد البيضاء في هذا الانتصار الكبير، فليعد الحق إلى نصابه، فمن أولى بالسلطنة منه[١]؟

كان السلطان قطز في مسيره قد شارف حدود مصر[٢]، وقد خرج من الغرابي وقارب الصالحية، ولربما تخلى عن حذره، وهو يشعر بقرب وصوله إلى مأمنه، فانحرف في مسيره عن الدرب للصيد، وقد كان مولعاً به، ومعه الأمراء، فلما فرغ من صيده، وعاد يريد الدِّهليز السلطاني اعترضه الأمير ركن الدين بيبرس طالباً منه امرأة من سبي التتار، فأنعم بها عليه، فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها، وكانت إشارة بينه وبين الأمراء الذين اتفق معهم على قتله، فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف، وضرب به عاتقه، واختطفه الأمير أنس، وألقاه عن ظهر فرسه، وعاجله الأمير بهادر بسهم أتى عليه، فسقط قطز قتيلاً، مضرجاً بدمائه، وذلك يوم السبت (١٥) ذي القعدة سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) ولم يمض على سلطنته سوى أحد عشر شهراً، وسبعة عشر يوماً، ودفن بالقصير[٣].

وسار الأمراء بعد قتله إلى الدهليز السلطاني بالصالحية، واتفقوا على سلطنة الأمير ركن الدين بيبرس، وتلقب بالملك القاهر[٤].

---

(١) «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة»: ص٥٣، «عقد الجمان»: ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٢) «أخبار الأيوبيين»: ص١٧٦.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٥، و«أخبار الأيوبيين»: ص١٧٦ ـ ١٧٧.
وكان قبر قطز يزار، فلما تمكن الظاهر بيبرس بعث إلى قبره من هدمه، وغيبه عن الناس، فصار لا يعرف، انظر «عقد الجمان»: ص٢٦٠.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٦، «وفيات الأعيان»: ٤/ ١٥٥.

وكانت القاهرة قد زينت لقدوم الملك المظفر قطز، والناس في فرح ومسرات بالنصر على التتار[١].

ووصل بيبرس إلى قلعة الجبل يوم الاثنين، فلما طلع النهار نادى المنادي في الناس: ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس[٢].

وألجمت الناسَ المفاجأةُ، ونزل عليهم هذا الخبر نزول الصاعقة.

وحضر إلى قلعة الجبل الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير، وأشار على بيبرس أن يغير اللقب بالملك الظاهر، فإنَّه ما تلقب بالقاهر أحد فأفلح[٣].

فلما كان آخر النهار نادى المنادي بالدعاء للملك الظاهر.

وانقلب فرح الناس بالنصر على التتار إلى غمّ من عودة دولة المماليك البحرية، وقد عانوا من جورهم، واستيلائهم على أموالهم، وهتكهم أعراضهم[٤].



---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٧.

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

(٤) المصدر السالف.

انقياد دمشق للظاهر بيبرس
ورثاء أبي شامة لدار الحديث الأشرفية

أما دمشق، فقد كانت ما تزال تعيش بهجة الانتصار على التتار، والتخلص من كابوسهم، وقد سارعت عقب رحيل قطز عنها في عمارة ما تشعث من قلعتها، وشارك أهلها كلهم في العمل بها، من صناع وكبراء الدولة، حتى النساء شاركن في عمارتها[1].

ولم ينغص عليها بعض بهجتها سوى تولي نجم الدين بن صدر الدين بن سني الدولة قضاءها، وربما غفرت لقطز غلطته هذه بتوليته، وقد قرئ منشور ولايته هذا المنصب في يوم الجمعة (٢١) ذي القعدة سنة[2] (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) وهو المشهور بظلمه وفسقه وسوء أخلاقه ومجونه[3]، وتعبر دمشق عن امتعاضها في ذلك اليوم بقصيدة تهجو بها هذا القاضي الجديد، وهي لم تنسَ بعد إساءات أبيه صدر الدين من قبله، ولم يحفظ لنا التاريخ من هذه القصيدة إلا مطلعها:

أيها المالك المظفر والمو ... لى الأمير المجير وابن وداعه[4]

---

(١) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٨، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٩.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٤٥.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٦٥، ١٦٧.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٦٥.

وتذكِّر القصيدة الناس بخيانة هذا القاضي يوم أُودع كيساً فيه ألف دينار، فردَّ بدله كيساً فيه فلوس[١]، وشتان ما بين دنانير وفلوس!

واعتادت دمشق على قضاة السوء، واعتادت على ما كان ينوبها أحياناً من الغلاء الشديد، وكانت تعيش في تلك الفترة أحلك أيامه، فقد كان غلاء شديداً في جميع الأشياء من المأكول والملبوس وغيرهما، وكان من أسبابه ما أحدثه الصليبيون من ضرب الدراهم المعروفة باليافية، وكانت كثيرة الغش، وقد كثرت في دمشق كثرة عظيمة، وتُحدِّث في إبطالها مراراً، فكان كل من عنده شيء منها حريصاً على إخراجه خوفاً من بطلانها، فتراه يدأب في شراء أي شيء بها، فترتفع أثمان السلع بسبب ذلك[٢].

وتصحو دمشق فجأة من بهجتها، وقد نمي إليها خبر مقتل السلطان قطز في طريق عودته إلى مصر، غير أنَّها لم تتبين بعد مَنْ تولى السلطنة من بعده، وتحزن دمشق لمقتله، وهو صاحب النصر في عين جالوت، ويكتب أبو شامة في تاريخه بأسى: «ووصل الخبر بأن الملك المظفر قطز الذي ملك مصر والشام وكسر التتار قتل في رجوعه من الشام إلى مصر قبل دخوله مصر بين الغرابي والصالحية. . . والله تعالى يولي على المسلمين من يهتم بنصرة الإسلام، وإقامة شريعة النبي عليه السلام، وكان قطز هذا موصوفاً بمواظبة الصلوات، والشجاعة، وتجنب شرب الخمر، رحمه الله»[٣].

كان قطز بارقة أمل خبت، ويشهد أبو شامة من جديد مأساة انقلاب الأفراح إلى أتراح، ألم يقتل تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب عقب الانتصار على الصليبيين في معركة المنصورة؟ وها هو الآن يقتل قطز عقب الانتصار على التتار

---

(١) «المذيل: ٢/ ١٦٥.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٥٨.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٥٤ـ١٥٥.

في عين جالوت، يا لعجائب هذه الأمة التي لا تنقضي!، ويكتب أبو شامة في تاريخه: «فبين هاتين الأعجوبتين المتشابهتين نحو من عشر سنين إلا أن السابقة كانت في أوائل سنة ثمان وأربعين، وهذه المتأخرة كانت في أواخر سنة ثمان وخمسين، والله تعالى يحسن العاقبة»[١].

إنَّها أعجوبة حقاً، وتتابع دمشق حياتها، منتظرة ما ستسفر عنه هذه الأحداث.

* * *

وكان الظاهر بيبرس يوم جلس بالإيوان من قلعة الجبل بالقاهرة قد كتب إلى الملوك والنواب يخبرهم بسلطنته[٢]، وقد ورد هذا الخبر إلى دمشق في أوائل ذي الحجة سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) فامتعض من ذلك الأمير علم الدين سنجر، وأنف من طاعة بيبرس[٣]، فجمع الأمراء، وحلَّفهم لنفسه، فأجابوه كلهم، لم يتأخر عنه أحد، ولقب نفسه بالملك المجاهد، وخُطب له بالسلطنة، وضربت الدراهم باسمه إيذاناً بانفصاله عن القاهرة، وكاتب الملك المنصور صاحب حماة يدعوه إلى مبايعته، فلم يستجب له، قائلاً: أنا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان[٤].

ولما رأى علم الدين سنجر أن أحداً من ملوك الأطراف لم يبايعه[٥] حاول تخفيف وقع انفصاله عن القاهرة، فأمر بأن يخطب للظاهر بيبرس بدمشق يوم الجمعة سادس ذي الحجة سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) ثم يذكر اسمه من بعده، وضُربت

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٥٥.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٣٨.

(٣) المصدر السالف.

(٤) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٨، «الوافي بالوفيات»: ١٥/ ٤٧٤.

(٥) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٤٠.

الدراهم باسمهما[١]، وكأنه بذلك يعلن تبعيته الاسمية للقاهرة، غير أن الظاهر بيبرس لم يقنع بهذا، وراح يتربص لإعادة ضم دمشق إلى مملكته.

❁ ❁ ❁

في تلك الأثناء كانت منزلة أبي شامة في دمشق في ارتفاع، ومؤلفاته قد اشتهرت، وكثرت النسخ بها[٢]، فقد كان من قلة قليلة من العلماء الذين ثبتوا في دمشق حين دهمها التتار، ولم يجفل منها مع من جفل من أهلها.

ثم إنَّه تعرض لمحنة كادت تودي بحياته، وقد أنجاه الله منها[٣]، فقد بات أبو شامة لأول مرة في حياته يتقدم الصفوف ليصلي إماماً على من يموت من أعيان دمشق ومشايخها وزهادها، وهي منزلة لا يدركها إلا عالم كبير قد انعقدت القلوب على محبته وإجلاله.

ففي (١٧) ذي الحجة سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) توفي العفيف بن رحمة، وهو رجل صالح، كان خياطاً في محل مجاور لجامع دمشق، فصلى عليه أبو شامة إماماً خارج باب النصر، وحضر دفنه بمقابر الصوفية العليا[٤]، وفي طريق عودته مر بدار الحديث الأشرفية، وقد انقطع عنها زمناً طويلاً لانشغاله في بستانه، فهاله ما أصابها من خراب صورة ومعنى على حدِّ تعبيره[٥]، فقد استولى المتنفذون على أوقافها يأكلونه، فتشعث بناؤها وتهدم، وقلَّ الاشتغال بالعلم فيها، وكان يتولى مشيختها في ذلك الوقت القاضي الخطيب عماد الدين عبد الكريم بن القاضي جمال الدين بن الحرستاني[٦]، ويعود بخياله إلى ما كانت عليه من بهاء يوم كان يختلف إليها قبل

(١) «المذيل»: ٢/ ١٥٦.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤١.

(٣) انظر ص ٢٥١، ٢٦١ ـ ٢٦٢ من هذا الكتاب.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٥٦.

(٥) المصدر السالف.

(٦) «المذيل»: ٢/ ١٩٥.

نحو ربع قرن يقرأ على شيخها يومئذ الفقيه الحافظ تقي الدين عثمان بن الصلاح[١]، فتجيش في نفسه هذه الذكرى، فإذا به ينظم أبياتاً يقولها بديهة، يتحسَّر فيها على حالها:

ليست بدار حديثٍ ولا بمغنى فلاحِ
من بعد ما مات زنطا رٌ والتُّقى ابنُ الصَّلاحِ
هذاك للوقف والشَّيْـ ـخُ للعلوم الصِّحاحِ[٢]

وزنطار هذا كان يعرف بالحاج زنطار، وكان الملك الأشرف واقف دار الحديث قد اعتمد عليه في عمارة الدار، ووقفها، والنظر في ذلك، وفي خدمة الأثر الشريف النبوي فيها[٣]، فكان رزقها في أيامه متوافراً، واختل ذلك بموته كما اختل الاشتغال بالعلم فيها بعد موت الشيخ ابن الصلاح[٤].

كان أبو شامة يرثي لحال دار الحديث الأشرفية، وما عليها من إهمال وخراب، وقلبه يتميز غيظاً من هؤلاء المنتفعين الذين لا همَّ لهم إلاَّ مصالحهم الضيقة ورفاهية حياتهم، ولو كان في حياتهم موت العلوم والمدارس، ولكي تحيا لا بد من الوقوف في وجه أطماعهم، وتعريتهم وفضحهم على الملأ، وإن كانوا مختبئين تحت عمائم العلماء وطيالسهم.

وستصبح من بعد قضية الأوقاف والاستيلاء عليها شغل أبي شامة الشاغل.



بعد ذيوع خبر مقتل السلطان قطز حسب التتار أن لحظة انتقامهم من هزيمة عين جالوت قد دنت، فجمع بيدرا فلول كتائب التتار من أطراف الشام والعراق مع من

---

(١) انظر ص٩٤ من هذا الكتاب.
(٢) «المذيل»: ٢/ ١٥٦.
(٣) كان فيها نعل النبي ﷺ، انظر «الوافي بالوفيات»: ٧/ ١٧٦-١٧٧.
(٤) «المذيل»: ٢/ ١٥٦-١٥٧.

كان منهم بحران وغيرها من بلاد الجزيرة، فبلغوا نحو ستة آلاف فارس، وزحف بهم إلى البيرة، وهزم الفئة القليلة التي أرسلها لصده الملك السعيد علاء الدين نائب حلب، وكانت تلك الهزيمة من أسباب ثورة المماليك العزيزية والناصرية عليه[١].

وتقدم التتار نحو حلب، وقد جفل عنها أهلها[٢]، فاحتلوها بعد أن بادر بالجلاء عنها إلى حماة نائبها الجديد حسام الدين لاجين العزيزي، ثم سار التتار إلى حماة، فتقهقر عنها إلى حمص صاحبها الملك المنصور محمد والأمير لاجين العزيزي[٣]، فقصد التتار حمص، فبرز إليهم صاحبها الملك الأشرف موسى، وقد اجتمع إليه نحو ألف وأربع مئة فارس[٤]، وواقع التتار مع حلفائه يوم الجمعة (٥) محرم سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) على الرستن، فكسر التتار كسرة عظيمة، وقتل منهم نحو ألف فارس، ولم يقتل من المسلمين سوى رجل واحد[٥]، وضربت البشائر بذلك، وحملت بعض رؤوس القتلى إلى دمشق[٦]، حيث طيف بها في (١٣) محرم في أسواقها، وهي مرفوعة على عصي بأيدي الصبيان، يجبى عليها الفلوس[٧].

لم يعد التتار يخيفون حتى الصبيان، بل أصبحوا هم الخائفين، لقد ذلوا بعد معركة عين جالوت ومعركة حمص، فطمع المسلمون فيهم، وانتقل إلى التتار من الخوف ما كان عند المسلمين منهم[٨].

---

(١) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤٤٢، و«المذيل»: ٢/ ١٥٨، و«المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٨-٢٠٩.
(٢) «المذيل»: ٢/ ١٥٨.
(٣) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢٠٩.
(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٤٢.
(٥) «المذيل»: ٢/ ١٥٨.
(٦) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٤٢.
(٧) «المذيل»: ٢/ ١٥٩.
(٨) «نزهة المقلتين»: ورقة ٥٢.

لم تنعم دمشق بهزيمة التتار حتى كان الظاهر بيبرس قد أعدَّ خطته لإعادة ضمها إلى مملكته، فأرسل إليها الأمير جمال الدين المحمدي، ومعه الأموال الجزيلة لاستمالة أمرائها[١]، وأردفه بعسكر مع الأمير علاء الدين إيدكين البندقدار لقتال سلطانها علم الدين سنجر[٢].

وقدم الأمير جمال الدين المحمدي دمشق، ودخلها في (٣) صفر سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وعمل على استمالة أمرائها ببذله لهم الأموال، فاستجاب له الأمراء القيمرية، وبايعوا الملك الظاهر[٣]، وخرجوا من دمشق معلنين عصيانهم على علم الدين سنجر، فبعث إليهم سنجر عسكراً، فهزموه، فخرج هو بنفسه، وحمل بأصحابه، ففروا منه، ثم كروا عليه[٤]، فلما خرج إليهم كان عسكر مصر قد وصل، فاقتتل معهم بظاهر دمشق، ووجد علم الدين سنجر نفسه وحيداً في معركة غير متكافئة، فولى منهزماً مع أصحابه، والتجأ إلى قلعة دمشق يوم السبت (١١) صفر سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) ممتنعاً بها[٥]، ودخل الأمير علاء الدين إيدكين دمشق، وملكها، وحلَّف الأمراء للملك الظاهر[٦].

وخاف علم الدين سنجر على نفسه وهو محاصَرٌ بالقلعة[٧]، ففر منها ليلة الأحد (١٢) صفر إلى قلعة بعلبك[٨]، فتبعه العسكر إلى هناك، وقبضوا عليه، ثم حملوه إلى الديار المصرية، فاعتقل بقلعة الجبل بالقاهرة[٩].

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٤٤.
(٢) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢١٠.
(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٤٤.
(٤) المصدر السالف.
(٥) المصدر السالف.
(٦) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٤٥.
(٧) المصدر السالف.
(٨) «المذيل»: ٢/ ١٥٩.
(٩) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٤٥.

وكان له في دمشق أعوان ظلمة، منصوبون لمصادرة الناس، فقبض عليهم[١].

واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس، وانقاد الجميع لسلطنته لقوته بالمال والرجال على حد تعبير أبي شامة[٢]، فأقيمت الخطبة له بحماة وحلب وحمص وغيرها من بلاد الشام[٣].

وكان الظاهر قد قرر الأمير علاء الدين إيدكين البندقدار على نيابة دمشق[٤]، وأقام الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري في قلعتها، ثم بعد نحو شهر صرف إيدكين، وولاها الأمير طيبرس[٥].

وأمر الظاهر بيبرس بعمارة ما خربه التتار من قلاع بلاد الشام، وحملت الغلال الوفيرة إلى دمشق لما تعانيه من الغلاء الشديد[٦].



(١) «المذيل»: ٢/ ١٥٩.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٢١٠.

(٤) المصدر السالف.

(٥) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٤٥.

(٦) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٤٦.

أبو شامة
وكتابه «المذيل على الروضتين»

مرت ثلاث وثلاثون سنة على أبي شامة، وهو يدوِّن في تاريخه وقائع عصره، ووفيات علمائه وأصحابه ومعارفه، وينثر فيه أحياناً نُتَفاً من سيرته، منذ أن خط أول كلمة فيه سنة[1] (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) وكان في السابعة والعشرين من عمره، حتى هذه السنة[2] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وقد أتم من عمره الستين.

حقاً أنه فرغ من كتابه «الروضتين»، وقد أرخ فيه لدولتي نور الدين وصلاح الدين، وأتبعه ببعض ما جرى بعد وفاة صلاح الدين[3]، غير أن ما كتبه في ذلك لم يُرْوِ غُلَّته، ونظر في أوراق تاريخه هذا، فوجدها قد احتشدت بوقائع تسع وثلاثين سنة منذ أن ابتدأه من حوادث سنة[4] (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، وهنا لاح له في معتزله خاطر: لم لا يستدرك في هذا التاريخ ما فاته ذكره من الوقائع التي أعقبت

---

(١) كان أبو شامة قد خطر له تدوين هذا التاريخ في آخر سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) غير أنه لم يشرع فيه إلا سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، انظر: ص٦٥، ٧٠، ٧٥، ٧٧، ٨٢ ـ ٨٣ من هذا الكتاب.

(٢) أكثر أبو شامة من الإشارة إلى ذلك في غير ما موضع من مذيله، انظر: ص١٤٣ من الجزء الأول منه.

(٣) انظر ص١٧٢، ٣٥٩ من هذا الكتاب.

(٤) انظر ص٨٣ من هذا الكتاب.

وفاة صلاح الدين، ويجعله مذيلاً لكتابه «الروضتين»؟ وبذلك تكتمل الصورة التي حاول رسمها، صورة الأمل الذي عاشه الناس في الروضتين، وقد أزهرتا بحكم ملكين عادلين: نور الدين وصلاح الدين، وصورة هذا الواقع الآسن الذي عاشه وما يزال يعيشه، من صراع بين الإخوة وأبناء العم على الثريد الأعفر، متناسين الصليبيين، هذا الخطر الجاثم على القلوب، بل إنهم في صراعهم المستميت راحوا يستقوون بهم، باذلين لهم البلاد، فأعطوهم فيما أعطوا بيت المقدس، درة فتوحات صلاح الدين، ومهوى أفئدة المسلمين، وقد ظلوا في صراعهم يعمهون حتى أتى أخيراً طوفان التتار من الشرق، فأغرق البلاد بالدماء وأغرقهم.

وهاهم من جاء بعدهم يعتدون على أعراض المسلمين، وينهبون أموالهم، ويحولون الانتصارات إلى مآتم..

وبحزن شفيف يكب أبو شامة على تاريخه هذا، يستدرك فيه ما فاته تدوينه منذ سنة (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) وهي السنة التي أعقبت وفاة صلاح الدين، حتى سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) معتمداً في كثير من أخباره على من سبقه من المؤرخين، ممن عاصر أحداث تلك السنين كسبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، وعز الدين محمد بن تاج الأمناء ابن عساكر في مدوناته التاريخية، وعلى ما سمعه ممن أدرك تلك الفترة[١]. ولم ينسَ أن يكتب لنفسه ترجمة موجزة في سنة ولادته[٢] (٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م)، وشرع يكتب له مقدمة جديدة سماه فيها «المذيل على الروضتين»[٣].

وبينما كان أبو شامة غارقاً في أوراقه توفي ابنه الصغير إسماعيل في يوم الاثنين (٣) ربيع الآخر سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وليس له من العمر سوى سنة واحدة وشهرين ونصف، وبقلب قد تمرس بالصبر يصلي عليه أبو شامة خارج باب النصر،

(١) انظر ما كتبته عن «المذيل» ص ٤٠٩ ـ ٤١٧ من هذا الكتاب.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٣٦ ـ ١٥٣.

(٣) «المذيل»: ١/ ٥٦.

ثم يحمله نحو المقبرة ليدفنه إلى جانب إخوته محمد وزينب بمقبرة ابن زويزان المجاورة لمقبرة الصوفية[١]، حيث ترقد أختهم رقية[٢].

وما إن يستريح من أحزانه وأوجاعه حتى يعاود استئناف تدوين ما كان يجدُّ من الوقائع في مذيله، فهو لن يضع قلمه ما دام مداده من أنفاسه.



(١) «المذيل»: ٢/ ١٦٠.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٠٢.

الخليفة العباسي المخذول

انقضت نحو أربع سنين ونصف منذ سقوط بغداد، والناس بغير خليفة، إلى أن قدم مصر ناجياً من سيوف التتار أبو القاسم أحمد بن الظاهر محمد بن الناصر لدين الله، أخو الخليفة المستنصر، فعقد له مجلس عند قاضي القضاة في (١٣) رجب سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) بحضور الظاهر بيبرس، وقد جمع له الناس من العلماء والتجار، فلما أثبت نسبه عند قاضي القضاة بادر الظاهر بيبرس إلى مبايعته بالخلافة، وتبعه الناس، وقد غمرهم سرورٌ عظيم، وشكروا الله تعالى عود الخلافة العباسية بعد أن قطعها التتار بقتل الخليفة المستعصم[١].

وورد كتاب إلى دمشق بذلك في (١٩) رجب إلى قاضي قضاتها نجم الدين بن صدر الدين ابن سني الدولة، وقرئ بالمدرسة العادلية[٢].

وقد سعى الظاهر بيبرس إلى تثبيت الخلافة تقرباً من العامة، وليضفي الشرعية على حكمه في أوائل عهده أسوة بمن سبقه من الملوك والسلاطين، وقد كانوا يتلقون تقليد ولاياتهم من الخليفة.

فلما تمَّ له ذلك، وتلقى تقليد ولايته منه عزم على إعادة الخليفة الجديد إلى

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٦٢.

(٢) المصدر السالف.

بغداد، موطن آبائه وأجداده، ربما تخلصاً من قربه منه في القاهرة، وهو الذي لا يحتمل سلطة فوق سلطته، وربما إيماناً منه بوجوب استعادة بغداد، حاضرة الخلافة العباسية، فراح يهيئ جيشاً كبيراً يكون مع الخليفة عوناً له في استعادتها، حتى إذا تمَّ له ذلك خرج من القاهرة بعساكره، وبصحبته الخليفة، في يوم السبت (٦) شوال سنة[١] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وكان في موكبه نائب القاضي في القاهرة شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خَلِّكان[٢]، حتى إذا كان يوم الاثنين (٦) ذي القعدة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وصل الظاهر بيبرس إلى الكسوة ظاهر دمشق، بعد نحو شهر من مسيره من القاهرة، فخرجت عساكر دمشق وأهلها إلى استقبال سلطانهم الجديد، وخليفتهم الجديد، وكان يوماً مشهوداً، ملأ الفرح فيه قلوبهم[٣].

وعلى وقع هذا الاستقبال الحافل دخل الظاهر دمشق، ونزل بقلعتها، ونزل الخليفة بالتربة السلطانية الناصرية بجبل قاسيون[٤].

فلما كان يوم الجمعة (١٠) ذي القعدة توجه الخليفة إلى جامع دمشق، فدخله من باب البريد، وجاء بعده الظاهر بيبرس داخلاً من باب الزيادة، حيث جلسا في مقصورة الخطيب، مستمعين لخطبة الجمعة، ومقيمين لصلاتها، فلما خرجا بعد الصلاة من الجامع تجمع الناس حولهما يدعون لهما بالنصر والإعانة على قمع الكفرة وأعداء الدين[٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٦٠.

(٢) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ١٢٤، «وفيات الأعيان»: ٧/ ٤٠، مقدمة د. إحسان عباس.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٦٤، و«السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٦٠.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٦٤.

(٥) المصدر السالف.

كان الظاهر بيبرس قد عقد عزمه على أن يرسل مع الخليفة نحو عشرة آلاف فارس، وأن يكون أولاد صاحب الموصل في خدمته، وبينما كان يجيل خاطره في ذلك خلا به يوماً واحد من المقربين منه، وأشار عليه ألا ينفذ ما عزم عليه، إذ إن الخليفة إذا ما استقر في بغداد سينازع الظاهر في سلطانه، وسيخرجه من مصر، ووقعت هذه الكلمات في قلب الظاهر بيبرس موقعاً متمكناً، وربما أكدت له ما كانت هواجسه تحدثه به، ففتر عما عقد العزم عليه، وقرر أن يرسل مع الخليفة قوة صغيرة في نحو ثلاث مئة فارس[١]، وكأنَّه بذلك يحكم على الخليفة بالموت، إذ إنَّه لن يستطيع بهذا العدد القليل من الجند مهما تبلغ جرأته وشجاعته أن يقف في وجه جيش التتار، المنتشر في العراق.

والغريب حقاً أنَّ الخليفة قد قبل بما جاد عليه الظاهر من هذه القوة الصغيرة، وظن حقاً أنه سيعيد بها فتح بغداد، فخرج من دمشق في يوم الخميس (٢٣) ذي القعدة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) نحو العراق على طريق البرية[٢]، وركب السلطان الظاهر لوداعه الوداع الأخير[٣].

وفي الطريق انضم إلى الخليفة الأمير علي بن حذيفة من آل فضل بأربع مئة فارس من العرب، وكذلك انضم إليه نحو ستين مملوكاً من مماليك المواصلة، ولحق به الأمير عز الدين بركة من حماة في ثلاثين فارساً.

وسار الخليفة بقوته هذه حتى وصل إلى مشهد علي، فوجد فيها أميراً من بني العباس، هو أبو العباس أحمد، من أولاد المسترشد بالله، وقد اجتمع إليه سبع مئة فارس من التركمان، فالتقاه، ورغبه في اجتماع الكلمة على إقامة الدولة

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٦٢.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٦٥.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٦٢.

العباسية، فأجابه الأمير أبو العباس إلى ذلك، فسار معه، حتى وصلوا إلى هيت، فأقاموا بها[١].

وتسامع التتار بهم، وتنادوا لحربهم، وخرجوا إليهم في (٣) محرم سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) فما كانت إلا جولة حتى تبدد جيش الخليفة بين قتيل وأسير وهارب، أمَّا الخليفة فقد ضن التاريخ حتى بذكر مقتله، إذ فقد في المعركة، ولم يعرف له خبر[٢]، وكان من الهاربين الأمير أبو العباس أحمد[٣] الذي سينصبه الظاهر بيبرس من بعد خليفة في مصر، ويلقبه بالحاكم بأمر الله[٤].



(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٦٢-٤٦٣.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٦٧.

(٣) المصدر السالف.

(٤) كان تنصيبه خليفة في (٨) محرم سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٢م)، ولم يكن له من الخلافة إلا رسمها، انظر «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٧٧ - ٤٧٩.

تباشير عهد جديد
ابن خَلِّكان قاضي دمشق، وأبو شامة يخرج من عزلته

أقام الظاهر بيبرس في دمشق، وقد خلا باله من هم الخليفة، يدبر شؤونها، وأقر على نيابتها الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري[1].

وكان أهل دمشق قد ضجوا بالشكوى من قاضيها نجم الدين محمد بن صدر الدين أحمد ابن سني الدولة، ولم تقتصر شكواهم على ظلمه، وهو عام، بل تعداه إلى فسقه وخلاعته، وذكرهم فسقه بالقاضي الهالك رفيع الدين الجيلي[2]، وكانت الشكوى منه قد بلغت مسامع الظاهر بيبرس بالقاهرة، فعزم على عزله[3]، وبذل نجم الدين أموالاً جمة رشوة لكي يبقى في منصبه، فلم يستجب له[4]، وعزل يوم الخميس (٨) ذي الحجة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وألزم بالإقامة الجبرية، وولى الظاهر القضاء شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان، وكان قد

---

(١) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤٦٥.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٦٥.

(٣) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ١٢٤.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٦٦.

اصطحبه معه إلى دمشق ليوليه هذا المنصب[١]، بعد أن كان ينوب عن القاضي بالقاهرة سنين كثيرة[٢].

وجلس ابن خلكان بإيوان المدرسة العادلية الكبرى، حيث كان مجلس الحكم[٣]، وأُمر نجم الدين بالسفر إلى الديار المصرية، فخرج إليها معتقلاً يوم الخميس (١٥) ذي الحجة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وشيعه الناس بالدعاء عليه، فقد كان حاكماً فاجراً ظالماً متعدياً، فاستراح منه العباد والبلاد[٤].

وكما استُقبل هذا القاضي الفاسق بقصيدة هجاء وُدِّع بقصيدة هجاء، وقد أنشدها أبا شامة ناظمُها العماد بن داود الحموي، مشيراً للقاضي الجديد ابن خلكان بأنه شمس قد أحرقت نجماً، تفاؤلاً بعدله، يقول فيها:

نجمٌ أتاه ضِياءُ الشَّمْسِ فاحْتَرَقَا ... وراحَ من لُجَجِ الإدبار قد غَرِقا
ناحتْ عليه اللَّيالي وَهْي شامتةٌ ... وعرَّفَتْهُ صروفُ الدَّهرِ ما اختلقا
وحدَّثَتْه الأماني وَهْي كاذبةٌ ... بأنَّه لا يرى بعد النَّعيم شَقَا
وجادَ بالمال كي تبقى رياسَتُهُ ... وفَتَّقَ الشَّرْعَ والتَّقْوى وما رَتَقا
فجاءهُ سَهْمُ غَرْبٍ جَلَّ مُرْسِلُهُ ... فماتَ معنًى وما أخطاه مَنْ رَشَقَا
وأُلقيتْ في قلوبِ النَّاسِ بُغْضَتُهُ ... لكنَّهمْ قد غَدَوْا في ذَمِّهِ فِرَقا
فَفِرْقَةٌ بقبيحِ الظُّلْمِ تَذْكُرُهُ ... وفِرْقَةٌ حَلَفَتْ بالله قد فَسَقَا
وفِرْقَةٌ سَلَبَتْهُ ثَوْبَ عِصْمَتِهِ ... بأنَّه من رِبَاطِ الدِّين قد مَرَقا
وراح قَسْراً إلى مِصْرٍ على عَجَلٍ ... مُوافقاً للذي من قبله سَبَقَا[٥]

---

(١) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ١٢٤.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٦٥.

(٣) المصدر السالف، وانظر ص ٤٧ من هذا الكتاب.

(٤) المصدر السالف.

(٥) يشير بذلك إلى القاضي المعزول الذي سبقه إلى مصر محيي الدين ابن الزكي، انظر ص٢٦٥ من هذا الكتاب.

مفارقاً لنعيم كان مُنْغَمِساً فيه ولذَّةِ نومٍ بُدِّلَتْ أَرَقا[١]

ولا يبعد أن أبا شامة كان يهتز طرباً، وقد انفرجت أساريره، لمعاني هذه القصيدة، التي عبرت عما في نفسه تجاه هذا القاضي الفاسق، وطابت قريحته، فزاد في القصيدة بيتاً:

وفِرْقةٌ وصفته بالخلاعةِ مَعْ خُبْثٍ وكِبْرٍ فكلٌّ منهمُ صَدَقا[٢]

وتعني هذه القصيدة فيما تعني أنَّ الاستياء من القضاة الظلمة الفسقة قد بلغ نهايته، ولم يعد يطاق السكوت عنه.

وفي يوم الجمعة (١٦) ذي الحجة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) غداة سفر القاضي المعزول، قرئ بالشباك الكمالي بجامع دمشق، وأبو شامة حاضر، تقليد القضاء لابن خلكان، ويتضمن أنه فوض إليه الحكم في جميع بلاد الشام من العريش إلى سلمية، يستنيب فيها من يراه، وفوض إليه النظر في أوقاف جامع دمشق والمصالح والبيمارستان والمدارس وغيرها، مما كانت تحت الحاكم المعزول، وفوض إليه تدريس سبع مدارس كانت تحت يد الحاكم المعزول كذلك، وهي العذراوية والعادلية والناصرية والفلكية والركنية والإقبالية والبهنسية[٣].

وفي يوم السبت (١٧) ذي الحجة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) خرج الظاهر بيبرس من دمشق عائداً إلى مصر بعد أن اطمأن إلى ترتيب أمورها[٤].

❁ ❁ ❁

وارتاح أبو شامة كما ارتاح أهل دمشق بانقلاع القاضي نجم الدين، ولربما أحسَّ وهو يسمع تقليد ابن خلكان القضاء في الشباك الكمالي بجامع دمشق ببدء

(١) «المذيل»: ٢/ ١٦٦-١٦٧.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٦٧.

(٣) المصدر السالف.

(٤) المصدر السالف.

عهد جديد، ولربما عادت به ذاكرته إلى سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م) حين التقى ابن خلكان أول مرة بحلقة شيخه تقي الدين ابن الصلاح في دار الحديث الأشرفية[١]، وكان قد قدم دمشق في تلك السنة، وأقام بها عاماً واحداً، يقرأ فيها على الشيخ ابن الصلاح، ثم رجع بعدها إلى حلب[٢]، ومنها سافر إلى مصر، وأقام بها تلك السنين[٣] كلها حتى قدم الآن دمشق قاضياً لبلاد الشام.

ولعلَّ أبا شامة قد أمل به خيراً في إصلاح القضاء في هذا العهد الجديد، فلن تصلح حياة المسلمين ما دام قضاؤهم فاسداً، بل إنَّ فساد القضاء هو أس الفساد كله، ولا قوام للمجتمع إلا بقهر ملك وعدل قاض كما كتب مرة[٤]، قهر ملك يحفظ الأمن، ولم تعدم الأمة هؤلاء الملوك القاهرين، وعدل قاض يحفظ الحق، وقد طال انتظار الأمة وهي ترقب مجيء هؤلاء القضاة العادلين.

وما كان أبو شامة لينتظر في هذا العهد الجديد، وهو يؤمل فيه ما يؤمل، منصباً يعيد إليه اعتباره، وهو عالم دمشق الكبير، والفقيه الذي بلغ مرتبة الاجتهاد[٥] وهي مرتبة لم يبلغها أحد من معاصريه، لقد نفض يديه من المناصب كلها، وها هو يعيش في عزلته الهادئة مع أسرته، يزرع بستانه، ويفلح أرضه، ليتقوت من ثماره[٦]، بل إنَّه قد أصاب شيئاً من الثروة من عمله ذاك، وغدا بستانه، وقد اتسعت أرضه، في أيام الغلاء والشدة ملجأ للفقراء واليتامى يجدون في ثماره ما يعينهم على فقرهم ويتمهم[٧].

---

(١) انظر ص ٩٥ من هذا الكتاب.

(٢) «وفيات الأعيان»: ٧/ ٣٣ من مقدمة د. إحسان عباس.

(٣) «وفيات الأعيان»: ٧/ ٣٤ من مقدمة د. إحسان عباس.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٥٢.

(٥) «المذيل»: ١/ ١٤٥.

(٦) انظر ص١٩٠ من هذا الكتاب.

(٧) انظر ص٢٥١ من هذا الكتاب.

وها هو ذا قد قر عيناً أخيراً بتزويج ابنته فاطمة، وقد بلغت الثامنة والعشرين من عمرها[١] من عبد الرحمن بن محمد بن علي البكري[٢]، وهو من أسرة كريمة، كان والده قد قدم من مراكش في المغرب إلى دمشق[٣]، وجمعه بأبي شامة حب العلم.

* * *

وبدأ ابن خلكان مهام منصبه الجديد بالتعرف إلى علماء دمشق وأعيانها، وهو الغريب عنها، ليستعين بهم على مهامه الكثيرة، من تعيين نواب له لمراجعة الأحكام والفصل في القضايا، وضبط الأوقاف، ولتنصيب معيدين له في المدارس التي يتولاها[٤].

ويلتقي فيمن يلتقي أبا شامة، مفتي الشام والعدل الثبت بعد طول غياب، وكان ابن خلكان في نحو الواحدة والخمسين من عمره، وأبو شامة في الستين.

وبما عُرف عن أبي شامة من صدق اللهجة، والصدع بالحق يصارح القاضي ابن خلكان بما آلت إليه أحوال الأوقاف في دمشق[٥] من تبديد لأموالها، واختلاس لها، وتولية مناصب الإقراء والتدريس غير المؤهلين لها، ولربما باح له كيف أُبعد ظلماً عن مشيخة الإقراء في تربة أم الصالح، وعليه كان ينطبق شرط واقفها[٦]، إذ المناصب لم تعد تنال إلا بالتذلل والتملق لأولي الأمر، وبذل المال لهم، مما

---

(١) ولدت فاطمة في سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م)، انظر ص٩٤ من هذا الكتاب.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٧٢.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٢٠١.

(٤) «وفيات الأعيان»: ٧/ ٤٠ـ٤١ من مقدمة د. إحسان عباس.

(٥) أشار إلى ذلك في قصيدته الفلاحة الرائية، انظر «المذيل»: ٢/ ١٨٦.

(٦) انظر ص ١٣٥ ـ ١٣٨ من هذا الكتاب.

جعله ينأى بنفسه عنها، ويعتزل التدريس والتكسب من مال الوقف، قانعاً من دنياه بأرضه يفلحها ويزرعها، ويتقوت من ثمارها[١].

ولم تكن مواقف أبي شامة من القضاة الجائرين خافية على ابن خلكان، فقد كان يتناهى إلى سمعه منها أشياء، وهو في مصر، بل إن بعض الحاقدين على أبي شامة قد شوه بعض هذه المواقف زوراً وبهتاناً[٢].

وما كان أبو شامة يرمي من وراء هذا البوح أن يسند إليه ابن خلكان منصباً يتناسب ومنزلته العلمية، فهو محب للعزلة والانفراد، متجنب المزاحمة على المناصب، لا يؤثر على العافية والكفاية شيئاً[٣]، غير أن ابن خلكان ربما رغب حقاً في إنصافه، فعزم عليه أن يخرج من عزلته، ويتولى التدريس من جديد، ولربما قبل أبو شامة بعد تمنع ما عرضه عليه ابن خلكان، إظهاراً لحسن ظنه به، وهو يفتتح عهده الجديد، وهكذا عينه ابن خلكان نائباً عنه في المدرسة الركنية الجوانية[٤].

ونتساءل حقاً: لم اختار له ابن خلكان من المدارس التي تحت يده هذه المدرسة، وهي من أصغرها، ولم يعينه نائباً عنه في المدرسة العادلية، أو الناصرية، وهما من أكبرها؟ وهل شعر أبو شامة ببعض خيبة أمل وهو يتولى التدريس في هذه المدرسة؟ وهل كانت نفسه تتشوف لغيرها؟

ولربما فوجئ أبو شامة بابن خلكان، وهو يعين بدر الدين المراغي نائباً عنه في المدرسة العادلية[٥]، وهو يعرف المراغي متمكناً من علم الجدل والخلاف على

(١) انظر ص ١٨٩ ـ ١٩٠ من هذا الكتاب.

(٢) أشار إلى ذلك في قصيدته الفلاحة الرائية، انظر «المذيل»: ٢/ ١٨٦.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٩.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٦٨.

(٥) «وفيات الأعيان»: ٧/ ٤١ من مقدمة د. إحسان عباس.

اصطلاح المتأخرين، غير أنَّه قليل الدين، تارك للصلاة[١]، ويعين ابن خلكان على عمالة جامع دمشق وعمالة مخزن الأيتام شاباً حسن الصورة، هو العفيف بن أبي الفوارس[٢]، وفي دمشق من يفوقه حذقاً بهذه الصناعة[٣].

وفي يوم الأربعاء (١٢) محرم سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) يفتتح أبو شامة درسه الأول في المدرسة الركنية الجوانية، منهياً عزلة دامت نحو خمس سنين[٤]، وقد قرأ فيه من مختصر المزني، وكان الحضور فيه قليلاً اقتصر فيه على القاضي ابن خلكان وغيره، هكذا بصيغة الإبهام كما يسجل أبو شامة في تاريخه «المذيل على الروضتين»[٥]، وهو إبهام ربما يشي ببعض الانزعاج، فقد تعودنا في أمثال هذه المناسبات أن يحضر العلماء والأعيان، وأحياناً الأمراء.

ولربما في هذه الفترة، ولكي يكون قريباً من المدرسة الركنية يتخذ أبو شامة مسكناً له في حي من أحياء دمشق، هو دار العطافية، غربي المدرسة العادلية[٦].

❁ ❁ ❁

وتتلقى دمشق بقلب حزين خبر وفاة عالمها الجليل شيخ الإسلام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام في القاهرة يوم الأحد (١٠) جمادى الأولى سنة[٧] (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) بعد حياة حافلة بجهاد المستبدين والفاسدين، واحتشدت القاهرة لتشييعه بأمرائها وعلمائها وأعيانها وعامتها، حتى إن السلطان الظاهر بيبرس نزل من القلعة، وصلى عليه مع الناس بالقرافة[٨].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٧١.
(٢) «المذيل»: ٢/ ١٩٦.
(٣) أشار إلى ذلك في قصيدته الفلاحة الرائية، انظر «المذيل»: ٢/ ١٨٦.
(٤) انظر ص١٨٩ من هذا الكتاب.
(٥) «المذيل»: ٢/ ١٦٨.
(٦) «المذيل»: ٢/ ١٩٠.
(٧) «المذيل»: ٢/ ١٧٠-١٧١.
(٨) «المذيل»: ٢/ ١٧١.

وفي جامع التوبة بالعقيبة بدمشق ـ حيث كان ابنه يخطب ـ أُقيم عزاؤه يوم الاثنين (٢٥) جمادى الأولى[١]، وفي يوم الجمعة صُلِّيَ عليه صلاة الغائب في جامع دمشق وغيره من الجوامع بالشام، ويسمع أبو شامة، وهو في جامع دمشق، النصير المؤذن ينادي عقب الفراغ من صلاة الجمعة: الصلاة على الفقيه الإمام، شيخ الإسلام، عز الدين بن عبد السلام[٢].

ولربما عادت بأبي شامة ذاكرته، وهو يسمع نداء الصلاة عليه، إلى لقائه في صباه بالشيخ عز الدين في جامع دمشق في حلقة شيخه علم الدين السخاوي[٣]، ومصاحبته له في دمشق حتى إخراجه منها منفياً قبل نحو اثنتين وعشرين سنة[٤]، ولربما تساءل: من لهذه الأمة بشيخ يصدع بالحق كما كان الشيخ عز الدين يصدع، بعد أن سكتت ألسنة العلماء خوفاً وطمعاً؟..

ولربما خفف من حزنه على وفاة الشيخ عز الدين ما استقبله من خبر بعد نحو شهر، في ليلة الأحد آخر جمادى الآخرة سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) من ولادة أول حفيد له، هو سبطه الحسن بن عبد الرحمن بن محمد بن علي البكري من ابنته فاطمة، فيدعو الله أن يجعله مباركاً[٥].

وتتوالى الأيام، وهو في المدرسة الركنية يلقي فيها دروسه، ويختلف في بعض ساعاتها إلى المدرسة العادلية الكبرى، حيث يجلس وهو أحد العدول بإيوان مجلس الحكم، ويلتقي القاضي ابن خلكان، ويسائله أحياناً عن بعض الأخبار التي ترد من مصر لعلمه بخفاياها[٦].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٧٠ـ١٧١.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٧١.

(٣) انظر ص٢٥ من هذا الكتاب.

(٤) انظر ص١١٦ من هذا الكتاب.

(٥) «المذيل»: ٢/ ١٧٢.

(٦) انظر «المذيل»: ٢/ ١٧٣.

فزّاعة التتار
وخيبة أمل أبي شامة من إصلاح القضاء

وعلى الرغم مما كانت تعيشه دمشق من أمان في ظل هذا العهد الجديد، ظلَّ هاجس الخوف من التتار يسكن في أعماقها، فهم ما يزالون في العراق، ولا يفصلهم عن بلاد الشام سوى نهر الفرات.

وكثيراً ما كان يعكر أمنها ما ينتشر فيها من شائعات عن قرب عودتهم إليها، وبعض هذه الشائعات كان يتعاظم في الأخيلة الخائفة حتى يقارب الحقيقة. وهذا ما وقع حقاً في منتصف رمضان سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) إذ سرت بين الناس شائعة بقرب قدوم التتار، فجفل الناس من حمص وحماة وغيرهما إلى دمشق، وتجهز أهل دمشق للهرب منها إلى الديار المصرية، حتى إن الأمراء باعوا حواصلهم بما فيها حواصل القلعة[١]، وقد بلغ هذا الإرجاف بقدومهم مسامع السلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة، فكتب إلى نوابه برحيل أهل الشام عنها، حفظاً على حياتهم وأموالهم، وطلب منهم حراستهم في الطريق، وألا يؤخذ منهم أثناء خروجهم مكس ولا زكاة، ولا يتعرض لما معهم من متجر وغيره[٢].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٧٦.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٧٣.

واستغل نائب دمشق الأمير طيبرس الوزيري كتاب السلطان أسوأ استغلال وأبشعه لتحقيق مصالحه، ووجد فيه فرصة ذهبية للإثراء السريع[١]، فراح يلزم كبراء دمشق بالرحيل عنها بأهاليهم إلى مصر، ويضيق عليهم ليجبرهم على الخروج منها، ويلزم أرباب الدواوين والمتصرفين لهم بإرسال نسائهم إلى مصر، وبقائهم في خدمته في دمشق سواء في ذلك العاجز والقادر، ويلزم كذلك تجار الأسواق في القيسارية الفخرية والخواصين وغيرهما، بل إنه ألزم جماعة من صناع القواسين والفرايين، وحتى يوهم الناس أن أمر التتار جد لا هزل فيه ألزم كل من كان بينه وبين التتار علاقة بالخروج منها كرهاً، فأخرج فيمن أخرج القاضي كمال الدين التفليسي[٢].

ولحمل الناس على الخروج استعان طيبرس بالعرب البدو، فراح يضيق على أهل دمشق بالغلال، ويمكن العرب البدو من شرائها، وينشر بين الناس الشائعات بقرب قدومهم، فكان البدوي يجلب الجمل، ويبيعه بأضعاف ثمنه، ويشتري به الغلة بأرخص الأثمان، لأنَّ الناس متهافتون على شراء الجمال، فهم بين خائف يبيع حاصله ليتجهز بثمنه، وهو محتاج في سفره إلى الجمال، وبين من هو مكره على الخروج فهو مضطر له، حتى إن كراء جمل المحارة ـ وهو المجهز للسفر ـ قد بلغ من دمشق إلى مصر نحو مئتي درهم، وهو مبلغ كبير[٣].

حتى إذا كان منتصف شوال سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) تكامل استعداد الناس للخروج، فبدؤوا يرحلون عن دمشق، قافلة إثر قافلة، وفي الطريق، وكان الوقت حاراً، اشتد عليهم العطش لقلة الماء، وخرج عليهم قطاع الطرق والصليبيون، فخطف بعضهم، وجرح بعض[٤].

ووصلت أولى قوافلهم إلى مصر، وقد عانت من أهوال الطريق ما عانت، وبلغ

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٧٨.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٧٦.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٧٨.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٧٧.

الظاهر بيبرس ما وقع، فأرسل على الفور الأمير عز الدين الدمياطي للقبض على طيبرس، وإرساله مخفوراً إلى القاهرة.

ووصل الأمير عز الدين مع عسكره إلى دمشق في ثالث ذي القعدة سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) وبكر بالدخول إليها من عقبة شحورا[١]، وهناك تلقاه أمراء دمشق للسلام عليه، وفي مقدمتهم الأمير طيبرس الوزيري، فلما تقدم إليه ليسلم عليه، قبض الدمياطي بيدٍ عضد طيبرس، وبيده الأخرى سيفه، وأنزله عن فرسه، وأركبه بغلاً استهانة به، ثم قيده، وتركه بمصلى العيد، فلما جنَّ الليل سيره مخفوراً إلى القاهرة، وراح يستخرج أمواله التي انتزعها من الناس، وبقيت في دمشق، وكان طيبرس قد أرسل قسماً عظيماً منها مع العرب ليحفظوها له في مضاربهم[٢].

وناب عنه في دمشق الأمير علاء الدين أيدغدي الحاج الركني[٣].

❁ ❁ ❁

في غمرة هذه المظالم التي كانت دمشق تتلوى على جمرها، كان قاضيها الجديد ابن خلكان مشغولاً بنظم الشعر والدوبيت والمواليا[٤]، متغزلاً بالغلمان[٥]، وكان يقضي لياليه يتعاطى الحشيشة على إيقاع قرع الطبل مع العفيف بن أبي الفوارس، ذلك الشاب الجميل الذي يهتز بماء الشباب عُجْباً وسُكْراً على حدّ تعبير أبي شامة[٦]، ولك أن تتخيل ما يكون عليه متعاطي الحشيشة من مجون وخلاعة لا يليقان بمنصب القاضي، وما ينبغي له من حسن سمت وكمال عقل.

---

(١) بين الكسوة ودمشق، «ذيل مرآة الزمان»: ١/ ٤٨٩، هامش المطبوع.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٧٧-١٧٨.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٧٢.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٨٥.

(٥) «وفيات الأعيان»: ٧/ ٩١-١٠٧ من مقدمة د. إحسان عباس.

(٦) «المذيل»: ٢/ ١٨٦.

وكان القاضي ابن خلكان قد أطلق يد هذا الشاب في عمالة جامع دمشق ومخزن الأيتام[١]، بل إنَّ هذا الشاب قد غدا يتحكم بمجلس القضاء، فهو يحضره مع العدول الأثبات، وفيهم أبو شامة، فيعدل من يشاء، ويجرح من يشاء، والقاضي يصغي إليه، وهو عنده العدل الرضا، بل إنه يولي المناصب من يشاء، ويعزل من يشاء، مبعداً الشيوخ الكبار عن المناصب التي يستحقونها، وهم يشكون الفاقة والحرمان[٢].

وتعصف بأبي شامة سورة الغضب، وهو يرى آماله تتحطم على صخرة هذا الجور، وقد ظن أن دمشق قد تخلَّصت منه برحيل آخر القضاة الفاسدين نجم الدين بن صدر الدين، فيردد وقد خنقه اليأس:

كلَّما قلتُ دولةُ الحاكم الجا ئرِ زالتْ قامتْ علينا أخرى[٣]

وفي سورة غضبه هذه يتخلى أبو شامة عن حلمه واعتداله وإنصافه، ويترك لقلمه أن يطغى في وصف من عاصرهم من القضاة، ناعتاً إياهم بأنهم كلهم جهال وأوقاح[٤]، خالطاً بين صالحهم وطالحهم، لا يفرق بين من عرف بنزاهته واستقامته وورعه منهم كجمال الدين أبي القاسم عبد الصمد بن محمد ابن الحرستاني[٥]، وشمس الدين أحمد بن الخليل الخويي[٦]، وكان يكنُّ لهما في قلبه أعظم التقدير والاحترام، وبين من عرف منهم بفسقه وظلمه كرفيع الدين الجيلي[٧]،

(١) «المذيل»: ٢/ ١٩٦.
(٢) «المذيل»: ٢/ ١٨٦.
(٣) المصدر السالف.
(٤) «المذيل»: ٢/ ١٦٥.
(٥) «المذيل»: ١/ ٢٩١.
(٦) «المذيل»: ٢/ ٥٢.
(٧) «المذيل»: ٢/ ٦٣.

ونجم الدين بن صدر الدين ابن سني الدولة[١]، بل إنَّ منهم من تعرض لمحنة رقَّ لها قلب أبي شامة كالطاهر بن محيي الدين ابن الزكي[٢]، وكأنَّه بذلك يحمِّلهم جميعاً مسؤولية ما آل إليه حال القضاء من ظلم فادح وعدل مضيَّع، فيقول:

دمشقُ في عَصْرِنا مَعْ فَضْلها بُلِيَتْ   من القُضَاةِ بجُهَّالٍ وأوقاحِ
بأَعْجَمِيْنَ ومِصْريٍّ وصائغهم   وإرْبِلِيٍّ وخَيَّاطٍ وفلاحِ[٣]
هُمْ ضِعْفُ ستةَ والنُّوَّابُ كلُّهُمُ   ضعفانِ أحزانُهُمْ أضعافُ أفراحِ[٤]

ويقرر أبو شامة الاعتزال من جديد عن دنيا المناصب والتدريس، فلن يكون شاهداً على الظلم، أو مشاركاً فيه بصمته، فيترك التدريس بالمدرسة الركنية، عائداً إلى بستانه لفلاحته وزراعته[٥].

* * *

وبينما كان أبو شامة معتزلاً في بيته أتاه جماعة من أهل دمشق في يوم الثلاثاء (٨) ذي الحجة سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) يعرف بعضهم، ومعهم شيخ زعموا أنه نصراني، معروف ببيع اللحم بدمشق، وأنه رأى رؤيا، وأنه جاء مُسْلماً.

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٦٥.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣١٦-٣١٨.

(٣) الأعجمون: شمس الدين الخويي، ورفيع الدين الجيلي، وكمال الدين التفليسي.
المصري: جمال الدين يونس بن بدران.
الصائغ: هما الأخوان الطاهر ويحيى ابنا محيي الدين ابن الزكي.
الإربلي: هو شمس الدين ابن خَلِّكان.
الخياط: هم بنو سني الدولة: شمس الدين يحيى، وصدر الدين أحمد، ونجم الدين محمد.
الفلاح: هما أبو القاسم عبد الصمد ابن الحرستاني، وابنه عماد الدين عبد الكريم.
وبذلك تكتمل عدتهم اثني عشر قاضياً، وقد عاصرهم كلهم أبو شامة.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٦٥-١٦٦.

(٥) «المذيل»: ٢/ ١٨٢.

قال أبو شامة: فأخبرني أنه رأى النبي ﷺ ليلة الجمعة، جاءه ـ وكان مضطجعاً من أثر مرض ـ فقال له: قم واخرج من الضلالة إلى الهدى، ومُرَّ إلى أبي شامة، وأسلم على يده، وأخبره أن الملك الأشرف ـ يعني صاحب حمص ـ يملك بلاد سيس، ويهلك العدو بها[1]، وأنَّ صاحب مصر في السنة الآتية يهدم عكا ويملكها[2]، وتكون أنت تخدم مسجد صالح بها، ثم ارتفع ﷺ إلى نحو السماء، وهو في صورة لا أقدر أصفها، ولا أشبهها بقمر ولا شمس، هي أكمل من ذلك وأتم. فقلت: إلى أين يا رسول الله؟ قال: أسال ربي في الناس، ونصرهم على الكفرة، أو كما قال.

قال الرجل: فانتبهت، وبقيت في حيرة من أمري، فلما كان ليلة السبت رأيت مثل ذلك المنام، ثم ليلة الأحد كذلك، ثلاث ليال متوالية، ثم صممت على الدخول في الإسلام، فسألت عمن يقال له أبو شامة من المشايخ، فدلوني عليك.

قال أبو شامة: فأمرته بالإسلام، فأسلم، والحمد لله رب العالمين[3].

وفي أواخر ذي الحجة سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) قدم دمشق والياً عليها الأمير جمال الدين أقش النجيبي، ورحل علاء الدين الركني إلى مصر[4].



(١) لم يملك الأشرف موسى بن المنصور بلاد سيس، بل توفي في (١٠) صفر سنة (٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م) بحمص، انظر «المذيل»: ٢/ ١٩٣.

(٢) وكذلك لم يهدم الظاهر بيبرس عكا، ولم يملكها طوال سني حكمه، بل بقيت بيد الصليبيين حتى فتحها الأشرف خليل بن السلطان قلاوون سنة (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، فالله أعلم بصحة هذه الرؤيا.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٧٩ـ١٨٠.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٨٠.

أبو شامة يفضح فساد الأوقاف
ويدعو طالبَ العلم للعيش من كسب يده

في هدأة العزلة الجديدة، وبعد أن سكت عن أبي شامة الغضب، وسكنت نفسه، جلس بين أوراقه يتأمل تجربته في التعلم والتعليم من مال الوقف، منذ أن كان طالب علم في المدرسة العادلية الكبرى، حتى غدا مدرساً في مدارس الشافعية، ثم اعتزاله عنها فيما بعد، مستعرضاً في خياله من عاصرهم من القضاة، وهم المتولون عادة للأوقاف مع أمراء دمشق ونوابها، متوقفاً عند بعضهم ممن جعل الوقف مغنماً له، ولمن يلوذ به من المتزلفين، ولم يغب عن باله قط تلك المكيدة التي استبعدته عن مشيخة الإقراء في تربة أم الصالح، وقد اعتصم يومئذ بالصبر على ما لحقه من غبن، وأنف أن يتزلف لذوي الجاه والسلطان ممن بيدهم الأمر، وآثر الانصراف عنهم، منكباً على تآليفه الفقهية والتاريخية، يحررها بما عرف عنه من إحاطة وشمول واستقصاء لمسائلها وشواردها، قانعاً بالقليل يتبلَّغ به حفظاً لكرامته.

غير أنَّ فساد الأوقاف وصل إلى حد لا يمكن السكوت عنه، ولا سيما وهو المسيطر على نواحي التعليم كافة، حتى غدا طالب العلم أشبه بالأسير بين يدي المستولين عليه، لا يكاد يجد منهم فكاكاً، ولم يعد يستفيد من الوقف إلا ذلك المتملق لهم بالمديح الكاذب، والكلام المنافق، الساعي في حوائجهم، البائع دينه

بعرض من الدنيا قليل، أما العالم حقاً، المشغول بالعلم تدريساً ومدارسة فهو مجفو عن مال الوقف، لا يناله منهم إلا قوارص القول والهجران.

فكيف الخلاص من قبضة الذل والظلم هذه؟ وما هي سبيل العالم إلى حياة حرة عزيزة؟

لقد لاح لأبي شامة منذ سنين طريق الخلاص، وسار فيه حين آثر الابتعاد عن ذوي الجاه والسلطان والقضاة، ولم يطأطئ لهم رأسه، واعتزل في بستانه يفلح أرضه ويزرعها، ويتقوت من ثمارها، لقد ودع الفقر الذي كان يكابده مع أسرته، ووجد الفلاح في الفلاحة، فها هو بيته يفيض بالغلال والثمار، وبابه ملجأ لطالبي الصدقات من فقير وأرملة ويتيم، ويعاتبه المعاتبون على انقطاعه عن التدريس بالمدرسة الركنية، لقد ظن حين قبل التدريس بها أن الأمر قد تغير مع العهد الجديد، وأن القاضي ابن خلكان يسعى حقاً إلى إشاعة العدل وإزالة الظلم عن الناس، وكذلك كان أمله يتجدد مع كل قاض جديد، غير أن الأمل الوليد سرعان ما كان يخيب!..

ويبدو أن طريق خلاصه هو الطريق لكل العلماء، عليهم أن يسلكوه، ويتخذوا لأنفسهم حرفة يتعيَّشون منها، وتكون عوناً لهم على حفظ كرامتهم، وصون حريتهم من ابتذال المبتذلين، وظلم الباغين، وأي حرفة أحل كسباً من الفلاحة؟

فليطلقها صيحة ونصيحة لكل طالب علم أن يتحرر في رزقه من ذل السؤال، وأن يتخذ حرفة يعيش منها، فإن للعلم منزلة عظيمة، فعليه ألا يهينه بالاتكال في رزقه على مال الأوقاف، فهو مال لا يناله إلا شرير نذل جاهل، يلزم خدمة أكابر القوم متزلفاً لهم متملقاً، عاكفاً على إرضائهم بكل سبيل.

حقاً كان للأوقاف شأن كبير في نشر العلم والتعليم، أما الآن فقد تولاها قهراً ودون استحقاق جهال حمقى، فهم لا يقربون إليهم إلا من هو على شاكلتهم في الجهل والحمق، فيجعلونه في موضع الفقيه والمرشد، وأصحاب الأوقاف الذين

حبسوها يظنون أن ما يفعله هؤلاء هو عين الصواب، فيثنون عليهم، ويمدحونهم، فيزدادون تمادياً في ظلمهم، وهم يحسبون أن كل عالم هو على شاكلتهم، فيضيع الحق بين صاحب الوقف ومتوليه، أما طالب العلم حقاً فيقصى عنه، ويضيق عليه في الرزق، حتى يصبح من فقره ميتاً قد أسكن قبراً، وهم من قسوتهم لا يرقون لحاله، قد أسكرهم ضلالهم وظلمهم، فعماهم عن رؤية الحق.

فيا طالب العلم، عليك باتخاذ حرفة تعيش منها، وإياك أن تحتقرها وتتكبر عليها، وارضَ بما ترزق منها ولو كان قليلاً، واشكر الله على ما رزقك، فبالشكر تزيد النعم، واترك الأوقاف والمتولين لها، وتجنب أفعالهم الظالمة، وتوكل على الحي الذي لا يموت.

وكن أبياً يا طالب العلم، أما تأنف أن يكون عيشك مما يزري بك؟ فالأوقاف هي أوساخ الناس، كوقف المقعدين الزمنى، والعميان، والمساكين واليتامى، فكيف تطيب نفساً بالأخذ منها، وأنت لست منهم؟ فدع العجز والكسل أيها الأبي، فليس لك عذر في الأكل منها، فلا تزاحم المحتاجين إليها، وإن ألجأتك ضرورة إليها، فخذ منها كفافاً، بقدر ما تقيم به أودك، واعزم على أن لا تدوم على ذلك.

وإياك أن تظن أن مال الوقف يساعدك في طلب العلم، لقد نبغ في الأمة أئمة كبار قبل أن يشيع حبس الأوقاف، ويستقر نظاماً ثابتاً، له ديوان ومتولون، ولم يكن ذلك مانعاً لهم من طلب العلم والتفوق فيه.

فكن يا طالب العلم معطياً لا آخذاً، فيد المعطي هي الأعلى والأرفع قدراً.

ثم إن صدقات الأوقاف ينفر منها كل أبي، عزيز النفس، ولو أتته صفواً عفواً، بريئة من كل منة وأذى، فكيف لا ينفر منها من لا ينال النزر اليسير منها إلا بذل السؤال، وإراقة ماء المحيا؟

❁ ❁ ❁

والوقف لم يعد مجرد صدقات تعطى، بل صار منصباً، وهذا المنصب يباع

ويشرى، والقادر على شرائه ذلك الغني صاحب المال والجاه، وبذلك انتفت الغاية التي وقف لأجلها، بل انقلب نفعه إلى ضر، فصار تركه أروح للنفس وأطيب، إذ صار هذا المنصب يورث كالمتاع، من غير استحقاق له ولا أهلية، أما العالم المستحق له فهو يقضي حياته حيران أسفاً، يكابد عيشه بغيظ مكتوم.

وقد أعمى هؤلاء الأغنياء المستولين على الوقف حبُّ المال، فهم شرهون عليه، وتغريهم شراهتهم بالمزيد، فإذا كان الفقير يعذر حقاً بالأخذ منه، فما عذر هؤلاء الأغنياء؟

لقد رأيت منهم قضاة ومدرسين، تعجب لغناهم، يتنافسون فيما بينهم باللباس المطرز، والبغال البيض الفارهة، يركبونها زهواً وكبراً، مستشعرين عظمة في نفوسهم، ولو فكر الواحد منهم حقاً لعلم أنه إنما يعيش على صدقات الناس، ولو سماها تمويهاً باسم الأوقاف، ثم إن لهذه الأوقاف شروطاً، إذا لم يقم متوليها بحق شروطها، فهو يعرف ما ينتظره يوم القيامة من حساب وعذاب على تضييعها، فهل هؤلاء حقاً يقومون بشروطها؟

لقد رأيت في حياتي مدرسين وقضاة متولين لهذه الأوقاف، وهم لقلة علمهم قد اتخذهم الناس ضحكة يهزؤون منهم، بل إن بعض هؤلاء القضاة كان لا يحسن القراءة إذا قرأ، ويا لها من وصمة عار على أهل هذا العصر أن يلي القضاء فيهم من لا يحسن القراءة، أذكر منهم قاضياً كان يلثغ بالقاف، وآخر كان يلثغ بالراء، وهما من أماثل القضاة وأحسنهم، وقد أدركت من القضاة من خُلع عنه لباس القضاء، وأُلبس القباء ـ وهو لباس والي الشرطة ـ في مجلس الحكم، تهكماً به، وتشفياً منه، بل إن منهم من كان ذا لكنة أعجمية، لا يقيم لسانه بالعربية، ومنهم الفاسق الظالم الذي أُلقي من شاهق، فتقطع جسمه قطعاً، ومنهم من كاتب التتار، بل منهم من سار إليهم مثنياً مطرياً أفعالهم! ومنهم من ارتكب الفواحش والموبقات، وعتا واستكبر.

وها هو ذا القاضي الجديد يستغرق في نظم الشعر والدوبيت، وتقريب الشعراء في مجلسه، ويقضي لياليه وهو يتعاطى الحشيشة مع الشاب الجميل أبي الفوارس الذي يهتز بماء الشباب عجباً وسكراً، وقد ملك عليه قلبه، فهو يوليه المناصب، بينما يترك الأشياخ المستحقين لها يتضورون جوعاً وفقراً، بل إن هذا الشاب هو العدل الرضا في مجلس قضائه، يشهده مع الأثبات العدول، فيعدل من يشاء، ويجرح من يشاء.

وقد التفَّ حول هذا القاضي بنو علان وأولاد صصرى، وهم قوم سوء مغرضون، يزينون له زوراً وبهتاناً ما يخدم مصالحهم، والقاضي مصغ لأقوالهم، معتمد عليها.

أيها القاضي، هؤلاء ليسوا بناصحين لك، فاسأل سواهم تعرف الحق، ولست معذوراً باعتمادك على أقوالهم، بل إنك بذلك ترتكب إثماً عظيماً.

هؤلاء المغرضون شوهوا مواقفي عندك، وقد كنت حرباً على المفسدين، فما زلت متوقفاً في أمري، لم تنصفني وقد أنصفت غيري، وقد صارحتك بما كان مني، وبثثت شكواي لك، وحالي لم يتغير، ولذا عدت إلى حرفتي؛ زراعة أرضي، لأنَّ الحرفة أولى بأهل العلم والصلاح، ينأون بأنفسهم بها عن هذا الفساد العظيم.

* * *

حقاً، لقد قضيت زمناً من عمري أعيش على مال الموقف، غير أنني كنت غني النفس، آنف من صدقات مدارس الفقه، وأشبهها بوقف الأسرى، ولم أكن أزاحم عليها، وكم تمنيت ألا يكون رزقي منها، وها قد بارك الله لي في الفلاحة، فله الحمد على ما أنعم، فأنا اليوم بين العلماء أشرحهم صدراً، وأطيبهم عيشاً، ولذلك حسدني منهم من حسدني قائلاً: من أين لأبي شامة هذا المال؟ وكيف اغتنى؟ ألا يعلمون ـ ويحهم ـ أن الله تعالى هو الرزاق؟ فالموعد القيامة، فيا لخجلة هذا المغتاب الجريء، إنه الآن لا يبالي بما يقول، ولكنه غداً سيجزى على ما يقول.

فيا أيها المغتاب، إذا قلتَ إن أصل ثروتي من مال الوقف، فإن ذلك

لا يضرني، ولا يعيبني، لأنها حقاً كذلك، غير أنني تركت مال الوقف من بعد، واستغنيت عنه، وأنا ألوم فيمن ألوم ذلك العالم الذي قضى حياته يأكل من مال الوقف، وما زال مصراً على ذلك، ولم يفكر أبداً أن يتخذ حرفة يعيش منها، فهو عالة على الناس في معيشته.

أما أنا فقد صانني الله، فلم أزاحم أحداً على مناصبه، قانعاً بما أنا فيه، والله أسأل أن يلهمني الصبر بقية عمري، وأن لا يحوجني إلى هؤلاء المستبدين بالوقف، المستولين عليه، المستعبدين الناس قهراً، فترى المحتاج إليهم بين أيديهم أسيراً ذليلاً، وترى أقرب الناس إليهم ذلك المنافق المتملق.

ولا تظنن أن انتقاد هؤلاء بالأمر السهل، وهم أصحاب السلطان والجاه، فإن من يخالفهم محكوم عليه بالقتل، أما من يوافقهم فهو في الشر مثلهم سواء.

وأخيراً، ها قد بحت بما في نفسي، وانشرح صدري، فمن كان منصفاً عرف الحق، لأنَّ ما ذكرته أمر شائع، لا يخفى على أحد.

* * *

لقد كان أبو شامة يستشعر حقاً خطورة ما يفكر فيه، فإن في نقده لهؤلاء المستولين على الأوقاف، المستبدين به من قضاة ونواب وولاة، وفضحه لهم، وهم أصحاب الجاه والسلطان، يعرض نفسه لنقمتهم، وقد قال:

مَنْ يخالف يقضِ ومن وافَقَ القو م يكنْ مِثْلَهُمْ فَحَسْبُك شَرًّا

ولكي لا يكون في صمته مثلهم في الشر سواء، أمسك بقلمه، وبدأ ينظم هذه المعاني التي جالت طويلاً بخاطره، فكانت قصيدته الفلاحة الرائية[1]، ولم يقف قلمه حتى بلغت أبياتها مئة وثمانية أبيات، وقد آثر أن تكون خاتمتها مفتوحة، ليزيد فيها ما يجدُّ من أحداث، غير أن صارفاً صرفه عنها، فلم يفعل، وليته فعل.

---

(١) انظر القصيدة في «المذيل»: ٢/ ١٨٢-١٨٧، وسماها كذلك ص١٩٦ منه، وقد نثرت لك معانيها في هذا الفصل.

استرضاء أبي شامة
وتوليته مشيخة دار الحديث الأشرفية

أذاع أبو شامة قصيدته الفلاحة الرائية غير مبال ولا هيَّاب بمن يتصدى لمحاربتهم، وراح يقضي أيامه بين بستانه يزرعه، وبين بيته يعكف فيه على تآليفه، ويدون في «مذيله» وفاة من يتوفى من أهل دمشق ممن يعرفه من علمائها وأعيانها، وبعض عامتها، متغافلاً حقاً عما كان يقوم به السلطان الظاهر بيبرس من أعمال عسكرية ضد الصليبيين ولو بإشارة عابرة.

وكان الظاهر بيبرس قد خرج من القاهرة في (١١) ربيع الآخر سنة[١] (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م) محاولاً أخذ عكا عاصمة الصليبيين بعد فتح بيت المقدس، فحاصرها في أوائل جمادى الآخرة سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٣)، ووصلت عساكره إلى أبوابها[٢]، فلما امتنعت عليه سار عنها إلى الناصرة[٣]، وكان قد أمر بهدم كنيستها، فهدمت[٤]، ثم وافى بيت المقدس في يوم الخميس (١٧) جمادى الآخرة، فكشف أحواله، وما يحتاج إليه من العمارة، ونظر في الأوقاف، وكتب بحمايتها[٥]، ثم سار إلى

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٨٠.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٨٨.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٨٩.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٨٧.

(٥) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٤٩١.

الكرك، فنزل به يوم الخميس (٢٣) جمادى الآخرة، وتسلم قلعته في اليوم التالي، وصلى به الجمعة[١]، وكان قد قبض على صاحبه الملك المغيث بخديعة، استدرجه بها إلى الطور حيث كان ينزل في (١٢) جمادى الأولى سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م) متهماً إياه بمكاتبة التتار[٢]، متخلصاً بذلك من آخر ملك أيوبي قد يهدد سلطانه، ثم رحل عائداً إلى مصر يوم الأربعاء (٢٩) جمادى الآخرة سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م) فوصل إليها في (١٧) رجب، وقد زينت القاهرة أحسن زينة لاستقباله[٣].

ولربما لم يقطع عن أبي شامة سكون عزلته وهدوئها إلا ولادة مولود له يوم السبت في (٢٧) رمضان سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م) بدار العطافية، غربي المدرسة العادلية، فسماه محموداً، وكناه أبا القاسم، ولقبه بنور الدين، باسم السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي وكنيته ولقبه، عساه أن يكون مباركاً صالحاً عفيفاً تقياً كما كان سميه[٤]، فهل كان أبو شامة يعبر بحنينه إلى نور الدين عن استيائه من الظاهر بيبرس؟ وإذا كان قد افتقد هذا الاسم وصفاته في دنيا السلاطين والأمراء، فلا أقل من أن يسمع رنينه في بيته، عساه أن يعزيه بعض العزاء، إنه ما زال يحلم بحاكم يشبهه في ورعه وتقواه وحُسْن سياسته، فهل يتحقق ذات يوم ما يحلم به؟

لم يكن أبو شامة يرى في الظاهر بيبرس إلا أميراً طموحاً، تسنَّمَ الحكم على أشلاء المسلمين، وخاض في دمائهم، ألم يقتل السلطان تورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب غداة الانتصار على الصليبيين في المنصورة[٥]؟ ألم يكن في جملة من كان مع الأمير فارس الدين أقطاي الذي هتك أعراض المسلمين،

---

(١) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤٩١.

(٢) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤٨٢-٤٨٣.

(٣) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٤٩٢.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٩٠. وانظر ص٣٧٦ من هذا الكتاب.

(٥) انظر ص ١٦٣ ـ ١٦٥ من هذا الكتاب.

واستباح دماءهم وأموالهم[١]؟ ألم يقتل السلطان قطز عقب انتصاره على التتار في عين جالوت[٢]؟ أليس هو من المماليك البحرية الذين أذاقوا الناس ويلات ظلمهم[٣]؟

وإيغالاً في عزلته راح يعمق معانيها بما ينظمه من شعر، فقد نظم مرة يقول:

صانَ ربي عن التَّبَذُّلِ عِلْمي ... فله الحَمْدُ بُكرةً وأصيلا
لم يَشِنْ بالسؤال وَجْهيَ بل با ... رَكَ فيما أعطى فكان جزيلا
وغِنى النَّفْسِ والقناعةِ كَنْزا ... ن فكانا لِمَا ذكرتُ دليلا
كم رأينا مِنْ عالمٍ عَزَّ بالعِلْـ ... ـم وأضحى بالحِرْصِ منه ذليلا
احفظِ اللهَ وابْذُلِ الفَضْلَ تغنمْ ... من غِنى النَّفْسِ عِزَّةً وقَبُولا[٤]

وقال مرة:

أيا لائمي ما لي سوى البيت موضعُ ... أرى فيه عِزًّا إنَّه ليَ أَنْفَعُ
فِراشي ونِطْعي فَرْوتي فَرَجِيَّتي ... لِحافي وأَكْلي ما يَسُدُّ ويُشْبِعُ
ومَرْكوبيَ الآن الأتانُ ونَجْلُها ... لأخلاقِ أهل العلم والدِّين أَتْبَعُ
وقد يَسَّرَ اللهُ الكريمُ بفَضْلِهِ ... غِنى النَّفْسِ مَعْ شيءٍ به أتقَنَّعُ
أوفِّرُه للأَهْلِ خوفاً يَراهُمُ ... عدوٌّ بعيشٍ ضَيِّقٍ فَيُشَنِّعُ
وأَصْبِرُ في نَفْسي على ما ينوبُني ... وأطلبُ عَفْوَ الله فالعَفْو أوْسَعُ
وما دمتُ أرضى باليسيرِ فإنَّني ... غنيٌّ أرى هَوْلاً لغيريَ أَخْضَعُ
وربيَ قد آتانيَ الصَّبْرَ والغِنى ... عنِ النَّاسِ في هذا لي العِزُّ أجمعُ

---

(١) انظر ص١٨١ من هذا الكتاب.
(٢) انظر ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨، ٢٧٢ ـ ٢٧٣ من هذا الكتاب.
(٣) انظر ص ١٩٦، ١٩٩ ـ ٢٠٠، ٢٦٩ من هذا الكتاب.
(٤) «المذيل»: ٢/ ١٩١.

وقد مَرَّ من عُمْري ثلاثٌ أعدُّها وستونَ في رَوْضٍ من اللُّطْفِ أَرْتَعُ
ووجهيَ من ذُلِّ التبذُّلِ مُقْتِرٌ مُقِلٌّ ومن عِزِّ القناعةِ مُوْسِعُ
ومن حُسْنِ ظني أن ذا يستمرُّ لي إلى الموتِ إنَّ الله يُعْطي ويَمْنَعُ
وإنيَ لا ألجا إلى غير بابه فأبقى كما قد قيل والقولُ يُسْمَعُ
نرقِّعُ دُنْيانا بتمزيقِ ديننا فلا دينُنا يبقى ولا ما نرقِّعُ
فطوبى لعبدٍ آثرَ اللهَ رَبَّه وجادَ بدُنْياه لِمَا يتوقَّعُ[(١)]

* * *

وتشغر مشيخة دار الحديث الأشرفية بوفاة شيخها القاضي الخطيب عماد الدين عبد الكريم بن القاضي جمال الدين عبد الصمد بن محمد، المعروف بابن الحرستاني، وذلك بعد صلاة الصبح من يوم الأحد (٢٩) جمادى الأولى سنة (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م)، وكان قد ولي مشيختها عقب وفاة شيخها تقي الدين أبي عمرو عثمان بن الصلاح سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) واستمر بها إلى الآن. وصلى عليه بجامع دمشق قاضي القضاة ابن خلكان، وصلى عليه أبو شامة إماماً بظاهر البلد تحت القلعة خارج باب الفرج، وكان يوماً مشهوداً، حضر جنازته خلق كثير[(٢)].

ويراها القاضي ابن خلكان فرصة لاسترضاء أبي شامة، وإخراجه من عزلته من جديد، فيعرض عليه توليته مشيخة دار الحديث الأشرفية، وهو منصب يتعين له لموافقة أبي شامة لشرط واقفها في شيخها أن تجتمع فيه الرواية والدراية[(٣)].

ولعلَّ أبا شامة قَبِلَ توليه مشيختها لما تتيحه له من نشر علمه، مستغنياً في الوقت نفسه عن أوقافها، وهو الذي أخذ على نفسه ألا يقرب مال الوقف أبداً[(٤)].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٩٠ـ١٩١.
(٢) «المذيل»: ٢/ ١٩٥.
(٣) «منادمة الأطلال»: ص٢٥ـ٢٩.
(٤) انظر ص٣٠٥ ـ ٣٠٦ من هذا الكتاب.

ويعقد أبو شامة درسه الأول فيها، ويحضره قاضي القضاة ابن خلكان وأعيان البلد من المدرسين والمحدثين وغيرهم، ويفتتحه أبو شامة بخطبة كتابه «شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى» الذي شرح فيه حديث بعثته ﷺ. فيتكلم على سنده ومتنه، ويأتي بزيادات عما في كتابه، فيشد إليه الحاضرين بغزارة علمه، وحسن إيراده، فكان درساً جليلاً، ساده سكون وإخبات وجلالة، وإنصات من الحاضرين، ووقار من المستمعين كما وصفه أبو شامة من بعد[1].

وتهتز أريحة بعض الحاضرين من الأدباء، فيقوم عقب فراغ أبي شامة من إلقاء درسه، فيمدحه بأبيات، يقول فيها:

العِلْم والمعلوم قد أدركتَهُ وسماعَكَ البَحْرَ المحيطَ فَحَدِّثِ
وبُعِثْتَ في دار الحديث بمُعْجزٍ وأبانَ عنه لك افتتاحُ المَبْعَثِ
مَكَّنْتَ له الألبابُ طائعةَ النِّدا والحِسُّ من طَرَبٍ به لم يَمْكُثِ

وتنتشي نفس أبي شامة بالامتنان لما يسمع، فيسجل هذه الأبيات في «مذيله»[2]. لقد شعر حقاً أنه نال أخيراً بعض الوفاء الذي يستحقه، وها هو ذا يكرم بعد طول جحود، ولكن هل سيسكته المنصب الجديد عما يراه من ظلم وفساد؟



---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٩٦.

الظاهر بيبرس فاتحاً

ومرة أخرى يلوح خطر التتار من الشرق، فيهاجمون البيرة على الفرات، وقد أَمِنوا العساكر الإسلامية أن تخف لنجدتها، وهي متفرقة في البلاد وقت الربيع للاستجمام ورعي الخيول[1]، ويصل الخبر إلى الظاهر بيبرس بالقاهرة، فيبادر بإرسال العساكر إليها في (٤) ربيع الأول سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م) ثم يردفهم بعسكر آخر بعد نحو أربعة أيام[2]، ويشرع هو في تجهيز نفسه، ويخرج بعد نحو شهر على رأس العسكر في (٥) ربيع الآخر سنة[3] (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) وينزل على غزة في (٢٠) ربيع الآخر، ثم ينتقل منها إلى يبنى، وبينما هو في الحمام يغتسل يأتيه خبر انهزام التتار عن البيرة حين وصول العساكر إليها[4]، وكان أهلها قد صدوهم عنها، وفعل نساؤهم من حسن البلاء في قتالهم ما لم يفعله رجالهم[5].

وفرح الظاهر بيبرس بهذا الخبر، ولكي يؤيس التتار منها كتب إلى مصر والشام بحمل كل ما تحتاجه قلعتها من أسلحة ومجانيق وغلال تكفيها لمدة عشر سنين[6].

---

(١) «الروض الزاهر»: ص٢٢٢.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٥٢٤.

(٤) المصدر السالف.

(٥) «الروض الزاهر»: ص٢٢٥.

(٦) «الروض الزاهر»: ص٢٢٦.

ورأى الظاهر بيبرس أن يستغل اجتماع الجيش وقد هدأ باله من جهة التتار، ليستأنف فتوح صلاح الدين للبلاد التي استولى عليها الصليبيون بعد أن توقفت نحو أربع وسبعين سنة منذ وفاته، وقد انتهز فرصة اعتدائهم على المسلمين، فكتم عن جنده وجهته التي يريدها، وركب من العوجاء، متظاهراً برغبته في الصيد بغابة أرسوف، وأغرى الأمراء بمرافقته، قائلاً: إنَّ الغابة كثيرة السباع[١].

وساق إلى أرسوف وقيسارية، فشاهدهما، ثم عاد إلى منزله بالعوجاء، وكانت أخشاب المنجنيقات قد أحضرت، فأمر بصنع عدة مجانيق، ونصبها، وجلس مع الصناع يستحثهم على إنجازها، فما مضى يوم حتى كانت أربع منجنيقات كبار سوى الصغار قد اكتملت صنعاً، وكتب إلى القلاع المجاورة يطلب المجانيق والصناع والحجارين، وطلب من عساكره أن يعملوا سلالم[٢].

ورحل تعمية عن قصده إلى قرب عيون الأساور قرب الرملة، فلما انتشرت العتمة بعد العشاء الآخرة أمر العسكر كله بلبس آلة الحرب، وركب في آخر الليل، وساق نحو قيسارية، فوافاها بكرة نهار الخميس (٩) جمادى الأولى سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) على حين غفلة من أهلها، فحاصرها، وألقى العساكر أنفسهم في خندقها، وتعلقوا بسكك الحديد التي للخيول على أسوارها من كل جانب، حتى صعدوا إليها. وكانت المجانيق قد نصبت، وبدأ الرمي بها، فخرقوا أبواب المدينة واقتحموها، ففر الصليبيون إلى قلعتها، وقد أخذتهم المفاجأة، وكانت قلعتها من أحصن القلاع وأحسنها[٣]، فزحف إليها المسلمون، وقذفوها بالمجانيق والدبابات والزحافات، وداوموا رمي النشاب عليها.

وكان الظاهر بيبرس أثناء محاصرة القلعة لا يقيم في مكان، فهو تارة بأعلى

---

(١) «الروض الزاهر»: ص٢٢٩.
(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٢٦.
(٣) المصدر السالف.

الكنيسة تجاه القلعة ليمنع الصليبيين من الصعود إلى علو القلعة، وتارة يركب في بعض الدبابات ذوات العجل حتى يصل إلى السور، ويرى النقوب بنفسه، وتارة يأخذ ترساً في يده، ويقاتل فلا يرجع إلا وفي ترسه عدة سهام[١]، حتى انهارت معنويات الصليبيين من شدة القتال وتتابعه نحو ستة أيام.

فلما كان يوم الخميس (١٥) جمادى الأولى سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) استسلم الصليبيون، وسلموا القلعة بما فيها، فدخلها المسلمون، وطلع إليها السلطان الظاهر بيبرس، وكانت قيسارية هي أولى فتوحاته من الصليبيين، فباشر على الفور بهدمها[٢].

ويفرح أبو شامة بهذا الخبر السعيد، فيسارع إلى تدوينه في «مذيله» بقوله: «ثم خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر بعساكره، فنزل ببلاد الساحل، ونازل قلاع الفرنج، واستدعى بالرجال والآلات من دمشق وغيرها، وجاءنا الخبر بدمشق أنه دخل مدينة قيسارية ثالث ساعة من يوم الخميس ثامن جمادى الأولى، وهو يوم نزوله عليها، ثم تسلم القلعة يوم الخميس خامس عشره، وهدمها، وانتقل إلى غيرها»[٣].

وكان الظاهر بيبرس لما قارب الفراغ من هدم قيسارية بعث جماعة من عسكره، فهدموا قلعة للصليبيين عند الملوحة، وكانت عاتية عاصية، حتى دكوها دكاً[٤].

ثم سار في (٢٦) جمادى الأولى سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) إلى عثليث، وسيَّر بعض أمرائه إلى حيفا، فما إن وصلوا إليها حتى فر عنها الصليبيون إلى مراكبهم، فدخلها المسلمون، وقتلوا عدة منهم، وأسروا آخرين، وخربوا المدينة والقلعة، وأحرقوها في يوم واحد، ثم عادوا بالأسرى ورؤوس القتلى والغنائم سالمين[٥].

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٢٧.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٢٠٤.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٢٧.

(٥) المصدر السالف.

وكان السلطان الظاهر بيبرس قد وصل إلى عثليث، فأمر بتشعيثها، وقطع أشجارها، فقطعت كلها، وخربت أبنيتها في يوم واحد، وعاد إلى قيسارية، وكمَّل هدمها حتى لم يدع بها أثراً[١].

* * *

ثم رحل عنها في (٢٩) جمادى الأولى سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) دون أن يعرف أحد من عسكره قصده، فنزل على أرسوف في أول جمادى الآخرة، فحاصرها، وكانت مدينة منيعة، وقد اطمأن الصليبيون إلى مناعتها، فأعمل الحيلة في الاستيلاء عليها، فنقل إليها من الحطب كميات كبيرة حتى صارت حول المدينة كالجبال الشاهقة، وعمل فيها ستائر، ثم حفر سربين من خندق المدينة إلى خندق القلعة، وسقفه بالأخشاب، وعمل طريقاً بين الخندقين إلى القلعة، وردم الحطب في الخندق، غير أن الصليبيين اكتشفوا ذلك، فأحرقوا الحطب حتى صار رماداً.

فعاود السلطان العمل، فأمر بالحفر من باب السربين إلى البحر، وعمل مسروباً تحت الأرض يكون حائط خندق الصليبيين ساتراً له، وعمل في الحائط أبواباً يرمي التراب منها، وعمق المسروب حتى تساوت أرضه وأرض الخندق، وقد أحضر المهندسين حتى تم له ذلك، وكان يلازم العمل بيده في الحفر، وفي جر المنجنيقات ورمي التراب ونقل الأحجار أسوة بغيره من الناس، وكان يمشي بمفرده وفي يده ترس، يتنقل من مكان إلى آخر، فهو تارة في السرب، وتارة في الأبواب التي تفتح، وتارة على حافة البحر يرامي مركب الصليبيين، وتارة فوق الستائر يرمي منها، ولا يجرؤ أحد من العسكر أن ينظر إليه، أو يشير إليه بأصبعه[٢]، وقد رمى ذات يوم ثلاث مئة سهم، وحضر في يوم آخر إلى السرب، وقعد في رأسه خلف

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٢٨.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٢٨-٥٢٩.

طاقة يرمي منها، فخرج الصليبيون إليه بالرماح، وفيها خطاطيف ليجذبوه بها، فقام، وقاتلهم يداً بيد حتى قتل فارسين منهم[١].

وكان قد حضر في هذه الغزاة جمعٌ كبير من العباد والزهاد والفقهاء، وأصناف الناس، ولم يعهد فيها خمر ولا شيء من الفواحش، بل كانت النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال، ويعملن في جر المجانيق[٢].

حتى إذا أثرت المجانيق في هدم الأسوار، وفرغ من عمل الأسراب التي إلى جانب الخندق من الجهتين، وفتحت فيها أبواب متسعة، وقع الزحف إلى أرسوف[٣]، وذلك في يوم الخميس (٨) رجب سنة[٤] (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) فلم يشعر الصليبيون بالمسلمين إلا وقد تسلقوا الأسوار، ووقعت الباشورة، وطلعوا إلى القلعة، وحفت بها المقاتلة، وطرحت النيران في أبوابها، ورفعت الأعلام الإسلامية على الباشورة، ودفع السلطان الظاهر بيبرس سنجقه للأمير سنقر الرومي، وأمره أن يؤمن الصليبيين من القتل، فلما رآه الصليبيون كفوا عن القتال، وسُلِّم السنجق للأمير علم الدين سنجر المسروري، ودُلِّيت له الحبال من القلعة، فربطها في وسطه والسنجق معه، ورفع إليها، فدخلها، وأخذ سيوف الصليبيين، وربطهم بالحبال، وساقهم إلى السلطان، وهم ألوف[٥].

وأباح السلطان القلعة للناس، وكان بها من الغلال والذخائر والمال شيء كثير، ولم يتعرض لما فيها من الخيول والبغال إلا بما اشتراه من ماله، ووجد فيها عدة أسرى من المسلمين في القيود، فأطلقهم، وقيد الصليبيين بقيودهم[٦].

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٢٩.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «الروض الزاهر»: ص٢٣٨ـ٢٣٩.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٢٩.

(٥) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٢٩ـ٥٣٠.

(٦) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٣٠.

وشرع في هدم أرسوف، وعين جماعة من أسرى الصليبيين لهدم سورها، فهدم بأيديهم[1].



(١) «السلوك»: ج١/ق٢/ ٥٣٠.

ضيق أبي شامة من بعض تصرفات الظاهر بيبرس

أما وقد فرغ السلطان الظاهر بيبرس من أرسوف، أمر بكشف بلاد قيسارية، وعمل متحصلها، فعملت بذلك أوراق، وطلب قاضي قضاة دمشق ابن خلكان وعدوله، ووكيل بيت المال بها أن يحضروا إليه، وتقدم بأن يُملَّك الأمراء المجاهدون من البلاد التي فتحها ما عينه لهم[1]، وكتب لهم كتاب تمليك شرعي جامع، ثم نسخ منه نسخاً، فرقت على كل أمير نسخة، وخلع على قاضي دمشق، وعاد إلى بلده[2].

فهل كان أبو شامة في جملة العدول الذين ذهبوا مع القاضي ابن خلكان؟

ما نعرفه عن أبي شامة في تلك الفترة أنه كان يقرئ كتابه «المحقق من علم الأصول» في دار الحديث الأشرفية، وقد فرغ من إقرائه في يوم الثلاثاء (٤) جمادى الآخرة سنة[3] (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) والظاهر بيبرس ما يزال يحاصر أرسوف[4].

وكان الظاهر بيبرس قد كتب إلى مصر والشام بحمل كل ما تحتاجه قلعة البيرة من أسلحة ومجانيق وغلال تكفيها لمدة عشر سنين[5]، فكانت الغلال تحمل من

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٣٠.

(٢) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٣٤.

(٣) «المحقق من علم الأصول»: ص٣٢.

(٤) انظر ص٣١٦ من هذا الكتاب.

(٥) انظر ص٣١٣ من هذا الكتاب.

دمشق إلى البيرة، فلا ترى إلا قوافل حاملة، وركائب موسقة راحلة[1]، ويبدو أن دمشق قد ضاقت بما فرض عليها منها، فتلكأت بعض التلكؤ في إرسال بعضها، فكتب الظاهر بيبرس إلى نائبه فيها جمال الدين النجيبي يحثه على إرسالها، ويوبخه على تأخره، وكان قد تساهل مع أهل دمشق، فحين جاءه كتاب الظاهر بيبرس تخلى عن تساهله، وعزم عزمة الرجال، وحمل ما ملأ الأرض من الغلال على حد تعبير ابن عبد الظاهر المؤرخ[2]، ويبدو أن دمشق قد عانت من نقص غلالها، وقد مسَّ ذلك فلاحي دمشق، وأبو شامة واحد منهم، فهل كان لأبي شامة موقف من هذه الأعباء التي أثقلت كاهل دمشق؟ وهل رأى أن من الغبن أن تتحمل دمشق وحدها إطعام البيرة لمدة تكفيها عشر سنين؟ وهل رأى أن ما غنمه السلطان في أرسوف من غلال ـ وقد أباحه للناس ـ كان يمكن أن يفي ببعض حاجتها، ويخفف بعض العبء عن دمشق؟

أسئلة كثيرة تثار، ولا جواب عنها، ولعلنا نستشف ضيق أبي شامة مما جرى ويجري من خلال إيراده خبر فتح أرسوف في «مذيله»، فهو لم يذكر فيه اسم السلطان الظاهر كما فعل بخبر فتح قيسارية، بل إنه أغفله إغفالاً تاماً، وكأنه يتجاهله، ونسب النصر فيه للمسلمين عامة، فقال: «وفي ثالث عشر رجب جاءنا الخبر باستيلاء المسلمين على مدينة أرسوف عنوة، وقتل من كان بها من الفرنج، وأسرهم، واغتنام أموالهم، وضربت البشائر بذلك»[3].

ويرحل السلطان عن أرسوف بعد استكمال هدمها في يوم الاثنين (٢٣) رجب سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) إلى مصر، فيدخل القاهرة يوم الخميس (١١) شعبان سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م)، والأسرى بين يديه[4].

(١) «الروض الزاهر»: ص٢٢٨.
(٢) «الروض الزاهر»: ص٢٢٨.
(٣) «المذيل»: ٢/ ٢٠٦.
(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٣٤.

وفي شهر رمضان سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) يُشرع في دمشق في تبليط ما بين باب جامع دمشق الغربي إلى ناحية القناة المعروفة بباب البريد، ويُجدد في الصف القبلي من ذلك بركة وشاذروان[(١)]، ويكتب فوق الشاذروان اسم الملك الظاهر بيبرس، ونائب السلطنة جمال الدين النجيبي، ومتولي شرطة دمشق فخر الدين أياز الحراني[(٢)]، وكان في موضع البركة والشاذروان قناة يجري إليها الماء من نهر القنوات، فأزيلت[(٣)].

ويعبر أبو شامة عن ضيقه بهذه البركة والشاذروان، وقد حرم الناس بسببهما من تلك القناة التي كان يجري إليها الماء من نهر القنوات، فيكتب في «مذيله»: «وكان الناس ينتفعون به ـ أي من ماء نهر القنوات ـ زمان انقطاع نهر بانياس الذي منه ماء الجامع بدمشق»[(٤)].

فهل أعلن أبو شامة عن سخطه واستيائه من إنشاء البركة والشاذروان؟ وهل ضاق بما فرض من رسوم عليهما[(٥)]؟ لا ندري، ولكن ما ندريه حقاً أن الظاهر

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٢٠٩.

(٢) انظر الحاشية رقم (٥) من «المذيل على الروضتين»: ٢/ ٢٠٩ـ٢١٠ بتحقيقي، وكان فخر الدين قد تولى شرطة دمشق أول سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، «المذيل»: ٢/ ١٧٥.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٢٠٩ـ٢١٠.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٢٠٩ـ٢١٠.

(٥) أشار إلى فرض تلك الرسوم شافع بن علي في كتابه «حسن المناقب السرية في السيرة الظاهرية»، وهو مخطوط، لم أقف عليه، وإنما وقفت على هذا الخبر في كتاب «الظاهر بيبرس» للمستشرق بيتر توراو ص١٦٦، ٢٥٤، وقد أحال عليه.
غير أن هذا المستشرق خلط ما بين هذا الخبر، وما بين حاشية جاءت في نشرة الشيخ زاهد الكوثري للمذيل، ظنها من كلام أبي شامة، وهي ليست له، وقد خرج من ذلك باستنتاجات عجيبة!.. انظر كتاب «الظاهر بيبرس» ترجمة محمد جديد، طبعة قدمس للنشر، دمشق سنة ٢٠٠١ ط٢ ص١٦٦، ٢٥٤، وانظر تلك الحاشية رقم (٥) في طبعتنا للمذيل: ٢/ ٢٠٩ـ٢١٠.

بيبرس استدعى نائبه في دمشق الأمير جمال الدين النجيبي إلى القاهرة، فسافر إليها في ذي القعدة سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) ثم عاد إلى دمشق[١].

ولعل المنام الذي رآه برهان الدين إبراهيم أخو أبي شامة في بكرة يوم الجمعة (١٢) ذي الحجة سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) يكشف جانباً من هذا الموقف الغامض، فقد رأى إبراهيم فيما يرى النائم أنه جالس إلى جانب أخيه أبي شامة، وأبو شامة يكتب شيئاً ويقرؤه، فكان ما كتبه قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[٢][٣].

وإذا كان لنا أن نفهم الآية الكريمة بظاهر دلالتها، فإننا نحدس أن ما كان أبو شامة يستشعره من خطر، إنما هو من السلطان الظاهر بيبرس، تنزيلاً للآية على موسى عليه السلام، وهو يواجه فرعون، فهل كان أبو شامة حقاً على خطر من السلطان؟ وهل كان سفر الأمير جمال الدين النجيبي إلى القاهرة لجملة أمور، منها ما يتعلق بأبي شامة؟ ألا يدل المنام على أن أبا شامة كان خائفاً يترقب من أمر يقع عليه؟ ألا يدل على أنه كان يتوقع أذى يلحقه؟ وقد جاءته البشرى بأن لا سبيل للوصول إليه، إنه هو الغالب على كيد من يكيد له.

ولربما زيادة في التحدي يشرع أبو شامة عقب منام أخيه بإقراء «كتاب الروضتين» بدار الحديث الأشرفية، حتى يفرغ منه (٨) محرم سنة[٤] (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م).

❁ ❁ ❁

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٢١٠.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٢١١.

(٣) سورة القصص، الآية ٣٥.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

ابتداع الظاهر بيبرس نظام القضاة الأربعة
وموقف أبي شامة منه

وشعر الظاهر بيبرس أن سلطانه توطد، وقد دفع التتار عن البلاد، وصارت له الغلبة على الصليبيين، وانقاد له الأمراء، ولم يكن يزعجه في ظل سطوته إلا قاضي قضاة مصر الشافعي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز ـ وكان القضاء مقتصراً على الشافعية ـ فقد كان يلزمه ببعض الأحكام على مذهبه لم تكن تروق له، أو يرى فيها تشدداً لا يستسيغه، أو يتوقف في بعضها.

وكم جرت بينهما من مشادات في بعض الأحكام في دار العدل، آخرها ما جرى يوم الاثنين (١٢) ذي الحجة سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م)، وكان الأمير جمال الدين أيدغدي حاضراً، فقال للقاضي: مذهب الشافعي لك، ونولي من كل مذهب قاضياً. فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن نفذ ما قاله جمال الدين، وكأنه أمر بيّت بينهما بليل، فبعد أسبوع، وذلك يوم الاثنين (١٩) ذي الحجة سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) ولى السلطان الظاهر ثلاثة قضاة، هم: القاضي صدر الدين سليمان بن أبي العز الحنفي، والقاضي شرف الدين عمر بن عبد الله بن صالح السبكي المالكي، والقاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلي، ليكونوا قضاة القضاة بديار مصر إلى جانب القاضي الشافعي عبد الوهاب ابن بنت الأعز، وقد

أبقى عليه النظر في مال الأيتام[١]، وأن يستقل بتولية النواب بنواحي الوجهين القبلي والبحري، لا يشاركه فيه غيره[٢]. فصار من ذلك الوقت أربعة قضاة في مصر يحكم كل منهم بمذهبه.

فهل كان الظاهر حقاً منزعجاً من تشدد القاضي ابن بنت الأعز في أحكامه، وتوقفه في القضايا التي لا توافق مذهبه؟ وهل كان يستشعر حاجة الناس إلى قضاة من المذاهب الأخرى؟ وهل كان حقاً يريد أن يكسب بذلك النخب الدينية والفئات الشعبية بعد أن كسب النخب السياسية بإعادته الخلافة العباسية، وتمكنه من التتار والصليبيين كما يرى باحث معاصر[٣]؟

أسئلة تثار، ولعلنا نستطيع في البحث عن جوابها أن نقف على الدافع الحقيقي الذي كان وراء تعيين الظاهر بيبرس القضاة الأربعة، وبخاصة أنه شيء ما أظنه جرى في زمان سابق على حدِّ تعبير أبي شامة[٤].

لو كان انزعاجه منصباً على شخص القاضي لا على مذهبه لكان قد عزله، وأتى بقاض غيره أطوع له فيما يريد، وفي كلمة الأمير جمال الدين أيدغدي ما يوضح لنا أن الانزعاج كان لتفرد المذهب الشافعي بالحكم، ألم يقل له: مذهب الشافعي لك، ونولي من كل مذهب قاضياً؟ فالضيق كان من تحكم المذهب الشافعي في الفصل بين القضايا، ولربما في بعضها ما لا يرغب فيه السلطان، والذي يجعلنا نميل إلى هذا الرأي أن السلطان لم يكن يمانع في تحكم المذهب الشافعي حين

(١) «السلوك»: ج١/ق٢/٥٣٨ـ٥٤٠.

(٢) «صبح الأعشى»: ٤/ ٣٦.

(٣) قال ذلك د. رضوان السيد في مقاله: «الفقه والفقهاء والدولة، صراع الفقهاء على السلطة والسلطان في العصر المملوكي»، مجلة «الاجتهاد»، العدد الثالث، ربيع الأول سنة ١٩٨٩: ص١٣٦ـ١٣٧.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٢١٤.

يكون حكمه في صالحه، ولذلك أبقى للقاضي الشافعي النظر في مال الأيتام، لأنَّ الشافعي يوجب الزكاة على مالهم بخلاف المذهب الحنفي، مما يعود نفعه للسلطان وأولياء اليتيم(١).

ولم يكن الناس بحاجة إلى قضاة المذاهب الأخرى، لأن الكثرة الكاثرة منهم كانوا شافعية، وقلة منهم كانوا مالكية وحنفية، فكيف سيكسب الظاهر بيبرس تلك النخب الدينية والفئات الشعبية، وهو يعارض الشريحة الأكثر منها؟

وبرأيي أن الظاهر كان يسعى من وراء ذلك إلى التحرر من سلطة الفقهاء على اختلاف مذاهبهم، ولعلها السلطة الوحيدة القادرة أن تقف في وجهه، إذ يتيح له ذلك أن ينتقي من كل مذهب ما يوافقه من أحكام، وبذلك يتخلص من هيمنة مذهب واحد عليه.

ثم إن الفقهاء لم يكونوا على وئام فيما بينهم، وتعيين قضاة منهم سيزيد من خلافاتهم وخصوماتهم، ومن ثم تتبدَّد سلطتهم بما يحصل من تعصب كل فريق لمذهبه، وما يقع بينهم من فتن بسبب اختلاف الآراء والاجتهادات.

وقد أدرك ذلك بعض الفقهاء، ومن ثم عارض قراره بشدة فقهاء دمشق، وذلك حين أرسل إليهم في (٦) جمادى الأولى سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) عهوده الثلاثة لثلاثة قضاة، هم: شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الحنفي، وزين الدين عبد السلام الزواوي المالكي، وشمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر المقدسي الحنبلي، فلم يقبل المالكي والحنبلي، واعتذرا بالعجز، وقبل الحنفي لأنه كان نائباً لقاضي الشافعية، فأرسل الظاهر كتاباً من مصر بإلزامهما بذلك، وهددهما إن لم يقبلا بأخذ ما بأيديهما من الأوقاف، فلم يستجب له المالكي، وأشهد على نفسه بأنه عزل نفسه عن القضاء، وعن الأوقاف، ثم ورد الأمر بإلزامه،

---

(١) انظر كتاب «الأم» للإمام الشافعي: ٢/٢٨، و«فتح القدير» لابن الهمام: ١/٤٨٤، و«الفقه والفقهاء والدولة»: ص١٥٢.

فألزم مكرهاً، وقد اشترط المالكي والحنبلي ـ نأياً بأنفسهما عن السلطان ـ ألا يأخذا أجراً على القضاء، وقالا: نحن في كفاية. فأعفيا من ذلك[١].

ومن ثم نرى أن فقهاء دمشق لم يسارعوا إلى الاستجابة، بل قبلوا مكرهين تحت التهديد والوعيد، فأين ذلك من كسب هذه النخب الدينية؟

ثم إن عامة الشعب قد استرابت من هذا القرار، ولم تجد فيه تحقيقاً لعدالة، أو كشفاً لمظلمة، وعبر أحد ظرفاء دمشق عن استرابتهم هذه بقوله:

أهل دمشق استرابوا   من كثرة الحكام
إذ هم جميعاً شموس   وحالهم في ظلام[٢]

فأين ذلك من كسب الفئات الشعبية؟

أما أبو شامة، ذلك الفاضح لفساد القضاء، والقاضي واحد، فقد وجدها فرصة ليجدد حملته على القضاء والقضاة، ساخراً من اتفاق ألقابهم بشمس الدين بينما حال الناس من الظلم في ظلام، ولعله يريد انتقاد السلطان من وراء انتقادهم، ولذلك آثر إيراد أشعاره الساخرة بصيغة المبني للمجهول، فكتب في «مذيله»: «ومن العجيب اجتماع ثلاثة على ولاية قضاء القضاة في زمن واحد، وكل منهم لقبه شمس الدين، واتفق أن الشافعي منهم استناب أيضاً من لقبه شمس الدين، فقيل:

بدمشق آية قد   ظهرت للناس عاما
كلما ولي شمس   قاضياً زادت ظلاما

وقيل أيضاً:

قضاتنا كلهم شموس   ونحن في أكثف الظلام

وقيل أيضاً:

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٢١٤-٢١٥.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٢١٥.

أظلم الشام وقد ولي الحكم شموس
ليس فيهم من يبت الحكم علماً أو يسوس[1]

ولن يغفر الفقهاء من بعد للظاهر بيبرس ما صنع، فقد حُكي أنه رُئي في النوم بعد وفاته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: عذبني عذاباً شديداً بجعل القضاة أربعة، وقال: فرقت كلمة المسلمين[2].



(١) «المذيل»: ٢/ ٢١٥.

(٢) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٣٢١.

الظاهر بيبرس يفتح صفد ويرسل عسكراً إلى أرمينية لفتح سيس

لم يمضِ على إرسال الظاهر بيبرس عهوده لقضاة دمشق سوى نحو ثلاثة أشهر حتى هيأ أسبابه لاستئناف فتح القلاع والمدن التي استولى عليها الصليبيون، وكانت عينه هذه المرة على صفد، لقربها من الشام، ولما كانت تسببه لأهلها من الضيق والأذى[1].

فخرج من القاهرة بعساكره في مستهل شعبان سنة (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) كاتماً وجهته كعادته، وسار حتى وصل إلى قرب عكا، فبث عساكره للإغارة على طرابلس وصور وجبل عاملة وعثليث، حتى إذا فاءت العساكر إليه وقد امتلأت أيديهم بالغنائم تقدم نحو عكا، ووقف على تل الفضول، وكأنه يحاول حصارها، ثم سار عنها فجأة، ونزل على صفد يوم الاثنين (٨) رمضان سنة (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) وضرب الحصار حولها[2]، وكان قد استدعى المجانيق من دمشق، فوصلت إلى جسر يعقوب، وهو على منزلة من صفد، وقد عجزت الجمال عن حملها، فسارع الظاهر بيبرس إليها مع أمرائه وجنده لحملها على الرقاب إلى صفد، وكان الظاهر كواحد

---

(١) «الروض الزاهر»: ص٢٥٤.

(٢) «الروض الزاهر»: ص٢٥٣ـ٢٥٥، «السلوك»: ج١/ق٢/ ٥٤٥.

منهم، فقد باشر بنفسه جر الأخشاب مع البقر دون سأم أو تعب إلى أن نصبت المجانيق، وبدأ الرمي بها في (٢٦) رمضان، والظاهر يلازم الوقوف عندها، وهي ترمي، وكانت العساكر تأتيه من مصر والشام، فينزلهم في منازلهم، حتى إذا كانت ليلة عيد الفطر خرج الأمير بدر الدين الأيدمري للتهنئة بالعيد، فوقع حجر على رأسه، فرسم الظاهر ألا يجتمع أحد لسلام العيد، ولا يبرح أحد مكانه خشية انتهاز العدو غرة العسكر، ونودي يوم عيد الفطر في الناس: من شرب خمراً أو جلبها شُنق[١].

وكان قد وصل جماعة من الصلحاء والفقهاء للاشتراك في فتح صفد، فيهم قاضي قضاة الحنابلة بدمشق شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر المقدسي[٢].

وما إن أطل ثاني أيام العيد (٢) شوال سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) حتى زحف المسلمون إلى أسوار صفد، ووقع بينهم وبين الصليبيين قتال عظيم، استشهد فيه جماعة، ونصب الظاهر مشفى في خيمة، فيها حكماء، وجرائحية وأشربة ومآكل، فصار من يجرح من المقاتلة والفقهاء يداوى بها[٣].

وبقي القتال مستعراً عند أسوار صفد، حتى إذا كان يوم (١٤) شوال اشتد الزحف من الليل إلى وقت الظهيرة، واستبسل الصلحاء والفقهاء في القتال، وأدرك الأجناد التعب، فتفرقوا إلى خيامهم للاستراحة، فغضب الظاهر من ذلك، وأمر خواصه بإقامة الأمراء والأجناد إلى القتال بالدبابيس، وقال: المسلمون على هذه الصورة من القتال وأنتم تستريحون! وقبض السلطان على نيف وأربعين أميراً وقيدهم وسجنهم، ثم شُفِّع فيهم فأطلقهم، وأمرهم بملازمة مواضعهم[٤].

---

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٤٦.

(٢) «الروض الزاهر»: ص٢٥٨.

(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٤٦.

(٤) «الروض الزاهر»: ص٢٥٩، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٤٧.

فاشتد القتال إلى أن أُلجئ الصليبيون لطلب الأمان يوم الجمعة (١٨) شوال سنة (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) فأمَّنهم الظاهر على ألا يخرجوا بسلاح ولا لأمة حرب، ولا شيء من الفضيات، ولا يتلفوا شيئاً من ذخائر القلعة بنار ولا هدم، وأن يُفتشوا عند خروجهم، فإن وجد مع أحد منهم شيء من ذلك انتقض الأمان[١]، فوافق الصليبيون على هذه الشروط، وسلموا صفد بعد صلاة الجمعة (١٨) شوال[٢]، فطلعت السناجق الإسلامية على أسوارها، وكان لطلوعها ساعة مشهودة، وركب الظاهر بيبرس، ووقف على باب صفد، ونزل الصليبيون كلهم منها، ووقفوا بين يديه، فرسم بتفتيشهم، فوجد معهم ما يناقض الأمان من السلاح والفضيات، ووجد معهم عدة من أسرى المسلمين أخرجوهم على أنهم نصارى، فأخذ ما وجد معهم، وأنزلوا عن خيولهم، وجعلوا في خيمة كبيرة، وأقام من يحرسهم[٣].

وولى السلطان نيابة صفد الأمير عز الدين العلائي، وولى قلعتها الأمير مجد الدين الطوري[٤].

ولما أصبح الظاهر يوم السبت (١٩) شوال حضر إليه الناس، فشكر لهم اجتهادهم في القتال، واعتذر عما بدر منه تجاه بعضهم، وأنه ما قصد إلا حثهم على هذا الفتح العظيم[٥].

وأُحضرت خيالة الصليبيين وجميع من أخرج من صفد، فسيقوا إلى تل قريب

---

(١) «الروض الزاهر»: ص٢٦٠، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٤٧.

(٢) «الروض الزاهر»: ص٢٦١.

(٣) «الروض الزاهر»: ص٢٦١، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٤٧.

(٤) «الروض الزاهر»: ص٢٦١.

(٥) «الروض الزاهر»: ص٢٦١-٢٦٢.

حيث ضربت أعناقهم[١]، ولم ينج منهم سوى رجلين، أحدهما رسول اختار أن يقيم عند السلطان ويُسْلم، والآخر ترك كي يخبر الصليبيين بما شاهده[٢].

وصعد السلطان إلى قلعة صفد، واستدعى الرجال من دمشق للإقامة فيها[٣]، وحين اطمأن إلى أمرها رحل عنها في (٢٧) شوال سنة (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) إلى دمشق، فنزل بالجسورة، وأمر عسكره بالإقامة فيها، ودخل دمشق مع نفر قليل من فرسانه.

وعين الملك المنصور صاحب حماة مقدماً على عساكره، وفيهم الأميران عز الدين أوغان وقلاوون، وأمره بالتوجه إلى سيس عاصمة أرمينية الصغرى، للانتقام من ملكها هيثوم لتحالفه مع التتار ضد المسلمين، فسار إليها المنصور في (٥) ذي القعدة سنة[٤] (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م).

وتقرباً من دمشق أنعم الظاهر على أمرائها وقضاتها وأرباب مناصبها بالتشاريف، ونظر في أمر جامع دمشق، ومنع الفقراء من المبيت فيه، وأخرج ما كان به من الصناديق التي كانت للناس، وأبطل ضمان الحشيشة، وأمر بتأديب من يأكلها[٥].

❁ ❁ ❁

وسارت عساكر الظاهر بيبرس بقيادة الملك المنصور صاحب حماة تشق طريقها نحو أرمينية الصغرى، حتى وصلت إلى حصن دربساك، ودخلت الدربند، وكان هيثوم

---

(١) هل كان الظاهر بيبرس يثأر لقتل الأسرى المسلمين عقب سقوط عكا سنة (٥٨٧هـ/ ١١٩١م)؟ انظر «كتاب الروضتين»: ٤/ ٢٦٨ـ٢٦٩.

(٢) «الروض الزاهر»: ص٢٦٢.

(٣) «الروض الزاهر»: ص٢٦٣.

(٤) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٤٩.

(٥) «الروض الزاهر»: ص٢٦٣ـ٢٦٤، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٤٩.

ملك الأرمن قد بنى في رؤوس الجبال أبراجاً ظن أنها مانعته من المسلمين[١]، وفي يوم الثلاثاء (٢٠) ذي القعدة سنة[٢] (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) دارت رحى حرب طاحنة بين العسكرين، أسفرت عن هزيمة هيثوم، ووقوع ابنه ووريث عرشه ليو في الأسر، وقتل بعض أقاربه، واستيلاء المسلمين على سيس وتخريبها[٣].

وسار الأمير أوغان إلى جهة الروم السلاجقة المتحالفين مع التتار، والأمير قلاوون إلى المصيصة وأذنة وإياس وطرسوس، فقتلوا وأسروا وهدموا عدة قلاع، منها قلعة حصينة للديوية، ثم رجعوا إلى الملك المنصور في سيس حيث كان يقيم، وقد اجتمع معهم من الغنائم ما لا يعد ولا يحصى[٤].

وجاء السلطان المبشرُ في فتح سيس، وهو يصيد بجرود، فرحل على الفور إلى دمشق، وأخذ يتجهز للقاء عسكره العائدين[٥].

وفي بكرة الاثنين (٢٦) ذي القعدة قرئ بجامع دمشق كتاب الفتح، وكان أبو شامة حاضراً، ففرح بهذا النصر العظيم، وسارع إلى «مذيله» يكتب فيه عن ملك الأرمن: «وكان هذا الملعون قد فتك في المسلمين، وظاهر عليهم العدو من التاتار ـ خذلهم الله ـ مراراً، وعمل في حلب لما فتحها التاتار أموراً منكرة، واستولى على أكثر نسائها وأطفالها أسراً، ونقلهم إلى بلاد الفرنج والروم براً وبحراً تحت الذل والصَّغار، فأمكن الله تعالى منه ومن بلاده، وأخذ بثأر الإسلام، ولله الحمد والشكر»[٦].

* * *

(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٥١ـ٥٥٢.
(٢) «المذيل»: ٢/ ٢١٩.
(٣) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٥٢.
(٤) المصدر السالف.
(٥) المصدر السالف.
(٦) «المذيل»: ٢/ ٢١٩.

وخرج الظاهر بيبرس من دمشق في أوائل ذي الحجة سنة (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) للقاء العسكر، وفي طريقه مرَّ بقارا في ثالث ذي الحجة، وكان قد شُكي إليه من أهلها، وهم نصارى، أنهم يتعدون على أهل الضياع، ويبيعون من يقع إليهم إلى الصليبيين بحصن عكا، وكان بعض الأسرى الذي خلصوا من صفد قد أخبروا أن سبب أسرهم أهل قارا، فأمر السلطان الظاهر بيبرس العسكر بنهبهم، فنهبوا، وقتل كبارهم، وسبى النساء والأولاد[١].

ثم تابع طريقه حتى وصل إلى حماة، فعيد فيها عيد الأضحى المبارك، ثم سار منها إلى أفامية، فأقام بها نحو يومين، ثم رحل عنها إلى لقاء العسكر في (١٣) ذي الحجة، فالتقاهم، وقدموا له نصيبه من الغنائم، ففرق الجميع بين عسكره[٢].

ورجع إلى دمشق في (٢٤) ذي الحجة، فدخلها، وبين يديه ليو بن هيثوم، وكان يوماً مشهوداً، فقد مرت به العساكر الإسلامية، ومعهم الأسرى والغنائم، وخلع السلطان على الأمراء والأجناد، وامتلأت دمشق بالمكاسب، وأبيع من الجواهر والحلي والرقيق والحرير ما لا يحصى كثرة، ولم يتعرض السلطان لشيء من ذلك[٣].

وأقام الظاهر بدمشق نحو أسبوع حتى كان يوم الاثنين (٢) محرم سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) خرج بعساكره عائداً إلى القاهرة[٤]. وفي طريق عودته وصل إلى الفوار، فأقام فيه معسكره، ثم سار مع بعض فرسانه إلى الكرك، ونزل على بركة زيزي، وبينما كان يتصيد تقطر عن فرسه في (٨) محرم، فاضطر إلى البقاء أياماً حتى يتماثل للشفاء[٥]. ثم سافر في محفة على أعناق الأمراء والخواص إلى غزة، ومنها

(١) «المذيل»: ٢/ ٢١٩-٢٢٠، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٥٢-٥٥٣.
(٢) «الروض الزاهر»: ص٢٧١.
(٣) «المذيل»: ٢/ ٢٢٠، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٥٣.
(٤) «الروض الزاهر»: ص٢٧١.
(٥) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٥٥.

سار إلى بلبيس، فتلقاه ابنه بركة في (٣) صفر سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) ومعه الأمير عز الدين الحلي، وزينت القاهرة، ولم يزل السلطان موعوكاً من أثر هذه الحادثة حتى غرة شهر ربيع الأول سنة[١] (٦٦٥هـ، ١٢٦٦م).

فهل رقَّ قلب أبي شامة لما وقع للسلطان، فكتب وهو يدون في «مذيله» خبر رجوعه إلى مصر بإيجاز، قائلاً في آخره: «سلمه الله تعالى»[٢]؟ هل بدأ أبو شامة يميل حقاً إلى هذا السلطان الجديد وهو يرى فتوحه للبلاد التي استولى عليها الصليبيون، ودفاعه عن المسلمين ضد التتار ومن يتعاون معهم؟



(١) «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٥٥.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٢٢٠.

محنة أبـي شـامـة

لعلَّ أبا شامة قد شعر بشيء من الرضا، وهو يقضي أيامه في دار الحديث الأشرفية، وقد تصدر لمشيختها، ومع أوراقه وهو يكتب فيها فتاويه عما يرد إليه من أسئلة، وهو مفتي الشام.

وكانت قصيدته الفلاحة الرائية قد أثارت عليه عداوة القضاة والعلماء، وكل من له صلة بالأوقاف، فراحوا يتربصون به، ولربما زاد من عداوتهم له استمراره في الحملة عليهم، وها هو الآن ينبز القضاة الجدد بالجهل والظلم، إذ ليس فيهم من يبت الحكم علماً أو يسوس[1]، ساخراً منهم ومن ألقابهم التي أضافوها إلى الشمس، وهم ظالمون مظلمون في أحكامهم[2].

ولم يكن أبو شامة يأبه حقاً لما يثيرونه ضده من عداوة، فهو مطمئن إلى أن ما يقوم به إنما هو حق العلم عليه، أن ينصح للأمة، ويصدع بالحق، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، وقد توكل على الله، فهو حسبه من كيد الكائدين.

ولربما يدل على رضاه واطمئنانه تلك المنامات التي رئيت له في هذه الأيام، وقد سطرها في «مذيله»، فهو تارة في ثياب بيض، أو في دار واسعة مبيضة، أو في بستان كبير، في وسطه بركة ماء مد البصر، تنبع من عين فيه.

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٢١٥.

(٢) المصدر السالف.

فقد رأى ضياء الدين عبد الرحمن بن الجمال عبد الكافي فيما يرى النائم في ليلة (١٤) ربيع الآخر سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) كأن شخصاً معروفاً يقرئ في إيوان شيئاً من التصريف، وحوله جماعة، ثم جاء آخر، فقعد يقرئ جماعة بحذائه، وانصرف من عند الأول بعض جماعته إلى الثاني، فبينا هم كذلك إذ أشرف عليهم أبو شامة من طاقة في أعلى حائط ذلك الإيوان، وعليه ثياب بيض من صوف، والعمامة كذلك، وفوقها شيء مسبل عليها وقاية لها كصورة ما يفعله من يجعل على عمامته منديلاً أو نحوه لأجل مطر أو حَرّ، فلما أشرف عليهم أبو شامة بغتة من حيث لم يكونوا يتوقعون ذلك، قال أبو شامة: قال رسول الله ﷺ، فذكر حديثاً، نسيه ضياء الدين، قال: فبكى القوم، وبكى أبو شامة، فقال قائل من الجماعة: في فضائل رجب، أي أسمعنا في فضائل رجب. ثم انتبه ضياء الدين من النوم[١].

وقد عبَّر أبو شامة هذه الرؤيا لضياء الدين بعد أن قصها عليه بأنه شيء يحدث من الخير إن شاء الله في رجب هذه السنة، لقرينة فضل رجب، وذكر النبي ﷺ، واتعاظ الجماعة، والبكاء يؤوَّل بالفرح والسرور من ذلك الأمر، بتوفيق الله تعالى[٢].

ثم رأته امرأة ـ لم يسمّها ـ فيما يرى النائم كأن لأبي شامة داراً واسعة كبيرة مبيضة، وزواياها ملأى من الخبز المثلث بعضه فوق بعض[٣].

ويرى أخوه إبراهيم فيما يرى النائم كأن لأبي شامة بستاناً كبيراً، وفيه عين ماء، في وسطه بركة مد البصر، فيقول ليوسف: ـ ولعله أحد العاملين في بستان أبي شامة ـ افتح الماء، فقتح، فجرى فيها أنابيب[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٢٢٢ـ٢٢٣.
(٢) «المذيل»: ٢/ ٢٢٣.
(٣) المصدر السالف.
(٤) المصدر السالف.

ولربما يدل على ما كان يشعر به أبو شامة من اطمئنان، وأنه لم يكن يلتفت لعداوة من عاداه اتخاذه منزلاً له في محلة طواحين الأشنان خارج باب توما في آخر المعمور[١]، وهو مكان مخوف موحش في تلك الأيام التي لا أمان فيها إلا لمن يسكن داخل الأسوار، ولربما كان يقيم في ذلك البيت وحده، عاكفاً فيه على تصانيفه وقراءاته، بعيداً عن صخب أطفاله الصغار في بيته بدار العطافية غربي المدرسة العادلية الكبرى، ولم يكن أبو شامة يدري أن ثمة من يترصد له للإيقاع به.

فبينما كان في يوم السبت السابع من جمادى الآخرة سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) في بيته بطواحين الأشنان، إذ طرق عليه طارق، فإذا هما رجلان يريدان أن يستفتياه في فتوى، فما إن فتح لهما الباب ودخلا حتى انهالا عليه ضرباً مبرحاً كاد يتلف منه[٢]، ولربما حاولا خنقه[٣]، حتى إذا همد وظنا أنهما قتلاه، غادرا البيت خفية دون أن يدري بهما أحد، أو يحس بهما أحد[٤].

وبعد رحيلهما ثاب إلى أبي شامة وعيه، واستطاع أن يتماسك، وأن ينهض.

وعلم من حوله من الأصحاب بالأمر، وهالهم حقاً ما جرى له، فقالوا له: إن ما جرى أمر عظيم لا ينبغي السكوت عنه، فقم إلى ولاة الأمر، واشكُ إليهم ما وقع لك كي ينصفوك، ويأخذوا حقك ممن اعتدى عليك. غير أن أبا شامة كان قد عقد مع الله عقداً، أن يصبر على ما يصيبه من بلاء، وأن يتوكل عليه، فهو حسبه.

ويدون أبو شامة في «مذيله» ما جرى له، فيكتب: «وفي سابع جمادى الآخرة

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٢٠٤، «الوافي بالوفيات»: ١٨/ ١١٥، «فوات الوفيات»: ٢/ ٢٧١.

(٢) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣٣٦، «الوافي بالوفيات»: ١٨/ ١١٥، «فوات الوفيات»: ٢/ ٢٧١.

(٣) «تالي وفيات الأعيان» للصقاعي: ص٩٩، وانفرد بروكلمان بقوله: وقتل رجماً بالحجارة، ولم يذكر مستنده في ذلك، انظر «تاريخ الأدب العربي» (الترجمة العربية) القسم الثالث (٥ ـ ٦): ص ٣٨١ ـ ٣٨٢.

(٤) «الوافي بالوفيات»: ١٨/ ١١٥، «فوات الوفيات»: ٢/ ٢٧١.

جرت لي محنة بداري بطواحين الأشنان، فألهم الله الصبر، وفعل الله تعالى فيها من اللطف ما لا يقدر على التعبير عنه بوصف، وكان قيل لي: قم واجتمع بولاة الأمر. فقلت: أنا فوضت أمري إلى الله، فما أغير ما عقدته مع الله، وهو يكفينا سبحانه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1]، ونظمت في ذلك ثلاثة أبيات:

قلتُ لمن قال أمَا تَشْتَكي ... ما قد جرى فَهْوَ عظيمٌ جليلْ

يُقَيِّضُ الله تعالى لنا ... من يأخُذُ الحقَّ ويشفي الغليلْ

إذا توكَّلْنا عليهِ كفى ... فَحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيلْ[2]

❁ ❁ ❁

ونتساءل: لِمَ أغفل أبو شامة وقائع ما حدث له، واكتفى في وصف ما جرى له بكلمة محنة؟ ولِمَ لم يكشف عمن ضربه، وهو لا ريب يعرفه؟ هل كان بصمته يسعى للنجاة من خطرهم؟ ثم لماذا امتنع من شكواهم لولاة الأمر؟ هل كان يعتقد أن ولاة الأمر متواطئون معهم؟ وأنه ليس له في محنته هذه من نصير إلا الله سبحانه وتعالى، فهو سيقيض له من يأخذ حقه، ويشفي غليله؟

ومع صمت أبي شامة صمت كذلك من عاصره من المؤرخين، ويبدو أن أعداء أبي شامة قد روجوا شائعة غريبة لما حدث له، وهو أن بعض تلاميذه تعرض لخنقه، إبعاداً لأنفسهم عن هذه التهمة، وقد تلقف هذه الشائعة الصقاعي، وهو مؤرخ نصراني، كان معاصراً لأبي شامة، ويعمل كاتباً في الديوان، فسجلها في تاريخه[3].

أما قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، وهو مؤرخ معاصر لأبي شامة كذلك، فقد أشار إشارة خفية إلى الأسباب التي حملت على ضرب أبي شامة، إذ

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٢٢٣-٢٢٤.

(٣) «تالي وفيات الأعيان»: ص٩٩.

كان كثير الغض من العلماء والأكابر والصلحاء، والطعن عليهم، والتنقص لهم، وذكر مساوئ الناس، وثلب أعراضهم[1].

هكذا يقذف اليونيني أبا شامة بتهم كبار، لا دليل له عليها، إلا إذا كان التعرض لأكلة الأوقاف يعد تنقصاً للعلماء والأكابر والصلحاء، وغضاً منهم[2].

ولعل الإمام الذهبي هو أول من فصَّل لنا ما جرى لأبي شامة في ذلك اليوم، فقال: «جاءه اثنان من الجبلية[3]، وهو في بيته عند طواحين الأشنان، فدخلا يستفتيانه، فضرباه ضرباً مبرحاً كاد يأتي على نفسه، ثم ذهبا، ولم يدرِ مَنْ سلطهما عليه، فصبر واحتسب، وقيل: جهزهما عليه بعض الأكابر»[4].

فمن هما هذان الرجلان؟ إنهما من الجبلية كما يذكر الإمام الذهبي، أي من سكان الجبل، وأقرب جبل إلى دمشق هو جبل قاسيون، فهل هما من جبل قاسيون؟ هذا ما أميل إليه، وأكاد أرجحه، وبخاصة أن أهل دمشق في ذلك الزمن حين كانوا يطلقون اسم الجبل، إنما يعنون به جبل قاسيون، وكثيراً ما أطلقه أبو شامة في «المذيل» بهذا المعنى[5].

ولعل الذهبي آثر لفظ الجبلية، وهو غريب في هذا الموطن على لفظ

---

(١) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ٣٦٧.

(٢) بينت دافع اليونيني لقول ما قاله، وتهافته فيما كتبته تحت عنوان: من تكلم في أبي شامة، انظر ص٤٤٩ ـ ٤٥١ من هذا الكتاب.
وقد تلقف قوله هذا بعد نحو قرنين ونيف أبو عبد الله السخاوي دون تحقيق، وعده السبب وراء امتحانه. انظر «الإعلان بالتوبيخ»: ص٤٧٦، و«فتح المغيث»: ٤/ ٣٥٤ـ٣٥٥.

(٣) أكد كذلك أنهما من الجبلية الصفدي في «الوافي بالوفيات»: ١٨/ ١١٥، وابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات»: ٢/ ٢٧١. وتحرف هذا اللفظ عند الإسنوي في «طبقات الشافعية»: ٢/ ١١٩ إلى «جليلان»، وعنه نقل أبو عبد الله السخاوي في «الإعلان» و«فتح المغيث».

(٤) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣٣٦.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٦٧، ٧٣، ٧٤ على سبيل المثال.

الصالحية، وهو معروف مأنوس، رَبْئاً بأهل الصالحية أن ينسب إليهم هذا الفعل الشنيع.

ومما يقوي أن المراد بالجبلية هم من أهل جبل قاسيون قول ابن كثير: «إنهم ألبوا عليه، وأرسلوا إليه من اغتاله[١]». فابن كثير يعرف من ألب عليه، ولو كان المراد غيرهم من الجبلية كما توهم بعض المستشرقين[٢] لصرح بذلك، ولم يجمجم.

فلماذا كانا من جبل قاسيون؟ هل ثمة علاقة بين نقد أبي شامة للقضاة، وفيهم شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر المقدسي، شيخ الحنابلة في الصالحية، وبين الاعتداء عليه؟ هل تعصب للشيخ عبد الرحمن بعض أهل الجبل ممن نقم على أبي شامة قوله في القضاة: ليس فيهم من يبت الحكم أو يسوس[٣]، ويدخل في جملتهم قاضيهم؟ وهل حرضهم عليه كذلك من أصابته سهام نقده لأكلة الأوقاف في قصيدته الفلاحة الرائية؟ ألا تعني كلمة «الأكابر» التي ذكرها الذهبي هؤلاء العلماء أصحاب المناصب الكبيرة الذين تضرروا من نقد أبي شامة لهم، ولهم مصلحة في إسكاته؟

ولعلَّ ما أضافه ابن كثير من تفاصيل على الحادثة يلقي ضوءاً على ما أشاعه هؤلاء الأكابر تغطية للسبب الحقيقي وراء ضربه، فقد قال ابن كثير: «وقد كان اتهم برأي الظاهر براءته منه، وقد قال جماعة من أهل الحديث وغيرهم: إنه كان مظلوماً»[٤].

---

(١) «البداية والنهاية» (وفيات سنة ٦٦٥هـ).

(٢) فهم روزنتال في تعليقه على «الإعلان بالتوبيخ»: ص٤٧٦ من كلمة «جبليان» أنهما من الحشاشين الإسماعيلية، ولم يذكر مستنده في ذلك!

(٣) «المذيل»: ٢/ ٢١٥.

(٤) «البداية والنهاية» (وفيات سنة ٦٦٥هـ).

وهكذا حاولوا أن يلتمسوا له خلافاً في الرأي ليسوغوا الاعتداء عليه، وما هو هذا الرأي الذي يوجب استحلال دمه؟ لم يكلف ابن كثير نفسه عناء البحث عن هذا الرأي، فهل كان لتهافته لا يستحق أن يذكر؟ وقد تبرع جماعة من أهل الحديث وغيرهم بتبرئة أبي شامة منه، فقالوا: إنه كان مظلوماً. ونسي هؤلاء أن دمشق زمن أبي شامة لم تقتل زنادقتها على كفرهم وفسوقهم[1]، فكيف تقتل أكبر علمائها من أجل رأي مخالف غامض؟

لقد تواطأ الجميع على تعمية من ضربه وسبب ضربه بعبارات مبهمة لا تدع منفذاً لشعاع الحقيقة أن يتسرب من بين حروفها، غير أن المطلع على سيرة أبي شامة يدرك حقاً أنه كان صوتاً متفرداً بين علماء عصره، إذ رأى أن سبب الفساد الذي تعيشه الأمة هو علماؤها الذين اتخذوا من العلم مطية لتحقيق مآربهم الدنيوية، وهم على تناغم مع الأمراء والسلاطين، فوجه إليه نقداً لاذعاً كاشفاً، لأن في صلاحهم صلاح الأمة، وقد فوجئوا حقاً بهذا النقد وقسوته الذي عرَّاهم من هيبتهم، وكشف عن أطماعهم، وقد كانوا يرون أنفسهم فوق النقد، فورمت أنوفهم، واضطغنت قلوبهم على هذا العالم الزاهد حقاً في مناصبهم، ولما عجزوا عن إسكاته بالإهمال أولاً، ثم بتوليته المناصب ثانياً، رأوا أن لا مناص لهم للتخلص منه إلا بقتله، فكان ما كان، ولكن الله سَلَّم.



---

(١) انظر «المذيل»: ٢/ ٨٣ ـ ٨٤، ١٣٥، وانظر من تكلم فيهم أبو شامة ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ من هذا الكتاب.

وفـاة أبـي شـامـة

بعد نحو شهر من محنته استطاع أبو شامة معاودة تدوين ما يقع إليه من أخبار في «مذيله»[1].

وكان الظاهر بيبرس قد قدم مع جماعة من أمرائه الشام، فنزل على غزة، ثم رحل إلى صفد، وهناك ورد الخبر عليه بتوجه التتار إلى الرحبة، فسار إلى دمشق مسرعاً، ودخلها في (١٤) رجب سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م)، فأقام بها نحو خمسة أيام، ثم عاد إلى صفد، فوصل إليها في (٢٤) رجب ليقوم على عمارتها، وحفر خندقها[2].

في تلك الأيام كان أبو شامة يحاول التغلب على محنته، ففي (٢٠) رجب توفي الكمال بن إسحاق بن خليل السقطي، المعروف بقاضي زُرًّا، فصلى عليه أبو شامة إماماً بمصلى ابن مرزوق بالعقيبة، ثم دفن بالجبل[3].

وكان آخر ما دوَّن أبو شامة في «مذيله» خبر وفاة الجمال محمد بن نعمة النابلسي في يوم الأحد (١٨) شعبان سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) وكان رجلاً صالحاً[4].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٢٢٤.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٢٢٤، «السلوك»: ج١/ ق٢/ ٥٥٨.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٢٢٤.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٢٢٥.

ويبدو أن المرض الذي كان يعتاده في رمضان في بعض السنين[١] قد ألم به في هذا العام، غير أن جسد أبي شامة العليل من الضرب المبرح لم يعد يقوى على احتماله ومقاومته، فنشب فيه حتى تمكن منه، فأسلم الروح في سحر ليلة الثلاثاء التاسع عشر من رمضان سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) مخلفاً ثلاثة أولاد: فاطمة، وأحمد، ومحمود[٢]، ودفن بعد صلاة الظهر في مقبرة الفراديس[٣].

---

(١) انظر ص ١٧٤، ١٧٥، ١٨٧، ١٨٩ من هذا الكتاب.

(٢) أنجب أبو شامة سبعة أبناء، مات منهم أربعة في حياته، وهم: محمد وزينب ورقية وإسماعيل، كما سلف في سيرته، وبقي منهم ثلاثة، هم: فاطمة وأحمد ومحمود.
أما فاطمة، فقد ولدت سنة (٦٣١هـ)، وتوفيت سنة (٧٠٧هـ)، وقد حدثت مراراً، وممن سمع منها الإمام الذهبي، فترجم لها في «معجم شيوخه»: ٢/ ١٠٦، ولها ترجمة في «ذيل مرآة الزمان» لليونيني، وفيات سنة (٧٠٧هـ).
وأما أحمد، فقد ولد سنة (٦٥٣هـ)، واشتغل بنسخ الكتب حتى عرف بالوراق، وتوفي سنة (٧٢٢هـ)، وقد سمع منه الذهبي كذلك، وترجم له في «معجم شيوخه»: ١/ ٦٠، وله ترجمة في «الدرر الكامنة»: ١/ ١٩٤.
وأما محمود، فقد سلفت ولادته سنة (٦٦١هـ)، ولم أقف على أخباره.
وممن حدث كذلك سبطه الحسن بن عبد الرحمن البكري، وقد ولد سنة (٦٦٠هـ)، وتوفي سنة (٧٢٢هـ)، وسمع منه الذهبي، فترجم له في «معجم شيوخه»: ١/ ٢١١، وله ترجمة في «الدرر الكامنة»: ٢/ ١١٩.

(٣) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ٣٦٧، وورقة غلاف «كراسة جامعة» نسخة شستربتي.
وقد انفرد ابن كثير بترجيح مقتل أبي شامة في (١٩) رمضان، فقال: وكأنهم عادوا إليه مرة ثانية، وهو في المنزل المذكور، فقتلوه بالكلية في ليلة الثلاثاء تاسع عشر رمضان. «البداية والنهاية» وفيات سنة (٦٦٥هـ).
وقد نقل عنه ذلك العيني في «عقد الجمان» (حوادث سنة ٦٦٥هـ): ص١٥، وتابعه من المعاصرين عباس العزاوي في كتابه «التعريف بالمؤرخين»: ص٨٤ـ٨٥، وقد جزم بذلك فقال: وقد اغتيل في (١٩) رمضان. على أن ابن كثير لم يجزم بما قاله، وإنما هو احتمال رآه، فصدر كلامه بقوله: وكأنهم...

ويبدو أن جنازة أبي شامة لم تكن من تلك الجنازات الحافلة التي كانت تشهدها دمشق لعلمائها الكبار، فلم يذكر لنا خبر عنها، ولم ندر مَنْ صلى عليه، ولربما ارفضَّ الناس عنها، والعهد قريب بمحنة صاحبها، خوفاً من بطش مَنْ بطش به ونفوذه.

وهكذا أغمض أبو شامة عينيه على حلم كان يود لو يتحقق، فقد عاش ما عاش

= والصواب ما أجمع عليه المؤرخون من أنه توفي، بل إن السبكي في «طبقات الشافعية» ٨/ ١٦٧ ـ ١٦٨ قد صرح بأنه اعتل بالضرب إلى أن مات.

وما يزال قبر أبي شامة قائماً في مقبرة الفراديس، وتعرف الآن بمقبرة الدحداح، وقد زرته غير ما مرة.

وقد شاعت حكاية في دمشق في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي ـ ولولا شيوعها ما ذكرتها ـ على لسان الشيخ عيد الحلبي ـ وهو أحد مشايخ دمشق، متوفى سنة (١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م) ـ من أنه مرّ على مقبرة الدحداح لزيارة قبر والده، فمر بقبر الحافظ أبي شامة، وعنده جماعة يتلاحون مع حفار القبور، يريدون أن يفتحوا قبر أبي شامة لدفن قريب لهم، والحفار يأبى إكراماً لصاحب القبر، ولكن أحدهم تجرأ، وفتح القبر بنفسه، ففوجئ الحاضرون بجثة الحافظ كما هي، وتقدم الشيخ محمد عيد الحلبي، ورأى بأم عينه وجهه سليماً لم تأكله الأرض، وشاهد شامته المشهور بها، ولحيته لم يسقط شعرها، وقد رويت الحكاية هذه كذلك في ترجمة الشيخ عيد الحلبي في كتاب بعنوان «تاريخ علماء دمشق»: ٢/ ٦١٣ ـ ٦١٤.

ومدار صدق هذه الحكاية على صحة الخبر، فهل خبرها صحيح؟ فلعل راويها قد وهل، فظن أن من رآه هو أبو شامة، وهو غيره قد دفن من عهد قريب.

ومما يوهن هذه الحكاية وينقضها أن فاطمة ابنة أبي شامة قد توفيت ليلة الجمعة ثاني رجب سنة (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م)، ودفنت من الغد بمقبرة الفراديس في قبر والدها ـ ذكر ذلك اليونيني في «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ١١٨٦، ولم يذكر أحد في زمانها أنه رأى أبا شامة في قبره لم يبلَ، ولم يمضِ على وفاته سوى اثنتين وأربعين سنة، ولو ذكر ذلك لكان أقرب للتصديق لقرب وفاتها من وفاته، والله أعلم.

وهو يحلم بسلطان يعمل على إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد[١].



(١) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٤.

ولم يقدر لأبي شامة أن يعاصر من حكم الظاهر بيبرس إلا سنواته الأولى، وقد توفي قبل أن تتكامل ملامح بطولته، تلك البطولة التي حققت من الانتصارات، ومن إشاعة العدل، والأمن بين الناس ـ برغم بعض التجاوزات الشرعية ـ ما كانوا يحلمون به في سنوات القهر والهزيمة، فأحلوه في قلوبهم المنزلة الأعلى، ومن مشاعرهم المحل الأسمى، وقد أمدّهم حبهم له، وإعجابهم به بالخيال البارع، فنسجوا حوله قصصاً ارتقت به إلى مصاف أبطالهم العظام الذين عاشوا في وجدانهم، حتى غدا على مدار الأيام شخصية عصية على النسيان.

مؤلفاته التاريخيَّة

أبو شامة والتاريخ

لم يكن التاريخ أول علم شدَّ إليه أبا شامة، فقد سبقه إلى ذلك علم القراءات القرآنية[1]، ثم الفقه والعربية[2]، ومن بوابة الفقه دخل عالم التاريخ الرحيب[3]، وقد اكتشف فيه أنه أصل من أصول الشريعة، وباب من أبواب العلم[4]، والجاهل فيه راكب عمياء، خابط خبط عشواء[5].

وأكب عليه قراءة من مظانه حتى وقع ما وقع من تنازل الكامل بن العادل عن القدس للصليبيين[6]، وهي درة فتوحات عمه صلاح الدين، ثم حصاره دمشق، وهو أول حصار يشهده أبو شامة[7]، فشعر وقتئذ أن خللاً قد دبَّ في الواقع الإسلامي، وأن فترة المراوحة في حكم العادل بين الحرب والسلم، قد أفضت في زمن ابنه الكامل إلى مسالمة العدو، ومحاربة القريب، فالتقط بحسه التاريخي ذلك الحادث،

---

(١) انظر ص ٢٤ ـ ٢٥ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٢٦ ، ٣٥ ـ ٣٧، ٤١ ـ ٤٣ من هذا الكتاب، وانظر «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٢.

(٣) انظر ص ٥٨ ـ ٥٩ من هذا الكتاب.

(٤) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٥.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٤.

(٦) انظر ص ٧٣ من هذا الكتاب.

(٧) انظر ص ٧٥ من هذا الكتاب.

وقد وعى ما حدث فيه من تغيير، فانتقل من قراءة التاريخ إلى تدوينه كشاهد عيان لما يحدث، فكانت وقائع حصار دمشق من أوائل ما دوَّن[١] حين شرع في تأليف أول تاريخ له، وكشأن البدايات دائماً لم يمنح تاريخه عنواناً يعرف به، بل كان أشبه بمذكرات يدون فيها ما يقع تحت ناظريه من أحداث قبل أن يبتلعها النسيان[٢].

وتمرّ الأيام والسنون، وقد ملأ التاريخ عقله وقلبه، منكباً على كتبه يطالعها، وعلى حوادثه وأخباره يدونها، جامعاً شواردها من أفواه شيوخه، ومن يلتقيه من شهودها، حتى استطاع في مدة وجيزة أن يطلع بنظرة شاملة مستوعبة على أحوال المتقدمين والمتأخرين من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والخلفاء والسلاطين، والفقهاء والمحدثين، والأولياء والصالحين، والشعراء والنحويين، وأصناف الخلق الباقين[٣]. فيعيش معهم وكأنه قد عاصرهم أجمعين[٤]، متمنياً أن يجتمع بمن يدخل الجنة منهم، ويذاكرهم بما نُقِلَ إليه عنهم[٥].

وتتوق نفسه لمعرفة المزيد، فيسافر إلى مصر، ويحط رحاله في دمياط، وكانت قد عانت من حصار الصليبيين لها واحتلالها سنة[٦] (٦١٥هـ/ ١٢١٨م)، ثم ينتقل إلى القاهرة، فيلتقي شيوخها، ويطلع على ما في دار وزارتها من وثائق ومراسلات[٧]، ويزور قلعة صلاح الدين ليلتقي فيها الأمير أبا الفتوح بن العاضد،

---

(١) انظر ص٧٧ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٨٢ ـ ٨٣ من هذا الكتاب، وانظر «المذيل»: ١/ ٩، ٢٣.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٣.

(٤) المصدر السالف.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٤.

(٦) انظر ص ٨٦ من هذا الكتاب.

(٧) انظر ص ٨٦ ـ ٩٠ من هذا الكتاب.

وهو ابن آخر خلفائها، وقد سجن فيها، فيسأله عن الوقائع التي عاصرها[١]، ثم ينتقل منها إلى الإسكندرية، مجتمعاً فيها بعلمائها وزهادها[٢]، ليعود منها إلى دمشق بعد غيبة عنها دامت نحو سنة[٣]، وقد أعدَّ نفسه ليتفرغ فيها للتصنيف والتأليف[٤].

وقد اكتشف في رحلته مع التاريخ أنه باب واسع، غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد، زلّت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار، ورواة الآثار[٥].

ولئلا يضيع في زحمة ما جمع من أخبار، ويخطئ في نسبتها إلى أربابها، أو يخلط فيها ويصرفها عن أصحابها[٦]، رأى أن يتخذ من «تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر وسيلة للتأليف فيه، يودع فيه ما جمع، ويجنبه الخطأ، وذلك بتلخيصه وتهذيبه، وإضافة فوائد لتراجمه[٧]، وبذلك يحقق أيضاً اطلاعاً شاملاً على تاريخ الإسلام من خلال أهم كتبه.

وتقوده قراءته في «تاريخ دمشق» لابن عساكر إلى ترجمة نور الدين، ثم تقوده قراءاته إلى ترجمة صلاح الدين، فيجد فيهما ما كان يبحث عنه في السلاطين، إنهما في المتأخرين كالعمرين في المتقدمين، قد نشرا العدل والجهاد، واجتهدا في إعزاز دين الله أي اجتهاد، فهما حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين[٨]، أمثال الكامل والصالح إسماعيل وغيرهما ممن انحرف بالأمة عن طريقها القويم،

---

(١) انظر ص ٩٠ ـ ٩١ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٩١ ـ ٩٢ من هذا الكتاب.

(٣) انظر ص٩٣ من هذا الكتاب.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٣٨.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٥.

(٦) المصدر السالف.

(٧) انظر ص ٩٣ ـ ٩٤ من هذا الكتاب، و«كتاب الروضتين»: ١/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٨) انظر «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٦.

فيعقد العزم على تأليف تاريخ في دولتيهما[١]، يبين فيه سياستهما التي سارا عليها في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد[٢]، فلعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك[٣]، فهل التاريخ إلا للاعتبار، لنقتدي بمن تقدمنا من الأخيار[٤]؟

ويعكف أبو شامة في المدرسة العادلية الكبرى على تأليف تاريخه ذاك، ويسميه «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»[٥].



(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٦.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٤.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٦.

(٤) انظر «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٢، ٢٤.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣١، ٢/ ٢٦٤، و«نزهة المقلتين»: ورقة ٢.

كتاب الروضتين

متى ألف «كتاب الروضتين»؟

لم يذكر لنا أبو شامة متى بدأ بتأليف كتابه «الروضتين»، واكتفى بذكر فراغه من إسماعه، وذلك سنة[1] (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، ومن ثَمَّ علينا أن نخمن وقت ابتدائه بتأليفه من خلال إشارات قد تضيء ذلك.

ولعل أول هذه الإشارات ما ختم به كتابه حين ذكر وفاة الأشرف والكامل سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧، ١٢٣٨م) بقوله: «ووفق من بقي من أهل بيتهم، وأصلح ذات بينهم، آمين»[2].

وقد ذكر أن فكرة تأليف الكتاب قد واتته حين اطلع على ترجمة نور الدين وصلاح الدين[3]، وبقيت هذه الفكرة تتخمر في عقله حتى جاءت ظروف أنضجتها، ولعل هذه الظروف هي زمن احتدام الصراع على دمشق بين الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وبين عمه الصالح إسماعيل بن العادل، وذلك سنة[4] (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م)، ويبدو أن خروج الشيخ عز الدين بن عبد السلام من دمشق في أواخر

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٠٠.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٨٦.

(٣) انظر ص ١١٧، ٣٥٣ من هذا الكتاب.

(٤) انظر ص ١٠٦ ـ ١٠٧ من هذا الكتاب.

سنة[١] (٦٣٨هـ/ ١٢٤١م) مفارقاً الصالح إسماعيل بعد تنازله للصليبيين عن حصن شقيف أرنون وصفد[٢] كان دافعاً قوياً لمباشرة تأليف هذا الكتاب، إذ وجد أبو شامة نفسه في ذلك الوقت وحيداً، وقد خلت دمشق من شيخها الجليل، ولم يكن استياؤه وغضبه من الصالح إسماعيل يقل عن غضب صاحبه عز الدين[٣]، فباشر تأليف هذا الكتاب، لعله يكون سبباً في فيئة سلاطين ذلك الزمان إلى رشدهم، وذلك بسيرهم على خطا نور الدين وصلاح الدين بعد أن تنكب بهم الطريق الكامل محمد ومن بعده الصالح إسماعيل، فإذا كانت صدمته بالكامل حين تنازل عن القدس للصليبيين قد جعلته يبدأ بتدوين التاريخ[٤]، فإن صدمته بالصالح إسماعيل حين تنازل عن شقيف أرنون وصفد جعلته يبدأ بتأليف هذا الكتاب. ولعل إيثاره الانكفاء على نفسه في المدرسة العادلية الكبرى ـ حيث كان يسكن [٥]ـ نائياً بنفسه عن متوليها الظالم قاضي قضاة دمشق رفيع الدين الجيلي[٦]، قد أوجد لديه وقتاً رحيباً لتنفيذ مشروعه.

وبقي مكباً على تأليفه إلى سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥١م) مع ما تخلل ذلك من تأليفه كتباً أخرى في الفقه والقراءات، ويبدو أنه حين شارف على الانتهاء منه ألَمَّ به مرض أقعده عن إتمامه، وقد أشير إلى ذلك في القصيدة التي مدح بها بعد شفائه، وذلك ثامن ذي الحجة سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥١م) إذ قيل فيها:

فحاشا ندى التَّصْنيفِ أنْ لا يَثُجَّ مِنْ غزيرٍ وحاشا الرَّوْضتينِ من المَحْلِ[٧]

---

(١) انظر ص١١٦ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص١١٤ من هذا الكتاب.

(٣) انظر ص١١٥ من هذا الكتاب.

(٤) انظر ص٣٥١ ـ ٣٥٢ من هذا الكتاب.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٦٤.

(٦) انظر ص ١١٥ من هذا الكتاب.

(٧) «المذيل»: ١/ ١٤٧.

أليس المحل هنا كناية عن انقطاعه عن إتمام تأليفه؟ ولا سيما أن القصيدة قيلت فرحاً بعودته إلى مجلسه بجامع دمشق، واستئنافه إسماع مختصره لتاريخ دمشق وغيره من مؤلفاته، ولو كان يُسمع «كتاب الروضتين» في ذلك الوقت لذكر ذلك.

ويبدو أن أبا شامة، وقد أبلَّ من مرضه، قد استأنف تأليف كتابه، وكان من شرطه فيه أن يؤرخ لدولتي نور الدين وصلاح الدين، غير أنه بعد أن ذكر وفاة صلاح الدين ومناقبه، ألفى نفسه مشدوداً لذكر ما وقع عقيب وفاته[1] من منازعات بين أولاده: الأفضل والعزيز والظاهر وأخيه العادل، فسردها حتى وصل فيها إلى حوادث سنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٥م) وكان إتمامه في الشهور الأولى من سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) ثم جلس لإسماعه في جامع دمشق[2] حتى فرغ منه في السنة نفسها[3].

وقد شعر بعد فراغه من إسماعه أن صورة ما جرى بعد وفاة صلاح الدين لم تكتمل فصولاً، فانشغل بعد سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) في إتمام ما استحسن زيادته مما جرى بين سنتي (٥٩٣هـ/ ١١٩٧م) إلى سنة[4] (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م).

وكان في أثناء قراءاته في تواريخ تلك الفترة يقع على أخبار فاته تدوينها في كتابه، وقد تجمعت لديه منها زيادات كثيرة، فراح يلحقها في أماكنها من الكتاب، ثم عنَّ له أن يعاود نسخه وتبييضه مضيفاً إليه تلك الزيادات، فكان هذا هو التأليف الثاني والأخير للكتاب، وقد فرغ من المجلدة الأولى منه في (١١) رمضان سنة (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م)، وقد صرح فيها «أن كل ما ينقل من هذه النسخة هو الأصل الذي يعتمد عليه ويركن إليه»[5].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٣.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٦-١٤٧، ١٤٩.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٠٠.

(٤) انظر «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٤.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

وقد جلس أبو شامة لإسماع كتابه «الروضتين» من هذه النسخة غير ما مرة في حياته، نعرف منها إسماعه له سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) وسنة (٦٦٤هـ[1]/ ١٢٦٥م).



(١) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

موارد أبي شامة في «كتاب الروضتين»

هيأ أبو شامة لكتابه موارد موثوقة تساعده على تكوين صورة شاملة ودقيقة لدولتي نور الدين وصلاح الدين، ويمكن أن نقسم موارده إلى ثلاثة أَقسام:

١ـ الكتب التي ألفها مؤرخون معاصرون لهما.

٢ـ الشعر الذي قاله شعراء عصرهما.

٣ـ الوثائق والمراسلات التي تمت في عهدهما.

٤ـ مشافهات من أدرك دولتيهما.

ولم يخفِ أبو شامة موارده هذه كما يفعل بعض المؤرخين، بل كشف عنها في مقدمة كتابه، فقال: «وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء والأكابر الفضلاء، فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في «تاريخه» ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكي ـ رحمه الله ـ ولأجله تمم ذلك الكتاب، وذكر اسمه في خطبته.

وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي في «مذيل التاريخ الدمشقي» قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمس مئة.

وصنف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم

الجزري، عرف بابن الأثير مجلدة في الأيام الأتابكية كلها[١]، وما جرى فيها، وفيه شيء من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى لكونها متفرعة عنها.

وصنف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي، عرف بابن شداد، قاضي حلب مجلدة في الأيام الصلاحية[٢]، وساق ما تيسر فيها من الفتوح، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين، رحمه الله تعالى.

وصنف الإمام العالم عماد الدين الكاتب، أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني كتابين، كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة:

أحدهما «الفتح القدسي»[٣] اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته، فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمس مئة.

والثاني «البرق الشامي»[٤] ذكر فيه الوقائع والحوادث في الغزوات والفتوحات

---

(١) سماه «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل»، حققه عبد القادر أحمد طليمات، وطبع في القاهرة سنة (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م).

(٢) هو كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، طبع غير ما مرة، أجودها بتحقيق د. جمال الدين الشيال، وطبع بالقاهرة سنة ١٩٦٤م.

(٣) طبع أول مرة في ليدن سنة (١٨٨٨م)، ثم طبع غير ما مرة في القاهرة، ثم حققه وشرحه محمود صبح، ونشرته الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة دون تاريخ.

(٤) كان في سبعة مجلدات، وقد فقد الكتاب ما عدا المجلدين الثالث والخامس منه، فهما في مكتبة بودليان بأكسفورد برقم Bruce 11، Marsh 425، وطبع المجلد الثالث في عمان سنة (١٩٨٧) بتحقيق د. مصطفى الحياري. وطبع المجلد الخامس بتحقيق رمضان ششن في استانبول سنة (١٩٧٩م)، ثم أعاد تحقيقه د. فالح صالح حسين، وطبع في عمان سنة (١٩٨٧) في مؤسسة عبد الحميد شومان.

وقد اختصر الكتاب الفتح بن علي البنداري في مجلدين، سماه «سنا البرق الشامي» طبع المجلد الأول منه، وهو يحوي حوادث سنوات (٥٦٣-٥٨٣هـ) في القاهرة سنة (١٩٧٩م) بتحقيق د. فتحية النبراوي، وهي نشرة سقيمة تعوزها الدقة والأناة، وكان قد حقق د. رمضان

وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق، وهي سنة اثنتين وستين وخمس مئة إلى سنة وفاة صلاح الدين، وهي سنة تسع وثمانين، فاشتمل على قطعة كبيرة من أخبار أواخر الدولة النورية.

ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية، وعلى جملة من الأشعار العمادية، مما ذكره في ديوانه دون برقه، وعلى كتب أخر من دواوين وغيرهما، فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحداهما، وبعضه سمعته من أفواه الرجال الثقات، ومن المدركين لتلك الأوقات»[١].

ثم أعاد في خاتمة كتابه ذكر بعض موارده، فقال: «واستوفينا ما في كتاب «البرق»، و«الفتح القدسي»، و«التاريخ الأتابكي»، و«كتاب القاضي أبي المحاسن»، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات، ودواوين ومراسلات»[٢].

فأبو شامة قد صرح بمقدمته بأسماء أهم الكتب التي اعتمد عليها، واستوفاها كما ذكر، أما الكتب التي أشار إليها أثناء اقتباسه منها، فهي على ترتيب ورودها:

١ـ بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، وقد نقل عنه من خط مؤلفه، وسمعه من لفظه[٣]، وكان في أربعين مجلداً، لم يصل إلينا منه سوى عشرة مجلدات، وفقد سائره، وترجمة نور الدين فيه مما فقد منه[٤].

= شثن قسماً منه حتى حوادث سنة (٥٧٦هـ)، طبع في دار الكتاب الجديد، بيروت، سنة (١٩٧١م).

أما المجلد الثاني منه، والذي يحوي حوادث سنوات (٥٨٤ـ٥٩٧هـ) فقد فُقِدَ، ولم يصل إلينا.

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٨ـ٣١.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٣ـ٤٣٤.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٥٦ـ٥٧.

(٤) مجلداته العشرة في مكتبات استانبول، واحدة في مكتبة أيا صوفيا برقم (٣٠٣٦) وثمانية في =

٢ـ المعارف المتأخرة، ويسمى «عنوان السير» لمحمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهمذاني[١]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا.

٣ـ ذيل تاريخ بغداد، لأبي سعد السمعاني[٢]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا.

٤ـ السيرة الصلاحية، لابن أبي طي[٣]، وقد نقل عنه أبو شامة كثيراً[٤]، وكان حقه أن يذكره في مقدمة كتابه، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

٥ـ نصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية، للعماد الكاتب[٥]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا[٦].

٦ـ الاعتبار، لأسامة ابن منقذ[٧].

= مكتبة أحمد الثالث برقم (٢٩٢٥)، ومجلدة في مكتبة فيض الله برقم (١٤٠٤)، ومنه أجزاء مفردة في باريس أول برقم (٢١٣٨)، والمتحف البريطاني أول برقم (١٢٩٠).
وقد اطلعت على هذه المجلدات العشرة بخط ابن العديم، وهي في غاية النفاسة وضوحاً وجمالاً، وقد نشرها د. سهيل زكار في دمشق سنة (١٩٨٨م)، فأساء إليها بما ملأها به من تصحيفاته وتحريفاته، وكانت بنجوة منها، والله المستعان.
ومنه انتزع ابن العديم كتابه «زبدة الحلب في تاريخ حلب»، ورتبه على السنين، نشره المعهد الفرنسي بدمشق في ثلاثة أجزاء ما بين سنة (١٩٥١ـ١٩٦٨م) بتحقيق د. سامي الدهان.

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٩٩.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٠٠، ١١٢.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٢٩.

(٤) انظر فهارس «كتاب الروضتين»: ٥/ ١٢٠.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٥٥، ٤٢٠.

(٦) وصل إلينا مختصره «تاريخ دولة آل سلجوق»، للفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، وقد نشرته دار الآفاق الجديدة في بيروت، وطبعته الثانية سنة (١٩٧٨م).

(٧) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٨٦، ٣١٠.
وقد طبع بتحقيق د. قاسم السامرائي، ونشرته مؤسسة دار الأصالة في الرياض، سنة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، وقد استدرك محققه ما خرم من أوله من «كتاب الروضتين».
وكان فيليب حتي قد نشره سنة (١٩٣٠م)، وطبعته جامعة برنستون في أمريكا.

٧ـ سيرة نور الدين، لأبي الفتح بنجير الأشتري[١]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا.

٨ـ النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، لعمارة اليمني[٢].

٩ـ بلغة الظرفاء في تواريخ الخلفاء، لعلي بن محمد الروحي[٣].

١٠ـ تاريخ ابن الدبيثي[٤].

١١ـ سيرة الوزير ابن هبيرة، لابن المارستانية[٥]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا.

١٢ـ كشف أسرار الباطنية، لأبي بكر الباقلاني[٦]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا.

١٣ـ تثبيت دلائل النبوة، للقاضي عبد الجبار البصري المعتزلي[٧].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٧٧ـ٣٧٩.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٩٢.

وقد ترجمه إلى الفرنسية هرتويغ درنبرغ، وطبع باللغتين العربية والفرنسية في شالون سنة (١٨٩٧ـ١٩٠٤م).

(٣) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٣٧.

وقد طبع بمصر سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م).

(٤) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٩٠.

حقق قطعة منه د. بشار عواد معروف تضمنت جميع المحمدين وباقي الكتاب إلى نهاية حرف العين، وصدر بعنوان «ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد»، ونشرته وزارة الإعلام بالجمهورية العراقية، بغداد (١٩٧٤م).

وقد وصل إلينا كاملاً ما انتقاه منه الإمام الذهبي، وسماه «المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي»، وقد طبع في ثلاثة أجزاء في بغداد سنة (١٣٧١هـ/ ١٩٥١م) بتحقيق د. مصطفى جواد.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٠٠، ٢٠٣.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢١٦ـ٢١٧.

(٧) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢١٧.

وقد طبع في جزأين، بتحقيق د. عبد الكريم عثمان، ونشر في بيروت سنة (١٩٦٦م).

١٤ـ الرد على الباطنية، لأبي القاسم الشاشي[١]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا.

١٥ـ تاريخ الغرباء الذين قدموا مصر، لابن يونس[٢]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا.

١٦ـ ذيل المنتظم، لابن القادسي[٣]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا.

١٧ـ البصائر، للوزير ابن شكر[٤]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا.

١٨ـ تفسير القرآن، لأبي الحكم بن بَرَّجان الأندلسي[٥].

١٩ـ تفسير القرآن، لعلم الدين السخاوي[٦].

٢٠ـ عتبى الزمان في عقبى الحدثان[٧]، للعماد الكاتب، وهي رسالة لم تصل إلينا.

٢١ـ نحلة الرحلة وحلية العطلة، للعماد الكاتب[٨]، وهي رسالة لم تصل إلينا.

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٢١ـ٢٢٢.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٧.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٥١ـ٥٢.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢١٩.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٧٠، ٣٩٤.

وتفسيره هو «تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب وتعرف الآيات والنبأ الأعظم»، منه نسخة من الجزء الثاني في ميونخ برقم (٨٣)، انظر «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية) القسم الرابع (٧ ـ ٨): ص٣٣٦.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٩٥.

وقد ذكر أبو شامة أن له تفسيرين، كلاهما لم يقدر له إتمامه، انظر «كتاب البسملة»: ص٢٦١.

وذكر ابن الجزري أنه وصل في تفسيره إلى سورة الكهف في أربعة أسفار، ومن وقف عليه علم مقدار الرجل، ففيه من النكت والدقائق ما لم يكن في غيره، انظر «غاية النهاية»: ١/ ٥٧٠.

ومن ثم لا أدري كيف يستقيم ما ذكره محقق كتاب «الوسيلة إلى كشف العقيلة»: ص٢٥ من أن ثمة نسخة من تفسيره تام في جزأين بالخزانة التيمورية برقم (١٥٩)، وأغلب الظن أن يكون غير الذي وصفه ابن الجزري؟

(٧) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٣٦٧، ٤١٩.

(٨) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٢.

٢٢ـ خطفة البارق وعطفة الشارق، للعماد الكاتب[١]، وهي رسالة لم تصل إلينا.

٢٣ـ ذيل على تاريخ الاستظهار في معرفة الدول والأخبار، للقَيْلُويي[٢]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا.

* * *

أما دواوين الأشعار التي اختار منها ما يتعلق بالقصص وشرح الحال، وما فيها من نكتة غريبة، وفائدة لطيفة[٣]، فهي على ترتيب ورودها:

١ـ ديوان محمد بن نصر القيسراني[٤].

٢ـ ديوان أحمد بن منير الطرابلسي[٥]، ولم يصل إلينا[٦].

٣ـ ديوان ابن قسيم الحموي[٧]، ولم يصل إلينا[٨].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٩.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٨٢، وانظر «المذيل»: ٢/ ٣٦.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٠ـ٣١.

(٤) «كتاب الروضتين»: ١/ ٧٨.

وفي مجمع اللغة العربية بدمشق نسخة مصورة عن قطعة من ديوانه محفوظة في دار الكتب المصرية.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٨٣، ٢/ ٤٣٤.

(٦) يكاد يكون «كتاب الروضتين» أهم كتاب احتفظ لنا بشعره، وقد جمع شعره كل من د. سعود محمود عبد الجابر، وطبع في الكويت سنة (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ود. عمر عبد السلام تدمري، وطبع في بيروت سنة (١٩٨٦م)، وهما طبعتان سقيمتان مشحونتان بالأخطاء والتحريفات، والذي يقارن بين ما حققته من شعره في «كتاب الروضتين»، وشعره المجموع يجد البون واسعاً دقة ووضوحاً.

(٧) «كتاب الروضتين»: ١/ ٩١.

(٨) وقد جمع شعره د. سعود محمود عبد الجابر، ونشرته دار البشير بعمان، سنة (١٩٩٥م)، غير أن قراءته لشعره تعوزها الدقة والأناة.

٤ـ ديوان أبي الحكم الأندلسي المسمى «نهج الوضاعة لأولي الخلاعة»[١]. ولم يصل إلينا.

٥ـ ديوان عرقلة الكلبي[٢].

٦ـ خريدة القصر وجريدة العصر[٣]، للعماد الكاتب.

٧ـ ديوان عمارة اليمني[٤].

٨ـ ديوان أسامة ابن منقذ[٥].

٩ـ ديوان صردر[٦].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٦٦، ١٩٢.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٩٣، ٣٣٩.

وقد طبع بتحقيق أحمد الجندي، وصدر ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٧٠م).

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٩٣، ٣٢٩، ٣٧٤.

وقد استفاد أبو شامة من قسم شعراء الشام، وقد صدر ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م) بتحقيق د. شكري فيصل.

ومن قسم شعراء العراق، وقد صدر ضمن مطبوعات المجمع العلمي العراقي سنة (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م) بتحقيق العلامة محمد بهجة الأثري.

ومن قسم شعراء مصر، وقد صدر ضمن مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة (١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م) بتحقيق د. شوقي ضيف، ود. إحسان عباس.

(٤) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣١٠، ٢/ ٧٨ـ٨٠.

وقد نشر هرتويغ درنبرغ «تكملة ديوان شعر عمارة اليمني، ونبذ من ترسلاته وتراجمه» في شالون سنة (١٩٠٢م)، وقد علمت أن ديوانه طبع في اليمن، والله أعلم.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣١٢، ٣٣٥.

وقد طبع ديوانه في القاهرة بتحقيق د. أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، بيد أن في «كتاب الروضتين» أبياتاً لم أجدها في ديوانه المطبوع.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٩.

وقد طبع ديوانه في دار الكتب المصرية سنة (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م).

١٠ـ ديوان أبي الحسن الذروي المصري[١]، ولم يصل إلينا.

١١ـ ديوان عبد المنعم الجلياني[٢]، المسمى «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر»[٣].

١٢ـ ديوان العماد الكاتب[٤]، لم يصل إلينا[٥].

١٣ـ ديوان شهاب الدين فتيان الشاغوري[٦].

١٤ـ ديوان مجد الدين محمد بن الظهير الإربلي[٧]، لم يصل إلينا.

١٥ـ ديوان تاج الدين الكندي[٨]، لم يصل إلينا.

١٦ـ ديوان سبط ابن التعاويذي[٩].

١٧ـ ديوان ابن الساعاتي[١٠].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٥٥، ٢٧٦، ٣/ ١٠١ـ١٠٣.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٨٠، ١٥٣، ٣/ ٤٠٣ـ٤٠٤.

(٣) من ديوانه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق تحت رقم (٣٢٩٨)، وهي محفوظة الآن في مكتبة الأسد الوطنية.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٢١، ١٩٤، ٢٠٧.

(٥) جمع شعره ناظم رشيد، وطبع في بغداد سنة (١٩٨٣م).

(٦) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٤٥.

وطبع بتحقيق أحمد الجندي، وصدر ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٣٧٨هـ/ ١٩٦٧م).

(٧) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٩٧.

(٨) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٩٠، وانظر «المذيل»: ١/ ٢٧٥.

(٩) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٣.

ونشره مرجليوث، وطبع بمصر بمطبعة المقتطف، ثم أعادت نشره دار صادر في بيروت.

(١٠) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦٢.

وطبع بتحقيق أنيس المقدسي، وطبع في بيروت بالمطبعة الأمريكية سنة (١٩٣١م). وبعض القصائد التي أوردها أبو شامة ليست في ديوانه المطبوع.

١٨ـ ديوان ابن سناء الملك[١].

١٩ـ ديوان الرشيد بن بدر النابلسي[٢]، لم يصل إلينا.

٢٠ـ ديوان جعفر ابن شمس الخلافة[٣]، لم يصل إلينا.

وأنت ترى أن معظم هذه الموارد مما فقد من تراثنا، أو لم يصل إلينا بعد، مما يضفي على «كتاب الروضتين» قيمة خاصة إضافة لقيمته التاريخية، وذلك لحفظه لنا هذه النصوص والأشعار التي لو ضاعت لضاع معها علم غزير وفوائد جليلة.

* * *

أما الوثائق والمراسلات التي اطلع عليها[٤]، فهي على ترتيب ورودها كذلك.

١ـ كتاب وقف نور الدين البيمارستان النوري[٥].

٢ـ كتاب وقف نور الدين بستان بالميدان من أجل تطييب بعض المساجد، وهو بخط الشيخ عبد الرحمن بن الحسين بن الخضر الأزدي الدمشقي[٦].

٣ـ محضر لقاء الفقهاء بنور الدين في قلعة دمشق لتجديد أوقاف جامع دمشق، وهو بخط الشيخ عبد الرحمن الأزدي الدمشقي كذلك[٧].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦٣.
وطبع بتحقيق د. محمد إبراهيم نصر، وصدر عن دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

(٢) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٤٠٩.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٠٥.

(٤) لم أعدَّ منها رسائل القاضي الفاضل التي تتعلق بذكر الوقائع والأحداث، فهي مما نقله أبو شامة من الرسائل الفاضلية، وهي في مجلدات، كما ذكر في مقدمته لـ«كتاب الروضتين»: ١/ ٣١، وانظر ص٣٦٣ من هذا الكتاب.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٤٥.

(٦) «كتاب الروضتين»: ١/ ٧٢.

(٧) «كتاب الروضتين»: ١/ ٧٣ـ٧٧.

٤ـ كتاب خليفة مصر الحافظ لدين الله إلى القاضي الأشرف علي بن الحسن بن الحسين البيساني، والد القاضي الفاضل، وكان يومئذ متولي القضاء والحكم بمدينة عسقلان، وعليه علامة الحافظ «الحمد لله رب العالمين»، وقد كتب في ذي القعدة سنة (٥٤١هـ)[١].

٥ـ كتب عليها علامة الوزير عباس بن أبي الفتوح «الحمد لله، وبه أثق»[٢].

٦ـ كتاب بخط نور الدين يشكر فيه صلاح الدين[٣].

٧ـ كتاب بخط الشيخ عمر الملاء الموصلي إلى بعض الصالحين[٤].

٨ ـ نسخة سجل بإسقاط المكوس بمصر، قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة، ثالث صفر سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) عن السلطان صلاح الدين في أيام نور الدين[٥].

٩ـ كتاب وقف الرباط النجمي بدمشق[٦].

١٠ـ منشور السلطان نور الدين في إبطال فريضة الأتبان، وعليه علامته بخطه «الحمد لله»[٧].

١١ـ كتاب وقف السلطان صلاح الدين قرية حزم باللوى من حوران على من يشتغل بعلم الشريعة، أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، وعليه علامته «الحمد لله وبه توفيقي»[٨].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٧٩.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣١٤.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١١٩.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٦٥.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٣٢.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٥٠.

(٧) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٧٠.

(٨) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٤٣٠.

١٢ـ كتاب بخط بعض الكتاب نقله من خط السلطان صلاح الدين إلى بعض النواب، وفيه السماح للقاضي الفاضل بالحج[١].

١٣ـ كتاب بخط السلطان صلاح الدين إلى أخيه العادل لما كان نائبه في مصر، يتعلق بالشيخ الفقيه محمود بن أحمد الصابوني[٢].

١٤ـ كتاب بخط الشيخ عمر الملاء الموصلي إلى ابن الصابوني[٣].

١٥ـ كتاب كتبه الصاحب قوام الدين بن زبادة من الديوان العزيز ببغداد إلى السلطان صلاح الدين[٤].

١٦ـ رسالة السلطان صلاح الدين إلى ملك المغرب يستنجد به على الفرنج[٥].

أما الكتب الفاضلية، فهي على ترتيب ورودها:

١٧ـ كتاب فاضلي وصف فيه غزاة غزاها السلطان صلاح الدين في أيام وزارته لمصر[٦].

١٨ـ كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين بعد أيام من وفاة العاضد[٧].

١٩ـ كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين إلى عز الدين فرخشاه بمصر[٨].

٢٠ـ رقعة كتبها القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين يلتمس منه الإذن بالحج، وعلى رأس الرقعة في سطر البسملة جواب السلطان صلاح الدين بخطه[٩].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢٤.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢٥٠.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢٥٠.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٤٢١.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٤/ ١٩٠.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٨٥.

(٧) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٩٥.

(٨) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٤٩.

(٩) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢٣ـ٢٤.

٢١ـ كتاب فاضلي إلى الصفي بن القابض يصف له فيه ما لقيه في طريقه إلى مصر[١].

٢٢ـ ثلاثة كتب للقاضي الفاضل عن الملك العادل إلى الولاة باليمن يعلمهم فيها أن ملوك الشرق قد دخلوا في طاعة السلطان صلاح الدين، وأنه عازم على القدوم إلى مصر[٢].

٢٣ـ كتابان فاضليان عن العادل، أحدهما إلى أمير مكة، والآخر إلى أمير ينبع، يعلمهما بذلك أيضاً[٣].

٢٤ـ كتاب فاضلي إلى السلطان صلاح الدين[٤].

٢٥ـ كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين إلى عز الدين فرخشاه نائبه في دمشق[٥].

٢٦ـ كتاب فاضلي إلى السلطان صلاح الدين يهنئه فيه بسماعه «الموطأ» من الشيخ الإمام أبي الطاهر بن عوف[٦].

٢٧ـ كتاب فاضلي إلى شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل النيسابوري[٧].

٢٨ـ رقعة بخط القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين يعلمه فيها بوصول فخر الكُتَّاب إلى مصر، وجواب السلطان صلاح الدين له بخطه[٨].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٤٦.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٦٨.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٦٨.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٦٨.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٨٠ ـ ٨١.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٨٩.

(٧) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢١١.

(٨) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٦٢ـ٦٣.

٢٩ـ كتاب فاضلي للسلطان صلاح الدين يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأي الفاضل، ولا هو مختار لها[١].



أما ما سمعه أبو شامة من أفواه الرجال الثقات، ومن المدركين لتلك الأوقات[٢]، ففي الصفحات التالية من «كتاب الروضتين»[٣].



(١) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٢٠٧.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣١.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٤٠، ٤٦، ٥٤، ٣٣٠، ٤١٩ـ ٤٢٠.
٢/ ٥٩، ١٤٣، ٢٣١، ٢٥٠، ٢٨٤، ٢٩٤، ٤٨٤.
٣/ ١٢، ١٧، ٧٥ـ ٧٦، ١٣٣، ٢٩٩، ٣٦٨، ٣٧٥.
٤/ ١٩٠ـ ١٩١، ٢٠٥، ٢٨٥، ٣٦٩، ٤٨٣.

منهج أبي شامة في عرضه «كتاب الروضتين»

لما كان من شرط أبي شامة في «كتاب الروضتين» أن يؤرخ لدولتي نور الدين وصلاح الدين[١]، مبيناً فيه السياسة التي انتهجاها في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد[٢]، قاصداً من وراء ذلك أن يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك[٣]، رأى أن يفتتح كتابه بذكر مناقب نور الدين، فيذكر من أحواله ما يستدل به على أفعاله[٤]، وقد قدم لها بترجمة موجزة له، خطها المؤرخ الكبير ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، وهو ممن عاصره ولازم مجالسه، وذكر فيها ما افتتحه من البلاد، وما بناه من المدارس[٥]، مكوناً بذلك صورة مجملة عنه نابضة بالحياة، مما يهيئ عقل القارئ لما سيأتي من أخباره، خاتماً تلك الترجمة بقول ابن عساكر: «وكان حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٦، ٤/ ٤٣٣.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٤.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٦.

(٤) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٢.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٢ـ٣٣.

الإنفاق، متحرياً في المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها»[١].

«وقد كان الملوك قبله ـ كما يذكر ابن الأثير ـ يعيشون في جاهلية، همُّ أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً»[٢].

فلا غرابة أن يترقى نور الدين إلى مصاف الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز، كما يشهد بذلك ابن الأثير، وهو ممن عاصر نور الدين[٣].

هذا السلطان الذي زهد في أموال رعيته، وانصرف إلى تحري العدل والإنصاف فيهم، ورفع راية الجهاد ضد الصليبيين الذين اغتصبوا البلاد، هو مثال الحاكم المسلم الذي يتطلع أبو شامة إلى مجيئه كي يعيد أمجاد الأمة، ويخلصها من سلاطينها وملوكها الذين عاصرهم، وقد انقلب أكثرهم إلى سيرة من كان قبل نور الدين من الملوك، هم أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

ومن ثَمَّ لا يخفي أبو شامة محبته لنور الدين كلما سنحت له سانحة[٤].

وبعد أن يفرغ من سرد مناقبه، يثنِّي بما مدحه به شعراء عصره، وإن كانت أوصافه فوق ما مدح به[٥]، فيستعرض قصائد أنشدها فيه ابن القيسراني، وابن منير الطرابلسي، وهما في عصره بمنزلة الفرزدق وجرير في عصرهما[٦]، وما كان نور الدين ممن يستخفه ذلك المديح، فقد كان قليل الابتهاج بالشعر[٧].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٣.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٧.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٣.

(٤) انظر «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٧، ٣٧، ٥٥، ٧٨، ولا ننسى أن أبا شامة سمى أحد أولاده باسم نور الدين، انظر ص٣٠٨ من هذا الكتاب.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٧٨.

(٦) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٩٣.

(٧) «كتاب الروضتين»: ١/ ٩٢.

الآن وقد عرف القارئ نور الدين يشرع أبو شامة في التأريخ لدولته، بادئاً من أصل بيته، فيحدثنا عن جده قسيم الدولة آق سنقر، وما تم في أيامه، ثم يذكر ولده عماد الدين زنكي، والد نور الدين[١].

وبتكثيف شديد يلخص لنا أخبار قسيم الدولة، وكيف تولى حلب، حتى مقتله على يد تاج الدولة تُتُش[٢].

ثم يستعرض أخبار ولده عماد الدين زنكي، ووصوله إلى حكم الموصل، وما ظهر من شجاعته وكفايته، حتى تمكن أخيراً من فتح الرها، واستعادتها من الصليبيين، وهي أول نصر كبير للمسلمين عليهم[٣]، وقد كانوا قبله في ذل وهوان معهم[٤].

حتى إذا ما انتهى إلى وفاته سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) شرع في التأريخ لأخبار نور الدين ودولته مرتبة على السنين ابتداء من سنة[٥] (٥٤٢هـ/ ١١٤٦م) ـ وكان قبل ذلك يسوق الأخبار مرتبة على الفصول[٦] ـ فيستوفيها خبراً خبراً، بشمول، وعرض سلس محكم، حتى يختمها بذكر وفاته سنة[٧] (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م).

ثم يشرع في التأريخ لصلاح الدين ودولته، مستعرضاً الأسباب التي أدت إلى صعود نجمه دون غيره من أمراء نور الدين، تاركاً الأحداث وحدها تتكلم عن كفاية صلاح الدين، حتى يصل القارئ عن قناعة إلى أنه هو وحده الذي يستحق عن جدارة خلافة نور الدين.

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٩٣.
(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٩٣ـ١٠٢.
(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٣٨.
(٤) «كتاب الروضتين»: ١/ ١١٧ـ١١٨.
(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٠٣، ١٨١.
(٦) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٠٣.
(٧) تستغرق أخبار نور الدين حتى ص٣١٦ من الجزء الثاني من الكتاب.

فصلاح الدين قريب الشبه في سيرته بنور الدين، غير أن الفضل لنور الدين، يعلن أبو شامة ذلك دون مواربة، فيقول: «فهو أصل ذلك الخير كله، مهد الأمور بعدله وجهاده، وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق، واتساع الخرق، وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على من بعده على الحقيقة سلوك تلك الطريقة، لكن صلاح الدين أكثر جهاداً، وأعم بلاداً، صبر وصابر، ورابط وثابر، وذخر الله له من الفتوح أنفسه، وهو فتح الأرض المقدسة»[١].

ويستتم أخباره حتى وفاته سنة (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) خاتماً كتابه بمناقبه[٢] كما افتتحه بمناقب نور الدين.

بيد أنَّ أبا شامة قبل أن يضع قلمه يجد نفسه منساقاً لذكر ما حدث بعد وفاة صلاح الدين من منازعات بين أولاده الأفضل والعزيز والظاهر وأخيه العادل، فراح يسردها حتى وصل بها إلى سنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٥م) معتذراً للقارئ عن إخلاله بشرطه، قائلاً: «ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوع للدولتين النيرتين، إلا أنه لا بد من ذكر ما يتعلق بهما بما وقع فيهما وعقيبهما»[٣].

وبإحساس الروائي الذي يتتبع مصير جميع أبطاله، يجلس أبو شامة بعد فراغه من إسماعه إلى كتابه من جديد، فيزيد فيه حتى يصل إلى سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) وهي السنة التي توفي فيها القاضي الفاضل، صديق صلاح الدين ووزيره[٤].

وبهذا العرض الدقيق المحكم الذي ينمّ عن ذكاء مبدع تتبدى براعة أبي شامة مؤرخاً، فقد نثر الأحداث والوقائع بسلاسة جعلت القارئ يتابعها بشغف واهتمام دون أن يعتوره انقطاع في حدث أو غموض في خبر، وزاد من جمال عرضه ما نثره

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٧-٢٨.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٣٧٥.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٣.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٧٢.

فيه من وثائق ورسائل وأشعار قرَّبت ذلك العصر منا بمشاعره حتى تجلى أمام أعيننا وكأننا نعيش فيه.

لقد ارتفع أبو شامة في كتابه «الروضتين» من كاتب لسيرة سلطان يتوسل بها كي ينال عطف ذريته، إلى مؤرخ دولة كانت تسعى إلى إشاعة العدل والأمن، دولة لم يعش هو في ظلها فيتهم بتملقها بمديح كاذب، رغبة في غنيمة، أو رهبة من عقوبة، بل كتب ما كتب متجرداً من هواه إلا ما تمليه عليه مشاعره الإسلامية من حب كل فضيلة، وكره كل رذيلة، مما أثار عليه من بعد حَنَقَ ملوك عصره، وما يحيط بهم من فقهاء، وقد كشف مخازيهم في مرآة الروضتين.

ولم يكن أبو شامة سباقاً إلى التأريخ لنور الدين وصلاح الدين، فقد سبقه إلى ذلك مؤرخون، وقفوا في التأريخ لهما عند تسجيل أخبارهما، وحده أبو شامة استطاع صوغ تاريخه عنهما وفق رؤية إصلاحية، مبرزاً منهج عملهما لمن أراد أن يقتدي بهما.

ونتساءل: هل استطاع أبو شامة بكتابه هذا أن يحرك همم ملوك عصره للاقتداء بهما؟

لقد بقي الأيوبيون في منازعاتهم يعمهون حتى جرفهم التتار فيمن جرفوا حين اجتاحوا شرق العالم الإسلامي، وأسقطوا بغداد عاصمة خلافته، وكان على أبي شامة أن يعيش تلك السنين العجاف منتظراً حاكماً مثل الظاهر بيبرس يعيد للجهاد ألقه، وللعدالة نورها على تعسف فيه، غير أن أبا شامة لم يدرك من دولة الظاهر بيبرس إلا سنواتها الأولى، ولم تتح له أن يدرك عظمة هذا السلطان.

ومع ذلك يبقى من «كتاب الروضتين» برغم قيمته التاريخية أنه دعوة للأمة كي تستعيد ثقتها بنفسها في زمن المحن، وأن تقتدي بمنهج نور الدين وصلاح الدين، ذلك المنهج الذي يقوم على إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد، وهو منهج يعلو على الزمن ومتغيراته، وقد استطاع أن

يحقق للأمة انتصارات دخلت التاريخ بها من جديد، وهو دعوة كذلك لكل حاكم أن يقتدي بنور الدين وصلاح الدين إذا كان حقاً يرغب في العيش بروضة التاريخ.



منهجه في «كتاب الروضتين»

لمنهج أبي شامة في «كتاب الروضتين» سمات يلحظها القارئ المتأمل لكتابه، وأولى هذه السمات هي الاستقصاء والشمول فيما يورد من أخبار حول وقعة معينة، بحيث لا يكاد يفوته منها خبر، مما يعطي صورة متكاملة عن الحادثة التي يؤرخ لها[1]، وهو شديد الحرص على دقة ما يورد، مع عزو الأقوال إلى مظانها[2].

وأحياناً يمهد للوقعة بذكرها مختصرة مجملة، ليكوِّن القارئ فكرة عنها قبل أن يخوض في تفاصيلها، مما يساعده على حسن فهمها[3].

ويضطر أحياناً إتماماً للفائدة أن يكرر بعض الأخبار ينقلها عن المؤرخ نفسه إذا اشتمل هذا التكرار على فوائد جديدة[4].

وفي نقله هذه الأخبار لا يلتزم سياق المؤرخ الذي ينقل عنه، بل يقدم في الخبر ويؤخر فيه حسبما يراه من فائدة تخدم تصوره للحدث[5]، وقد يرى ألا فائدة في

---

(١) انظر مثلاً ما كتبه عن موقعة حطين، «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢٧٥-٣٠٧.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٢، ٣٣.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٣٠-٣٣٣.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٨١.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٠١، ٣٦٤.

نقل الأخبار مطولة، فيختصرها دون إخلال بالمعنى، ويردفها بزيادات عن مؤرخين آخرين تزيدها وضوحاً[١].

وإذا ما اقتضى منه الخبر وقفة لغوية لإيضاح معنى أو إزالة إبهام، فإنه يبادر إلى ذلك[٢].

وقد يذكره خبر يسوقه بحادثة تتعلق به، فيذكرها استطراداً، ثم يعود لما هو فيه[٣].

ويقارن بين الأخبار التي ينقلها، ثم يختار منها أحسنها سياقاً[٤].

ولأمانته العلمية فيما ينقل قد يسرد الأقوال كلها في حادثة ما، ويترك للقارئ أن يختار إحداها، إذا لم يترجح لديه أيها أقرب للصواب[٥].

وقد يرى أن المؤرخ الذي ينقل عنه قد أطال في ذكر خبر من الأخبار، فيختصره، وفي اختصاره له يتجلى أسلوب أبي شامة في دقة تعبيره ووضوحه، وعذوبة ألفاظه[٦]، وقد عُرف أبو شامة بين معاصريه بدقة تحقيقه وإتقانه[٧].

ولأنَّ الغاية التي كان يتغياها من كتابه أن يفهمه العام والخاص[٨]، فقد أعمل قلمه فيما ينقل عن العماد الكاتب، وكان العماد طويلَ النفس في السجع والوصف، مما يجعل قارئه يصاب بالملل، ويختفي الحدث التاريخي تحت ركام من الألفاظ الغريبة، والأسجاع الثقيلة، فأتى أبو شامة إلى تلك الأسجاع فحذفها إلا قليلاً منها

(١) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢٩٢.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٣١.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٦٧ـ٣٦٨.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٣١١.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ١١١ـ١١٢، ٣/ ٣٣٢، ٤/ ٣٠٠.

(٦) «كتاب الروضتين»: ١/ ٩٣ـ٩٤، ١٠٣، ١١٧ـ١١٨، ٤٠٣ـ٤١٠.

(٧) «المذيل»: ١/ ١٤٤.

(٨) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٠.

استحسنها في مواضعها، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع[(١)].

وهو في كل ما كتب لم يغب عنه حِسُّ المؤرخ، فتراه دائماً يتلمس الأسباب التي كانت وراء حادثة من الحوادث، فيوضحها، بعيداً عما قد يحيطها به بعض المؤرخين من جلال وغرابة تنأى بها عن دائرة التاريخ[(٢)].



(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٠.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٥٤ ـ ٥٦، ٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

أبو شامة ناقداً للأخبار

لم يتلق أبو شامة ما نقله من أخبار عمن سبقه من المؤرخين باستسلام خاشع، بل تفحَّص كلامهم، وناقشهم فيما أوردوه، وصحح ما وقعوا فيه من أوهام وأخطاء بأسلوب علمي رصين، دون تهكم أو جفاء في العبارة، وكان يقدم لنقده بقوله: قلتُ[1]، ليميز بين كلامه وكلام من ينقل عنه.

وقد تلوَّن نقده للأخبار بحسب ما تمليه طبيعة الخبر، فإذا أخطأ مؤرخ بتسمية وقعة من الوقائع، ناقشه في خطئه، وبين الصواب فيه، معتمداً على معارضته بخبر آخر، أو على تحليل ذلك الخبر، كما فعل مع ابن العديم حين ذكر أن برهان الدين البلخي انتقد السلطان نور الدين على تهاونه في إشاعة المنكرات والخمر حين كُسر بالبقيعة، فبين أبو شامة أن البلخي مات قبل هذه الوقعة بعشر سنين، وأن انتقاده هذا كان في كسرة قبلها وقعت سنة[2] (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م).

وإذا ساق مؤرخ خبراً مشهوراً عند العامة، ولا يصح، رده إلى الصواب فيه، كما فعل مع العماد الكاتب حين ذكر أنه زار قبر أبي هريرة، الصحابي الجليل، ﷺ في يبنى بفلسطين، فتعقبه أبو شامة بقوله: «اعتمد العماد في هذا على ما اشتهر

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣١٩.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٦٨، ٢٠٠.

بين العامة في ذلك، أما أهل العلم المصنفون في أخبار الصحابة ﷺ كابن سعد وغيره، فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة»[١].

وكذلك استدرك على العماد الكاتب قوله في الفقيه أبي علي بن رواحة، أنه من أولاد عبد الله بن رواحة الصحابي الجليل، فرد أبو شامة بقوله: «هو ليس من أولاده، ذاك لم يعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة»[٢].

وحين ذكر محمد بن القادسي في «تاريخه» أن صلاح الدين لما فتح القدس خطب على منبر المسجد الأقصى بنفسه. يعقب أبو شامة عليه بقوله: «لم يكن السلطان هو الذي باشر الخطبة»[٣].

بل يرد على ابن شداد قوله في فتح القدس: «وصلّيتُ فيه الجمعة (يعني في المسجد الأقصى) يوم فتحه»، فيقول أبو شامة: «إن يوم الفتح ضاق عن ذلك، فصليت في يوم الجمعة الآتي»[٤].

ويتتبع أقوال المؤرخين وإن كانت خارج سياق الحدث الذي يؤرخ له، فحين يورد ابن شداد تاريخ فتح بيت المقدس بقوله: «وكان تسلمه له (أي لصلاح الدين) يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد». يرد عليه أبو شامة بقوله: «هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلاف كثير»[٥].

❁ ❁ ❁

وإذا ما طغى قلم مؤرخ، فحاول أن يعلل وقعة من الوقائع بعيداً عما يقتضيه

(١) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٢٧٧.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٩٧ـ٩٨.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٧٦، وانظر بعض أوهامه الأخرى: ٣/ ٥٢.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٣٢.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٣١.

منهج التاريخ في البحث عن الأسباب، وتلمس منطق الأحداث، يتصدى أبو شامة له، مورداً الأسباب التي كانت وراء ما حدث، من ذلك ما قاله العماد الكاتب حين ذكر وضع منبر نور الدين الذي صنعه في موضعه في المسجد الأقصى: «فعرفت بذلك كرامات نور الدين التي أشرق نورها بعده بسنين». فيتعقبه أبو شامة بقوله: «وهذا الذي نسبه إلى نور الدين من أنه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدين، وليس بالبعيد من مثل ذلك». ثم يبين السبب الذي دفع نور الدين إلى صنع منبر المسجد الأقصى، فيقول: «وكان نور الدين قد بدت له مخايل ذلك (أي قرب فتح بيت المقدس) مما تسنى له من فتح البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدو بين يديه مراراً، وكان فتح القدس من همته من أول ملكه»[١].

هكذا هو دائماً يبحث عن الأسباب التي كانت وراء ما وقع حتى يزداد لها فهماً[٢]، ولا تغيب عن منطق التاريخ، ومن هذه البابة ما بلغه من أن نور الدين أسقط المكوس لمنام رآه وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني[٣]. ثم يسوق أبو شامة أبياتاً أنشدها نورَ الدين الواعظُ أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد البحتري الواسطي، مطلعها:

مَثِّلْ وقوفَك أيها المغرور يومَ القيامةِ والسَّماءُ تمورُ

وفيها:

أَنَهَيْتَ عن شُرْبِ الخمورِ وأنت مِنْ كأسِ المظالمِ طافحٌ مخمورُ[٤]

في إشارة إلى المكوس التي كان يأخذها نور الدين من رعيته، ثم يعقب أبو شامة على هذه الأبيات بقوله: «ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحركة إلى إبطال تلك المظالم، والخلاص من تلك المآثم»[٥].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٩٤، وانظر كذلك رده على أبي الحكم الأندلسي: ٣/ ٣٩٥-٣٩٦.

(٢) انظر «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٨٤، ٤/ ٢٠٥.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٥٤.

(٤) «كتاب الروضتين»: ١/ ٥٥.

(٥) «كتاب الروضتين»: ١/ ٥٦.

وكذلك يناقش بهدوء المؤرخ ابنَ أبي طي الحلبي فيما يورده من أخبار تكشف عن فتور العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين عقب تولي صلاح الدين مصر، فهو يعترف بادئ ذي بدء بهذا الفتور الذي يعتري أي إنسان لسبب من الأسباب، لأنه مما تقتضيه الطباع البشرية والجبلة الآدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك إلا من عصمه الله، ومن أنصف عذر، ومن عرف صبر[١].

ثم يرد هذا الفتور، والاختلاف بينهما إلى سببه، فيقول: «والذي أنكره نور الدين إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال، واستبداده بذلك من غير مشاورته»[٢].

بيد أنه يأخذ على ابن أبي طي مبالغته في تصوير هذا الفتور، ويعارضه بكتاب لنور الدين قرأه بخطه يشكر فيه صلاح الدين، فيقول: «وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي»[٣].

ويرى وراء مبالغة ابن أبي طي هذه محاولة منه للطعن بنور الدين، مصوراً إياه حاكماً يتآكله الحسد من صعود نجم صلاح الدين، ثم يبين السبب الذي دفع ابن أبي طي لقول ما قاله في نور الدين، فيقول: «مع أن ابن أبي طي متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، وذلك لأن نور الدين ـ رحمه الله ـ كان قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم، وقوى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طي من رؤوس الشيعة، فنفاه عن حلب، وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه مفرقاً في مواضع، فلهذا هو في هذا الكتاب الذي له كثير الحمل على نور الدين، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به»[٤].

وهكذا نرى أبا شامة في نقده يتبع المنهج التاريخي، فهو يعترف بما وقع، غير

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١١٨.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١١٩.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١١٨، وانظر كذلك: ٢/ ١١١-١١٣.

أنه يحيله على الأسباب الحقيقية التي كانت وراءه، بعيداً عن العصبية والضغينة التي تشوه وجه الحقيقة التاريخية، معترفاً بالمشاعر الإنسانية، وما تمليه من مواقف، راداً الأخبار بوثائق تدحضها، كاشفاً عن السبب الذي يحرف المؤرخ عن حياده.

وبحس المؤرخ المرهف يستشرف أبو شامة آفاق هذا الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين، ويضعه في سياقه التاريخي الذي آل إليه، فيرى أنه خلاف حول بعض الوسائل، ولا يمس الهدف الأكبر الذي كان واحداً عندهما، وفي لفتة بارعة حقاً يكتب: «ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدين من بعده لقرت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها»[1].

وكان ديدن أبي شامة فيما نقل عن ابن أبي طي أن يتتبع ما وقع له من أوهام[2].

* * *

ولا يفارقه منهجه التاريخي في النقد، وهو يرد على ابن الأثير، ذلك المؤرخ الجليل، فحين يورد ابن الأثير أبياتاً لابن منير في غزاة وقعت سنة (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)، يقول أبو شامة: «وقد سبق أن ابن منير توفي سنة (٥٤٨هـ)، فإما أن يكون ابن منير قال الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة»[3].

وحين يذكر ابن الأثير خاتون زوج قطب الدين مودود حاكم الموصل، ويقول فيها: إنها أشبهت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز، كان لها أن تضع خمارها عن ثلاثة عشر خليفة. ثم يعددهم ابن الأثير، فيعقب عليه

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٣١٠-٣١١.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣١٨-٣١٩، ٣٨٤.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٢٢-٣٢٣.

أبو شامة بقوله: «وهذا كله مبني على أصل فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزومية، ولكن الصواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عن عشرة من الخلفاء. أما عاتكة فاثني عشر خليفة، وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية»[١].

ويَهِمُ ابن الأثير في تسمية أحد ملوك السلاجقة، وهو ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد، فيسميه ابن الأثير: ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فيرد أبو شامة عليه وهمه، مبيناً أن من أولاد السلطان محمود: ألب أرسلان، والآخر يعرف بالخفاجي، ويسمى فرخشاه[٢].

وينقل عن ابن الأثير قوله في البيمارستان النوري بدمشق: «بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير». فيسارع أبو شامة إلى الكشف عن كتاب وقفه، فيرى أنه غير مشعر بذلك، وأن ما ينقله ابن الأثير هو ما يشاع على ألسنة العامة، ثم يورد ما جاء في كتاب الوقف[٣].

❁ ❁ ❁

ولا يتوانى أبو شامة في التعليق على الأخبار من جانبها الفقهي إذا استدعى سياقها ذلك، وهو الفقيه، فحين يرى أن كتب القاضي الفاضل غالباً ما يختمها بالدعاء، معلقاً إجابته بالمشيئة، قائلاً: إن شاء الله تعالى. فينبه أبو شامة على ذلك بقوله: «التعليق بالمشيئة غير لائق بالأدعية»، ثم يسوق حديثاً شريفاً يؤيد قوله[٤].

وكذلك حين يورد ابن الأثير خبراً عن الصالح إسماعيل بن نور الدين، وقد اشتد به المرض، فوصف له الأطباء شرب الخمر تداوياً بها، فقال: لا أفعل حتى

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٣١ـ٢٣٢.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ١٥١.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٤٥ـ٤٦.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٩١ـ٩٢.

أستفتي الفقهاء. وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي، فأفتاه بجواز شربها. فيعقب أبو شامة بقوله: «يحتمل أنه ذكر له أن من العلماء من ذهب إلى جواز ذلك، لا أنه يرى ذلك، فإن مذهبه بخلافه، والله أعلم»[١].

❁ ❁ ❁

وكان أحياناً ينقد الأخبار نقداً عيانياً إن صح التعبير، وذلك من خلال زيارة مكان الخبر ومعاينته، فحين يذكر ابن الأثير رباط وزير الموصل جمال الدين في المدينة المنورة، يقول: «وبينه وبين قبر النبي ﷺ خمسة عشر ذراعاً...»، فيتعقبه أبو شامة بقوله: «كذا قال ابن الأثير، وقد رأيت المكان، ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي ﷺ لا نفس القبر الشريف، زاده الله شرفاً، وصلى على ساكنه»[٢].

❁ ❁ ❁

وإذا ما أورد أبو شامة شعراً، فإنه يصحح نسبته إلى قائله، من ذلك ما ساقه ابن الأثير من أبيات في حادثة ضياع خاتم نور الدين في سنة (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) ناسباً إياها إلى بعض الشاميين، قائلاً: «وأظنه أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحه بها، ويهنئه بهذه الغزاة، وعود الفص الياقوت».

فيتعقبه أبو شامة بقوله: «هذه الأبيات لابن منير بلا شك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة (٥٤٨هـ)»، ثم يبين مناسبة قول هذه الأبيات على الصواب[٣].

وحين يسوق العماد الكاتب أبياتاً في ترجمة الجليس بن الجباب على أنها من شعره، يتعقبه أبو شامة بأن هذه الأبيات تمثَّل بها الجليس، وهي للشاعر صردر، وقد قرأها في ديوانه[٤].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٧٦.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٤٢٨.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٤٣٧ـ٤٣٨.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٨ـ٩.

ولا يغفل أبو شامة نقد الشعراء، فحين استفتح عمارة اليمني قصيدته الميمية في مدح الفائز بن الظاهر، ووزيره طلائع بن رُزِّيك، بقوله:

الحمدُ للعِيْسِ بعد العَزْمِ والهِمَمِ   حَمْداً يقومُ بما أَوْلَتْ من النِّعَمِ

يقف أبو شامة عند هذه الافتتاحية قائلاً: «وشعر عمارة كثير حسن، وعندي من قوله: الحمد للعيس ـ وإن كانت القصيدة فائقة ـ نفرة عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا: الحمد لله، ولا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله تعالى عز وجل، فله الحمد وله الشكر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الربوبية المقدسة، على ذلك اطرد استعمال السلف والخلف، رضي الله عنهم»[1].

فلم يتسامح أبو شامة مع هذا التعبير الغريب برغم إعجابه بالقصيدة، وإعلانه ذلك.

ومن ثم يتضح لنا مجازفة بعض الأساتذة الكبار، ممن تصدى للتأليف التاريخي في عصرنا، حين يقول: «إن السالفين جميعاً بلا استثناء ساروا على طريقة النقل من المراجع الكبيرة والصغيرة والمعاصرة وغير المعاصرة، دون رجوع إلى العقل والسنن الكونية، فضلاً عن قواعد الجرح والتعديل»[2].

وما أدري حقاً كيف واتته هذه العبارة الجارحة، بهذا التعميم الذي يتنافى وأيسر قواعد المنهج العلمي القائم على الاستقراء التام، والتجوز في العبارة.

أذكر ذلك لأقول: حقاً نحن بحاجة إلى مراجعة لأقوال هؤلاء الأساتذة الكبار، الذين وضعتهم منزلتهم العلمية عند بعضهم فوق النقد، ولا يمكن أن تقوم حياتنا العلمية على أسس صحيحة إذا لم نشرع أبوابها للنقد النزيه، مناقشين الأفكار غير مجرحين لأصحابها، والله الموفق.

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٣٠٤ـ٣٠٥.

(٢) انظر مقدمة د. محمد مصطفى زيادة لكتاب «نور الدين والصليبيون»، تأليف د. حسن حبشي، طبعة القاهرة، دار الفكر العربي.

أبو شامة والشِّعْر

كان للشعر النصيب الأوفى في «كتاب الروضتين»، وقد أودع فيه أبو شامة كثيراً من القصائد والمقطعات التي لولاه لضاعت فيما ضاع من تراثنا الشعري، ويتبدى فيما أورده ولعه به، وتذوقه له، وإدراكه أهميته في الكتابة التاريخية، فقد ألقت هذه القصائد والمقطعات ظلالها على الكتاب بما بثته من مشاعر وأحاسيس وآمال، جعلت الحدث التاريخي ينبض بالحياة ونحن نعايش تلك القلوب التي عاصرته، وانفعلت به، فإذا بنا فيه، وقد نقلنا إليه أبو شامة بحسِّ المؤرخ ورهافة الأديب. وأكاد أجزم بأني لم أرَ مؤرخاً توسع في إيراد الشعر في كتابه كما فعل أبو شامة، ولعل مما سهل ذلك عليه اختصاره جملة من دواوينه[1].

وأول ما يلفت نظرنا أن أبا شامة ـ وهو المؤرخ ـ لم يكن يثبت منه في كتابه إلا ما تحقق من نسبته إلى قائله، فحين يسوق بيتي أسامة ابن منقذ في الضرس:

وصاحبٍ لا أَمَلُّ الدَّهْرَ صُحْبَتَهُ ... يشقى لنفعي ويسعى سَعْيَ مجتهدِ

لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا ... لناظريَّ افترقنا فُرْقَةَ الأبدِ

يقول: «ومن عجيب ما اتفق أني وجدت هذين البيتين مع بيتين آخرين،

---

(١) «المذيل على الروضتين»: ١/ ١٤٤.

المجموع أربعة أبيات في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الأطرابلسي، ومات ابن منير سنة (٥٤٨هـ) قرأت في ديوانه، وقال في الضِّرْس:

وصاحب لا أَمَلُّ الدَّهْرَ صُحْبَتَهُ   يشقى لنفعي وأجني ضرَّه بيدي

ثم قال:

أدنى إلى القلب من سمعي ومن بصري   ومن تِلادي ومن مالي ومن ولدي

أخلو بشيَ من خال بوجنته   مِداده زائدُ التقصيرِ للمَدَدِ

لم أره مذ تصاحبنا... البيت

فالأشبه أن ابن منير أخذهما وزاد عليهما، ولهذا غيَّر فيهما كلمات، وقد وجدت هذا البيت الأول على صورة أخرى حسنة:

وصاحب ناصح لي في معاملتي

ويجوز أن يكون أسامة أنشدهما متمثلاً، فنسب إليه لما كان مظنة ذلك، ويجوز أن يكون اتفاقاً، والله أعلم»[١].

بل إنه يتتبع المؤرخَ الذي ينقل عنه الشعر في ألفاظه، ليتحقق من صحة إيراده له، فحين نقل عن ابن أبي طي قصيدة ابن التعاويذي في مدح السلطان صلاح الدين في وقعة مرج عيون سنة (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) التي يقول فيها:

فهوت نجومُ سعودهم وقضى لهم   بالنَّحْسِ طائرُهُمْ بمرج عُيونِ

يتعقبه أبو شامة بقوله: «هكذا أنشده (يعني ابن أبي طي) وهو حسن، وقد كشفته من نسخة ديوان ابن التعاويذي، فوجدت آخر هذا البيت: طائر جَدِّك الميمون»[٢].

* * *

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٢ ـ ٣٣.

ولأبي شامة فيما يورده من أشعار ذائقة أديبة عالية، وأحياناً يعبر عنها باستحسانه بعض الأبيات بكلمات مجملة، لا يتعداها في الغالب إلى بيان مواطن جمالها.

فهو معجب أشد الإعجاب بشعر ابن القيسراني وابن منير الأطرابلسي، فهما من أفحل الشعراء ممن مدح نور الدين، ولهما فيه أشعار فائقة[١]، وهما في عصرهما بمنزلة الفرزدق وجرير[٢]، ومن أتى بعدهما ممن مدح نور الدين لم يبلغ شأوهما[٣].

ومعجب كذلك بالشاعر المصري أبي الحسن بن الذروي، فقد مدح القاضي الفاضل عند عوده من حجه سنة (٥٧٤هـ/ ١١٧٩م) بقصيدة حسنة[٤]، وقصيدته الذالية في المبارك ابن منقذ قصيدة غراء، قال فيها: «ما أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها لفظاً، وأروق معنى»[٥].

أما العماد الكاتب، فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه[٦].

ولعلم الدين الشاتاني مطلع قصيدة في مدح صلاح الدين يقوم مقام قصائد كثيرة[٧].

* * *

ولم يلتزم أبو شامة بإيراد القصيدة كلها في موضع واحد، وإنما يقطعها حسب

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٧٨، ٩١.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٩٣.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٩١.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢٢.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٧٦.

(٦) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٠٠، ٢/ ٣٥.

(٧) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٤٥٧.

المناسبة التي يقتضيها سياق الخبر، فقصيدة العماد الكاتب التي مدح فيها السلطان صلاح الدين في وقعة حطين، قدم منها أبياتاً في وصف كسرة حطين، وأبياتاً عند فتح القدس(١).

وكذلك أورد من قصيدة ابن جبير في مدح السلطان صلاح الدين ما يتعلق بإسقاط المكوس في حوادث سنة (٥٧٤هـ/ ١١٧٩م) وأورد باقيها في فتح القدس(٢).

وحين افتتح نور الدين قلعة أفامية، أورد أبياتاً من قصيدةٍ لابن منير في فتحها، ثم اختار أبياتاً من القصيدة نفسها في رثاء سيف الدين غازي أخي نور الدين(٣).

وللشعر عنده أهمية في تأريخ بعض الوقائع، فحين يذكر العماد الكاتب قصد الشاعر عرقلة الكلبي صلاح الدين في مصر، يجد أبو شامة مصداق ذلك في ديوانه، فيقول: «وفي ديوانه ما يدل على قدومه مصر»(٤).

ويستشهد بأشعار لعمارة اليمني يدلل بها على تعلقه بالفاطميين، وبغضه لصلاح الدين، وهي أبيات منتزعة من قصائد طويلة له(٥).

بل إنه يحاول من خلال الشعر أن يتبين حقيقة ما وقع، فهل كان عطاء بن حفاظ السلمي، أحد رجال مجير الدين أبق حاكم دمشق، متواطئاً مع نور الدين؟ أم أن الأبيات التي قالها ابن منير في مدحه قيلت لتكون سبباً في قتله(٦)؟

وثمة أخبار لا مصادر لها إلا أشعار الشعراء، من ذلك وصول خلع الخليفة

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٣٠١، ٣١٧، ٣٦٣-٣٦٤.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٢-١٤، ٣٧٢-٣٧٣.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٢١، ٢٢٩، وانظر ١/ ١٧٧، ١٨١-١٨٢، ١٩٨.

(٤) «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٢٩.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٩١.

(٦) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٠٣.

من بغداد إلى نور الدين سنة (٥٤٦هـ/ ١١٥١م) فقد استفاد ذلك أبو شامة من قصيدة لابن منير يمدح فيها نور الدين، ويهنئه فيها بوصول هذه الخلع على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون[١].

وكذلك غزاة الوزير طلائع بن رُزِّيك للصليبيين يفصل خبرها من خلال قصيدة أرسلها طلائع إلى أسامة ابن منقذ، شارحاً له فيها حال هذه الغزاة[٢].

وصلح نور الدين مع حاكم دمشق سنة (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) يؤيده بقصيدة للقيسراني يمدح فيها نور الدين لإبرامه هذا الصلح[٣].

وأحياناً تكون قصيدة شعر هي وراء وقعة من الوقائع، كما في قصيدة الواعظ أبي عثمان المنتجب بن أبي محمد البحتري الواسطي، التي كانت من أقوى الأسباب المحركة لنور الدين لإبطال المكوس[٤].

من ذلك نتبين أن أبا شامة كان من أولئك المؤرخين الذين اكتشفوا أهمية الشعر في تدوين التاريخ، وأنه من أهم مصادره فيه[٥].



(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٧٥.

(٢) «كتاب الروضتين»: ١/ ٣٦٣.

(٣) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٤٢.

(٤) «كتاب الروضتين»: ١/ ٥٥-٥٦.

(٥) انظر ما كتبه عن أهمية الشعر في تدوين التاريخ د. شكري فيصل في مقدمة تحقيقه لخريدة القصر، قسم شعراء الشام: ٣/ ١٣، وشارل عيساوي في كتابه «تأملات في التاريخ العربي»: ص١٤١، ود. نوري حمودي القيسي في كتابه «الشعر والتاريخ».

مختصرات «كتاب الروضتين»

اختصر أبو شامة كتابه «الروضتين» على عادته في اختصار بعض مؤلفاته[1]، غير أنه لم يسمه، فقد قال في أثناء كلامه على تصانيفه: «ومنها كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في مجلدين، ومختصره في مجلدة صغيرة»[2]، ولم يسمه كذلك في المقدمة القصيرة التي استهلَّ بها هذا المختصر[3].

وكان العلامة المحدث الشيخ خليل بن كليكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي[4] قد نقل هذا المختصر من خط أبي شامة، ثم زاد على مختصره، فقال: «وزدت على مختصره هذا فوائد وتتمات حسنة كانت عندي معلقة من كتابه الكبير المسمى بالروضتين»[5] وقد جاء على غلاف نسخته التي بخطه: «كتاب عيون

---

(١) انظر «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٢) المصدر السالف، ومن مختصره هذا نسخة في مكتبة كوبريلي بتركيا برقم (١١٥٣) ذكر المنجد أنها بخطه، وقد اطلعتُ عليها في زيارتي لاستانبول، ولم أجد ما يدل على أنها بخطه، والله أعلم. انظر «معجم المؤرخين الدمشقيين» للمنجد: ص١٠٢.

(٣) انظر ص ٤٠١ من هذا الكتاب.

(٤) كان إماماً في الحديث والفقه والنحو والأصول، ولد سنة (٦٩٤هـ)، وتوفي سنة (٧٦١هـ)، له ترجمة في «ذيل العبر» للحسيني: ص٣٣٥، و«الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٤١٠-٤١٦، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ١٠/ ٣٥-٣٨، و«الدرر الكامنة»: ٢/ ٢١٣-٢١٥.

(٥) «عيون الروضتين»: ١/ ١٧٤، ١٧٩.

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تصنيف الشيخ الإمام العلامة، جامع الفضائل شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي المعروف بأبي شامة، رحمة الله عليه، وهو مشتمل على المختصر الذي اختصره المصنف من كتابه المذكور جميعه، وعلى زيادات كثيرة من الأصل الكبير، وشيء من غيره أيضاً، جمع ذلك وكتبه خليل بن العلائي الشافعي، غفر الله له»[١].

وهذا يدل على أن «عيون الروضتين» هي التسمية التي وضعها العلائي لمختصر أبي شامة والزيادات التي جمعها، وقد جاء في خاتمته: «آخر المختصر والمضاف إليه كلاهما من كتاب الروضتين، فرغ منه كتابة وتنقيحاً خليل بن كيكلدي العلائي الشافعي، لطف الله به، في بكرة يوم الثلاثاء، تاسع شهر ذي القعدة سنة ٧٣٤هـ بالمدرسة الصلاحية بالقدس الشريف»[٢].

وقد التقط د. صلاح الدين المنجد هذه الخاتمة، وجعلها عنواناً لكتاب العلائي، فذكر في مؤلفاته: المختصر والمضاف لكتاب الروضتين لأبي شامة[٣]، ثم ذكر أن نسخة منه في المتحف البريطاني برقم (٥٥٤)، اسمها «عيون الروضتين في أخبار الدولتين»[٤].

نسخة العلائي هذه طبعت بتحقيق الأستاذ أحمد البيسومي، وصدرت عن وزارة الثقافة بدمشق سنة (١٩٩١م)، على أنها مختصر أبي شامة لكتابه، وقد أغفل محققها على غلاف الكتاب ما قام به العلائي، مقتصراً فيه على ذكر أبي شامة، وكأن الكتاب هو من اختصار أبي شامة وحده، بل إن محققه نسب تسميته «عيون الروضتين» لأبي شامة دون أن يبين مستنده في ذلك[٥]!.

---

(١) انظر غلاف نسخة المتحف البريطاني في «عيون الروضتين»: ١/ ١٧٣، وانظر كذلك «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية)، القسم الثالث (٥-٦): ص٣٨٣.

(٢) انظر «عيون الروضتين»: ٢/ ٣٣٢.

(٣) «معجم المؤرخين الدمشقيين»: ص١٨١.

(٤) «معجم المؤرخين الدمشقيين»: ص١٨١-١٨٢.

(٥) انظر مقدمة المحقق لـ«عيون الروضتين»: ١/ ١١٦، ١٥٠.

وثمة اختصار آخر لكتاب الروضتين قام به عبد اللطيف بن محمد البهنسي[١]، أتمه سنة (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) منه نسخة في المكتبة الأحمدية بتونس برقم (٦٥٦١)[٢].

* * *

وإتماماً للفائدة أورد مقدمة أبي شامة لمختصره، وتبياناً لمنهجه فيه، قال أبو شامة: «الحمد لله على كل حال، وصلواته وسلامه على خير خلقه من الملائكة والأنبياء والأولياء والأبدال.

هذا مختصر كتاب الروضتين الذي كنت جمعته في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، وما جرى في زمانهما، اقتصرت فيه على الإشارة إلى الوقائع والنوازل، وبسط القول في وصف الملكين القائمين بتلك الفضائل، إذ كان قصدي بذلك الكتاب تنهيض همم الملوك إلى الاقتداء بهما، واستقباح التخلف عنهما، خوفاً من زلة القدم، فما بالعهد من قدم، وليشتهر فيما بعد فضلهما بتدوين ذكرهما، فلا ينسى بعد طول الزمان أمرهما، بل تعطر المجالس بأخبارهما، وتزين المحافل بتذكار أحوالهما، ومواظبتهما على الجهاد، وفتح البلاد، والنظر الدائم في مصالح العباد، فرضي الله عنهما، فما أكثر التأسف على زمانهما، ووفق ملوكنا لسلوك مسالكهما، والتخلق بأخلاقهما، آمين»[٣].



(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) «معجم المؤرخين الدمشقيين»: ص١٠٢.

(٣) انظر نسخة المتحف البريطاني في «عيون الروضتين»: ١/ ١٧٤.

طبعات «كتاب الروضتين»

طبع كتاب الروضتين أول ما طبع في مصر بمطبعة وادي النيل سنة (١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م) في جزأين، الأول عن نسخة خطية فرغ من نسخها سنة (٧٣٤هـ)، والثاني عن نسخة أخرى فرغ من نسخها سنة (١١٢٣هـ) [١].

ثم ترجم إلى الألمانية سنة (١٨٧٩م).

ثم نشر المستشرق الفرنسي كاترمير (Quatremere)، منتخبات منه مع ترجمتها إلى الفرنسية، وطبعها في باريس سنة (١٨٨٨م) [٢].

وكان د. محمد حلمي محمد أحمد، المتخرج بدار العلوم بمصر سنة (١٩٤٤م) قد أوفد في بعثة علمية لانجلترا لنيل درجة الدكتوراه، فتقدم إلى جامعة لندن برسالة عنوانها: دراسة حول أعمال أبي شامة[٣].

Studies on the Works of Abu Shama; 1951

غير أن هذه الدراسة لم تنشر[٤].

---

(١) انظر طبعة وادي النيل: ١/ ٢٧٩، ٢/ ٢٤٥.

(٢) «التعريف بالمؤرخين»، لعباس العزاوي: ص٨٥.

(٣) انظر «من أعلام دار العلوم د. محمد حلمي» مقال بندوة التاريخ الإسلامي للدكتور عبد الله جمال الدين مج٩/ ١٩٩٢.

(٤) مقدمة د. محمد حلمي: ص٦٢ من نشرته لـ«كتاب الروضتين».

وقد تصدى من بعد لتحقيق «كتاب الروضتين»، فأصدر القسم الأول من الجزء الأول سنة (١٩٥٦م)، والقسم الثاني من الجزء الأول سنة (١٩٦٢م)، وقد نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة. ثم توقف صدور الكتاب.

وقد قدم د. محمد حلمي في القسم الأول من الجزء الأول دراسة عن أبي شامة، يغلب على الظن أنها ملخصة عن دراسته.

ولم يستطع في دراسته هذه أن يصور لنا حياة أبي شامة تصويراً متكاملاً في مراحلها كلها، بل كان يقفز فيها عبر السنين إلى بعض أحداث حياته حسبما يتفق له من أخبارها، تاركاً فجوات لم يستطع معرفتها، خالصاً إلى استنتاجات خاطئة أحياناً، وأحياناً تفتقر إلى الدقة العلمية، قاده إليها استقراؤه الناقص لأخباره، وقصوره في تحليلها، فكان مما وصل إليه أن الغموض يكتنف حياة أبي شامة في جميع مراحلها[1]، ومع غموضها عنده استنتج أنها في مجموعها كانت حياة سهلة مطمئنة، وأنه لم يعترضه من الصعوبات ما يعكر صفوها، أو يخرج بها عن هدوئها واستقرارها[2].

ومن ثَمَّ اضطرب في تعيين السنوات التي أقام بها في المدارس التي دَرَسَ بها أو دَرَّس بها، فكان من جملة ما قال: «من غير الممكن القطع بتاريخ انتقاله من المدرسة العزيزية التي كان مقيماً بها حوالي سنة (٦١٥هـ) إلى المدرسة العادلية التي ثبت استقراره بها سنة (٦٣٤هـ)، ويبدو أن إقامة أبي شامة بهذه المدرسة الأخيرة بين سنتي (٦٣٤ ـ ٦٥٦هـ) كانت متصلة لم يقطعها إلا مدة انصرافه إلى بساتينه الخاصة»[3].

وهذه كلها أقوال مبتسرة، لا تقوم على منهج علمي يتهدَّى في جمع مادته من

---

(١) مقدمة د. محمد حلمي لنشرته لـ«كتاب الروضتين»: ص٦، ٧.

(٢) المصدر السالف، ص١١.

(٣) المصدر السالف، ص٧.

مظانها، ثم يحلّلها التحليل الكاشف لمعناها وسياقها، ولن أقف هنا للرد على ما قاله، وما فاته من مراحل حياة أبي شامة الهامة، ففي دراستي عن أبي شامة التي بين يديك ـ أيها القارئ الكريم ـ رد علمي على هذا الاضطراب والابتسار(١).

أما تحقيقه لـ«كتاب الروضتين» فقد وقع فيه بأوهام تشعرك حقاً أنه كان غريباً عن النص، غريباً عن روحه وأماكنه وحوادثه(٢).

وهكذا بقي كتاب «الروضتين بين أيدي الباحثين والقارئين موزعاً بين طبعته القديمة، ونشرة د. محمد حلمي الناقصة.

وكانت فكرة تحقيقه كاملاً تراودني منذ قراءتي له، واهتمامي بأخباره في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، حتى عزمت أمري أخيراً، وهيأت نسخه الخطية(٣)،

---

(١) وقد عوّل على ما كتبه د. محمد حلمي كلٌّ من د. حسين عاصي في كتابه «المؤرخ أبو شامة وكتابه الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» دون أن يشير إليه إلا لماماً، وقد نشره في دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).
وإبراهيم فرغلي في كتابه «المؤرخ السوري أبو شامة، دراسة في المؤلفات والمنهج» وقد نشرته العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى سنة (١٩٩٨م). وقد غلب على كتابه الاضطراب والتفكك والتكرار الممل والنقل الجامد، مما أوقعه في أخطاء فاحشة، منها جعله المحدث الكبير أبا طاهر السلفي المتوفى سنة (٥٧٦هـ) من تلاميذ أبي شامة، وذكره أن أبا شامة اعتمد على النسوي وهو يتحدث عن وقائع التتار وحروبهم في الشام، علماً أن حروبهم كانت سنة (٦٥٨هـ)، وقد توقف النسوي في سيرته سنة (٦٢٨هـ)! انظر ص٢٣، ١٢٣ من كتابه.
وتبقى مقالة د. نقولا زيادة التي نشرها في مجلة الفكر العربي العدد ٢٧ السنة الرابعة (١٩٨٢م): ص٢٢٠ـ٢٤٣ هي الأرقى والأحسن، وإن كان جلّ اعتماده فيها على د. محمد حلمي، ولم يأت فيها بجديد.

(٢) انظر مقدمتي لتحقيق «كتاب الروضتين»: ١/ ٦ـ٨.

(٣) وصفت هذه النسخ في مقدمة تحقيقي لـ«كتاب الروضتين»: ١/ ٨ـ١٠، ٣/ ٥م ـ ٨م.

وشرعت في تحقيقه مع بداية عام (١٩٨٨م) وفرغت منه سنة (١٩٩٦م)[١]، وقد صدر ـ بحمد الله ـ في خمسة أجزاء عن مؤسسة الرسالة في بيروت سنة (١٩٩٧م)[٢].

ومن الموافقات الجميلة أنني عشت في المكان الذي عاش فيه أبو شامة، وحققت كتابه في المكان الذي ألفه فيه؛ وهو المدرسة العادلية الكبرى[٣] . . فكثيراً ما كنت ألقي بالقلم، وأتمشى في باحتها، متفيئاً ظلال أشجار الليمون والنَّارَنْج، متحسِّساً نبض الأحجار التي اكتحلت عيونها برؤيته، شاعراً أن ما يفصلني عنه ليس تسعة من القرون، بل لا يكاد أن يكون تسعاً من السنوات.



---

(١) انظر خاتمتي لتحقيق «كتاب الروضتين»: ٥/ ٥.

(٢) في هذا العام نفسه صدرت في القاهرة تتمة نشرة د. محمد حلمي، وكان قد أتم تحقيقه قبل وفاته سنة (١٩٨٤م)، رحمه الله.

(٣) انظر ص ٤٥ من هذا الكتاب.

المُذَيَّل على الروضتين

متى ألف كتاب «المذيل على الروضتين»؟

ألمعنا فيما سلف إلى أن أبا شامة حين انتقل من القراءة في التاريخ إلى التدوين فيه خطر له أن يؤلف كتاباً في التأريخ لوقائع عصره[1]، وذلك سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) وكان في نحو الخامسة والعشرين من عمره، وهي السنة التي توفي فيها الملك المعظم عيسى بن العادل[2]، بيد أنه لم يباشر تدوينه حتى سنة[3] (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م). وقد افتتحه بأهم حدثين وقعا في سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، وهما فجيعة الناس فيها بوفاة إمامين جليلين من أئمة دمشق: شيخ الشافعية فخر الدين ابن عساكر، وشيخ الحنابلة موفق الدين ابن قدامة[4].

ثم راح يدون ما جرى بعدهما من الوقائع مما هو مستحضره حتى آخر سنة (٦٢٤هـ[5]/ ١٢٢٧م).

وابتداء من سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) أطلق لقلمه العنان في التأريخ لما جرى في زمانه مما عاينه، أو بلغه مما استثبته، ذاكراً في كل سنة من مات بها من المعارف

---

(١) انظر ص ٣٥٢ من هذا الكتاب.

(٢) انظر «المذيل على الروضتين»: ١/ ٢٣-٢٤، وص ٦٩ من هذا الكتاب.

(٣) انظر ص ٨٢ ـ ٨٣، ٢٧٩ من هذا الكتاب.

(٤) «المذيل»: ١/ ٢٤، ٢٦.

(٥) «المذيل»: ١/ ٢٤.

والإخوان، والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان[١]، ولم يضع له عنواناً يعرف به، ولا غاية يصل إليها، وقد كتب له مقدمة ذكر فيها باعثه على تأليفه[٢].

وظل هذا دأبه على مرّ السنين، وكان في أثناء ذلك قد فرغ من تأليف كتابه «الروضتين»[٣]، وبرغم أنه لم يكن من شرطه فيه ذكر ما جرى من وقائع بعد وفاة صلاح الدين، غير أنه ألفى نفسه يلم ببعض ما جرى حتى وقف عند وقائع سنة[٤] (٥٩٧هـ/ ١٢٠١)م.

وظلت رغبته في التأريخ لما جرى بعد وفاة صلاح الدين تعتمل في نفسه حتى كانت سنة[٥] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، وقد أتم من عمره الستين، وهنا خطر له خاطر: لم لا يجعل تاريخه هذا مذيلاً على كتاب الروضتين[٦]؟ مستدركاً فيه ما وقع عقب وفاة صلاح الدين منذ سنة (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) وحتى سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) وبذلك يصل ما انقطع، وتكتمل الصورة، وتتعاقب الأحداث حتى زمنه.

ومن ثَمَّ كرَّ أبو شامة على تاريخه هذا يستدرك فيه ما فاته تدوينه منذ سنة (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) حتى سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م)، ثم راح يوسع ما كان قد كتبه من سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) إلى سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) معتمداً في بعض أخباره فيه على من سبقه من المؤرخين ممن عاصر أحداث تلك السنين كسبط ابن الجوزي، وعز الدين محمد بن تاج الأمناء ابن عساكر، وقد كتب لتاريخه هذا مقدمة جديدة، افتتحه بها، وسمَّاه فيها «المذيل على الروضتين»[٧].

---

(١) «المذيل»: ١/ ٢٣.

(٢) «المذيل»: ١/ ٢٣ـ٢٤.

(٣) انظر ص ٣٥٩ من هذا الكتاب.

(٤) انظر ص ٣٥٩ من هذا الكتاب.

(٥) أكثر أبو شامة من الإشارة إلى ذلك في غير ما موضع من مذيله، انظر ص١٤٣، ٢٢٢ من جزئه الأول.

(٦) انظر «المذيل»: ١/ ٥٥ـ٥٦.

(٧) انظر «المذيل»: ١/ ١١ـ١٢ من مقدمتي لتحقيقه.

ولما أتم استدراكه هذا استأنف تدوين ما كان يعيشه من وقائع حتى كبا قلمه ـ وقد اعتدي عليه بالضرب المبرح[١] ـ قبل نحو شهر من وفاته سنة[٢] (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م).

فكان هذا الكتاب أول مؤلفات أبي شامة التاريخية وآخرها.



(١) انظر ص ٣٣٩ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ من هذا الكتاب.

موارد أبي شامة في «المذيل على الروضتين»

أما وقد حددنا زمن تأليف أبي شامة للمذيل نتبين أنه مرَّ بمرحلتين في تأليفه:

المرحلة الأولى: وهي التي ابتدأها أبو شامة من سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) إلى آخر الكتاب، وكان فيها شاهد عيان لكثير من وقائعها.

والمرحلة الثانية: وهي التي استدرك فيها ما فاته تدوينه، ابتداء من سنة (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) وهي السنة التي أعقبت وفاة صلاح الدين، إلى سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) مع ما أضافه إلى ما كتبه سابقاً من سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) إلى سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) وقد اعتمد في بعض أخبار هذه المرحلة على من سبقه من المؤرخين.

فكانت المرحلة الثانية هي جزؤه الأول من الكتاب، أما المرحلة الأولى والتي تبدأ من سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) إلى آخر الكتاب، فهي جزؤه الثاني[١].

فما هي موارده في التأريخ لتلك المرحلتين؟

❁ ❁ ❁

سأبدأ بالجزء الأول، الذي يضم المرحلة الثانية من تأليفه[٢]، ولن أقف فيه

---

(١) انظر «المذيل»: ١/ ١٤ من مقدمتي لتحقيقه.

(٢) ألحق أبو شامة السنوات (٦٢٠ـ٦٢٤هـ) التي توسع في أخبارها في المرحلة الثانية إلى الجزء الأول.

على ما نقله عن سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، فقد صرح بالنقل عنه في أكثر المواضع، ويمكن الاهتداء إلى نقوله التي لم يصرح بها بما علقته عليها أثناء تحقيقي لكتابه، ولا تثريب على أبي شامة فيما نقل عنه، فأكثر حوادث تلك السنين لم يكن قد شهدها، ما شهده منها، فإنه لم يكن بذلك الوعي التاريخي الذي يمكنه من الكتابة عنها.

بيد أن ما يهمني حقاً هو أن أقف على من نقل عنه أبو شامة غير سبط ابن الجوزي، ثم أقف من بعد على ما انفرد بكتابته عن هذه المرحلة، لأتبين إلى أي مدى كان تاريخه هذا مفارقاً لتاريخ «مرآة الزمان».

وأول من يطالعك بالنقل عنه إلى جانب سبط ابن الجوزي هو عز الدين محمد بن تاج الأمناء أحمد بن محمد ابن عساكر، المتوفى سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) وكان له عناية بعلم التاريخ[١]، وقد ترك فيه تعاليق في جريدة، جمع فيها الغث والسمين[٢]، ووقف أبو شامة على تعاليقه هذه بخطه[٣]، ونقل عنه في المواضع الآتية من هذا الجزء الأول:

٨٧، ٩٦ـ٩٧، ١١٦ـ١١٧، ١٢٦، ١٦٢ـ١٦٣، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ٩١، ١٩٦، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٧، ٣١٢.

وثاني من نقل عنه، وكان يكتفي أحياناً بالإحالة عليه هو أبو العرب إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري القوصي، المتوفى سنة (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م) فقد ألف معجماً في شيوخه، سمي «معجم القوصي»، طالعه أبو شامة، ورأى فيه أغاليط كثيرة، وتصحيف أسماء وتبديلها[٤]، وقد نقل عنه في المواطن التالية: ٩٤ـ٩٥، ٣١٨.

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٧٠.

(٢) «تاريخ الإسلام» للذهبي: ١٤/ ٤٦٧، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٣م.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٧٠.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٠٥.

ثم نقل عن تاريخ إربل لابن المستوفي: ١٦٨-١٦٩، ١٨٢.

وعن الدبيثي في تاريخه: ٢١٢.

وعن العماد الكاتب في «خريدة القصر»: ١٣٤.

واطلع على ديوان أبي اليمن الكندي بخطه، وفهرست كتبه: ٢٧٥.

ونقل عن عمه أبي القاسم من تعليقاته: ١٩٧.

وعن محمد بن أحمد النسوي في «سيرة جلال الدين منكبرتي»: ٢٨٢.

* * *

أما نقله مشافهة عمن عاصر تلك السنين، فهم:

١- شيخه علم الدين السخاوي: ١٦٠، ١٢١، ٢٧١-٢٧٣، ٣٤٤.

٢- الشيخ عماد الدين ابن الحرستاني: ١١٩-١٢٠، ١٢٣، ٢٩٥-٢٩٦.

٣- والده إسماعيل: ٢٤٢.

٤- ضياء الدين بن أبي الحجاج: ٢٧٠.

٥- صاحبه جمال الدين أحمد بن عبد الله بن شعيب: ٢٧٦.

٦- عن بعض الحجاج: ٣٣٢.

٧- عمن لم يسمه: ١٩٦.

* * *

أما ما انفرد به أبو شامة في هذا الجزء، فهو في المواضع التالية:

١٢٣، ١٣٦-١٥٣، ١٥٧-١٥٨، ١٦٠-١٦١، ١٧٤-١٧٥، ١٨٣، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ٢٢٢-٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٤٠، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٨، ٢٧٥، ٢٩٠-٢٩١، ٢٩١-٢٩٤، ٢٩٩، ٣٠٤-٣٠٥، ٣٠٧، ٣١١، ٣١٧-٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١-٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥-٣٢٦، ٣٢٧، ٣٤٧ - ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٠-٣٦٧، ٣٦٧ - ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢،

٣٧٤ـ٣٧٦، ٣٧٨ـ٣٨٠، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٧ ـ ٣٨٨، ٣٨٩ـ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٦ـ٣٩٧، ٣٩٧ ـ ٣٩٩.

وفي هذه المواضع معلومات هامة، سأشير إلى بعضها:

١ـ ترجمته لنفسه: ١٣٦ـ١٥٣.

٢ـ وصف مجالس وعظ سبط ابن الجوزي في جامع دمشق: ١٦٠ـ١٦١.

٣ـ ترجمة عيسى بن يوسف الغَرَّافي: ١٧٤ـ١٧٥.

٤ـ ترجمة جمال الدين إقبال الخادم: ١٨٣.

٥ـ خبر دخول فرنجي أسير إلى جامع دمشق، وقتله لبعض المصلين: ١٩٤.

٦ـ موقع قبر أبي عمر المقدسي: ٢٢٢ـ٢٢٣.

٧ـ عمارة المصلى بظاهر دمشق: ٢٢٥ـ٢٢٦.

٨ـ تجديد أبواب جامع دمشق الغربية: ٢٢٦.

٩ـ إحداث العادل تركيب سلاسل على أفواه السكك المجاورة لجامع دمشق: ٢٤٠.

١٠ـ ترجمة الفقيه مودود بن الشاغوري: ٢٥٨.

١١ـ بعض ما ورد في ترجمة العماد المقدسي: ٢٩٠ـ٢٩١.

١٢ـ معظم ما ورد في ترجمة أبي القاسم ابن الحرستاني: ٢٩١ـ٢٩٤.

١٣ـ وصف برج السلسلة في دمياط: ٢٩٩.

١٤ـ بعض ما جاء في ترجمة العادل: ٣٠٤ـ٣٠٥.

١٥ـ بعض ما جاء في ترجمة الطاهر بن محيي الدين بن الزكي: ٣١٧ـ٣١٨، ٣١٩.

١٦ـ ترجمة ابن نسيم كاتب طباق السماع من الحافظ ابن عساكر: ٣٢٦.

١٧ـ وصف الدرس الأول في المدرسة العادلية الكبرى بعد افتتاحها: ٣٥١ـ٣٥٢.

١٨ـ ترجمة فخر الدين ابن عساكر، وقد أطال النفس فيها.

ولم ينقل منها عن سبط ابن الجوزي سوى سبعة أسطر: ٣٦٠ـ٣٦٧.

١٩ـ بعض ما جاء في ترجمة الموفق ابن قدامة: ٣٦٧ـ٣٦٨، ٣٦٩ـ٣٧٠، ٣٧٢.

٢٠ـ مشاهداته في حجتيه: ٣٧٤ـ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٠.

٢١ـ ترجمة جمال الدين المصري: ٣٨٧ـ٣٨٨.

٢٢ـ ترجمة تقي الدين خزعل: ٣٨٩ـ٣٩٠.

٢٣ـ ترجمة زكي الدين بن رواحة: ٣٩١.

٢٤ـ سفره إلى بيت المقدس بصحبة العز بن عبد السلام: ٣٩٦ـ٣٩٧.

٢٥ـ ترجمة الملك المعظم عيسى بن العادل: ٣٩٧ـ، ٣٩٩

❁ ❁ ❁

أما الجزء الثاني، وهو يضم المرحلة الأولى من تأليفه التي تبدأ من سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٨م) إلى سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) فقد انفرد فيه بتأريخ ما جرى في زمانه مما عاينه، أو بلغه مما استثبته[1]، ولم يحل فيه إلا في بعض المواضع على «معجم القوصي»، وهي: ٦، ٢٢، ٢٤، ٣٦، ٥٤.

ويضم هذا الجزء وثائق هامة اطلع عليها أبو شامة، وأثبتها في كتابه، وهي:

١ـ الكتب التي وردت إلى دمشق من المدينة المنورة، في شأن النار التي خرجت في خامس جمادى الآخرة سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م): ١٠٨ـ١١٤.

٢ـ كتاب من بعض من سلم من أهل بغداد بعد استيلاء التتار عليها: ١٢٥.

٣ـ فرمان هولاكو في أمان أهل دمشق وما حولها: ١٣٩.

٤ـ منشور هولاكو للقاضي كمال الدين التفليسي بتفويض القضاء إليه: ١٤٠.

---

(١) «المذيل»: ١/ ٢٣.

٥ـ فرمان هولاكو بتولية محيي الدين ابن الزكي القضاء: ١٤٤.

٦ـ كتاب بيعة الظاهر بيبرس للخليفة أبي القاسم العباسي: ١٦٢ـ١٦٣.

٧ـ تقليد الظاهر بيبرس ابن خلكان قضاء بلاد الشام: ١٦٧.

٨ـ كتاب يتضمن انتصار المسلمين على النصارى في الأندلس: ٢٠٨.

٩ـ عهود السلطان الظاهر بيبرس لثلاثة من القضاة: ٢١٤.

١٠ـ كتاب الظاهر بإلزام القاضيين الحنبلي والمالكي بتولي القضاء: ٢١٥.

١١ـ كتاب بعض أولاد الملوك يخبر فيه باستيلاء المسلمين على أسرى من الفرنج ناحية حصن الأكراد وأعمال طرابلس: ٢١٧.

١٢ـ كتاب يتضمن استيلاء عسكر الظاهر بيبرس على بلاد الأرمن سيس وما يجاورها، وأسر ملكها: ٢١٩.

❁ ❁ ❁

من هذا الاستعراض لموارد «المذيل» نتبين أصالة أبي شامة فيما أورده من أخبار ووقائع، ونتبين كذلك مدى الجور الذي طغى على قلم د. مصطفى جواد في حديثه عن «المذيل»، حين قال فيه: «طالعت هذا المذيل، وأكثر حوادثه مأخوذة من «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي، كما يعلمه القائم على طبعه، وكل قارئ لمرآة الزمان»[1].

وهذا الحكم لا يسلم له فيه حتى في الجزء الأول، إذ إن كثيراً من أخباره قد نقلها أبو شامة عن غير سبط ابن الجوزي كما بينت، إضافة لما كتبه هو من إنشائه.

أما في الجزء الثاني، فإن أبا شامة لم ينقل عن أحد البتة، لأنه قد اشترط فيه أن يؤرخ ما عاينه من الأحداث.

والعجيب حقاً أن من جاء من المؤرخين بعد د. مصطفى جواد كان أشد قسوة

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق: مج٢٣/ ٦١٩.

وجوراً في الحكم، فقد قال د. جوزيف نسيم في كتابه «العدوان الصليبي على بلاد الشام» حين حديثه عن مصادره فيه، وذكر أبا شامة، قال: «وله المذيل على الروضتين الذي لم يزد فيه شيئاً جديداً عما كتبه ابن الجوزي عن هذه الفترة...»[١].

وكذلك قال مثل قوله د. محمود سعيد عمران في كتابه «الحملة الصليبية الخامسة»: «لم يأتِ أبو شامة في كتابه المذيل على الروضتين بجديد أكثر مما ذكره ابن الجوزي، إذ يلاحظ أنه نقل عنه»[٢].

هكذا تطلق الأحكام من قبل مؤرخين محترمين حقاً، نقرّ لهم بالفضل والمعرفة، دون استقراء تام، أو تجوز في العبارة، فما بالك ممن يكتب في التاريخ، وهو متطفل على موائده!..



(١) «العدوان الصليبي على بلاد الشام»: ص٣٥، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (١٩٨٤م).

(٢) «الحملة الصليبية الخامسة»: ص٤١، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

منهج أبي شامة في «المذيل»

اختلف منهج أبي شامة في مذيله تبعاً لاختلاف المرحلتين من تأليفه كما بينت[1]، ففي جزئه الأول ـ وهو يمثل المرحلة الثانية من تأليفه، التي تضم حوادث سنة (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) حتى سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) ـ كان أبو شامة يتكئ في كثير من أخباره وتراجمه على من سبقه من المؤرخين ممن عاصر أحداث تلك السنين[2]، وكان يلمّ بالحدث من جوانبه كلها، ويطول النفس في بعض تراجمه، مستقصياً في المترجم كل ما يعرف عنه كي يتيح لنا معرفته معرفة تامة، مثل ترجمته لأبي اليمن الكندي، وأبي القاسم بن الحرستاني، وأبي عمر والعماد المقدسيين، وعبد الله اليونيني، وفخر الدين ابن عساكر، وموفق الدين ابن قدامة، وقد احتفظ لنا في هذا الجزء بنقول عن «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي لم تصل إلينا في مختصره لقطب الدين اليونيني[3].

فأبو شامة في هذا الجزء مؤرخ محترف، يجمع مادته وينتقيها وينسقها، ويضيف إليها من مشاهداته، وما سمعه من شيوخه، ثم يصوغها مرتبة على السنين،

---

(١) انظر ص٤١٣ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٤١٣ ـ ٤١٥ من هذا الكتاب.

(٣) انظر «المذيل»: ١/ ١٦٠، ١٩٥.

فعمله في هذا الجزء هو امتداد لعمله في «كتاب الروضتين» على نحوٍ ما، وعلينا ألا ننسى أن هذا الجزء قد استدركه وهو في نحو الستين من عمره كما أسلفت[(١)].

أما في جزئه الثاني ـ وهو يمثل المرحلة الأولى من تأليفه، التي تضم حوادث سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) حتى سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) ـ فمنهجه فيه مختلف تمام الاختلاف عن جزئه الأول.

في هذه المرحلة الأولى بدأ أبو شامة في التأليف التاريخي، وهو في نحو السابعة والعشرين من عمره[(٢)]، وقد أخذ على نفسه فيه أن يؤرخ ما جرى في زمانه مما عاينه، أو بلغه مما استثبته، وأن يذكر فيه من مات من المعارف والإخوان، والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان، وقد حداه إلى ذلك كثرة من يموت من المعارف، فأراد إثباتهم لعلّ بمطالعتهم يجد قلباً على الإقبال على الآخرة يساعف[(٣)].

ومن ثَمَّ لم يستقص فيه كل ما وقع في عصره من الحوادث إلا تلك التي شهدها، أو بلغته واستثبتها، ولم يترجم لمعاصريه إلا لمن يعرفه، ولن يذكر في ترجمته إلا ما ترك في نفسه من أثر ليعود إليه للذكرى، فهو بهذا المعنى إنما يكتب انطباعاته عن عصره ورجاله، فلا تعنيه الحادثة التي يدونها أن تكون قد وقعت على خلاف ما يعرفه، فهو لن يتتبع أخبارها، ولن يجمع أطرافها، سيكتفي في حديثه عنها بما شاهده منها، ولا يهمه ممن يترجم له ألا تكون له جوانب أخرى لم يتطرق إليها، لأن ما يكتبه عنه هو ما يعرفه فيه، ثم إنه لن يكتب إلا عمن يعرف، ولو كان من الأقارب والجيران، ممن تهمله عادة كتب التاريخ، ولهذا يمكن أن نعدّ ما كتبه أبو شامة في «المذيل» مذكرات تاريخية، يكاد يكتبها لنفسه، وقد ترك لقلمه أن ينثر فيه نتفاً من أخباره، وبعضاً من أحلامه، ولم يضع له عنواناً يعرف به، ولا غاية يصل إليها.

---

(١) انظر ص٤١٠ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٤٠٩ من هذا الكتاب.

(٣) «المذيل»: ١/ ٢٣ـ٢٤.

وهذا ما يفسر لنا غياب حوادث مهمة عن تاريخه لم يدونها، بل إنه لم يستقصِ ما دون فيها، مما يجعل القارئ لتاريخه لا يحيط بالحدث إحاطة تامة ما لم يرجع فيه إلى غيره من المؤرخين.

وهذا ما يفسر لنا كذلك غياب تراجم لأعلام كبار كانوا في عصره، أمثال الشاعرين الكبيرين فتيان الشاغوري وابن عُنين، والمؤرخ الكبير ياقوت الحموي، والملك الأمجد بهرام بن فرخشاه صاحب بعلبك، وغيرهم. ومن يفقد تراجم هؤلاء في تاريخه من المؤرخين والباحثين يتعجب[1] حقاً من ترجمته لأناسٍ لا تلتفت إليهم عادة كتب التاريخ، من أمثال محمد بن خليل الأكال، وعلي المغسل القباقبي ويوسف القميني[2]، ويستغرب وقوفه مطولاً أمام بعض الحوادث يفصل القول فيها في صفحات كحادثة صلب الفتى التركي[3]، مغفلاً حوادث قد تكون أعظم منها، بل يبيح لنفسه فيه أن يبوح بما لا يباح به عادة في كتب التاريخ من حبه لزوجته، وتغنيه بصفاتها بقصيدة طويلة[4]، أو ببثه شكواه مما يعانيه من بعض معاصريه من اغتياب وحسد وإهمال[5]، تاركاً أحياناً دموعه تتقاطر كلمات، وهو يتوجع لفقد أصدقائه وأحبابه[6].

لقد كان أبو شامة فيما يكتب صادقاً مع نفسه، فهو لا يكتب إلا ما يراه ويحس به، حتى لنكاد أحياناً أن نرى عصره من خلال عيونه ومشاعره، ونتحسس معه أوجاعه وأحزانه، وأفراحه وآلامه، ونعيش مع علمائه العاملين، وحكامه الفاسدين، وقضاته

(١) انظر «البداية والنهاية» لابن كثير (وفيات سنة ٦٢٨هـ) ترجمة الأمجد.
(٢) انظر تراجمهم على التوالي في «المذيل»: ٢/ ١٤٧، ٢١٣، ١٣٦.
(٣) انظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج٥/ ٣/ ١٤٤، و«المذيل»: ٢/ ٨٥ ـ ٨٨، وص ١٥٥ من هذا الكتاب.
(٤) «المذيل»: ٢/ ١٢٠-١٢٢، وص ١٩٣ من هذا الكتاب.
(٥) «المذيل»: ١/ ١٥٠.
(٦) «المذيل»: ١/ ٢٢٣، ٢/ ١٤-١٥.

الأتقياء والمرتشين، وزنادقته الإباحيين، وناسه البسطاء، وزهاده الأنقياء، بل نمشي معه في أزقة دمشق وحاراتها، ونتعرف معه إلى مدارسها ومساجدها، وأسواقها وقيسارياتها، وندخل معه جامعها الكبير، ونجلس بحلقته مع شيخه السخاوي، ونسكن في العادلية حيث كان يسكن، ونصلي معه في محرابها حيث كان يصلي.

لقد أودع أبو شامة في أخباره وتراجمه هذا الإحساس الشفاف الذي نفتقده عند غيره من المؤرخين، ومن لم يعايش أبا شامة فيما كتب وأحس سيجد متسعاً للقول فيه، وسيردد مع الأستاذ محمد كرد علي قوله فيه: «وتراجم من ترجم لهم غير مستوفاة على الأكثر، بل يورد الاسم وشيئاً من عمل صاحبه ووفاته.. ويلاحظ عليه أنه ذكر مولوداً، بل أولاداً ولدوا له، وغلاماً مات، وابناً له توفي، وأمه التي توفيت، وأخباراً في خصوصيات بيته ونفسه مثل صلاته على جنائز بعض المشايخ مما لا يدخل في كتاب يكتب للأمة، كما أنه ذكر بعض المؤذنين أو المعدلين أو التجار الذين لا شأن لهم، وكان الأولى أن يترفع تاريخه عن اسمهم، وقد أطال في أشياء لا تهم التاريخ بحال، مثل قصة الصبي التركي المصلوب، كتب فيها أربع صفحات، وحقها أن تكتب بأربع كلمات، أو تحذف لأنها خالية من الفائدة على ما رأيناه»(١).

ولعمري، أي عالم جميل كان سيغيب، وأي إحساس مرهف كان سيضيع، وأي صورة نابضة بالحياة كانت ستتلاشى لو أن أبا شامة كتب تاريخه وفق هذا المفهوم الضيق للتاريخ، الذي يستبعد تاريخ الناس، ويقتصر على تاريخ الحكام، حتى إننا في كثير من صفحات تاريخنا نرى حكاماً في قصور يحكمون مدينة من الأشباح، وتراجم لعلماء، وهم منكبون على تآليفهم كالتماثيل، لا تسمع منهم نبضة قلب، ولا تحس دفء شعور.

وإذا كان التاريخ حقاً هو التأريخ لتجربة الإنسان، لا لوقائع السلاطين وأحداثهم فحسب، فإن أبا شامة هو بحق من أوائل من جسد هذا المفهوم الرحب للتاريخ.

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق: مج٥/ ٣/ ١٤٤.

منهجه في نقد الأخبار في «المذيل»

تابع أبو شامة في «المذيل على الروضتين» منهجه النقدي الذي اتبعه في «كتاب الروضتين»، غير أن النقد فيه اقتصر على جزئه الأول، وهو الجزء الذي اعتمد فيه على من سبقه من المؤرخين.

فردَّ على ابن الدبيثي حين طعن في ابن المارستانية لروايته عن أبيه، قائلاً فيه: «وهذه قحة عظيمة، وأبوه عامي لا يعرف الحديث ولا سمعه، وكان قصده أن يقال عنه محدث بن محدث». فيتعقبه أبو شامة بهدوء العالم قائلاً: «هذا غلو من قائله، لا يلزم من كونه عامياً أن يكون له سماع في صغره يوماً ما، فلا يسمع قوله: ولا سمعه، فإنها شهادة على نفي»[1].

ويشير في ترجمة الموفق ابن قدامة إشارة عابرة إلى وهم ابن الدبيثي في ذكر مكان مولده[2]، بقوله: الدمشقي المولد[3]، والمعروف أنه ولد في قرية جمّاعيل قرب نابلس[4].

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٣٠.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣٦٨.

(٣) المختصر المحتاج إليه: ٢/ ١٣٤ـ١٣٥.

(٤) «طبقات علماء الحديث»: ٤/ ١٥٦.

ويتتبع أوهام سبط ابن الجوزي فيما نقل عنه من أخبار، فيشير إلى وهمه في سنة وفاة خوارزم شاه محمد بن تكش بأنها سنة خمس عشرة وست مئة، والصواب أنه توفي سنة[1] (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م).

ويشير كذلك إلى وهمه في سنة وفاة الوزير ابن شكر، وقد ذكر أنها كانت سنة (٦٣٠هـ)، فيتعقبه أبو شامة بقوله: «كذا ذكر سبط ابن الجوزي، هو وهم، وإنما توفي سنة اثنتين وعشرين»[2].

وأحياناً يسوق الترجمة وفق السنة التي ذكرها فيها سبط ابن الجوزي، غير أنه ينبه على خطئه فيها إن أخطأ، كما صنع في ترجمة عبد الرحمن اليمني الزاهد، فقد ترجم له في سنة (٦٢٠هـ) متابعاً له، ثم ذكره على الصواب في سنة (٦٢١هـ)، قائلاً: «وقد سبق ذكرنا له في سنة عشرين متابعة لأبي المظفر سبط ابن الجوزي، وإنما كانت وفاته في سنة إحدى وعشرين، رحمه الله»[3].

وحين لا يتبين له ترجيح رواية على رواية في خبر ما، يورد الأقوال كلها فيه، تاركاً للقارئ أن يحقق وجه الصواب فيها، ذلك ما فعله حين نقل عن سبط ابن الجوزي في حوادث سنة (٦٠٢هـ) اسم أمير حج الشام الشجاع علي بن السلار، فعلق أبو شامة على ذلك بقوله: «كذا قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي فيما نقلته من خطه، وقد نقلت من خط العز محمد بن تاج الأمناء، قال: وفي السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وست مئة نادوا الحج على أيلة صحبة ابن الجراحي»[4].

وكذلك فعل في ترجمة زين الدين قراجا الصلاحي حين نقل عن سبط

(١) «المذيل»: ١/ ٣٢٨.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣١١.

(٣) «المذيل»: ١/ ٣٧٧.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٧٠.

ابن الجوزي قوله فيه: «توفي بدمشق، ودفن بجبل قاسيون،وقبره عند تربة ابن تميرك في قبة على الجادة عن يمين السالك شرقاً». فيعلق أبو شامة على ذلك بقوله: «كذا قال أبو المظفر، وقال العز بن تاج الأمناء: توفي بالمعسكر على بحيرة قَدَس مرابطاً يوم السبت أول جمادى الأولى، وحمل إلى دمشق في محفة، فدفن بالمقبرة العادلية من جبل قاسيون حالة وصوله بكرة يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى المذكور»[١].

ومع ذلك فقد فاته التعقيب على بعض الأخبار التي نقلها عن سبط ابن الجوزي، والتي يغلب عليها المبالغة والتهويل مما يخرجها عن حد الصدق، فقد نقل عن السبط خبر الغرق الذي أصاب بغداد سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م) وقد بالغ سبط ابن الجوزي في تصوير آثاره، فقال: «وانهدمت بغداد بأسرها والمحال، ووصل الماء إلى رأس السور، وبقي مقدار أصبعين حتى يطفح على السور، فأيقن الناس بالهلاك، ودام سبع ليال وثمانية أيام، ثم نقص الماء، وبقيت بغداد من الجانبين تلولاً، لا أثر لها»[٢].

لم تستوقف أبا شامة هذه المبالغات التي انفرد سبط ابن الجوزي يذكرها، ولم يتابعه عليها أحد من المؤرخين، مما جعل الإمام الذهبي يعجب حقاً من سكوت أبي شامة عنها، وهو المعروف بدقة نقده، قائلاً: «والعجب من أبي شامة ينقل أيضاً هذا، ولا يبالي بما يقول»[٣].

❁ ❁ ❁

وقد يقتضي الخبر تعقيباً فقهياً ليزيل بعض غموضه، فنرى أبا شامة يبادر إلى ذلك، وهو الفقيه، ففي ترجمة الشيخ عبد الله اليونيني ينقل عن سبط ابن الجوزي

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٩٠-١٩١.

(٢) «المذيل»: ١/ ٢٨٠.

(٣) «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٣٠-٢٣١.

قصته مع الشيخ أبي عمر المقدسي حين صلى الجمعة في جامع الحنابلة، وكان الخطيب فيه الشيخ أبا عمر، فلما كان في آخر الخطبة وأبو عمر يخطب نهض الشيخ عبد الله مسرعاً، وصعد إلى مغارة التوبة، وكان نازلاً بها، فظن سبط ابن الجوزي أنه قد احتاج إلى الوضوء، أو آلمه شيء، فيقول: «فلما صلينا الجمعة صعدت وراءه، وقلت له: خير؟ ما الذي أصابك؟ فقال: هذا أبو عمر ما تحل خلفه صلاة. قلت: ولم؟ قال: لأنَّه يقول على المنبر ما لا يصلح. قلت: وما الذي قال؟ قال: الملك العادل، وهذا ظالم، فما يصدق. وكان أبو عمر يقول في آخر الخطبة: اللهم وأصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب. فقلت له: إذا كانت الصلاة خلف أبي عمر لا تصح، فيا ليت شعري، خلف مَنْ تصح؟[1]

قال أبو المظفر: وبينا نحن في الحديث، وإذا بالشيخ أبي عمر قد صعد إلى مغارة التوبة، فدخل ومعه مئزر، فسلَّم، وحلَّ المئزر، وفيه رغيف وخيارتان، فكسر الجميع، وقال: بسم الله، الصلاة، ثم قال: ابتداء قد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: ولدت في زمن الملك العادل كسرى. فنظر إلي الشيخ عبد الله وتبسَّم، ومدَّ يده فأكل، وقام أبو عمر فنزل، فقال لي عبد الله: يا سيد، ما ذا إلا رجل صالح»[2].

ويعقب أبو شامة على هذه القصة بما يزيل غموضها، ويبين معانيها واحتمالاتها، فيقول: «الشيخ عبد الله اليونيني كان أيضاً من الصالحين، وقد رأيته، وهذا لفرط صلاحه وورعه ما رأى مسامحة مثل الشيخ أبي عمر بإطلاق لفظ العادل على من هو في ظنه غير مستحقه، وعذر الشيخ أبي عمر في ذلك أنه اسم من الأسماء الأعلام، لا تلحظ فيه الصفة، فهو كالتسمية بسالم وغانم ومحمود

(١) «المذيل»: ١/ ٢١٦.

(٢) «المذيل»: ١/ ٢١٧.

ومسعود، يعبر عن المسمى بذلك في حالة يكون متصفاً بضد ما يقتضيه اشتقاق هذه الأسماء، فيكون عاطباً ولا يدعى إلا بسالم، ومذموماً ولا يدعى إلا بمحمود، تعريفاً لا مدحاً، فكذا إطلاق لفظ العادل في حق من أطلقه فيه الشيخ أبو عمر.

على أنه قد اعتذر بعذر آخر، وهو إطلاق هذا اللفظ على كافر[١]، ولا ظلم أعظم من الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وقال: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك. فإذا لم يمنع الشرك المحقق من إطلاق لفظ العادل على من اتصف به، فأن لا يمنع ظلم ما شي من الأشياء التي دون الشرك أولى.

بقي في قضية الشيخ عبد الله إشكال من جهة كونه ترك صلاة الجمعة الواجبة لما تخيله من هذا الأمر الذي لو كان صحيحاً لما أسقط فرض الجمعة، ولعله كان مسافراً، فلم تكن الجمعة واجبة عليه، والله أعلم»[٢].

وكذلك حين نقل عن سبط ابن الجوزي قوله في حجة الملك المعظم: «ولقد رأيت كتفه بعدما عاد وقد أكلته الشمس وانكشط وقيَّح، فقلت: ما هذا؟ قال: ما غطيت رأسي ولا كتفي منذ ثلاثة عشر يوماً». فتعقبه أبو شامة بقوله: «لم تكن له حاجة إلى كشف كتفه، فإنه لا يستحب إلا في حالة الاضطباع في طواف القدوم، والله أعلم»[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) فات أبا شامة أن ينبه على أن هذا الحديث الذي احتج به الشيخ أبو عمر لا أصل له، وليس هو في شيء من الكتب المشهورة، نبه على ذلك ابن كثير في «البداية والنهاية» في ترجمة الشيخ أبي عمر في حوادث سنة (٦٠٧هـ)، قائلاً: «وعجباً له، ولأبي المظفر، ثم لأبي شامة في قبول مثل هذا، وأخذه منه مسلماً إليه فيه».

(٢) «المذيل»: ١/ ٢١٧-٢١٨.

(٣) «المذيل»: ١/ ٢٥١.

من تكلَّم فيهم أبو شامة في «المذيل»

ويسوقني الحديث في «المذيل» إلى الكلام عمن تكلم فيهم أبو شامة، فعلى عادة علماء الجرح والتعديل في تبيين حال رواة الحديث، وما يليق بهم من توثيق أو جرح، كان أبو شامة يبدي رأيه الصريح فيمن يترجم له، صادعاً بالحق، وأداء لأمانة العلم، غير عابئ بما قد يجره عليه ذلك من تنكر الأصدقاء، وشنآن الأعداء، وقد تلقى أقواله بالقبول من جاء بعده من المؤرخين إلا من شذَّ منهم لغرض في نفسه كما سنبين فيما بعد، حتى إن الإمام الذهبي، وهو مؤرخ الإسلام في عصره، عده في طبقة من يعتمد قوله في الجرح والتعديل[1]، وذلك لما عرف عن أبي شامة من علم غزير يوصله إلى الحق، وورع كبير يحجزه عن الباطل.

وقد كان أبو شامة واعياً تمام الوعي لما تمليه الأهواء من حسد، أو مخالفة في مذهب أو عقيدة من انحرافات تخرج المؤرخ عن جادة الصواب، لتلقي به في مهاوي الخطأ، فكان يتحرى ما استطاع حال المترجم، مهتدياً فيما يقول فيه بقاعدة أصَّلها لنفسه، ووضعها نصب عينيه، وهي أنه لا ينبغي أن يُسمع فيمن ثبتت فضليته

---

(١) رسالة «ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل»: ص٢٢٤، اعتنى بها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وطبعت ضمن كتاب «أربع رسائل في علوم الحديث»، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٥/ ١٩٩٩م.

كلامٌ مشنع، لعله صاحب غرض في حسد أو مخالفة في مذهب أو عقيدة[١]، وهو إن فعل ذلك فعليه أن يأتي بالدليل على ما يقول.

ونحن هنا سنضرب صفحاً عن أولئك المترجمين الذين عدَّلهم أبو شامة، ونعتهم بأحسن الصفات، فلم يخالفه أحد في تعديل مَن عدَّل، أما ما نوزع فيه فهم بعض المترجمين قال فيهم أقوالاً لم ترق لمحبيهم، ومن ينتسب إليهم، فشنعوا عليه، ونسبوه إلى الجور في القول، وتنقص الناس، ومن ثَمَّ آثرت أن أستعرض أصناف الناس كلهم ممن قال أبو شامة بحقهم ما يجرحهم ويطعن فيهم، ولن أستثني من ذلك حتى العلماء الكبار الذين لمس بناعم القول مآخذه عليهم، لنرى إلى أي حد قارب الإنصاف فيما قال، وابتعد عن نوازع الهوى.

وأول ما يطالعنا في ذلك ما قاله في آيات صفات الباري سبحانه وتعالى، وما صحَّ فيها من أحاديث، هل نمرُّها كما جاءت، أم نؤولها؟ وهي مسألة قديمة تنازع فيها علماؤنا، وصنَّفوا فيها تآليف، ورأيه فيها بينه فيما نقله عن سبط ابن الجوزي في ترجمة العماد المقدسي، وكان العماد، وهو من كبار الحنابلة في عصره قد قال للسبط: «صلاح الدين يوسف فتح الساحل وأظهر الإسلام، وأنت يوسف أحييت السنة بالشام»[٢]. فبين أبو شامة معنى السنة الذي أراده العماد بقوله: «السنة التي يشير إليها كون أبي المظفر (يعني سبط ابن الجوزي) رحمنا الله وإياه كان كثيراً ما يورد على المنبر من كلام جده أبي الفرج وخطبه ما يتضمن إمرار آيات صفات الباري عز وجل، وما جاء في الأحاديث الصحاح في ذلك على ما ورد من غير ميل إلى تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل، ومشايخ الحنابلة هذا مختارهم، وهذا جيد، ولكن الإكثار منه على أسماع العوام ربما يحمل أكثرهم على شيء من التشبيه، فإذا قرن به ما يشرحه، وينفي توهم التشبيه كان أولى، والله أعلم»[٣].

---

(١) «المذيل»: ١/ ٢٠٥.

(٢) «المذيل»: ١/ ٢٨٨.

(٣) «المذيل»: ١/ ٢٨٨-٢٨٩.

فأبو شامة لا يعيب على الحنابلة مذهبهم، وإن كان يخالفهم فيه، إذ يميل إلى تأويل الصفات، وقد ألمع إلى ذلك في ترجمته لشيخه الموفق ابن قدامة، وهو من كبار شيوخ الحنابلة، فيقول فيه: «كان إماماً من أئمة المسلمين، وعلماً من أعلام الدين في العلم والعمل، صنف كتباً كثيرة حساناً في الفقه وغيره، ولكن كلامه فيما يتعلق بالعقائد في مسائل الصفات والكلام هو على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه، فسبحان من لم يوضح الأمر له فيها على جلالته في العلم، ومعرفته بمعاني الأخبار والآثار»[١].

وهو ينعى على المتعصبين تعصبهم، وينأى بنفسه عنهم، فيقول في ترجمة الشيخ عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ ابن حمويه: «وكان من أعيان المتعصبين لمذهب الأشعري»[٢].

* * *

غير أنه لم يكن بهذا الرفق واللين مع من اشتغل بعلوم الأوائل من منطق وجدل، وأفضى به ذلك إلى قلة الدين، وكانت هذه العلوم قد ازدهرت في دمشق زمن المعظم عيسى بن العادل، وابنه الناصر داود، بيد أنها أخمدت في دولة الأشرف موسى بن العادل[٣]، فهو يبين حالهم في ترجمته لهم، صادعاً بالقول، غير متلجلج فيه، ذاكراً في الوقت نفسه ما لهم من صفات حسنة، فيقول في ترجمة العز الإربلي: «كان يقرئ علوم الأوائل في بيته لمن يتردد إليه من أهل الملل

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨، وهذه مسألة اختلف فيها علماء الأمة، وقد ردَّ الذهبي على أبي شامة بقوله: «وهو وأمثاله متعجب منكم مع علمكم وذكائكم كيف قلتم! وكذا كل فرقة تتعجب من الأخرى، ولا عجب في ذلك، ونرجو لكل من بذل جهده في تطلُّب الحق أن يُغفر له من هذه الأمة المرحومة». انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ١٧٢.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٤٧.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٣ ـ ١٤.

مسلمها وكافرها ومبتدعها واليهود والنصارى والسامرة، وكان قليل الدين، لكنه كان ذكياً فصيحاً، حسن المحاضرة»[١].

ويقول في ترجمة عبد المنعم بن علي الصقلي: «كان رجلاً صالحاً خيراً.. وهو أخو الزين الضرير، كان أخوه على غير طريقته مشتغلاً بعلوم الأوائل»[٢].

وفي ترجمة البدر المراغي الطويل، يقول: «وكان قليل الدين، تاركاً للصلاة، مغتبطاً بما كان فيه من معرفة الجدال والخلاف على اصطلاح المتأخرين»[٣].

وهو لا يتهاون أبداً مع من كان قليل الدين على حد تعبيره، فينبزه بتلك الصفة، وهو يترجم له، فيقول في الشاعر الحلي علي بن الحسن الملقب بشميم: «وكان قليل الدين، ذا حماقة ورقاعة»[٤].

ويقول في ترجمة الزين عمر بن عقيل التنوخي: «وكان قليل الدين، مخلطاً»[٥].

ويكشف حال من تصدى للتحديث منهم على كثرة مسموعاتهم، فيقول في ترجمة النجيب بن الشقيشقة: «وكان قد سمع كثيراً، لكنه لم يكن بحال أن يؤخذ عنه، كان مشتهراً بالكذب ورقة الدين وغير ذلك»[٦].

ويشتد أكثر ما يشتد وهو يترجم لمن عرف بالزندقة، وشاع عنه ذلك، فيقول في ترجمة الشهاب النقاش: «وكان يتعانى الكلام على طريقة الحكماء، وإنكار النبوات، والإزراء بما أهل الإسلام عليه، وكان يسكن بالمدرسة النورية، ويجلس

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٦٩.
(٢) «المذيل»: ١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.
(٣) «المذيل»: ٢/ ١٧١.
(٤) «المذيل»: ١/ ١٦٨.
(٥) «المذيل»: ٢/ ١٦٤.
(٦) «المذيل»: ٢/ ١٣٠.

كثيراً بالجامع في قبة يزيد على باب مشهد علي، ويجتمع إليه عدد من جنسه الزنادقة، لا رحمه الله»[١].

ويقول في ترجمة الفخر بن البديع البندهي: «يتعاطى الفلسفة والنظر في علوم الأوائل، ويسكن في مدارس فقهاء المسلمين، وقد أفسد عقائد جماعة من الشباب المشتغلين فيما بلغني، وكان يتجاهر باستنقاص الأنبياء عليهم السلام، لا رحمه الله ولا رضي عنه ولا عن أمثاله»[٢].

* * *

وكذلك لا تروج عليه انحرافات بعض المتصوفة الذين ينخلعون من الالتزام بأمور الشريعة، فيقول في ترجمة الشيخ علي الحريري: «وتبعه طائفة من الفقراء، وهم المعروفون بالحريرية، أصحاب الزي المنافي للشريعة، وباطنهم شر من ظاهرهم إلا من رجع إلى الله منهم، وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة، والتهاون بها، ومن إظهار شعار أهل الفسوق والعصيان شيء كثير، فانفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء دمشق، وصاروا على زي أصحابه، وتبعوه بسبب أنه كان خليع العذار، يجمع مجلسه الغناء الدائم والرقص والمردان، وترك الاحتجار على أحد فيما يفعله، وترك الصلوات، وكثرة النفقات، فأضل خلقاً كثيراً، وأفسد جماً غفيراً، وقد أفتى في قتله مراراً جماعة من علماء الشريعة، ثم أراح الله منه»[٣].

* * *

وأبو شامة الذي عاش ما عاش وفياً لشيوخه، ويحمد الله تعالى على أن شيخه السخاوي مات وهو راض عنه[٤]، لا يمكن أن يغفر قلة الوفاء للشيوخ ونكران

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٣٠.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٣٥.

(٣) «المذيل»: ٢/ ٨٣ ـ ٨٤.

(٤) «المذيل»: ٢/ ٧٤.

فضلهم، كما فعل المنتجب الهمذاني، فيقول في ترجمته: «كان مقرئاً مجوداً، وانتفع بشيخنا أبي الحسن (يعني السخاوي) في معرفة قصيدة الشاطبي، ثم تعانى شرح القصيدة، فخاض بحراً عجز عن سباحته، وجحد حق تعليم شيخنا له وإفادته، والله يعفو عنا وعنه»[١].

* * *

وينبه، وهو المحقق المدقق فيما ألف[٢]، على أخطاء الآخرين في مؤلفاتهم، فيقول في إسماعيل بن حامد المعروف بالقوصي: «له معجم حكى فيه عن شيوخه، وطالعته، فرأيت أغاليط كثيرة، وتصحيف أسماء وتبديلها»[٣].

ويقول فيما ألفه شيخ بعلبك محمد بن أحمد اليونيني، والد المؤرخ قطب الدين: «صنف أوراقاً فيما يتعلق بإسراء النبي ﷺ ليلة المعراج، وأخطأ فيه أنواعاً من الخطأ الفاحش، فصنفت أنا في الرد عليه كتاباً سميته «الواضح الجلي في الرد على الحنبلي»[٤].

فهو يرى أن ما كتبه اليونيني لا يرقى لأن يسمى كتاباً، بل هو مجرد أوراق[٥].

حتى إنه ينبه على أخطاء النساخ، فيقول في ترجمة ضياء الدين أبي بكر محمد بن يوسف الآملي: «اعتنى بكتب القراءات سماعاً ونسخاً، وفي خطه كثير من تصحيف وتحريف»[٦].

* * *

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٦٧.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٤.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٠٥.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٤٨، وقد نبزه أبو شامة بالتعصب لمذهبه في كتابه «ضوء الساري»: ص١٨٥.

(٥) ولا ننسى أن أبا شامة قد ألف كتاباً في الإسراء هو «نور المسرى في تفسير آية الإسرا» انظر ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ من هذا الكتاب.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٥٨.

وأكثر ما كان يزعجه في العالم تقربه من السلطان، والتزلف إليه، وهو الذي آلى على نفسه ألا يمشي إلى من يُرى خطير القدر لأجل دنيا، لأن مشيه إليه بالعلم يزري[١]، ومن ثَمَّ ابتعد عن سبط ابن الجوزي، وقد جمع بينهما حب التاريخ، لأنَّه كان قريباً من السلاطين[٢]، فقد ربي طوال زمانه في جاه عريض عندهم[٣]. ولم يخف أبو شامة موقفه منه، فقد قصَّ لنا مناماً رآه عند موته، فقال: «ورأيت موته مناماً تلك الليلة قبل أن أسمع به يقظة، إلا أني رأيته في حالة منكرة، ورآه غيري أيضاً كذلك، نسأل الله العافية»[٤]، وربما لهذا لم يحضر أبو شامة جنازته، متعللاً بمرض ألمَّ به[٥].

وهذا الموقف من علماء السلاطين هو الذي أملى عليه موقفه من شيخ بعلبك محمد بن أحمد اليونيني، والد المؤرخ قطب الدين، فقال في ترجمته: «ونفق على جماعة من الملوك والأمراء، وحصل منهم دنيا واسعة، ورفاهية عيش»[٦]. ومن ثَمَّ ندت عن قلم أبي شامة عبارات يفهم منها أنه يستهزئ بها على تصوفه الظاهر الذي لا يصله بتصوف شيخه عبد الله اليونيني ـ وكان من كبار زهاد عصره ـ إلا أنه يلبس على رأسه قبع فرو أسود، جوفه إلى الخارج بلا عمامة[٧]، كما كان يلبس شيخه عبد الله[٨]، وليس له من المشيخة إلا ظاهرها، فقد كان شيخاً ضخماً، واسع الوجه، كبير اللحية[٩].

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٥٠، وانظر ما كتبه أبو شامة في العلماء الذين زهدوا في الدنيا وأهلها في كتابه «خطبة الكتاب المؤمل»: ص٨٨ـ٩٢.

(٢) انظر ص ٣٨ من هذا الكتاب.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١١٧.

(٤) المصدر السالف.

(٥) المصدر السالف.

(٦) «المذيل»: ٢/ ١٤٨.

(٧) المصدر السالف.

(٨) «المذيل»: ١/ ٣٣٧، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب: ٢/ ٢٧٢.

(٩) «المذيل»: ٢/ ١٤٨.

ألقى أبو شامة برأيه فيه بهذه الصراحة الجارحة، غير عابئ بما ستجره عليه تلك الكلمات من عداوة لا تهدأ.

* * *

وإذا كان هذا موقفه من علماء السلاطين، فقد كان موقفه أشد ممن تعاون منهم مع التتار، فيقول في ترجمة الفخر محمد بن يوسف الكنجي: «قتل بالجامع.. وكان من أهل العلم بالفقه والحديث، ولكنه كان فيه كثرة كلام، وميل إلى مذهب الرافضة، جمع لهم كتباً توافق أغراضهم، وتقرب بها إلى رؤساء منهم في الدولتين الإسلامية والتاتارية.. ثم وافق الشمس القمي فيما فوضه إليه من تخليص أموال الغائبين وغيرهم، فانتدب له من تأذى منه، وألب عليه بعد صلاة الصبح، فقتل، وبقر بطنه، كما قتل أشباهه من أعوان الظلمة»[١].

* * *

ولم يكن أبو شامة يتسامح مع من يعتدي على أوقاف المسلمين أو يسيء القيام عليها، ولو كان في منزلة شيخه ابن الصلاح، فيقول في ترجمة ابن رواحة، واقف المدرسة الرواحية: «وكان قد أسند النظر في مدرسته التي بدمشق إلى الشيخ تقي الدين عثمان بن الصلاح، ثم إنه بعد موته ـ يعني موت ابن رواحة ـ شهد عليه بالعزل له الشيخان تقي الدين خزعل، ومحيي الدين محمد بن العربي ـ وكانا ساكنين قريباً من المدرسة ـ فزعما أنه استدعاهما ليلاً، وأشهدهما عليه بعزل ابن الصلاح عن نظر المدرسة، وجرت في ذلك فصول لا حاجة إلى ذكرها، وكأنه كان قد ألهمه الله تعالى المصلحة في ذلك، فإن ابن الصلاح أسند النظر إلى شخص، أسنده ذلك الشخص إلى ولد له، فغلب على وقف المدرسة وتدريسها بغير أهلية ولا استحقاق ولا أمانة، ولا عدل ولا إشفاق، والأمر على ذلك إلى الآن، والله المستعان»[٢].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٥٠.

(٢) «المذيل»: ١/ ٣٩١.

أما من كان يتولى ديوان المواريث الحشرية، وهي تلك المواريث التي يموت عنها أصحابها، ولا وارث لهم، فتؤول إلى بيت المال[١]، فيبشر متوليها أبا القاسم بن اللهيب بجهنم، لظلمه الناس في أموالهم، ويستعير أبياتاً نظمها فيه الكمال بن الظهير يقول فيها:

اليومَ زارَ ابنُ اللَّهيبِ أباه ... ورأى الذي قد قدَّمَتْهُ يَدَاهُ

لم ينتفعْ بالظُّلْمِ لكنْ ضَرَّه ... إذْ كانَ حَسْبُ الظَّالمينَ اللهُ»[٢]

* * *

ويذكره هذا الاعتداء على الأوقاف بما حدث معه يوم أُقصِي عن مشيخة الإقراء في تربة أم الصالح، وكان الأحق فيها على ما شرطه واقفها[٣]، فيقول في ترجمة من وليها مكانه أبي الفتح محمد بن علي بن موسى الأنصاري: «توفي الشمس أبو الفتح الذي كان يقرئ بالتربة الصالحية»[٤] هكذا يذكره بإغفال منزلته، غير مقرٍّ له بمشيخة الإقراء الذي كان يعتقد أنه لا يستحقها بوجوده، وأبو شامة لا يُنازع في ذلك، وهو الأدرى به، وقد ندت عنه كلمة تشي بانزعاجه واستيائه لما وقع له حين ترجم للعلم النحوي المغربي الذي استغلت عبارته التي قالها في أبي شامة لتنحيته عن مشيخة الإقراء، فقال فيه: «كان معمراً مشتغلاً بأنواع من العلوم، على خلل في ذهنه»[٥]. وهي عبارة أملاها الغضب، وقد ابتعد فيها أبو شامة عن الإنصاف، ولم يقره عليها شيخ المؤرخين الذهبي، فقال: «كذا قال أبو شامة، بل كان من أذكياء النحاة والمتكلمين»[٦].

---

(١) انظر «صبح الأعشى»: ٣/ ٤٦٠.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٢٧.

(٣) انظر ص ١٣٥ ـ ١٣٨ من هذا الكتاب.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٣٤.

(٥) «المذيل»: ٢/ ١٨٨.

(٦) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣١٢.

بيد أن هجومه الأعنف شنّه على قضاة عصره، وقد رأى فيهم أس الفساد المستشري، من استيلائهم على أوقاف المسلمين، وهم من عليه حمايتها ورعايتها، والخضوع لمآرب السلطان، وهم من عليه نصحه وإرشاده، وتعاونهم مع التتار، وهم من عليه الدعوة إلى جهادهم، ثم استغراقهم في الفواحش من معاشرة الغلمان، وتعاطي الحشيشة، فأطلق لسانه فيهم، متتبعاً مخازيهم، كاشفاً لها، نصحاً للأمة، غير هيَّاب ولا وجل مما قد تجره عليه عداوتهم له، وهم من ذوي الجاه والسلطان.

ويبدأ أول ما يبدأ بالقاضي جمال الدين يونس بن بدران المصري، وقد ولي القضاء للملك المعظم عيسى بن العادل، وتوفي سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م)، فيقول فيه: «لم ينقم عليه شيء في ولايته سوى أنه كان إذا ثبت عنده وراثة شخص لما وضع نواب بيت المال أيديهم عليه يأمره بمصالحة بيت المال، فيقتطع منه قطعة لبيت المال، وأما لنفسه فلم يشتهر عنه شيء من ذلك»[١].

ونقم عليه أيضاً استنابته لولده التاج محمد، ولم تكن طريقته مستقيمة[٢]، بل كان ظالماً مشهوراً بالفسق[٣].

وهذا القاضي على ما فيه كان من أمثلهم، أما من جاء بعده فلم يكن له من القضاة إلا رسمهم، فها هو ذا قاضي القضاة رفيع الدين الجيلي الذي ولي القضاء للملك الصالح إسماعيل بن العادل، وقد قتل سنة (٦٤١هـ/ ١٢٤٤م)، فقد عرف عنه شربه للخمر[٤]، وظهر منه سوء سيرة وعسف وفسق وجور، ومصادرة في

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٨٨.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٦٥.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٦٦.

الأموال، لا سامحه الله[١]، ومن ثَمَّ يصفه أبو شامة بالقاضي الظالم[٢]، ويلقبه بالوضيع بدل الرفيع[٣].

وأما القاضي صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن سني الدولة، فقد ولي القضاء خمس عشرة سنة[٤]، قضاها مراعياً لأرباب الجاهات، معيناً شهوداً في القضاء مقدوحاً فيهم مثل النجيب بن الشقيشقة، وهو متهم بالكذب ورقة الدين، وقد جعله من بعد عاقداً للأنكحة، فعجب الناس منه، وأنكروا عليه فعله[٥]، وقد أثرى من منصبه بعد فقر[٦]، وأنهى حياته طالباً القضاء من هولاكو بعد سقوط دمشق بأيدي التتار، فسعى إليه حيث كان يقيم في حلب بعد تدميرها[٧]، غير أن رُدَّ خائباً، وفي طريقه إلى دمشق تمرض في بعلبك[٨]، وأقام فيها في بيت قطب الدين اليونيني لقرابة كانت له مع والدته، وهو كذلك عديل والده الشيخ محمد[٩]، حيث مات بعد أيام[١٠]، وقد أخبر أبا شامة عليُّ بنُ الشيرازي أنه رآه في منامه، وسأله عن حاله، فقال: لما وصلت، قيل: هاتوا الدرة. ويعقب أبو شامة على سوء هذه الخاتمة بقوله: «اللهم عفوك»[١١].

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٥٣.
(٢) «المذيل»: ٢/ ٦٣.
(٣) «المذيل»: ٢/ ٦٤.
(٤) «المذيل»: ٢/ ١٤٠.
(٥) «المذيل»: ٢/ ١٣٠ـ١٣١.
(٦) «المذيل»: ٢/ ١٣١.
(٧) انظر ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨، ٢٤٥ ـ ٢٤٦ من هذا الكتاب.
(٨) «المذيل»: ٢/ ١٤٤.
(٩) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ١٤.
(١٠) «المذيل»: ٢/ ١٤٤.
(١١) المصدر السالف.

وكان التتار قد ولوا القضاء كمال الدين التفليسي، وكان نائب القاضي صدر الدين، فافتتح عهده بقبول حياصة الناصر يوسف هدية من التتار، وكانوا قد نهبوها من مخزن الأيتام، حيث رهنها الناصر يوسف لقاء دين من ورثة عرفة الدنيسري[1].

ثم ولى التتار من بعده محيي الدين يحيى ابن الزكي، وكان قد قصد هولاكو في حلب مع القاضي صدر الدين[2]، فشرع هذا القاضي في جر الأشياء إلى نفسه وأولاده ومن يتعلق به مع عدم الأهلية[3]، وحين انتصر قطز على التتار في معركة عين جالوت، بذل محيي الدين أموالاً جمة ليقره قطز على القضاء، فلم يستجب له، وعزله[4].

وولى قطز من بعده نجم الدين بن القاضي صدر الدين ابن سني الدولة، وكان حاكماً جائراً فاجراً ظالماً متعدياً، وقد شاع عنه أنه قليل الأمانة، فقد أُودع كيساً فيه ألف دينار، فرد بدلاً منه كيساً فيه فلوس[5].

ثم ولى الظاهر بيبرس القاضي شمس الدين ابن خلكان، وكان عاكفاً على تعاطي الحشيشة، ومغازلة الغلمان، ونظم الدوبيت وتقريب الشعراء[6].

ويبلغ الأسى والغضب عند أبي شامة كل مبلغ، فيطلق صرخته، وقد استبد به اليأس:

كلَّما قلتُ دولةُ الحاكم الجا ... ئرِ زالتْ قامتْ علينا أُخرى[7]

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٦٠.

(٢) انظر ص ٢٣٧ من هذا الكتاب.

(٣) «المذيل»: ٢/ ١٤٤.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٤٥.

(٥) «المذيل»: ٢/ ١٦٥.

(٦) انظر ص ٢٩٧ من هذا الكتاب.

(٧) «المذيل»: ٢/ ١٨٦.

وفي غمرة غضبه ويأسه ينظم أبياتاً يغمز فيها من قضاة عصره بأجمعهم، وكان بعضهم قد عدَّله وأحسن الثناء عليه حين ترجم له، كأبي القاسم ابن الحرستاني، وشهاب الدين الخويي، فيقول:

دمشقُ في عَصْرِنا مَعْ فَضْلها بُلِيَتْ — مــن الـقُـضَـاةِ بِـجُـهَّـالٍ وأوقـاحِ
بـأَعْـجَـمِـيْـنَ ومِـصْـريٍّ وصـائـغـهـم — وإرْبِـلِـيٍّ وخـيَّـاطٍ وفـلَّاحِ
هـم ضِـعْـفُ سِـتَّـةَ والـنُّـوَّابُ كـلُّـهُـمُ — ضعفانِ أحزانُهُمْ أضعافُ أفراحِ[1]

فهل كان أبو شامة يريد من وراء ذلك نقد نظام القضاء كله؟ هذا النظام الذي نخر فيه الفساد حتى استعصى على الإصلاح؟



(١) انظر ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ من هذا الكتاب.

من تكلَّم في أبي شامة

كلام أبي شامة فيمن تكلم فيهم أثارت عليه عداوات في حياته حملت بعضهم على الاعتداء عليه، ومحاولة قتله[1]، وبعد وفاته أدت إلى اتهامه بتهم هو بريء منها.

وفي تحليلنا لأقوال من تكلم في أبي شامة سنحتكم إلى تلك القاعدة التي ارتضاها أبو شامة لنفسه في حكمه على الرجال، وهي أنه لا ينبغي أن يُسمع فيمن ثبتت فضليته كلامُ مشنع لعله صاحب غرض في حسد أو مخالفة في مذهب أو عقيدة[2]، لنفتش على هديها في أقوالهم، ولنبحث فيها عما وراء كلامهم، فأبو شامة هو ممن ثبتت فضيلته من علمائنا، وتكفي نظرة على كلام من ترجم له لنرى تلك الفضيلة مبثوثة في كلماتهم، فقد وصفه الذهبي، وهو شيخ المؤرخين بقوله: «العلامة المجتهد المقرئ النحوي ذو الفنون»[3]. وقال فيه كذلك: «وكان مع فرط ذكائه وكثرة علمه متواضعاً مطرحاً للتكلف»[4]. وقال فيه ابن كثير: «الشيخ الإمام العالم الحافظ المحدث الفقيه المؤرخ»[5]، وقال فيه الإسنوي: «كان عالماً

---

(١) انظر ص ٣٣٧ ـ ٣٤٠ من هذا الكتاب.

(٢) «المذيل»: ١/ ٢٠٥.

(٣) «العبر»: ٥/ ٢٨٠ـ٢٨١.

(٤) «معرفة القراء الكبار»: ٢/ ٦٧٣.

(٥) «البداية والنهاية» (وفيات سنة ٦٦٥هـ).

راسخاً في العلم»[١]، وقال فيه السبكي: «الشيخ الإمام المفنن، كان أحد الأئمة، وبرع في فنون من العلم»[٢]، وقال فيه الصفدي: «الإمام العلامة ذو الفنون»[٣]. وغير هذه الأقوال كثير، اجتزأت ببعضها. فما الذي دفع من تكلم فيه إلى ما تكلم فيه، وهو بهذه المنزلة الجليلة من العلم، التي شهد له فيها من ترجم له؟

وإذا ما استعرضنا أقوال من تكلم فيه نجد فيهم الإمام ابن رجب الحنبلي، في تعقيبه على ترجمة إبراهيم بن علي بن محمد بن بَكْروس الفقيه الحنبلي، فقد كتب أبو شامة في ترجمته: «ثم إن الله تعالى مكر به، فصار صاحب خبر بباب النوبي، ورمى الثوب الواسع، ولبس المزند، وتقلد السيف، وظلم وفتك في الغلمان والحريم، وضرب جماعة بالخشب، ورماهم في دجلة، وما كانت تأخذه في أذى مسلم لومة لائم»[٤].

فعقب ابن رجب على قوله هذا: «وقد وجد أبوشامة في ابن بكروس مجالاً للمقال فيه، وأطال، وأظهر بعض ما في نفسه فيه وفي أمثاله حيث لم يمكنه القول في أكابر الرجال، وذكر أنه رُمي في دجلة، وهذا لم يصحَّ بحال»[٥].

فصوَّر أبا شامة في عبارته هذه رجلاً يطوي في صدره حقداً على الحنابلة، ويتربص بهم ويتوثب للانقضاض عليهم، ولما أعجزه الكلام في كبارهم لأنه لم يجد مجالاً للقول فيهم، عمد إلى صغارهم ممن وقع في هفوات، فأظهر ما في نفسه منهم.

والقارئ لكتابه «المذيل» لا يجد دليلاً فيه على ما يقوله ابن رجب، فقد أطال

---

(١) «طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/ ١١٨.

(٢) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ١٦٥.

(٣) «الوافي بالوفيات»: ١٨/ ١١٣.

(٤) «المذيل»: ١/ ٢٥٢.

(٥) «ذيل طبقات الحنابلة»: ٢/ ٧٠.

أبو شامة في ترجمته للحنابلة، ووصفهم بما يليق بهم، وبخاصة أن بعض شيوخه منهم[١]، وله فيهم أصدقاء[٢]، ولم ينازعهم إلا في مسألة صفات الباري سبحانه وتعالى، وهي مسألة اختلف فيها علماء الأمة من قديم[٣]، وليقرأ القارئ ما كتبه في ترجمة الشيخ العماد المقدسي[٤]، وأخيه عبد الغني[٥]، والموفق ابن قدامة[٦]، وأخيه أبي عمر[٧]، وقد أطال في تراجمهم، ليجد مصداق ما أقول.

ثم إن هذا القول الذي كتبه أبو شامة في ترجمة ابن بكروس، ليس من كلامه، وإنما هو ما نقله عن سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»[٨]، غير أنه قصَّر في عزوه إليه، فنسب خطأ إليه.

وكذلك نسبت إليه بعض أقوال سبط ابن الجوزي مع أنه لم يدونها في مذيله، من ذلك ما قاله الإمام الذهبي في ترجمته للحريري في كتاب «سير أعلام النبلاء»: «وممن انتصر له، وخضع لكشفه الإمام أبو شامة، فقال: كان عنده من القيام بواجب الشريعة ما لم يعرفه أحد من المتشرعين ظاهراً وباطناً، وأكثر الناس يغلطون فيه، كان مكاشفاً لما في الصدور بحيث قد أطلعه الله على سرائر أوليائه»[٩].

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٦٧ـ٣٦٨.

(٢) «المذيل»: ٢/ ٨٠ـ٨١.

(٣) انظر ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ من هذا الكتاب.

(٤) «المذيل»: ١/ ٢٨٧ـ٢٩١.

(٥) «المذيل»: ١/ ١٥٣ـ١٥٧.

(٦) «المذيل»: ١/ ٣٦٧ـ٣٧٢.

(٧) «المذيل»: ١/ ٢١٣ـ٢٢٣.

(٨) انظر ترجمة ابن بكروس في «مرآة الزمان» (وفيات سنة ٦١١هـ)، بتحقيقي.

(٩) «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٢٢٦.

وقد مرَّ بك ما قاله أبو شامة في الحريري هذا[١]، فكيف يستقيم ما نسب إليه مع ما صحَّ من قوله فيه؟

وقد وقف بعض المشتغلين بنشر التراث حائراً في التوفيق بين كلامين متناقضين لا يمكن التوفيق بينهما، بل لا يمكن أن يصدرا عن قائل واحد، وهذا ما جعلني أفتش عن قائل تلك الكلمات التي نسبها الذهبي إلى أبي شامة حتى وقعت عليها في «عيون التواريخ» معزوة لسبط ابن الجوزي[٢]، فبرح الخفاء، وظهر أن الذهبي وهم في نسبتها إلى أبي شامة.

* * *

وكان المنتجب الهمذاني المقرئ من أصحاب الشيخ علم الدين السخاوي، غير أنه جحد حق تعليم الشيخ له[٣]، وآذاه في شرح أول بيت من الشاطبية بعبارة نكدة[٤]، وقد قال أبو شامة في شرحه للشاطبية: «ثم تعانى شرح القصيدة، فخاض بحراً عجز عن سباحته»[٥]. فهل كان أبو شامة في قوله هذا متعاطفاً مع شيخه السخاوي؟ هذا الشيخ الذي بلغ من انزعاجه أن منع أصحابه من حضور مجلس المنتجب[٦]. الحق أن أبا شامة قد اعترف للمنتجب في صدر ترجمته له بأنه كان مقرئاً مجوداً[٧]، غير أنه لم يحسن شرح الشاطبية، وهو حكم أملاه على أبي شامة اشتغاله بشرح الشاطبية، وخبرته بدقائقها[٨]، ومن ثم لا تضر مخالفة الذهبي له

(١) انظر ص ٤٣٥ من هذا الكتاب.

(٢) «عيون التواريخ»: ٢/ ١٧، وانظر حاشيتي رقم (٣) في «المذيل»: ٢/ ٨٣.

(٣) انظر ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ من هذا الكتاب.

(٤) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٢٦٦.

(٥) «المذيل»: ٢/ ٦٧.

(٦) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٢٦٦.

(٧) «المذيل»: ٢/ ٦٧.

(٨) شرح أبو شامة الشاطبية ثلاثة شروح، انظر ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ من هذا الكتاب.

بقوله في شرح المنتجب: «بل هو شرح كبير، جم الفوائد، واضح»[١]. إذ إن رأي أبي شامة، وهو من كبار شيوخ القراءات، مقدم على رأي الذهبي الذي لم يشتهر بهذا الفن شهرته في التاريخ.

* * *

بيد أن كلام أبي شامة في ابن خلكان، وقد كان جارحاً له[٢]، لم يدفع ابن خلكان للكلام فيه، وهو يعرف منزلة أبي شامة بين معاصريه، فاكتفى بإهماله في كتابه «وفيات الأعيان»، فلم يترجم له، ولم يذكره إلا مرة واحدة في كتابه كله، وذلك حين ذكر سنة وفاة ابن رواحة، فقال: «وذكر الشهاب عبد الرحمن المعروف بأبي شامة في تاريخه المرتب على السنين أنه مات سنة ثلاث وعشرين»[٣]. وتكاد تحس باستياء ابن خلكان منه، من هذه العبارات التي تشي بتجاهله وإغفاله، ولربما كان يرد على أبي شامة ضمناً كلامه في ابن الصلاح، وتهاونه في وقف المدرسة الرواحية[٤]، وذلك في قوله: «وكان ـ أي ابن الصلاح ـ يقوم بوظائف الجهات الثلاث من غير إخلال بشيء منها إلا لعذر ضروري لا بد منه...»[٥].

* * *

أما من أطلق القول في أبي شامة، وشنع عليه، فهو قطب الدين اليونيني، صاحب كتاب «ذيل مرآة الزمان»، وذلك حين ترجم لأبي شامة في كتابه، فقال فيه: «كان كثير الغض من العلماء والأكابر والصلحاء، والطعن عليهم، والتنقص لهم، وذكر مساوئ الناس، وثلب أعراضهم، ولم يكن بمثابة لا يقال فيه، فقدح

(١) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٢٦٦.

(٢) انظر ص ٢٩٧، ٤٤٢ من هذا الكتاب.

(٣) «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٤٥.

(٤) انظر ص ٤٣٨ من هذا الكتاب.

(٥) «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٤٤.

الناس فيه وتكلموا في حقه، وكان عند نفسه عظيماً، فسقط بذلك في أعين الناس مع ما كان عليه من ثلب العلماء والأعيان، وذكر ما يشينهم به»[١].

وقد تلقف قوله هذا دون تحقيق فيه أبو عبد الله السخاوي، صاحب كتاب «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»، فقد قال فيه عن أبي شامة: «كان كثير الوقيعة في العلماء والصلحاء وأكابر الناس، والطعن عليهم، والتنقص لهم، وذكر مساوئهم، وكونه عند نفسه عظيماً، فصار ساقطاً من أعين الناس ممن علم منه ذلك، وتكلموا فيه، وأدى ذلك إلى امتحانه...»[٢].

ومن خلال استعراضنا لمن تكلم فيهم أبو شامة[٣] لم نجده قد غض من العلماء والأكابر والصلحاء، ولا طعن فيهم، ولا تنقصهم، ولم يذكر مساوئهم، ولم يثلب أعراضهم، وإنما تكلم في القضاة المرتشين، الظالمين، والزنادقة الملحدين، والمتصوفة المنحلين، والمؤلفين المخطئين، والمتزلفين للسلاطين، والمتعدين على أوقاف المسلمين، والمتعاونين مع التتار أعداء الدين.

وكان في جملة من تكلَّم أبو شامة فيهم الشيخ محمد بن أحمد اليونيني، والد المؤرخ قطب الدين[٤]، والقاضي صدر الدين ابن سني الدولة، وهو ابن خالة أمه، وعديل أبيه[٥]، فلم يغفر قطب الدين لأبي شامة ما قاله في والده، وقد استشعر استهزاءه فيه، فأطلق فيه هذا القول الجارح، انتقاماً منه، ودفاعاً عن أبيه، فجار في قوله وحكمه، ونأى فيه عن الإنصاف، ومن ثَمَّ أهمل المؤرخون قول قطب الدين

---

(١) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/٣٦٧.

(٢) «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»: ص٤٧٦ (المطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين، لروزنتال)، وقد أعاد كلامه ذاك في «فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي»: ٤/٣٥٤.

(٣) انظر ص ٤٣٢ ـ ٤٤٣ من هذا الكتاب.

(٤) انظر ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧ من هذا الكتاب.

(٥) انظر ص ٤٤١ من هذا الكتاب.

فيه، فلم يلتفتوا إليه، ولم ينقلوه إلا ما كان من أبي عبد الله السخاوي[١]، ولم يذكر أن أحداً قدح في أبي شامة أو تكلم فيه، كما ذكر قطب الدين، وها هي أقوال المؤرخين فيه، وقد سلفت، وكلها تصفه بالإمام المجتهد العلامة المؤرخ[٢].

بل إن قطب الدين إمعاناً في النيل من أبي شامة راح يتزيد في النقل عنه ليثير استعداء الناس عليه، فقد نقل عنه في ترجمة القاضي نجم الدين بن صدر الدين ابن سني الدولة، وهو قريبه كذلك، قال: «قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وكان نجم الدين حاكماً جائراً ظالماً لنفسه، أحمق رقيعاً، فاستراح الناس منه»[٣]. فزاد في قول أبي شامة فيه: «أحمق رقيعاً»، وهي عبارة لم يقلها أبو شامة[٤]، وليس هذا من الأمانة في النقل، بل إنه أغار على كتابه «المذيل»، ونقل منه كثيراً من تراجمه في كتابه «ذيل مرآة الزمان» دون عزوها إليه[٥]، وأحياناً كان يدلس اسمه قائلاً: شهاب الدين عبد الرحمن[٦]، مغفلاً لقبه أبا شامة، وهو اللقب الذي عرف به واشتهر.

لقد جاوز قطب الدين في عداوته لأبي شامة كل حد، تاركاً لهواه أن يملي عليه ما يقول، مما يجعلنا حقاً لا نسمع لقوله فيه، لأنَّه كلام مشنع فيمن ثبتت فضيلته، ولا دليل له عليه.

❁ ❁ ❁

---

(١) كذلك ردد كلام قطب الدين قارئ نسخة (ب) من «المذيل»، انظر الحاشية رقم (٣)، ج٢/ ١٤٩ـ١٥٠.

(٢) انظر ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦ من هذا الكتاب.

(٣) «ذيل مرآة الزمان»: ١/ ٤٦٠.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٦٥.

(٥) انظر «ذيل مرآة الزمان»: ١/ ٧٠، ٣٤٩، ٣٥٩.

(٦) «ذيل مرآة الزمان»: ١/ ٧٣.

وقد كان لتلك المنازعات صدى فيما كتبه المؤرخون المعاصرون، ولعل السابق إلى اكتشاف النزاع بين أبي شامة وابن خلكان كان الأستاذ محمد كرد علي، فقال: «لم يذكر ابن خلكان في وفياته أبا شامة لأمور كانت بينهما على ما يظهر من الذيل على الروضتين، وكانا متعاصرين متباغضين»[١].

لكنه يعزو ذلك إلى حسد أبي شامة لابن خلكان، أو لأن ابن خلكان أقصى أبا شامة عن بعض المدارس، فيقول: «وكان كلاهما يختلف إلى المدرسة العادلية حيث المجمع العلمي اليوم، وقد سكنها كلاهما، ولعلَّ أبا شامة كان يحسد ابن خلكان، أو أن ابن خلكان أقصى أبا شامة عن بعض المدارس، أو من المدرسة العادلية نفسها»[٢].

والسبب على خلاف ما ذكر الأستاذ كرد علي، كما بينت، فقد كان أبو شامة ناقماً على القضاة الذين اتخذوا من القضاء مطية لتحقيق مآربهم الشخصية بعيداً عن إشاعة العدل وكف الظلم، وابن خلكان واحد من هؤلاء القضاة، ومع أن أبا شامة قد سكن المدرسة العادلية زمناً طويلاً، غير أنه لم يجاور في سكناها ابن خلكان، لأنه كان قد تركها قبل مقدمه إليها بزمن[٣]، وعاش أبو شامة ما عاش من حياته زاهداً في المناصب، مترفعاً عنها، حتى اعتزلها[٤]، ولم يقطع عزلته هذه إلا حين ولاه ابن خلكان التدريس بالمدرسة الركنية تقرباً منه[٥]. فالدافع الذي دفع أبا شامة إلى قول ما قال هو الرغبة في الإصلاح، لا سعياً وراء منفعة.

والغريب حقاً كيف لم يتنبه د. إحسان عباس، وهو الناقد اللماح، إلى ما جرى

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق: مج٥/ ج٣/ ١٤١.

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج٥/ ج٣/ ١٤١-١٤٢.

(٣) انظر ص ١٨٧ من هذا الكتاب.

(٤) انظر ص ١٨٩ من هذا الكتاب.

(٥) انظر ص ٢٩٣ من هذا الكتاب.

بين أبي شامة وابن خلكان، بل إنه يصور الأمر بينهما على خلاف ما كان، فيقول: «ويبدو أن العلاقة بين أبي شامة وقاضي القضاة ظلت طيبة»[١].

وقد يصدق هذا الحكم على الفترة الأولى من لقائهما، حين كان أبو شامة يؤمل في ابن خلكان أن يكون قاضياً نزيهاً على خلاف من سبقه من قضاة فاسدين، حتى إذا تبين أنه لا يختلف عنهم في كبير شيء انقلب عليه، وقال فيه ما قال[٢].

ويمر د. إحسان عباس على ما قاله أبو شامة في ابن خلكان دون أن يتنبه له كما تنبه له من قبل الأستاذ محمد كرد علي، مردداً صدى كلمات قطب الدين اليونيني فيه، فيقول: «لم يحاول (أبو شامة) أن يغمز منه (أي من ابن خلكان) في تاريخه على عادته في حال الآخرين»[٣].

ويبدو أن ما أهمله القدماء من كلام قطب الدين اليونيني في أبي شامة تبناه المعاصرون، وكأنه حقيقة لا تقبل إلا التسليم بها، فنرى كذلك د. بشار عواد معروف يردد في أبي شامة ما قاله فيه قطب الدين، وذلك في تعقيبه على كلام ابن رجب في ترجمة ابن بكروس، فيقول: «هذه عادة أبي شامة ـ سامحه الله، وغفر له ـ في كشف عورات الناس»[٤].

وأحمد له أن شفع حكمه بالدعاء له، وأتساءل: إذا كان من نتوسم فيهم المعرفة يطلقون الأحكام هكذا دون دليل أو تحليل، فكيف حال من لم ينل من المعرفة إلا لقبها، وما أكثرهم!..



---

(١) مقدمة د. إحسان عباس في «وفيات الأعيان»: ٧/ ٤١.

(٢) انظر ص ٢٩١ ـ ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٧ ـ ٢٩٨ من هذا الكتاب.

(٣) مقدمة د. إحسان عباس في «وفيات الأعيان»: ٧/ ٤١.

(٤) انظر الحاشية رقم (١) من «التكملة لوفيات النقلة» للمنذري: ج٢/ ٢٩٦، وانظر ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧ من هذا الكتاب.

طبعة «المذيل»

طبع «المذيل على الروضتين» أول ما طبع في القاهرة سنة (١٩٤٧م)، تحت عنوان «تراجم القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين».

وعرَّف بالكتاب، وترجم للمؤلف، وصححه الشيخ محمد زاهد الكوثري؛ وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً، وعُني بنشره، وراجع أصله، ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني.

واعتمدا في إخراجه على نسخة خطية في دار الكتب المصرية، كتبت سنة (٩٦٧هـ) كما جاء في آخر المطبوع منه.

ويبدو أنها نسخة سقيمة، فشا فيها التحريف والتصحيف، فات الشيخ زاهد الكوثري ـ رحمه الله ـ أن يتنبه لها، إضافة لما أخطأ هو في قراءته، والفن ليس بفنه، بل إن في النسخة زيادات ليست لأبي شامة، أدخلها الناسخ خطأ في متن الكتاب، وقد سقط منها أخبار في حوادث سنة (٦٦٤هـ)، واضطربت أوراقها في آخره مما جعل حوادث السنوات (٦٦٣هـ، ٦٦٤هـ، ٦٦٥هـ)، تتداخل فيما بينها، وتذكر في غير سنتها التي وقعت فيها.

وقد أخطأ ناشراه كذلك في تغيير عنوانه الذي ارتضاه مؤلفه له، وهو «المذيل على الروضتين»، فسمياه اعتماداً على هذه النسخة السقيمة «الذيل على الروضتين»،

ثم أضافا إلى عنوانه «تراجم القرنين السادس والسابع»، وهو لا يشي حقيقة بتاريخ تراجمه، فليس فيه من تراجم القرن السادس إلا السنوات العشر الأخيرة منه، ولم يكمل تراجم القرن السابع، حيث وصل فيه إلى سنة (٦٦٥هـ).

وقد تتبع د. مصطفى جواد بعض أخطاء هذه الطبعة، ونشرها في مقالين في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج٢٣/ ٦١٨ـ٦٣١، مج٢٤/ ١٥٣ـ١٥٨.

وكنت كلما طالعت الكتاب تتشوّف نفسي لتحقيقه وفق المنهج العلمي، حتى شرفني الله بذلك، بعد فراغي من تحقيق «كتاب الروضتين»، واعتمدت في تحقيقه على خمس نسخ خطية، وصفتها في مقدمتي له، وقد فرغت بحمد الله من تحقيقه سنة (٢٠٠٤م).

وقد صدر ـ بحمد الله ـ في جزأين عن مؤسسة الرسالة في بيروت سنة (٢٠٠٩م).



نزهة المقلتين في سيرة الدولتين

العلائية والجلالية

وما كان فيهما من الوقائع التاتارية

لم يذكر أبو شامة هذا الكتاب في قائمة مؤلفاته التي كتبها سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وأثبتها في ترجمته لنفسه في «المذيل على الروضتين»[١]، بل اكتفى بالإشارة إليه في ثلاثة مواضع منه، اثنين في القسم الأول الذي استدركه في المرحلة الثانية من تأليفه سنة[٢] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) فقال في أوله: «وذكر المنشئ محمد بن أحمد النسوي في كتابه الذي ذكر فيه وقائع التاتار مع علاء الدين محمد خوارزم شاه المذكور، ومع ولده جلال الدين، وقد اختصرته»[٣].

وثانيه حين قال في حوادث سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م): «وفيها مات خوارزم شاه محمد بن تُكُش، وقد ذكرنا صفة موته، وما تم له مع التاتار في هذه السنة وقبلها في الكتاب الذي اختصرت فيه سيرة الدولتين العلائية والجلالية»[٤].

وهذا يشي بأن اختصاره له كان قبل سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) بل يمكننا أن نعود باختصاره إلى ما قبل سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، إذ إنه ذكر في «مذيله» في حوادث هذه السنة سقوط بغداد بيد التتار، فقال: «ففي أولها في المحرم استولى التتار ـ لعنهم الله ـ على بغداد، فقتلوا ونهبوا، وفعلوا ما جرت عادتهم عند استيلائهم على

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٢ـ١٤٤.

(٢) انظر ص ٤١٠، ٤١٣ من هذا الكتاب.

(٣) «المذيل»: ١/ ٢٨٢.

(٤) «المذيل»: ١/ ٣٢٨.

بلاد العجم على ما ذكرناه في كتاب السيرة العلائية والجلالية»[١]. ويؤيد ما ذهبنا إليه أن هذا القسم الأول من «المذيل» كان أبو شامة يكتبه غالباً تباعاً إثر ما يعاصره من وقائع وأحداث[٢].

ولعل أبا شامة قد اختصر هذا الكتاب عقب فراغه مباشرة من تأليف «كتاب الروضتين» في مرحلته النهائية، وقد سلف معنا أنه أنهى المجلدة الأولى منه في (١١) رمضان سنة[٣] (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م)، وإذا افترضنا أن المجلدة الثانية قد استغرقت منه بضع أشهر أخرى، فيكون اختصاره لكتاب النسوي في نحو سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م)، وكان ضغط التتار قد اشتد في تلك الفترة على المشرق الإسلامي[٤]، وفيما كتبه أبو شامة في تقديمه لهذا المختصر ما يؤيد ذلك، إذ قال: «أما بعد، فقد جمعت في كتابين مطول ومختصر ما كان في زمن آبائنا من مناقب سلطانين جليلين متتابعين ببلادنا الشامية، جمعت فيهما من أخبارهما ومآثرهما ما غبَّر في وجوه من قبلهما من الملوك، فكيف من بعدهما؟ فسقى الله عهدهما، وسميت الكتاب المطول بالروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، والآخر مختصره.

ثم إني أردت الوقوف على أخبار ملكي بلاد العجم في زماننا، اللذين قهرا العباد، ثم خربت في ولايتهما البلاد، واستولى على تلك الديار الكفرة التتار ـ لعنهم الله ـ وسفك أولئك الملاعين دم الكبير والصغير من المسلمين، وجرى في تلك المدة من العجائب والغرائب ما لم يتقدم مثله ـ ولا أظنه يأتي إن شاء الله تعالى ـ فإنها من أفظع المصائب، فوجدتُ قد جمع أخبار تينك الدولتين الكاتب

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٢٤ـ١٢٥.

(٢) انظر ص ٤٠٩ ـ ٤١٣ من هذا الكتاب.

(٣) انظر ص ٣٥٩ من هذا الكتاب.

(٤) انظر ص ١٧٧ ـ ١٧٩ من هذا الكتاب.

الفاضل العالم، شهاب الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد النسوي، المعروف بالمنشئ، الذي كان في صحبتهم وخدمتهم، مطلعاً على أحوالهم، متصرفاً في أعمالهم، جمع ما جرى من ذلك في مجلدة واحدة، فاختصرت المقاصد منها على عادتي في مثل ذلك»[١].

ويستوقفنا في هذا التقديم تلك المقارنة البارعة بين الدولتين النورية والصلاحية، اللتين قامتا على نشر العدل وإقامة الجهاد، والنظر في مصالح العباد[٢]، وبين الدولتين العلائية والجلالية، اللتين قامتا على قهر العباد، فآل الأمر إلى خراب البلاد، واستيلاء التتار عليها.

وبهذا يكمل أبو شامة رؤياه ليضعها بين يدي ملوك عصره، العدل الذي يعمر البلاد، والظلم الذي يفضي إلى الخراب.

ولكي يكون أميناً فيما يؤرخ له، وهو البعيد عن تلك الدولة الخوارزمية، اختار النسوي، وهو مؤرخ معاصر لأحداثها، ليعتمد عليه فيما يسوقه من أخبارها[٣].

---

(١) «نزهة المقلتين»، الورقة ٣.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٤/ ٤٣٤.

(٣) ولد النسوي في قلعة خُرَنْدَز من أعمال نسا في خراسان، وكان أبوه مالكاً للقلعة، فوليها هو من بعد وفاته، وقد شارك النسوي في المعارك ضد التتار، ثم إنه هرب من قلعته سنة (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م) إلى شمالي العراق إثر فتنة وقعت بين أمراء الدولة الخوارزمية في نسا، مستغلين هروب السلطان جلال الدين إلى الهند عقب هزيمته من التتار.
وحين عاد السلطان جلال الدين سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، راح يستعيد سلطانه على بلاده، وقد وصل في حروبه إلى شمالي العراق، وهناك التقى النَّسويَّ، فعينه كاتباً للإنشاء لديه، ومنذ ذلك الوقت صار النسوي في قلب الحياة السياسية في الدولة الخوارزمية، حيث رافق جلال الدين في حروبه، ثم عينه جلال الدين وزيراً لنسا، مشترطاً عليه البقاء معه على أن يستنيب فيها نائباً عنه، فبقي النسوي ملازماً له حتى حاصره التتار قرب حاني، ففارقه إلى ميافارقين، حيث بلغه، وهو هناك، مقتل جلال الدين على يد أحد الأكراد في منتصف شوال سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)، فانضم النسوي إلى خدمة غازي بن العادل ملك ميافارقين، ثم فارقه، =

وما يعنيه من تاريخ الدولة الخوارزمية هي تلك الفترة الأخيرة من حياتها، التي حكم فيها سلطانها علاء الدين محمد بن تُكُش وابنه جلال الدين منكبرتي، وما يعنيه من أحداثها ووقائعها ما يتعلق بحال تلك الدولة مع التتار، ومن ثم اختط أبو شامة منهجاً في اختصاره للكتاب يختلف عن منهج النسوي في تأليفه.

فالنسوي أراد أن يؤرخ للفترة الأخيرة من حياة الدولة الخوارزمية من خلال سلطانيها علاء الدين وجلال الدين، فاستفاض في أخبارها، بل إنه توسع في أخبار جلال الدين، لأنه عقد كتابه على سيرته، وسماه باسمه «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي»، وهذا يقتضي منه الإحاطة بأخباره كلها، ولذلك رأينا النسوي يسوق إلينا تفاصيل ما جرى مع تلك الدولة في علاقاتها الخارجية والداخلية، بل إنه وجد متسعاً ليذكر ما وقع له من وقائع قادته إلى التعرف إلى جلال الدين وملازمته له حتى مقتله.

أما أبو شامة، فما كان يعنيه من الكتاب هو ما كان لتلك الدولة من وقائع مع

= وقد ساءت العلاقة بينهما، والتحق بخدمة مقدم الخوارزمية الأمير بركة خان، حيث صار عنده بمنزلة الوزير إلى أن قتل بركة سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) فانتقل إلى خدمة سلطان حلب الناصر يوسف بن العزيز، الذي اتخذه سفيراً له إلى التتار عدة مرات، عاد في آخرها إلى حلب، ثم ما لبث أن توفي فيها سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م).

وكان قد أكب نحو سنة (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م) على تأليف كتاب في سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، غير أنه لم يقتصر فيه على سرد حياته فحسب، بل استهل كتابه بسرد تاريخ التتار في موطنهم، ثم تتبعهم إلى أن حطوا رحالهم على تخوم المشرق الإسلامي، ثم تكلم عن الدولة الخوارزمية في عهد السلطان علاء الدين محمد والد جلال الدين وصراعه مع التتار الذي انتهى بموته، ثم راح يفصّل الكلام في الدولة الخوارزمية في عهد آخر سلاطينها جلال الدين حتى وفاته سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م).

انظر البحث الذي كتبته عن النسوي في «الموسوعة العربية» الصادرة عن «هيئة الموسوعة العربية» في دمشق، مادة «النسوي».

وانظر حاشيتنا رقم (١) ص ١٧٨ من هذا الكتاب.

التتار، ولهذا قيد عنوان اختصاره له بقوله: «وما كان فيهما من الوقائع التاتارية»، فلم يلتزم أبو شامة في اختصاره للكتاب إلا بتلك الفصول التي بين النسوي فيها تلك الأحداث والوقائع، وكذلك لم يلتزم بعناوين الفصول التي عنون بها النسوي كتابه، بل وضع عناوين لفصوله التي اختصرها، تتناسب ومضمون ما اختصره منها، مفصلاً في وقائع تلك الفترة من سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م) حتى سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)، حيث قتل جلال الدين، وانطوى خبر تلك الدولة، فكان عمل أبي شامة في الكتاب أقرب إلى الاختيار منه إلى الاختصار، وهو ما عبَّر عنه في آخر الكتاب بقوله: «هذا آخر ما اخترته من هذا الكتاب، وإلى الله تعالى المصير والمآب»[(١)].

ويبدو أن هذا الاختصار قد بقي على حالته هذه حتى سقوط بغداد بيد التتار سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، وما أعقب ذلك من سقوط حلب في صفر سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، واستسلام دمشق في العام نفسه، ثم ما جرى من انتصار المسلمين في معركة عين جالوت في رمضان سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) ومعركة حمص في محرم سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م).

فعكف أبو شامة على كتابه هذا يضيف إليه أخبار هذه الوقائع باختصار، مفتتحاً ذلك بالنقل عن العماد الكاتب من آخر كتابه «الوزراء السلجوقية»، ثم مثنياً بما كتبه البنداري في اختصاره له.

فيبدأ بذكر سقوط بغداد، ثم استيلاء التتار على حلب، ووصولهم إلى دمشق، ودخولهم إليها بالأمان، ثم إغارتهم على حوران ونابلس، وقتلهم للكامل محمد بن شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، وطوافهم برأسه في أسواق دمشق، ثم ما وقع في رمضان من سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) من انتصار المسلمين على التتار في معركة عين جالوت، تلك المعركة التي بيَّن أبو شامة أهميتها في تاريخ المسلمين

---

(١) «نزهة المقلتين»، الورقة ٥٣.

بقوله: «فكان ذلك فتحاً مبيناً، ونصراً عزيزاً، نشأ به الإسلام نشأ جديداً»[١].

ثم يذكر مقتل السلطان قطز في طريق رجوعه إلى مصر بعد هذه الموقعة بنحو شهرين، ثم يذكر هزيمة التتار الثانية في معركة حمص خامس محرم سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م)، ذاكراً أن التتار قد ذلوا بعد هاتين الكسرتين، وطمع فيهم المسلمون، وانتقل إليهم ما كان عند المسلمين من الخوف منهم[٢].

ويبدو أن هذه الأخبار كان يدونها أبو شامة تباعاً، إثر وقوعها، يدل على ذلك افتتاحه لبعضها بقوله: ثم. بيد أن ما كتبه في مختصره هذا، كان قد دونه في كتابه «المذيل على الروضتين» تدويناً أحسن سياقاً وأتم، ولعله لم يفصل في هذه الأخبار هنا تفصيله لها في «المذيل» انسجاماً مع موضوع الكتاب ومنهجه، المقتصر على أخبار التتار فحسب.



(١) نزهة المقلتين: ورقة ٥٢.

(٢) المصدر السالف.

نسخة كتاب «نزهة المقلتين»

للكتاب نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، عن نسخة في مكتبة العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور بتونس، برقم (١٢٨٢) تاريخ، في (٥٣) ورقة، فرغ من نسخها ثامن عشر شهر شوال المبارك سنة (٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م)، على يد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن حسن، نزيل بيت المقدس الشريف، وهي مقابلة بنسخة أبي شامة بخطه، إذ جاء في هامش الورقة الأخيرة منها بخط ابن العلائي: «بلغ مقابلة على أصله بخط مؤلفه، رحمه الله تعالى، كتبه ابن العلائي».

وعنوان الكتاب فيها: «نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلالية وما كان فيهما من الوقائع التاتارية، جمعهما الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الشافعي، عفا الله عنه، على سبيل الاختصار من كتاب المنشئ الفاضل شهاب الدين محمد بن أحمد النسوي، رحمه الله تعالى».

وعندي صورة من هذه النسخة، وهي مما تفضل به عليَّ صديقي الحبيب المحقق الشيخ محمد بن ناصر الدين العجمي، نفع الله به.

وثمة نسخة أخرى من الكتاب في المغرب، في الخزانة العامة بالرباط، برقم (٢٥١).

أشار إليها محقق كتاب «عيون الروضتين»[١]، ووضع في مقدمته ورقتين منها أُنموذجاً[٢]، إخاله ظنهما من كتاب «عيون الروضتين»، والله أعلم.

(١) «عيون الروضتين»: ١/ ١٣٩.

(٢) «عيون الروضتين»: ٢/ ١٧٥ـ ١٧٦.

«تاريخ دمشق» للحافظ أبي القاسم ابن عساكر[1] هو الكتاب الذي تخرج به أبو شامة مؤرخاً، فبعد أن أمضى سنين يقرأ في التاريخ وأخباره، وتراجم أعلامه، أحبَّ أن يتصدى للتأليف فيه، ليجمع شتات ما قرأ، فلم يجد خيراً من تاريخ ابن عساكر يتتلمذ عليه[2]، وقد حكى لنا في مقدمة «كتاب الروضتين» عن أثره الكبير في تكوينه التاريخي، فقال: «ثم أردت أن أجمع في هذا العلم كتاباً يكون حاوياً لما حصلته، وأتقن فيه ما خبرته، فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين، وهو تاريخ دمشق حماها الله عز وجل، وهو ثماني مئة جزء

(١) واسمه «تاريخ مدينة دمشق حماها الله، وذكر فضلها، وتسمية من حلها من الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها». ألفه محدث الشام ومؤرخها أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، الدمشقي الشافعي، المعروف بابن عساكر، ولد في أول سنة (٤٩٩هـ/ ١١٠٥م)، وتوفي في (١١) رجب سنة (٥٧١هـ/ ١١٧٦م).
وقد تبنى مجمع اللغة العربية بدمشق طبع هذا التاريخ العظيم، وصدر منه مجلدات عدة، أكثرها بتحقيق الأستاذة سكينة الشهابي، رحمها الله، وقامت دار الفكر بدمشق في الثمانينيات من القرن الماضي بطبع مختصره لابن منظور، وصدر في تسع وعشرين جزءاً، حققت الجزء الأخير منه.
انظر ترجمة ابن عساكر في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٤/ ١٠٥ ـ ١١١، وقد استقصيتُ ثمة مظان ترجمته.

(٢) انظر ص ٩٣ ـ ٩٤ من هذا الكتاب.

في ثمانين مجلداً، فاختصرته، وهذبته، وزدته فوائد من كتب أخرى جليلة، وأتقنته، ووقف عليه العلماء، وسمعه الشيوخ والفضلاء»(١).

وقد ألهمه اختصاره له من بعد كتابين تاريخيين هامين، هما: «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»(٢)، وكتاب «كشف ما كان عليه بنو عبيد»(٣).

وكان أبو شامة قد اختصره اختصارين، أكبر، وهو في خمسة عشر مجلداً، وأصغر في خمسة مجلدات(٤). غير أن اختصاريه هذين ضاعا فيما ضاع من تراث أبي شامة، ولم يبقَ منه إلا جزآن، أحدهما في مكتبة برلين برقم (٩٧٨٢)، والآخر في مكتبة باريس برقم (٢١٣٧)(٥).

ويمكننا أن نتبين بعض ملامح منهجه فيه، مما أشار إليه من اطلع عليه من العلماء، فقد ذكروا أنه في اختصاره الأكبر لم يخلَّ بشيء من تراجمه، بل أوردها كلها وإن اختصر مادتها(٦).

وقد توسع أبو شامة في بعض تراجمه، فزاد على ما ساقه فيها ابن عساكر، كما فعل في ترجمة الإمام الشافعي محمد بن إدريس، فقد جمع فيها من أخباره ما تفرَّق في كتب المصنفين، وإلى ذلك أشار مادح أبي شامة بقوله:

ولـهُ الشَّامةُ في تَرْ جمةٍ في حَرْفِ ميمِ
تلكَ أنباءُ ابنِ إدريـ ـسٍ بإسهابٍ عميمِ(٧)

---

(١) «كتاب الروضتين»: ١/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) انظر ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ من هذا الكتاب.

(٣) انظر ص ٤٧٧ من هذا الكتاب.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٥) «تاريخ الأدب العربي»، بروكلمان (الترجمة العربية)، القسم الثالث (٥ ـ ٦): ص٣٨٤.

(٦) «مشيخة ابن جماعة»: ١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١، «تكملة إكمال الإكمال» لابن الصابوني: ص٢١٢.

(٧) «المذيل»: ١/ ١٤٨، وانظر «خطبة الكتاب المؤمل»: ص٨١.

وأحياناً كان أبو شامة يترجم لمن لم يترجم لهم ابن عساكر من ذوي المنزلة من معاصريه، وإن تأخرت وفاتهم بعد وفاة ابن عساكر، فقد أشار إلى ترجمته للعماد الكاتب في اختصاره «تاريخ دمشق» ووفاته سنة[١] (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)، وترجم لصلاح الدين يوسف بن أيوب، ووفاته سنة[٢] (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، ولعله تأسى في ذلك بمن ترجم لهم ابن عساكر من معاصريه، وهم أحياء، كنور الدين محمود بن زنكي[٣]، وأسامة ابن منقذ[٤].

ونستطيع أن نجزم من خلال ما كتبه أبو شامة في مقدمته لكتاب الروضتين أن اختصاره لتاريخ ابن عساكر كان من أوائل أعماله التاريخية، ويبدو أنه شرع فيه عقب عودته من مصر، وذلك نحو سنة[٥] (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، ولم نقف على تاريخ فراغه منه، غير أننا علمنا أنه كان يسمعه سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥١م)، في جامع دمشق[٦]، وقد فرغ من إسماعه سنة[٧] (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، ولا ريب أنه قد أنهاه قبل ذلك بفترة تسمح له بإسماعه حتى ينتهي منه بهذه السنة.

وقد أتيح لي الوقوف على الجزء المحفوظ في مكتبة باريس، إذ منه مصورة في مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق، وهو من اختصاره الأكبر له، إذ لم يخل بشيء من تراجمه، بيد أنه وقع فيه خرم أتى على أوراق من أوله وآخره، فهو يبدأ من ترجمة يزيد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وينتهي بترجمة أبي محمد بن العباس العطار.

---

(١) «المذيل»: ١/ ١١٢.

(٢) انظر حاشيتنا رقم (١) ص ٤٧٢ من هذا الكتاب، ويفهم من سياق ترجمته ما ذهبنا إليه من التعليل.

(٣) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٦/ ٢٩٣ـ٢٩٦، و«كتاب الروضتين»: ١/ ٢٨.

(٤) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ٢/ ٧٠٢ـ٧٠٥.

(٥) انظر ص ٩٣ من هذا الكتاب.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٤٦ـ١٤٧.

(٧) «المذيل»: ٢/ ١٠٠.

ومما يدل على أنه مختصر أبي شامة ترجمته فيه لصلاح الدين يوسف بن أيوب ترجمة مختصرة[1]، ذكر فيها أنه استقصى أخباره وسيرته في «كتاب الروضتين»، ولعل هذه الإشارة تشي إلى تأخر فراغه من اختصاره حتى شارف على الانتهاء من «كتاب الروضتين»، أو أن هذه الإشارة قد كتبها، وهو بعد يؤلف «كتاب الروضتين»، أو أنه كان قد كتبها في حاشية على هامش نسخته، ثم أضيفت من بعد إلى متن الكتاب، والله أعلم.



(١) في الورقة (٣٤)، جاء فيها: «يوسف بن أيوب بن شاذي، الملك الناصر صلاح الدين، سلطان المسلمين، وقامع المشركين، فاتح البيت المقدس وبلاد الساحل، ومخلصها من أيدي الكافرين، رحمه الله، لم يذكر له الحافظ أبو القاسم ترجمة مع أنه ملك دمشق في سنة سبعين، وكان مالكاً للديار المصرية، ثم اتسعت مملكته، ويسر الله تعالى عليه الجهاد، وكان أحد الأجواد، وقد استقصيت أخباره وسيرته في «كتاب الروضتين»، وتقدم طرف من ذلك في ترجمة عمه أسد الدين شيركوه في حرف الشين، فلهذا لم أطنب في ذكره هنا، والله الموفق».

بقية مؤلفات أبي شامة التاريخية
التي لم تصل إلينا بعد

ثمة كتب في التاريخ لأبي شامة لم تصل إلينا بعد، وبعضها لم يفرغ من تأليفها حتى سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) كما صرح بذلك في ترجمته لنفسه[١]، وما ندري، هل أتمَّ تأليفها من بعد؟ وهي:

١ـ كتاب جامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس، شرفهن الله تعالى.

٢ـ مختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

٣ـ مشكلات الأخبار[٢].

وثمة كتاب كان قد أتمَّه، غير أنه لم يصل إلينا كذلك، وهو كشف حال بني عبيد[٣]، وقد نثر أبو شامة من أخباره ما مكننا من الحديث عنه.

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٣ـ١٤٤.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

كشف حال بني عبيد

ألمع أبو شامة إلى كتابه هذا في «كتاب الروضتين» حين تحدث فيه عن الدولة الفاطمية[1]، ثم أدرجه ضمن مؤلفاته التي ذكرها في ترجمته لنفسه في «المذيل على الروضتين»[2].

ويبدو أن الذي قاده إلى تأليفه هو اختصاره لتاريخ دمشق لابن عساكر[3]، فقد مرت فيه ترجمة عبد الرحيم بن إلياس، أمير الشام، وابن عم الحاكم وولي عهده[4]، فأحب أن يقف على أصل دولتهم، واستعان على ذلك بما ألف عنها، فوقف على كتاب «كشف أسرار الباطنية» للقاضي أبي بكر ابن الباقلاني، وكتاب «تثبيت دلائل النبوة» للقاضي عبد الجبار البصري المعتزلي، وكتاب «الرد على الباطنية» للإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن علي بن أبي نصر الشاشي. فنقل من كلامهم، وأودعه في مختصره لتاريخ دمشق في ترجمة عبد الرحيم بن إلياس[5].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٢٢.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٣) انظر ص ٤٧٠ من هذا الكتاب.

(٤) «تاريخ دمشق» لابن عساكر: مج٤٢/ ص١٦٦ ـ ١٦٨، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٩٢.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢١٦ ـ ٢١٧، ٢٢١ ـ ٢٢٢.

بيد أنه لم يقنع على عادته بهذه الشذرات، فرأى أن يفرد كتاباً في الدولة الفاطمية، فعكف على تأليفه، وسماه «كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد»[١].

ويبدو أنه بعد فراغه من تأليفه وقف على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمي، وكان في أيام العزيز الفاطمي، وقد بين فيه أصولهم أتم بيان، فنقل أبو شامة منه إلى ما كان قد جمعه قطعة كبيرة، فكان التأليف الثاني للكتاب[٢].

ولا يخفي أبو شامة موقفه من الدولة الفاطمية، فهو يجبه به قارئه من عنوانه «كشف ما كان عليه بنو عبيد»، فهو لا يعترف بصحة نسبهم إلى الأشراف الفاطميين، بل هم ـ كما يعتقد ـ بنو عبيد، وعبيد هذا هو من أهل سلمية من بلاد الشام، كان حداداً، واسمه سعيد، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله، وزعم أنه علوي فاطمي، مدعياً نسباً ليس بصحيح[٣].

ثم ترقت به الحال إلى أن ملك، وتسمى بالمهدي، وبنى مدينة المهدية[٤]، فنسبت إليه، وقد تستر بالتشيع، وإنما كان حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، ونشأت ذريته على ذلك[٥]. وقد رأى أبو شامة آثار سبهم للصحابة، رضوان الله عليهم، منقوراً في الحجر على أحد أبواب دمشق، حين أمر الحاكم بأمر الله، أحد خلفائهم بذلك[٦].

---

(١) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٢٢.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢١٤.

(٤) هي الآن بلدة صغيرة، تقع على ساحل تونس، إلى الجنوب الشرقي من سوسة.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢١٤ـ٢١٥.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٢٠ـ٢٢١.

وموقف أبي شامة هذا من الدولة الفاطمية، هو موقف فريق من المؤرخين ممن تقدمه أو أتى بعده، لا يصححون نسبهم اعتماداً على المحضر الذي رفع للقادر بالله العباسي سنة (٤٠٢هـ/ ١٠١١م)، وقد تضمن القدح فيهم[1].



(١) اختلف علماء النسب والمؤرخون في صحة نسبهم، وشابت اختلافاتهم العداوة السياسية والمذاهب العقائدية، انظر في ذلك «الكامل» لابن الأثير: ٨/ ٢٤ وما بعدها، و«المنتظم» لابن الجوزي: ٧/ ٢٥٥-٢٥٦، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي: ١٥/ ١٣٢-١٣٣، ١٧٧ ـ ١٧٨، و«مقدمة ابن خلدون»: ١/ ٣٠٩ ـ ٣١٢، و«اتعاظ الحنفا» للمقريزي: ١/ ٢٢ ـ ٥٤، و«الإعلان بالتوبيخ» للسخاوي: ٥٤٤ ـ ٥٤٥، و«الضوء اللامع»: ٢/ ٢٣.
ولبرنارد لويس دراسة في نسبهم في كتابه: «أصول الإسماعيلية»، توسع فيها، وقد طبع بالقاهرة سنة (١٩٤٨م)، ثم أعيد طبعه في بيروت، وصدر عن دار الحداثة سنة (١٩٨٠م)، وانظر كذلك كتاب «الفاطميون» لهاينز هالم، وقد طبع في دمشق، وصدر عن دار المدى سنة (١٩٩٩م).
وقد شن حسن الأمين هجوماً شنيعاً على أبي شامة لموقفه هذا من الدولة الفاطمية، وتلفظ بكلمات لا تتفق ومنهج البحث العلمي، انظر كتابه «صلاح الدين»: ص١٥١، ١٥٢، ١٥٨، ١٦٢-١٦٣.

مؤلفات أبي شامة
في العلوم الأخرى

وتتمة للبحث ـ وقد أنجزت بفضل الله تعالى وعونه دراسة سيرة أبي شامة ومؤلفاته التاريخية ـ سأستعرض سائر مؤلفاته في العلوم الأخرى؛ من فقه وقراءات ونحو وغيرها، وقد شهدت ببراعته فيها[١]، وكان أبو شامة قد أورد معظمها في ترجمته لنفسه التي عقدها في كتابه «المذيل على الروضتين»، وقسمها قسمين: قسماً كان قد أتمه، وقسماً لم يتم تأليفه حتى سنة[٢] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، وأما ما أغفل ذكره منها، أو كان قد ألفه بعد تلك السنة فقد تتبعتها في مظانها ما وسعني ذلك، ولا أدعي أنني قد أحطتُ بها جميعاً.

وكانت مؤلفاته قد اشتهرت في حياته، وكثرت النسخ بها[٣]، وقد آثرتُ ترتيبها على حروف المعجم ليسهل الاطلاع عليها:

١ـ إبراز المعاني من حرز الأماني

وهو في شرح قصيدة الإمام الشاطبي «حرز الأماني» في القراءات القرآنية.

وكان أبو شامة قد شرحها شرحاً مختصراً صغيراً سنة (٦٢٤[٤]هـ/ ١٢٢٧م).

---

(١) انظر في وصف مؤلفاته «تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٤٦١، و«مشيخة ابن جماعة»: ١/ ٣٠٠ـ٣٠١، و«البداية والنهاية» (وفيات سنة ٦٦٥هـ).

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٢ـ١٤٤.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤١.

(٤) «إبراز المعاني»: ١/ ٦٩.

ثم توفر على شرحها شرحاً كبيراً، طول النفس فيه حتى بلغ باب الهمزتين من كلمة في نحو مجلدة(١)، ثم توقف ولم يتمه(٢). وكان يشير إليه باسم «إبراز المعاني الكبير»(٣) أو «الكتاب الكبير من إبراز المعاني»(٤).

ثم قام باختصار ما شرحه منها، وأكمل شرحها في مجلدين(٥)، وكان الفراغ منه في سلخ ذي الحجة سنة(٦) (٦٥٣هـ/ ١٢٥٦م)، وهذا الشرح هو الذي اشتهر من بعد على أنه من أنفس شروحها(٧).

وكانت قد طبعته مكتبة البابي الحلبي بمصر سنة (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) بتحقيق إبراهيم عطوة عوض.

ثم حققه وعلق عليه محمود بن عبد الخالق محمد جادو، وصدر في أربعة أجزاء في المدينة المنورة عن الجامعة الإسلامية سنة (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)(٨).

٢ـ الأرجوزة في الفقه

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين» في الكتب التي لم يتمَّ تأليفها حتى سنة(٩) (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

---

(١) «إبراز المعاني»: ١/ ١٠٧.
(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٢، ١٤٧.
(٣) «كتاب البسملة»: ص١٢٤.
(٤) «المرشد الوجيز»: ص١٦١.
(٥) «المذيل»: ١/ ١٤٢.
(٦) «إبراز المعاني»: ١/ ٦٩.
(٧) «تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٤٦١، «غاية النهاية»: ١/ ٣٦٥.
(٨) وعلى هذه الطبعة كانت إحالاتنا في هذه الدراسة.
(٩) «المذيل»: ١/ ١٤٤.

٣ـ الأصول من الأصول

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[١]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

٤ـ الإعلام بمعنى الكلمة والكلام

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»، في الكتب التي لم يتمَّ تأليفها حتى سنة[٢] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

٥ ـ إقامة الدليل الناسخ لجزء الفاسخ

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٣]، وذكر قصة تأليفه في ترجمة تاج الدين عبد الرحمن بن عبد الباقي الحنفي، المعروف بابن النجار.

وكان عبد الرحمن أحد شهود باب جامع دمشق، وقد عقد نكاحاً على مذهبه الحنفي بإذن من قاضي القضاة صدر الدين ابن سني الدولة الشافعي، ثم أذن قاضي القضاة لنائبه كمال الدين التفليسي بنقض العقد، فنقضه، وجرى في ذلك إنكار عظيم على الناقض والآذن، وصنف أبو شامة في ذلك تصنيفاً.

فانتصر التفليسي لما حكم به، فألف جزءاً في ذلك، فنقضه أيضاً أبو شامة بهذا الكتاب[٤]. وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

٦ـ الألفاظ المعربة

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٥]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٤.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٤) «المذيل»: ٢/ ١٧١، وانظر ص ١٣٦ ـ ١٣٧ من هذا الكتاب.

(٥) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

٧ـ الإنصاف فيما وقع في صلاة الرغائب[١] من الاختلاف

ذكره أبو شامة في مقدمة كتابه «الباعث على إنكار البدع والحوادث»[٢].

ويبدو أن أبا شامة قد ألف هذا الجزء بعد سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) حيث أثيرت من جديد مسألة صلاة الرغائب، واختلف حولها الفقهاء ما بين مؤيد ومستنكر، فحملت أبا شامة الأنفة للعلم، والحمية للصدق على تمييز الباطل من الحق، فألف هذا الجزء[٣].

وكانت هذه المسألة قد أثيرت سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م) ووقع النزاع فيها بين الشيخين تقي الدين ابن الصلاح الذي قررها، وألحقها بالبدع الحسنة، وبين عز الدين بن عبد السلام الذي استنكرها وعدها بدعة منكرة[٤].

وقد مال أبو شامة فيها إلى رأي الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ومن ثَمَّ ضم هذا الجزء إلى كتابه «الباعث على إنكار البدع و الحوادث»، مشيراً إلى ذلك في مقدمته[٥].

٨ ـ الباعث على إنكار البدع والحوادث

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٦]، وهو الكتاب الثالث الذي ضمه إلى المجلد الثاني من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، وكان قد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[٧].

---

(١) هي الصلاة التي تصلى بين العشاءين ليلة أول جمعة من شهر رجب، انظر «الباعث»: ص١٣٨.

(٢) «الباعث»: ص٥٢.

(٣) المصدر السالف.

(٤) «الباعث»: ص١٤٩ـ١٥١.

(٥) «الباعث»: ص٥٢.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٧) المصدر السالف.

وقد طبع لأهميته طبعات كثيرة، لعل أولها طبعة القاهرة، في مطبعة الراجي سنة (١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م).

ومن طبعاته تلك التي حققها مشهور حسن سلمان، وصدرت عن دار الراية في الرياض سنة (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٩ـ تتمة البيان لما أشكل من متشابه القرآن

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين» بعنوان: «نظم شيء من متشابه القرآن»[١].

منه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق[٢] برقم (٣٤٤) بعنوان «تتمة البيان لما أشكل من متشابه القرآن»[٣]. استدرك فيه أبو شامة على شيخه أبي الحسن السخاوي في منظومته «هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب»[٤].

١٠ـ تزويج الصغيرة

ذكره الزركشي في كتابه «البحر المحيط» في أصول الفقه[٥]، وقد قدم فيه

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٢) هي من مقتنيات مكتبة الأسد الوطنية الآن.

(٣) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق، «علوم القرآن»: ٢/ ٧٠ـ٧١، وضعه صلاح الخيمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
وقد أخطأ د. عزة حسن في قوله: نظمت ذيلاً وتتميماً لمنظومة أخرى اسمها «البيان لما أشكل من متشابه القرآن» مغتراً بظاهر عنوانها، انظر فهرس مخطوطات الظاهرية، «علوم القرآن»: ص٣٤٤، وضعه عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م).

(٤) طبعت منظومة السخاوي «هداية المرتاب» بتحقيق عبد القادر الخطيب، وصدرت عن مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، ودار الفكر المعاصر، بيروت (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

(٥) «البحر المحيط» للزركشي: ٦/ ٣٠١ـ٣٠٢.

أبو شامة فتوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام في تزويج الصغيرة، على ظاهر نص الإمام الشافعي، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

١١ـ تقييد الأسماء المشكلة

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»، في الكتب التي لم يتم تأليفها حتى سنة[١] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

١٢ـ جزء في شيخه علم الدين السخاوي، ومكاتباته في وصف دمشق

ذكره أبو شامة في «كتاب الروضتين»، فقال: «وصنف شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي ـ رحمه الله ـ مقامة تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر، ووصف كلاً من البلدين بما يليق به، وكان أول ما قدم دمشق يذمها في مكاتباته إلى مصر نظماً ونثراً، حباً للوطن، ثم لما استقر فيها قرت عينه، وفضلها في بعض مكاتباته، وقد ذكرت كل ذلك في جزء مستقل به»[٢].

١٣ـ خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٣]، وقد افتتح به المجلد الأول من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، وكان قد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[٤].

والكتاب هو الخطبة الكبرى المقدمة بين يدي كتاب «العلم الجامع بين الفقه والأثر»، الذي أمَّل أبو شامة تأليفه، وأراد فيه جمع مسائل الفقه بأقوالها وأدلتها مع بيان الراجح منها[٥]. ويبدو أنه قد كتب فيه فصولاً[٦]، غير أنه مات ـ رحمه الله ـ

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٣/ ٢١٨.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٤) المصدر السالف.

(٥) «خطبة الكتاب المؤمل»: ص١٠٧.

(٦) «خطبة الكتاب المؤمل»: ص١١٤ـ١١٦.

ولم يتمه، ولو تهيأ لم يكن له نظير على حد تعبيره[١]، وهو الكتاب المؤمل الذي أشار إليه في العنوان.

وقد نشرت هذه الخطبة أول ما نشرت في القاهرة، في مطبعة كردستان سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م) عن نسخة مختصرة بعنوان «مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول»، وقام بتصحيحها محيي الدين صبري الكردي، ومحمد حسين نعيمي الكردي.

وهذا العنوان الذي نشرت فيه غير دقيق، ويوحي بأنها مختصر الكتاب المؤمل، لا مقدمة له.

وتابعهما على هذا الخطأ محمد منير آغا الدمشقي، وقد نشرها بالقاهرة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية في المجلد الثاني: ص٢٠ـ٣٩، وذلك بين سنتي (١٣٤٣ـ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٤ـ١٩٢٧م).

وعن الطبعة المنيرية أصدرته مكتبة الصحوة الإسلامية بالكويت سنة (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م) بتحقيق صلاح الدين مقبول.

وأعاد الحق إلى نصابه، وذلك بنشرها عن نسختين تامتين[٢] جمال عزون، وصدرت عن مكتبة أضواء السلف بالرياض سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

١٤ـ ذكر من ركب الحمار

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين» في الكتب التي لم يتم تأليفها حتى سنة[٣] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م).

وقد كان أبو شامة ممن يركب الحمار تواضعاً[٤]، إذ كان العلماء في ذلك

---

(١) قال أبو شامة ذلك في مقدمة «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، وقد نشرها جمال عزون في مقدمة تحقيقه لـ«خطبة الكتاب المؤمل»: ص٣٦.

(٢) منهما نسخة خطية في مكتبة شستربتي برقم (٣٣٠٧)، عندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٤.

(٤) «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣٣٦، وانظر ص ٣٠٩ من هذا الكتاب.

الوقت يركبون البغال الفارهة، وقد أشار أبو شامة إلى ذلك في قصيدته الفلاحة الرائية، بقوله:

وهُمُ في نفوسهمْ في عظيمٍ يركبونَ البِغالَ غُرّاً وزُهْرا[١]

١٥ـ رفع النزاع بالرد إلى الاتباع

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين» في الكتب التي لم يتم تأليفها حتى سنة[٢] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، ولم يصل إلينا.

وهو كتاب في الفقه، ذكر فيه مسائل منتزعة من الكتاب والسُّنَّة[٣].

ويبدو أنه شرع في تأليفه قبل سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) لأنَّه أشار إليه في كتاب «المحقق من علم الأصول»، وقد ألفه في ذلك العام[٤].

١٦ـ شرح أحاديث الوسيط

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»، في الكتب التي لم يتم تأليفها حتى سنة[٥] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

١٧ـ شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى ﷺ

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٦]، وهو الكتاب الثالث الذي

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٨٥.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٣) انظر «المحقق من علم الأصول»: ص٦٥، ١٠٩.

(٤) «المحقق»: ص٢٩.

(٥) «المذيل»: ١/ ١٤٤.

وحقق «الوسيط» للإمام الغزالي أحمد محمود إبراهيم، وصدر في القاهرة عن دار السلام للطباعة والنشر سنة (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، في سبع مجلدات، وهو من أجلِّ كتب الفقه الشافعي.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

ضمه إلى المجلد الأول من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، وكان قد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[١].

وقد صدر عن مكتبة العمرين العلمية في دولة الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، سنة (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) بتحقيق جمال عزون.

١٨ـ شرح ذات الأصول

ذكره أبو شامة في كتابه «شرح الحديث المقتفى»[٢].

وللشيخ علم الدين السخاوي قصيدتان، الأولى: ذات الأصول في مدح الرسول ﷺ[٣].

والثانية: ذات الأصول والقبول في مفاخر الرسول ﷺ[٤].

وكان أبو شامة قد شرح مدائح المصطفى ﷺ للسخاوي في كتابه «المقاصد السنية في شرح القصائد النبوية».

١٩ـ شرح ذات الدرر

ذكره أبو شامة في كتابه «شرح الحديث المقتفى»[٥].

وقد شرح فيه قصيدة شيخه السخاوي: ذات الدرر في معجزات سيد البشر.

وضمنه كتابه «المقاصد السنية في شرح القصائد النبوية»[٦]

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٢) «شرح الحديث المقتفى»: ص١٥٤.

(٣) «هدية العارفين»: ١/ ٧٠٨، وقد ذكر محقق كتاب «الوسيلة إلى كشف العقيلة»: ص٢٥ أنها القصيدة الأولى من القصائد السبع للسخاوي.

(٤) «هدية العارفين»: ١/ ٨٠٧، وقد ذكر محقق كتاب «الوسيلة»: ص٢٦ أنها القصيدة الرابعة من القصائد السبع للسخاوي، وانظر «نور المسرى»: ص١٢٩ ـ ١٣٠.

(٥) «شرح الحديث المقتفى»: ص٧٣.

(٦) «هدية العارفين»: ١/ ٧٠٨، وقد ذكر محقق كتاب «الوسيلة»: ص٢٦ أنها القصيدة الثانية من القصائد السبع للسخاوي، وانظر «نور المسرى»: ص١٣٠.

٢٠ـ شرح الرائية

هو شرح عقيلة أتراب القصائد للإمام الشاطبي في رسم المصحف[١].

وكان الشاطبي قد نظم كتاب «المقنع» لأبي عمرو الداني مع زيادات عليه.

ومن هذا الشرح نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، مجاميع ٤٩٣[٢].

٢١ـ شرح الشقراطيسية

ذكره أبو شامة في كتابه «شرح الحديث المقتفى»[٣]، وقد شرح فيه قصيدة «سمط الهدى في الفخر المحمدي»، وهي قصيدة لامية في السيرة النبوية، نظمها أبو عبد الله محمد بن يحيى بن بكر الشقراطيسي، المتوفى سنة[٤] (٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م) فعرفت بالشقراطيسية نسبة إليه.

من هذا الشرح نسخة في دار الكتب المصرية برقم (٢٤٧) أدب، و(١٦١١٦)ز[٥].

---

(١) وكان شيخه السخاوي قد شرحها في كتاب «الوسيلة إلى كشف العقيلة»، حققه د. مولاي محمد الإدريسي الطاهري، وطبع في مكتبة الرشد بالرياض، طبعة ثانية سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

(٢) الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، علوم القرآن، رسم المصاحف، ص٣٨، منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م) عمان، الأردن.

(٣) «شرح الحديث المقتفى»: ص٧٥.

(٤) «معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ»، لصلاح الدين المنجد: ص٣٢٥، طبعة دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، وانظر «كشف الظنون»: ٢/ ١٣٤١.
ومن هذه القصيدة نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق برقم (١٨٧٨)، انظر «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، التاريخ وملحقاته»، وضعه خالد الريان: ص٦٥٤، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م)، وهي الآن من مقتنيات مكتبة الأسد الوطنية.

(٥) «معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ»: ص٣٢٩.

ونسخة في مكتبة سوهاج بمصر برقم (٤٩) أدب، ومنها نسخة مصورة في معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة[١].

ونسخة ثالثة في القاهرة ثان (٣/ ٣٦٧)[٢].

٢٢ـ شرح عروس السمر

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٣]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

وقد شرح فيه قصيدة شيخه علم الدين السخاوي، التي نظمها على قافية النون، وسماها «عروس السمر في منازل القمر»[٤].

٢٣ـ شرح لباب التهذيب

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين» في الكتب التي لم يتمَّ تأليفها حتى سنة[٥] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

شرح فيه «اللباب التهذيب» للإمام حسين بن محمد الهروي الشافعي، وكان الهروي قد لخص فيه كتاب «التهذيب في الفروع»[٦] للإمام محيي السنة حسين بن مسعود البغوي[٧].

---

(١) «فهرس المخطوطات المصورة»: ١/ ٤٩٢، تصنيف فؤاد سيد، جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية، القاهرة ١٩٥٤م.

(٢) «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية) القسم الثالث (٥ـ٦): ص٣٨٣، وقد جمع بينه وبين «المقاصد السنية في شرح القصائد النبوية»، ولعلهما في مجموع واحد، وقد خلط بينهما جمال عزون في تعليقه في «شرح الحديث المقتفى»: ص٧٥ حاشية رقم (٤)، وانظر ص ٥٠٥ من هذا الكتاب.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٤) «هدية العارفين»: ١/ ٧٠٨، «إيضاح المكنون»: ٤/ ٩٩.

(٥) «المذيل»: ١/ ١٤٤.

(٦) «طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/ ٣٦٨، «كشف الظنون»: ١/ ٥١٧.

(٧) «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٧٥ـ٨٠.

٢٤ـ شرح نظم المفصل

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»، في الكتب التي لم يتمَّ تأليفها حتى سنة[١] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م).

وكان أبو شامة قد نظم كتاب «المفصل في النحو» للإمام الزمخشري[٢]، ثم شرحه في هذا الكتاب[٣]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

٢٥ـ شيوخ الحافظ البيهقي

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٤]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

٢٦ـ ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٥]، وهو الكتاب الرابع الذي ضمه إلى المجلد الأول من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، الذي جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[٦].

وفيه يرد أبو شامة على المعتزلة في إنكارهم رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة[٧].

منه نسختان، الأولى في المكتبة الأزهرية بمصر برقم (٢٧٨٥)[٨].

والثانية في مكتبة شستربتي بإيرلنده برقم (٣٣٠٧)، ومنها مصورة في مكتبة

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٢) انظر ص ٥٠٦ من هذا الكتاب.

(٣) «شرح الحديث المقتفى»: ص١٨٦، «إبراز المعاني»: ٤/ ١١٨.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٥) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٦) المصدر السالف.

(٧) «ضوء الساري»: ص٢٥ ـ ٢٦.

(٨) ذكرها جمال عزون في مقدمة تحقيقه لكتاب «شرح الحديث المقتفى»: ص٣٥.

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية[١].

وعن هذه النسخة حققه د. أحمد عبد الرحمن الشريف، وصدر عن دار الصحوة بالقاهرة سنة (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)[٢].

٢٧ـ العلم الجامع بين الفقه والأثر[٣]

كتاب أمل أبو شامة تأليفه، وأراد أن يجمع فيه المسائل الفقهية بأقوالها وأدلتها، ثم يبين الراجح منها بعرضها على الأصلين: الكتاب والسنة، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٤].

ويبدو أنه قد كتب فيه فصولاً غير أنه لم ينجزه[٥]، وكان قد وضع له مقدمة، سماها «خطبة الكتاب المؤمل»[٦]، ولو تهيأ له هذا الكتاب لم يكن له نظير في كتب الفقه[٧].

٢٨ـ القصيدة الدامغة

ذكرها أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٨]، وكذلك ذكرها قطب الدين اليونيني في «ذيل مرآة الزمان»[٩]، وابن شاكر الكتبي في «عيون التواريخ»[١٠]،

---

(١) عندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.

(٢) وحققه كذلك أبو البيان محمد صديق الرحمان، وهو رسالته للدكتوراه من الجامعة الإسلامية، ذكر ذلك مشهور حسن سلمان في مقدمة تحقيقه للباعث: ص١٩.

(٣) هكذا ورد اسمه في آخر نسخة شستربتي من كتاب «خطبة الكتاب المؤمل»، وسماه أبو شامة في كتابه «الكراسة الجامعة»: «الجمع بين الفقه والأثر، ورد ما اختلف فيه إلى القرآن والخبر بصحيح النظر»، انظر «خطبة الكتاب المؤمل»: ص٢١، ٤١، «وكراسة جامعة لمسائل نافعة» ورقة ٣.

(٤) «خطبة الكتاب المؤمل»: ص١٠٧.

(٥) «خطبة الكتاب المؤمل»: ص١١٤ـ١١٦.

(٦) انظر ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ من هذا الكتاب.

(٧) انظر مقدمة تحقيق «خطبة الكتاب المؤمل»: ص٣٦.

(٨) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٩) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ٣٦٨.

(١٠) «عيون التواريخ»: ٢/ ٣٥٣.

وسمياها: «القصيدة الدامغة للفرقة الزائغة»، وهي من القصائد التي لم تصل إلينا بعد.

٢٩ـ قصيدة الصدقات

نظمها أبو شامة سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٧م) حين قدم السلطان نجم الدين الصالح أيوب بن الكامل دمشق، وفرَّق فيها نحو تسعين ألف درهم على الفقراء، فخان فيها المفرقون، فنظم أبو شامة هذه القصيدة في نحو أربع مئة بيت في فضح حالهم[١].

ولم يصل إلينا من هذه القصيدة سوى بيت واحد، ذكره أبو شامة في ترجمة الرضي ابن النجار[٢].

٣٠ ـ قصيدتان في منازل طريق الحج

ذكرهما أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٣]، وكانت القصيدة الأولى، وهي قصيدة ميمية قد نظمها وهو في طريقه للحج سنة (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م)، وذكر لنا مطلعها:

ما زلتُ أشتاقُ حَجَّ البيتِ والحَرَمِ ... وأنْ أزورَ رسولَ الله ذا الكَرَمِ

وقال فيها عن فتح باب الكعبة المشرفة للحجيج في تلك السنة:

وأسرعوا نحوَ ذاكَ البيتِ حاسرةً ... رؤوسُهُمْ بين مِطْوافٍ ومُسْتَلِمِ

والبابُ قد أطلقوه للحجيجِ فلم ... يَرَوْا بِهِ مانعاً طُولَ مُقَامِهِمِ[٤]

والقصيدة الثانية، وهي قصيدة على قافية الهمزة، نظمها في حجته الثانية سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، وصف فيها أمر الحج ومنازل الطريق التبوكية، مطلعها:

---

(١) «المذيل»: ٢/ ٨٢.

(٢) «المذيل»: ٢/ ١٣٨، وانظر ص ١٤٩ ـ ١٥٠ من هذا الكتاب.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٤) «المذيل»: ١/ ٣٧٥ـ٣٧٦.

يـا حـبـذا وطـن الـحـبـيـب الـنـائـي[١]

ولم يصل إلينا من القصيدتين إلا ما ذكره أبو شامة عنهما في هذين الموضعين.

٣١ـ كتاب البسملة الأكبر

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٢]، وهو الكتاب السادس الذي ختم به المجلد الأول من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، وكان قد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[٣].

وقد عرض فيه للبسملة، وكل ما يتعلق بها وبمعناها من مسائل نحوية ولغوية، وأحكام فقهية، ومذاهب العلماء فيها، وأدلتهم في حكم الجهر والإسرار بها في الصلاة.

ويبدو أن أبا شامة قد ألفه قبل سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) إذ أشار إليه في كتابه «المحقق من علم الأصول»، وكان قد فرغ من تصنيفه في ذلك العام[٤]، يؤيد ذلك أن أبا شامة ذكر في مقدمته أن بعض الخطباء قد أغار على بعض ما فيه، فنقله بعينه في كتاب جمع فيه أربعين حديثاً لرسول الله ﷺ، ولم يعزه إليه[٥].

ومن ثَمَّ أعاد أبو شامة تأليفه، وتوسع فيه، وفرغ منه في السابع والعشرين من رمضان سنة[٦] (٦٤٥هـ/ ١٢٤٨م).

منه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق برقم (٢٣٥٢)[٧].

---

(١) «المذيل»: ١/ ٣٨٠.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٣) المصدر السالف.

(٤) «المحقق من علم الأصول»: ص١٦١ـ١٦٢، وانظر ص ٥٠٢ من هذا الكتاب.

(٥) «كتاب البسملة»: ص١٠٨.

(٦) «كتاب البسملة»: ص١١.

(٧) «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، علوم القرآن الكريم»: ٢/ ٢٤٤ـ٢٤٥، وضعه صلاح =

وعن هذه النسخة نشره د. عدنان عبد الرزاق الحموي العلبي، وصدر عن المجمع الثقافي في الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي سنة (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

وقد اختصره أبو شامة من بعد[١].

واختصره كذلك الإمام النووي في كتابه «المجموع شرح المهذب»[٢].

٣٢ـ كتاب السواك وما أشبه ذاك

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٣]، وهو الكتاب الرابع الذي ضمه إلى المجلد الثاني من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، وكان قد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[٤].

وهو في سُنَّة استعمال السواك، وما يتعلق به من خصال الفطرة، وهي: الفرق، والاستنشاق، والمضمضة، وقص الشارب، وإعفاء اللحية، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وغسل البراجم، والاستحداد، والاستنجاء بالماء، والختان[٥].

وقد اختار فيه أبو شامة كراهة ما يفعله عوام النساك من استصحابهم السواك إلى المساجد، واستعماله فيها عند افتتاحهم لكل صلاة من فرض ونفل، وبعد كل ركعتين[٦].

منه نسخة في مكتبة الفاتيكان ثالث (١٣٨٤ : ٦)[٧].

= الخيمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م) وهي الآن من مقتنيات مكتبة الأسد الوطنية.

(١) انظر ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣ من هذا الكتاب.

(٢) «المجموع»: ٣/ ٢٩١ـ٢١٣ نشرة زكريا علي يوسف، القاهرة.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٤) المصدر السالف.

(٥) انظر كتاب «السواك»: ص٩٧.

(٦) كتاب «السواك»: ص٧٢.

(٧) «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية) القسم الثالث (٥ـ٦): ص٣٨٤.

وأخرى في مكتبة شستربتي بإيرلنده في مجموع برقم (٣٣٠٧)، ومنها صورة في مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى برقم (٥٧٩ مجاميع ٥)[١].

وقد نشره أحمد العيسوي وإبراهيم بن محمد عن نسخة لم يصفاها مخرومة الآخر، لم تستوفِ الكلام على خصال الفطرة التي ساقها أبو شامة بعد حديثه عن السواك إلا عن الفرق والاستنشاق والمضمضة، وقد صدر عن دار الصحابة للتراث بطنطا سنة (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٣٣ـ كتاب القيامة

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين» في الكتب التي لم يتم تأليفها حتى سنة[٢] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

٣٤ـ الكتاب المرقوم في جملة من العلوم

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٣]، وقد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين.

المجلد الاول: وفيه: خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول.

نور المسرى في تفسير آية الإسرا.

شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى ﷺ.

ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري.

المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول ﷺ.

كتاب البسملة الأكبر.

المجلد الثاني: وفيه: المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز.

الكراسة الجامعة لمسائل نافعة.

---

(١) عندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٤.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

الباعث على إنكار البدع والحوادث.

كتاب السواك وما أشبه ذاك.

مختصر كتاب البسملة(١).

وقد قدم له أبو شامة بمقدمة، قال فيها: «بعون الله تعالى وتوفيقه قد سبق مني عدة مصنفات صغار، مفرقة في عدة من هذه العلوم، مختصة ببعض الأبواب منها وغير مختصة، كل مصنف منها متقن لذلك الباب إن شاء الله عز وجل، جامع أشتاته، مستوعب مسائله، ضام أطرافه، استدلالاً واعتراضاً، جمعاً وبياناً، ضبطاً وتقريراً، شرحاً وتفسيراً.

وأردت أن أجمع تلك المصنفات أو معظمها في مجلدات، كل مجلدة مشتملة على عدة مصنفات، كل مصنف منها في فن من هذه الفنون، يعرف به طالب ذلك الفن كيف ينبغي أن تكون معرفته له، وأنه إن لم يعرفه أو إن لم يعرف أكثره على ذلك الوجه، فليعلم أنه ناقص الحظ منه، وأنه قد فاته علم كثير»(٢).

وقال أبو شامة في كتاب «السواك»: «وهذه المصنفات وغيرها مما اشتمل عليه كتابنا المرقوم قد أرسلتها جميعاً بين ظهراني الناس.. وجعلتها للمشتغلين الأذكياء بمنزلة الشباك، فلعلها تصيد من هو أهل أن يحذو حذوها، وتحرك من لم يكن به إلى ذلك حراك، فيكثر العلماء المحققون، ويبين الفرق بين تحصيلهم وبين ما حصله المقلدون الذين ضيعوا الزمان في التعصب لمذهب فلان، ولرفع قول فلان»(٣).

وكان من هذا الكتاب نسخة في وزارة الشؤون الدينية في منطقة حيدرة بالجزائر العاصمة، تضم الكتب التالية:

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٢) نشر هذه المقدمة جمال عزون في مقدمة تحقيقه لـ«شرح الحديث المقتفى»: ص٢٦-٣٢، و«خطبة الكتاب المؤمل»: ص٣٢ - ٣٦، وعندي مصورة عنها من نسخة شستربتي برقم (٣٣٠٧).

(٣) كتاب «السواك»: ص٣٤.

- خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول.
- نور المسرى في تفسير آية الإسرا.
- المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول ﷺ.
- شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى ﷺ.
- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز.
- مختصر الكلام على البسملة[١].

وهي نسخة في غاية النفاسة، وعليها خط أبي شامة في مواطن كثيرة منها غير أنها للأسف قد فقدت[٢].

وقد أفردت ما أورده أبو شامة في «الكتاب المرقوم» من المصنفات ضمن حديثي عن مؤلفاته، وألمعت إلى أنه ضمن هذا الكتاب.

٣٥ـ كتاب المناسك

ذكره أبو شامة في كتابه «الباعث على إنكار البدع والحوادث»[٣]، بيد أنه لم يبين لنا إن كان قد شرع فيه حقاً أم بقي أملاً يراوده.

٣٦ـ الكراسة الجامعة لمسائل نافعة

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٤]، وهو الكتاب الثاني الذي

---

(١) أشار إلى هذه النسخة جمال عزون في مقدمة تحقيقه لكتاب «شرح الحديث المقتفى»: ص٣٣ـ٣٤، ومقدمة تحقيقه لـ«خطبة الكتاب المؤمل»: ص٢٩ـ٣٠.

(٢) ذكر خبر فقدانها جمال عزون في مقدمة تحقيقه لشرح الحديث المقتفى: ص٣٢ـ٣٣، ومقدمة تحقيقه لـ«خطبة الكتاب المؤمل»: ص٢٨.
قلت: وقد حَزَّ في نفسي كثيراً فقدان هذه النسخة ـ ردها الله سالمة ـ وكم كنت أتمنى لو متعت عيني فيها بخط أبي شامة.

(٣) «الباعث»: ص٢٧٩.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

ضمه إلى المجلد الثاني من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم» وكان قد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[١].

منه نسخة خطية في مكتبة شستربتي بإيرلنده برقم (٣٣٠٧)، ومنها مصورة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة[٢].

٣٧ـ المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول ﷺ

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٣]، وهو الكتاب الخامس الذي ضمه إلى المجلد الأول من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، وكان قد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[٤].

وهو فصول من علم أصول الفقه، اقتصر فيها أبو شامة على ما يتعلق بأفعال الرسول ﷺ.

منه نسخة خطية في مكتبة شسربتي بإيرلنده برقم (٣٣٠٧)، ومنها مصورة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة[٥]، وجاء في صحيفة غلافها أنه صنفه سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م).

وعن هذه النسخة طبع بتحقيق أحمد الكويتي، الأولى سنة (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، والثانية سنة (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، وصدرت عن مؤسسة قرطبة بالقاهرة[٦].

٣٨ـ مختصر كتاب البسملة

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٧]، وقد ختم به المجلد الثاني

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٢) عندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٤) المصدر السالف.

(٥) عندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.

(٦) ثم قام بتحقيقه د. محمد صالح جابر، وهي رسالته للدكتوراه غير أنها لم تنشر بعد، ذكر ذلك مشهور حسن سلمان في مقدمة تحقيقه لـ«الباعث»: ص٢٢.

(٧) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، وكان قد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[١].

وهو اختصار لكتاب البسملة الأكبر[٢].

منه ثلاث نسخ خطية:

١ـ نسخة في مكتبة شستربتي بإيرلنده برقم (٣٣٠٧)، ومنها نسخة مصورة في مركز جمعة الماجد في الإمارات العربية المتحدة، دبي، برقم (٧٨٨)[٣].

٢ـ نسخة في مكتبة الفاتيكان، ثالث (١٣٨٤/ ٥)[٤].

٣ـ نسخة في مكتبة الشؤون الدينية في منطقة حيدرة بالجزائر العاصمة، وكانت ضمن مجموع لأبي شامة، فقد كله[٥].

٣٩ـ المُذْهَب في علم المَذْهب

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»، في الكتب التي لم يتمّ تأليفها حتى سنة[٦] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م).

ذكر فيه مسائل في الفقه، استوفى فيها اختلاف العلماء، ثم بين ما ينبغي من تلك الأقوال أن يؤخذ، وأعرض عما لا أصل له[٧].

وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٢) انظر ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ من هذا الكتاب.

(٣) عندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.

(٤) «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية) القسم الثالث (٥ـ٦): ص٣٨٤.

(٥) ذكر ذلك جمال عزون في مقدمة تحقيقه لكتاب «شرح الحديث المقتفى»: ص٣٢ـ٣٤، ومقدمة تحقيقه لـ«خطبة الكتاب المؤمل»: ص٢٨ـ٣٠، وانظر ص ٥٠١ من هذا الكتاب.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٧) انظر كتاب «السواك»: ص٣٣، ١٠٠.

٤٠ـ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[١]، وقد افتتح به المجلد الثاني من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، وكان قد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[٢].

وقد عقد أبو شامة كتابه هذا على تفسير قوله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»[٣].

ويبدو أنه ألفه قبل سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٨م)، إذ أشار إليه في كتاب «البسملة الأكبر»[٤]، وكان قد فرغ من تصنيفه في ذلك العام[٥].

ثم أعاد النظر فيه، وفرغ من تصنيفه يوم الأحد حادي عشر ربيع الأول سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)[٦].

وطبع الكتاب بتحقيق طيار آلتي قولاج، وصدر عن دار صادر في بيروت سنة (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

٤١ـ مشكلات الآيات

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين» في الكتب التي لم يتم تأليفها حتى سنة[٧] (٦٥٩هـ/١٢٦١م)، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٢) المصدر السالف.

(٣) «المرشد الوجيز»: ص٧٣، ٧٧.

(٤) «كتاب البسملة»: ص١٤٥.

(٥) انظر ص ٤٩٧ من هذا الكتاب.

(٦) ذكر ذلك في صحيفة غلافه من نسخة شستربتي (٣٣٠٧)، وعندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.

(٧) «المذيل»: ١/ ١٤٤.

٤٢ـ مفردات القُرَّاء

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[(١)]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

٤٣ـ المقاصد السنية في شرح القصائد النبوية

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»، وهو أول ما ظهر من مصنفاته[(٢)].

شرح فيه القصائد السبع لشيخه علم الدين السخاوي التي نظمها في مديح المصطفى ﷺ[(٣)].

منه ثلاث نسخ خطية:

١ـ نسخة في دار الكتب المصرية في القاهرة ثان (٣٦٧).

٢ـ نسخة في باريس أول (٣١٤٢)[(٤)].

٣ـ نسخة في برلين برقم (٧٧٥٢)[(٥)].

٤٤ـ المقدمة في النحو

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[(٦)]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٣) نص على ذلك أبو شامة نفسه في «نور المسرى»: ص١٣٠، والذهبي في «معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٣٣٥، وابن الجزري في «غاية النهاية»: ١/ ٥٧٠، وحاجي خليفة في «كشف الظنون»: ٢/ ١٣٢٧.

والقصائد السبع للسخاوي منها نسخة في برلين برقم (٧٧٥٢).

(٤) «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية) القسم الثالث (٥ـ٦): ص٣٨٣.

(٥) نسخة برلين هذه ضمت قصائد السخاوي مع شرحها لأبي شامة، ذكرها بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي» (الترجمة العربية) القسم الرابع (٧ـ٨): ص١٩٥.

(٦) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

٤٥ـ نظم العروض والقوافي

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[١]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

٤٦ـ نظم مفصل الزمخشري

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٢]، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

وهو أرجوزة نظم فيها أبو شامة كتاب «المفصل في النحو» للإمام الزمخشري، وغيره من المسائل النحوية[٣].

٤٧ـ نور المسرى في تفسير آية الإسرا

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٤]، وهو الكتاب الثاني الذي ضمه إلى المجلد الأول من «الكتاب المرقوم في جملة من العلوم»، وكان قد جمع فيه عدة مصنفات له في مجلدين[٥].

وقد اختار فيه أبو شامة أن الإسراء بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس وإلى السموات وقع مرتين أو مراراً، تارة في النوم، وتارة في اليقظة، وقال: وعلى ذلك تخرج جميع الأحاديث على اختلاف عباراتها، والاختلاف في المكان الذي وقع منه الإسراء[٦].

وأثار قوله هذا ردوداً من العلماء[٧].

---

(١) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٢) «المذيل»: ١/ ١٤٣.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٩٧.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٥) المصدر السالف.

(٦) «نور المسرى»: ص١١٧، ١٢١ ـ ١٢٧، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ١٦٥ـ١٦٦.

(٧) «فتح الباري» لابن حجر: ٧/ ١٩٨، ٨/ ٦٠٩.

منه نسخة خطية في مكتبة شستربتي بإيرلنده برقم (٣٣٠٧)، منها نسخة مصورة في مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى برقم (٥٧٩مجاميع٥)[١].

وأخرى في مكتبة وزارة الشؤون الدينية في منطقة حيدرة بالجزائر العاصمة، غير أنها للأسف فقدت[٢].

وقد حققه د.علي حسين البواب، وصدر عن مكتبة المعارف بالرياض سنة (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

٤٨ـ نية الصيام وما في يوم الشك من الكلام

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»، في الكتب التي لم يتم تأليفها حتى سنة[٣] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا بعد.

٤٩ـ الواضح الجلي في الرد على الحنبلي

ذكره أبو شامة في كتابه «المذيل على الروضتين»[٤]، وأشار إليه في كتابه «ضوء الساري»[٥].

وقد ردَّ فيه أبو شامة على شيخ الحنابلة ببعلبك محمد بن أحمد بن عبد الله اليونيني[٦]، وكان قد صنف كتاباً في إسراء النبي ﷺ لم ير فيه أبو شامة إلا مجرد أوراق لم ترقَ إلى أن تكون تصنيفاً، على ما وقع فيه من الأخطاء الفاحشة، فصنف

(١) عندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.

(٢) ذكر ذلك جمال عزون في مقدمة تحقيقه لـ«خطبة الكتاب المؤمل»: ص٢٨ـ٢٩.

(٣) «المذيل»: ١/ ١٤٣. ويبدو أنه أتمه من بعد، وضمن مختصره في كتابه «الكراسة الجامعة لمسائل نافعة» الورقة: ٤٠ ـ ٥٧.

(٤) «المذيل»: ١/ ١٤٢.

(٥) «ضوء الساري»: ص١٨٥.

(٦) انظر ص ٤٣٦ من هذا الكتاب.

هذا الكتاب في الرد عليه[١]، وكان الفراغ من تأليفه في صفر سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)[٢].

منه نسخة في مكتبة شستربتي بإيرلنده رقم (٣٣٠٧) منها نسخة مصورة في مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى رقم (٥٧٩مجاميع٥).

❁ ❁ ❁

وذكر أبو شامة في جملة مؤلفاته:

- تصنيفاً في الإنكار على قاضي القضاة صدر الدين ابن سني الدولة ونائبه كمال الدين التفليسي لنقضه نكاحاً عقده تاج الدين عبد الرحمن بن عبد الباقي الحنفي بإذن من صدر الدين، ولم يسمه[٣].
- تعاليق كثيرة في فنون مختلفة من غير ترتيب على طريقة «التذكرة» لأبي علي الفارسي[٤].
- اختصار جملة من الدواوين[٥].
- وأشار إلى كتابيه الصيام والاعتكاف[٦]، ولعله شرع فيهما ولم يتمهما، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

وكان أبو شامة قد أسمع كثيراً من مؤلفاته في حياته[٧]، ووقف معظمها[٨] في

---

(١) «المذيل»: ٢/ ١٤٨.
(٢) ذكر ذلك في آخر الكتاب كما في نسخة شستربتي، وعندي نسخة مصورة عنها.
(٣) «المذيل»: ٢/ ١٧٢، وانظر ص ٤٨٥ من هذا الكتاب.
(٤) «المذيل»: ١/ ١٤٤.
(٥) «المذيل»: ١/ ١٤٤.
(٦) «المرشد الوجيز»: ص١٠.
(٧) «المذيل»: ١/ ١٤١، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/ ١١٩.
(٨) «ذيل مرآة الزمان»: ٢/ ٣٦٨.

خزانة المدرسة العادلية الكبرى، وشرط في وقفها ألا تخرج من خزانتها، ومن أراد الانتفاع بها ينتفع بها في حريم الخزانة، فكان أن احترقت بجملتها حين احترقت المدرسة العادلية سنة (٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م)، ولم يبقَ إلا ما تخطفه الناس منها[1].

وهذا ما يفسر لنا فقدان بعض مؤلفاته[2].



(١) «عيون التواريخ»: ٢٠/ ٣٥٥.
وكان التتار قد استولوا على دمشق في ذلك العام، انظر «تاريخ الإسلام» للذهبي: ١٥/ ٧٠٢ - ٧١٦ طبعة دار الغرب الإسلامي.

(٢) ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أزجي خالص شكري وامتناني لصديقي الحبيب الباحث المحقق الشيخ محمد بن ناصر العَجْمي - متعنا الله به - على ما طوقني به من جميل معروفه، وذلك بتصويره لي مؤلفات أبي شامة في مكتبة شستربتي بإيرلنده، فأسدى لي يداً لا أنساها، جزاه الله خيراً من صديق حبيب.

كتب نسبت لأبي شامة وليست له

١ـ شرح البردة
الكواكب الدرية في مدح خير البرية

نسبه إلى أبي شامة حاجي خليفة في «كشف الظنون» في عداد كلامه عن شراح البردة[١].

ونسبه كذلك له بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي»، وذكر أن له نسختين خطيتين:

الأولى: نسخة ميونخ أول (٥٤٧).

والثانية: نسخة باريس أول (١٦٢٠/ ٣)[٢].

وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق نسخة منه برقم (١٥٤٣٠)[٣].

والبردة هي القصيدة المشهورة في مدح النبي ﷺ، نظمها شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد البوصيري، وقد عاش في مصر بين سنتي (٦٠٨هـ/ ١٢١١م ـ ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٧م)، ويبدو أنه نظمها في أوائل فترة سلطنة الظاهر بيبرس بعد سنة[٤] (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م).

---

(١) «كشف الظنون»: ٢/ ١٣٣٤.

(٢) «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية) القسم الثالث (٥ ـ ٦): ص٣٨٣.

(٣) هي الآن من مقتنيات مكتبة الأسد الوطنية.

(٤) انظر ترجمته في «الوافي بالوفيات»: ٣/ ١٠٥ ـ ١١٣.

وقد اطلعتُ على نسخة دار الكتب الظاهرية، فلم أرَ ما يشير إلى أبي شامة لا في ورقة غلافها، ولا في مقدمتها، كما هي العادة في ذكر اسم المؤلف في هذين الموطنين، بل إن مؤلف هذا الشرح قد ترحم على ناظمها في بداية شرحه، مما يدل على أنه ألفه بعد وفاته سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٧م)، وهو متأخر الوفاة عن أبي شامة بنحو ثلاثين عاماً.

ثم إن في الشرح إحالة على القاضي البيضاوي في كلامه عن الوحي في تفسيره[١]، وقد توفي البيضاوي في تبريز سنة[٢] (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) ولو كان مؤلف هذا الشرح هو أبو شامة حقاً لما أبعد النجعة في الإحالة على البيضاوي، وهو الذي استفاض بالكلام عن الوحي في كتابه «شرح الحديث المقتفى»[٣].

وأبو شامة لم يحل في أي من كتبه على تفسير البيضاوي، ويغلب على ظني أنه لم يصل إليه، وبخاصة أن مؤلفه في تبريز وقد توفي بعد أبي شامة بنحو عشرين سنة.

ثم إن أسلوب هذا الشرح وطريقته في تأليفه مخالفة لما اعتدناه من أسلوب أبي شامة في تآليفه المعروفة، مما يقطع بأن نسبة هذا الكتاب إليه غير صحيحة.

ولعل تعويل من نسبه إليه كان على حاجي خليفة، ولعل النسخة التي اطلع عليها حاجي خليفة كان ناسخها قد كتب عليها اسم أبي شامة ترويجاً للكتاب، وهو الذي عرف عنه شرحه لقصائد في مدح النبي ﷺ وسيرته، والله أعلم.

---

(١) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾، انظر «تفسير البيضاوي»: ٥/ ٥٦، نسخة مصورة في بيروت عن الطبعة الميمنية بمصر سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م).

(٢) وقيل توفي سنة (٦٩١هـ، ١٢٩٢م)، انظر ترجمته في «الوافي بالوفيات»: ١٧/ ٣٧٩، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ١٥٧ ـ ١٥٨، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٣) «شرح الحديث المقتفى»: ص٦٦-٨١.

٢ـ قصيدة في أربعين بيتاً

يشكو فيها مزاجه الحزين، ويطلب النصح من شيخه علم الدين السخاوي.

انفرد بذكرها بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي»، وذكر أن منها نسخة في مكتبة برلين (١٠٣=٧٧٧٢)[١].

وقد أخطأ في نسبتها إلى أبي شامة، وإنما هي للفقيه المالكي أبي بكر جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن سُحْمان، الوائلي الشريشي، وقد كتبها للسخاوي سنة (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)، في أربعين بيتاً، ورد السخاوي عليها في تسعة وعشرين بيتاً[٢].

٣ـ المقاصد السنية في شرح الشيبانية

انفرد بذكره البغدادي في «إيضاح المكنون»[٣]، وتابعه عمر رضا كحالة في «معجم المؤلفين»[٤].

ولم أقف على ترجمة الشيباني الذي نظم هذه القصيدة في العقيدة، ويبدو لي أنها قصيدة متأخرة عن زمن أبي شامة، فقد شرحها علي بن عطية بن علوان الحموي، المتوفى سنة[٥] (٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م)، بعنوان «بيان المعاني في شرح عقيدة الشيباني»، أورده حاجي خليفة في «كشف الظنون»، وذكر أنه أول شرح ألف عليها، وهو شرح مبسوط بعد شرح النجم ابن قاضي عجلون[٦].

---

(١) «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية)، القسم الثالث (٥ـ٦): ص٣٨٤.

(٢) أوردها قطب الدين اليونيني في «ذيل مرآة الزمان»: ٤/ ٢٩٣ـ٢٩٧، والذهبي في «تاريخ الإسلام»: ١٥/ ٥٥٠ـ٥٥٢، طبعة دار الغرب الإسلامي.
وقد نشرتها في «المذيل على الروضتين»، في الحاشية رقم (١): ص٧٢ من الجزء الثاني.

(٣) «إيضاح المكنون»: ٢/ ٢٣١.

(٤) «معجم المؤلفين»: ٣/ ٤٨٦، ولا يعول على كحالة، فإنما هو حاطب ليل.

(٥) له ترجمة في «الكواكب السائر بأعيان المئة العاشرة»: ٢/ ٢٠٦ـ٢١٣.

(٦) «كشف الظنون»: ٢/ ١١٤٢ـ١١٤٣، وهو مطبوع.

ونجم الدين الذي أشار إليه هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن، المتوفى سنة[1] (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م)، ورسالته في شرحها سماها «بديع المعاني في شرح عقيدة الشيباني».

ويغلب على ظني أن البغدادي وهم في موضوع كتاب «المقاصد السنية» الذي شرح فيه أبو شامة قصائد شيخه علم الدين السخاوي في مدائح المصطفى ﷺ، وبين شرح الشيبانية هذا، الذي لم يذكر أحد ممن ترجم لأبي شامة أنه قد شرحها، والله أعلم.



(١) له ترجمة في «الضوء اللامع»: ٨/ ٩٦-٩٧، وشرحه كذلك مطبوع.

تلاميذ أبي شامة ومن سمع منه

لأبي شامة تلامذة عديدون لازموه، وقد بلغ بعضهم منزلة عالية في العلم، وبعضهم سمع منه أو أجازه، وقد حاولتُ استقصاءهم ما استطعت، ورتبتهم على حروف المعجم ليسهل الاطلاع عليهم، عازياً كل واحد منهم إلى المصدر الذي ذكره، وهم:

١ـ إبراهيم بن جامع بن نجار[١].

٢ـ إبراهيم بن داود بن ظافر، جمال الدين الفاضلي[٢].

٣ـ إبراهيم بن فليح بن محمد، برهان الدين الإسكندري[٣].

٤ـ إبراهيم بن محمود بن تاج الأمناء، أمين الدين ابن عساكر[٤].

٥ـ أحمد بن إبراهيم بن سباع، شرف الدين الفزاري الخطيب[٥].

٦ـ أحمد بن أبي بكر بن يوسف، شهاب الدين المزي[٦].

٧ـ أحمد بن صفوان بن إسماعيل، شرف الدين المقدسي[٧].

---

(١) «المحقق من علم الأصول»: ص٣٢.

(٢) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٣) «المحقق من علم الأصول»: ص٣٢، «معرفة القراء الكبار»: ٢/ ٦٧٤.

(٤) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٥) «غاية النهاية»: ١/ ٣٣ـ٣٤، ٣١٥، «طبقات المفسرين» للداودي: ١/ ٢٦٤.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

(٧) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

٨ ـ أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل الوراق، محيي الدين، أبو الهدى، ابن أبي شامة[١].

٩ـ أحمد بن عبد الله بن شعيب، جمال الدين، الذهبي الكتبي[٢].

١٠ـ أحمد بن فرح بن إبراهيم، شهاب الدين الإشبيلي[٣].

١١ـ أحمد بن مؤمن بن أبي نصر الإسعردي، شهاب الدين اللبان[٤].

١٢ـ أحمد بن نصر الحموي[٥].

١٣ـ أحمد بن يحيى، شهاب الدين المالقي[٦].

١٤ـ إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم، شمس الدين المالكي[٧].

١٥ـ أيبك عز الدين المحيوي[٨].

١٦ـ أبو بكر بن يوسف، زين الدين المزي[٩].

١٧ـ الحسن بن مظفر بن رضوان، نظام الدين النصيبي[١٠].

١٨ـ الحسين بن إبراهيم بن الحسين، شرف الدين الإربلي[١١].

---

(١) «معجم الشيوخ» للذهبي: ١/ ٦٠، «الدرر الكامنة»: ١/ ١٩٤.

(٢) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤، «المذيل»: ٢/ ٢١٤.

(٣) «المحقق من علم الأصول»: ص٣٢، «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

(٤) «غاية النهاية»: ١/ ١٤٣، «الدرر الكامنة»: ١/ ٣٨٤، «طبقات المفسرين» للداودي: ١/ ٢٦٤.

(٥) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(٦) «المحقق من علم الأصول»: ص٣٢.

(٧) «المحقق من علم الأصول»: ص٣٢، «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

(٨) «المذيل»: ٢/ ١٧٥.

(٩) «الوافي بالوفيات»: ١٨/ ١١٥.

(١٠) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(١١) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

١٩ـ الحسين بن سليمان بن فزارة بن بدر، شهاب الدين الكفري القاضي[١].

٢٠ـ خالد بن يوسف بن سعد، زين الدين النابلسي[٢].

٢١ـ داود بن عبد الرحمن بن عثمان، نجم الدين المراغي[٣].

٢٢ـ سلام بن إسحاق بن سلام، شمس الدين[٤].

٢٣ـ صالح بن عبد الله بن محمد بن نصر بن قوام[٥].

٢٤ـ عبد الصمد بن عبد الوهّاب بن زين الأمناء، ابن عساكر[٦].

٢٥ـ عبد العزيز بن محمد بن عبد الحق، عز الدين الشافعي[٧].

٢٦ـ عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي عمر، شرف الدين المقدسي الحنبلي[٨].

٢٧ـ عبد الله بن جهير، سعد الدين القرشي[٩].

٢٨ـ عبد الله بن سعيد بن فرُّوخ، رشيد الدين[١٠].

٢٩ـ عبد الله بن علي بن محمد، شرف الدين الحجازي[١١].

---

(١) «معجم الشيوخ» للذهبي: ١/ ٢١٥ ـ ٢١٦، «الوافي بالوفيات»: ١٢/ ٣٧٧، «غاية النهاية»: ١/ ٢٤١، ٢٦٥، «الدارس في تاريخ المدارس»: ١/ ٥٢٨ ـ ٥٤٢.

(٢) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣، «المذيل»: ٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٣) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٤) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(٥) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(٦) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٧) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(٨) «الدرر الكامنة»: ٣/ ٧ ـ ٨.

(٩) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(١٠) المصدر السالف.

(١١) المصدر السالف.

٣٠ـ عبد الله بن أبي الفرج بن صدقة، كمال الدين البغدادي[١].

٣١ـ عبد الله بن أبي الفضل بن مسافر، عماد الدين الصبيحي[٢].

٣٢ـ عبد الله بن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن علي، نجم الدين الفِرْياني[٣].

٣٣ـ عثمان بن علي بن كتائب، صفي الدين الحموي[٤].

٣٤ـ عثمان بن عمر بن عمر، نجم الدين المراغي[٥].

٣٥ـ علي بن أحمد بن يوسف، زين الدين القرطبي[٦].

٣٦ـ علي بن عمران بن مَخْيُو اللواتي[٧].

٣٧ـ علي بن المهتار[٨].

٣٨ـ علي بن موسى بن سعيد المغربي، صاحب كتاب «المغرب»[٩].

٣٩ـ علي بن يحيى بن علي بن محمد، علاء الدين الشاطبي[١٠].

٤٠ـ عيسى بن أبي بكر بن طلائع، فخر الدين الحلبي[١١].

٤١ـ فرج بن عبد الله بن محمد، ناصح الدين الحبشي[١٢].

---

(١) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٢) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٣) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣ـ٧٠٤.

(٤) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(٥) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٦) «كتاب الروضتين»: ٣/١٦م.

(٧) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(٨) «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٤/٢٤٨.

(٩) «نفح الطيب»: ٢/٢٩٩.

(١٠) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(١١) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(١٢) «كتاب البسملة»: ص٤٠٧، «المذيل»: ٢/١٠٤.

٤٢ـ محمد بن إبراهيم بن سعد الدين، بدر الدين بن جماعة، الحموي، قاضي القضاة[١].

٤٣ـ محمد بن أحمد بن عمر، مجد الدين الإربلي[٢].

٤٤ـ محمد بن إسرائيل بن أبي بكر السلمي الدمشقي، المعروف بالقصاع[٣].

٤٥ـ محمد بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم المالكي[٤].

٤٦ـ محمد بن أبي بكر بن إبراهيم، عفيف الدين، المؤذن الشاغوري[٥].

٤٧ـ محمد بن الحسن بن الإمام الخُوَيِّي، أبو حامد[٦].

٤٨ـ محمد بن حسن بن يوسف، صدر الدين، الأرموي[٧].

٤٩ـ محمد بن عبد الجليل بن عبد الكريم، جمال الدين الموقاني[٨].

٥٠ـ محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الكنجي[٩].

٥١ـ محمد بن عبد الله بن عصرون، معين الدين[١٠].

٥٢ـ محمد بن علي بن عبد الجبار، عفيف الدين، الدمشقي، البابشرقي[١١].

---

(١) «مشيخة ابن جماعة»: ١/ ٣٠٠ـ٣٠١، «طبقات الشافعية» للسبكي: ٩/ ١٣٩ـ١٤٦.

(٢) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

(٣) «غاية النهاية»: ٢/ ١٠٠.

(٤) «المحقق من علم الأصول»: ص٣٢، «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

(٥) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

(٦) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٧) «المحقق من علم الأصول»: ص٣٢.

(٨) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٩) «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

(١٠) «المذيل»: ٢/ ١١٦.

(١١) «معجم الشيوخ» للذهبي: ٢/ ٢٣٩، «الدرر الكامنة»: ٥/ ٣٢٠.

٥٣ـ محمد بن محمد بن بهرام، شمس الدين اللُّوراني[١].

٥٤ـ محمد بن محمود بن أبي المعالي، شمس الدين الصفار[٢].

٥٥ـ محمد بن يوسف بن عبد الله بن رجاء بن فارس، الزبيدي الدمشقي، سبط البرهان أخي أبي شامة[٣].

٥٦ـ مظفر بن عبد الرحمن بن إبراهيم، بدر الدين ابن قاضي بعلبك[٤].

٥٧ـ هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم، شرف الدين، ابن البارزي، قاضي حماة[٥].

٥٨ـ يحيى بن علي بن محمد، نجم الدين الشاطبي[٦].

٥٩ـ يحيى بن علي بن محمد، محيي الدين التميمي القلانسي[٧].

٦٠ـ يحيى بن عمر، عماد الدين الحموي[٨].

٦١ـ يوسف بن محمد بن عبد الله، مجد الدين الشافعي الكاتب[٩].

٦٢ـ يوسف بن يعقوب بن يعيش، جمال الدين السلمي[١٠].

---

(١) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٢) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٦/ ٥٣.

(٤) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة: ٧٥١ـ٧٥٥، «الوافي بالوفيات»: ٢٥/ ٦٥٥ـ٦٥٧.

(٥) «طبقات الشافعية» للسبكي: ١٠/ ٣٨٧ـ٣٩١، «الدرر الكامنة»: ٦/ ١٦٧ـ١٦٩.

(٦) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(٧) «المذيل»: ١/ ١٤٩.

(٨) «كتاب البسملة»: ص٧٠٤.

(٩) «المحقق من علم الأصول»: ص٣٢، «كتاب الروضتين»: ٣/ ١٦م.

(١٠) «كتاب البسملة»: ص٧٠٣.

ومن النساء:

٦٣ـ فاطمة بنت عبيد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله، المقدسية الصالحية[١].

* * *

وذكر أبو عبد الله السخاوي في كتابه «الإعلان بالتوبيخ» أن أبا شامة هو أحد شيوخ النووي[٢]، وبين مستنده في ذلك في كتابه الذي أفرده لترجمة الإمام النووي، فقد نقل فيه عن محمد بن عبد الرحمن بن الحسين العثماني، المعروف بقاضي صفد من كتابه «طبقات الشافعية» في ترجمته لأبي شامة قوله: «وهو من مشايخ الإمام النووي»[٣]، وعقب عليه السخاوي بقوله: «وما رأيته الآن في كلام غيره، وليس ببعيد»[٤].

يعني أن العثمانيّ قد انفرد بذلك، ولم يتابعه أحد ممن ترجم لأبي شامة وللنووي، وما رآه السخاوي ليس ببعيد، أراه بعيداً حقاً، إذ كيف عرف العثماني ـ ولم يكن لهما معاصراً[٥] ـ ما لم يعرفه من عاصرهما ممن ترجم لهما؟ أو من أتى بعدهما ممن هو أرسخ علماً في التراجم منه؟ وشهرتهما تدعو إلى ذكر ذلك.

ثم إن المعروف عند سلفنا من العلماء أنهم يشيرون إلى مشايخهم في مؤلفاتهم حين يعرضون لذكرهم، وذلك بقولهم: شيخنا، أو شيخي، والنووي لم يشر إلى أبي شامة على أنه شيخه برغم تبجيله له، وذلك حين اختصر كتابه «البسملة

---

(١) «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢٦٣.

(٢) «الإعلان بالتوبيخ»: ص٤٧٦ (المطبوع ضمن كتاب «علم التاريخ عند المسلمين» لروزنتال).

(٣) «ترجمة الإمام النووي» للسخاوي: ص١٠.

(٤) المصدر السالف.

(٥) توفي العثماني بعد سنة (٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م)، انظر «الإعلان بالتوبيخ»: ص٦٣٤، و«ترجمة الإمام النووي» للسخاوي: ص١٦، ٦١، ٦٢، و«كشف الظنون»: ٢/ ١١٠٢، و«الأعلام» للزركلي: ٦/ ١٩٣.

الأكبر»، وضمنه في كتابه «المجموع»[1]، وهو موطن الاعتراف بذلك لو كان شيخه حقاً، والله أعلم[2].



(١) «المجموع»: ٣/ ٢٩١، ٢٩٢، ٥٤٩.

(٢) درج المعاصرون من المؤلفين والباحثين أن يذكروا النووي في عداد تلاميذ أبي شامة، وكأن تلمذته عليه أمر مسلَّمٌ به، لا يستحق أي نقاش!.

ثبت المصادر والمراجع

- **إبراز المعاني من حرز الأماني**، لأبي شامة، تحقيق محمود بن عبد الخالق محمد جادو، الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق د. جمال الدين الشيال، والثاني والثالث تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة (١٩٦٧ـ١٩٧٣م).
- **أخبار الأيوبيين**، للمكين جرجس بن العميد، نشره كلود كاهن، مجلة المعهد الفرنسي بدمشق XV، (١٩٥٨م).
- **الأعلام**، لخير الدين الزِّرِكْلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٩٧٩م).
- **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ**، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، نشرة روزنتال، ترجمة د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٨م) (مطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين).
- **أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**، ترجمه وقدم له وعلق عليه د. حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة (١٩٥٨م).

الأم، للإمام الشافعي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

- **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة (١٣٦٩هـ/ ١٩٥١م).
- **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، لمجير الدين الحنبلي، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
- **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون**، لإسماعيل البغدادي، منشورات مكتبة المثنى، بغداد.

- **الباعث على إنكار البدع والحوادث**، لأبي شامة، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه مشهور حسن سلمان، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
- **البحر المحيط في أصول الفقه**، لبدر الدين الزركشي، قام بتحريره الشيخ عبد القادر عبد الله العاني، راجعه د. عمر سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
- **البداية والنهاية**، لابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٧٧م).
- **تاريخ الأدب العربي**، لكارل بروكلمان، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.
- **تاريخ الإسلام**، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت (٢٠٠٣م).
- **تاريخ الحروب الصليبية**، لرنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٨٢م).
- **تاريخ دمشق**، لابن عساكر، نسخة خطية مصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، دار البشير، عمان.
- **تاريخ علماء دمشق**، لمحمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى (١٩٨٦م).
- **تاريخ مختصر الدول**، لابن العبري، مصورة عن طبعة المطبعة الكاثوليكية، بيروت (١٩٥٨م).
- ***تالي كتاب وفيات الأعيان***، *لفضل الله بن أبي الفخر الصقاعي، تحقيق جاكلين سوبلة، المعهد* الفرنسي للدراسات العربية بدمشق (١٩٧٤م).
- **تأملات في التاريخ العربي**، لشارل عيساوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٩١م).
- **تذكرة الحفاظ**، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م).
- **ترجمة الإمام النووي**، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تصحيح محمود حسن ربيع، جمعية النشر والتأليف الأزهرية (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م).

- **التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان**، لعباس العزاوي، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م).
- **تفسير البيضاوي**، للقاضي البيضاوي، نسخة مصورة عن الطبعة الميمنية بمصر سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م.
- **تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب**، لجمال الدين محمد بن الصابوني، تحقيق د. مصطفى جواد، عالم الكتب، بيروت (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).
- **التكملة لوفيات النقلة**، لزكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
- **ثمار المقاصد في ذكر المساجد**، ليوسف بن عبد الهادي، تحقيق محمد أسعد طلس، المعهد الفرنسي في دمشق (١٩٧٥م).
- **الحملة الصليبية الخامسة**، د. محمود سعيد عمران، دار المعارف بمصر (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).
- **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة**، المنسوب خطأ لابن الفوطي، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت (١٩٨٧م).
- **الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة (١٩٧٢م).
- **خريدة القصر وجريدة العصر**، قسم شعراء الشام، لعماد الدين الكاتب الأصفهاني، تحقيق د. شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م). وقسم شعراء العراق، تحقيق العلامة محمد بهجة الأثري، مطبوعات المجمع العلمي العراقي (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م).
- **خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول**، لأبي شامة، قرأه وعلق عليه جمال عزون، مكتبة أضواء السلف، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
- **خطط بغداد في القرن الخامس الهجري**، د. جورج مقدسي، ترجمة د. صالح أحمد العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي (١٩٨٤م).
- **الدارس في تاريخ المدارس**، لعبد القادر بن محمد النعيمي، تحقيق جعفر الحسني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م).
- **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، لابن حجر، تحقيق د. محمد عبد المعين خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ـ الدكن، الهند، الطبعة الثانية (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

- **ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل**، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، اعتنى به الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وهو ضمن كتاب «أربع رسائل في علوم الحديث»، مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الخامسة (١٩٩٩م).
- **ذيل طبقات الحنابلة**، لابن رجب عبد الرحمن بن أحمد البغدادي الدمشقي، صححه محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م).
- **ذيل العبر**، لمحمد بن علي الحسيني، تحقيق محمد رشاد عبد المطلب، الكويت.
- **ذيل مرآة الزمان**، لقطب الدين موسى بن محمد اليونيني، بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، الطبعة الثانية (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

وتاريخ السنوات (٦٩٧-٧١١هـ/ ١٢٩٧-١٣١٢م)، دراسة وتحقيق د. حمزة عباس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).
- **رحلة ابن جبير**، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة.
- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الطبعة الأولى، الرياض (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).
- **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، للأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار، تحقيق دونالدس. ريتشاردز، من سلسلة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، بيروت (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية (١٩٧٠م).
- **سير أعلام النبلاء**، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق مجموعة من الأساتذة بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨١م).
- **سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي**، لمحمد بن أحمد النسوي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر، القاهرة (١٩٥٣م)، وطبعة موسكو بتحقيق ضياء الدين موسى بونياروف (١٩٩٦م).
- **شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى ﷺ**، لأبي شامة، قرأه وعلق عليه جمال عزون، مكتبة العمرين العلمية، الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
- **الشعر والتاريخ**، لنوري حمودي القيسي، جامعة بغداد، (١٩٨٠م).
- **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد.

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، لأحمد بن علي القلقشندي، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة (١٩١٢ ـ ١٩٣٨م).
- **صحيح البخاري**، (المطبوع مع فتح الباري لابن حجر)، المكتبة السلفية.
- **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى (١٩٥٥م).
- **صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين**، حسن الأمين، دار الجديد، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٩٥م).
- **ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري**، لأبي شامة، تحقيق د. أحمد عبد الرحمن الشريف، دار الصحوة، القاهرة (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).
- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، مصورة عن طبعة مكتبة القدسي، نشرتها دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- **طبقات الشافعية**، لجمال الدين الإسنوي، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).
- **طبقات الشافعية**، لتاج الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، الطبعة الثانية، هجر للطباعة والنشر، القاهرة (١٩٩٢م).
- **طبقات علماء الحديث**، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي، تحقيق أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).
- **طبقات المفسرين**، لشمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي، تحقيق علي محمد عمر، مطبعة الاستقلال الكبرى، الطبعة الأولى (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).
- **الظاهر بيبرس**، بيتر توراو، ترجمة محمد جديد، قدمس للنشر، دمشق، الطبعة الثانية (٢٠٠١م).
- **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، لابن خلدون، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، في بيروت (١٩٧١م).
- **العبر في خبر من غبر**، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، الكويت، سلسلة التراث العربي (١٩٦٠م).
- **العدوان الصليبي على بلاد الشام**، د. جوزيف نسيم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (١٩٨٤م).
- **العزلة**، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، حققه وعلق عليه ياسين محمد السواس، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، لبدر الدين العيني، حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
- **العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية**، د. عادل عبد الحافظ حمزة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (٢٠٠١م).
- **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، لابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٦٥م).
- **عيون التواريخ**، لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، بغداد (١٩٨٠م).
- عيون الروضتين، المنسوب خطأ لأبي شامة، تحقيق أحمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق (١٩٩١م).
- **غاية النهاية في طبقات القراء**، لشمس الدين ابن الجزري، عني بنشره ج. برجستراسر، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م).
- **الفاطميون**، هاينز هالم، دار المدى، دمشق (١٩٩٩م).
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لابن حجر العسقلاني، عني به عبد العزيز بن باز، المكتبة السلفية.
- **فتح القدير**، لابن الهمام، الطبعة البولاقية بمصر سنة (١٣١٥هـ).
- **فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي**، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق وتعليق الشيخ علي حسين علي، دار الإمام الطبري، الطبعة الثانية (١٩٩٢م).
- **الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، علوم القرآن، رسم المصاحف**، منشورات المجمع الملكي للبحوث الإسلامية، عمان، الأردن (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م).
- **فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، التاريخ وملحقاته**، وضعه خالد الريان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م).
- **فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، علوم القرآن**، وضعه صلاح الدين الخيمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
- **فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، علوم القرآن**، وضعه عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م).
- **فهرس المخطوطات المصورة**، تصنيف فؤاد سيد، جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية، القاهرة (١٩٥٤م).

- **فوات الوفيات**، لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٩٧٣-١٩٧٤م).
- **الكامل في التاريخ**، لعز الدين ابن الأثير، دار صادر، بيروت (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).
- **كتاب البسملة**، لأبي شامة، دراسة وتحقيق د. عدنان بن عبد الرزاق الحموي العلبي، المجمع الثقافي، أبو ظبي (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).
- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، لأبي شامة، حققه وعلق عليه إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، وطبعة وادي النيل بمصر (١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م).
- **كتاب السواك وما أشبه ذاك**، لأبي شامة، نشره أحمد العيسوي وإبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث، طنطا (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
- **كراسة جامعة لمسائل نافعة**، لأبي شامة، نسخة شستربتي، عندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.
- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، لحاجي خليفة، منشورات مكتبة المثنى، بغداد.
- **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، للشيخ نجم الدين الغزي، حققه وضبط نصه د. جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٧٩م).
- **المجموع شرح المهذب**، للنووي، نشره زكريا علي يوسف، القاهرة.
- **المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول ﷺ**، لأبي شامة، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه أحمد الكويتي، مؤسسة قرطبة، القاهرة (١٩٩٠م).
- **محنة الإسلام الكبرى**، د. مصطفى طه بدر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية (١٩٩٩م).
- **المختصر في أخبار البشر**، لأبي الفداء، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- **المذيل على الروضتين**، لأبي شامة، حققه وعلق عليه إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).
- **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، (سنوات ٥٠٠ - ٦٥٤هـ)، لسبط ابن الجوزي، حققه وعلق عليه إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت (قيد الطبع).
- **المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز**، لأبي شامة، تحقيق طيار آلتي قولاج، دار صادر، بيروت (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م). ونسخة شستربتي، وعندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.

- **مسند الإمام أحمد ابن حنبل**، حققه وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي وإبراهيم الزيبق وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى (١٩٩٣-٢٠٠٠م).
- **مشيخة قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة**، تخريج علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي، تحقيق د. موفق عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).
- **معجم الشيوخ**، للذهبي، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).
- **معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ**، د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
- **معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة**، د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).
- **معجم المؤلفين**، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٩٣م).
- **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، للذهبي، تحقيق د. طيار آلتي قولاج، منشورات مركز البحوث الإسلامية، استانبول، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).
- **المغرب في حلى المغرب**، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. شوقي ضيف، القاهرة (١٩٥٥م).
- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، لابن واصل الحموي، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة (١٩٥٣م).
- **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق د. علي بن عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال**، لعبد القادر بدران، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية (١٩٨٥م).
- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، لابن الجوزي، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الدكن الهند، الطبعة الأولى (١٣٥٧هـ).
- **مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذاني**، فؤاد عبد المعطي الصياد، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م).
- **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام**، لابن دقماق، دراسة وتحقيق د. سمير طبارة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٩٩م).
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، للمقري، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

- **نكت الهِمْيان في نكت العِمْيان**، لصلاح الدين الصفدي، وقف على طبعه أحمد زكي باشا، المكتبة التجارية (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).
- **نزهة المقلتين في سيرة الدولتين العلائية والجلالية، وما كان فيهما من الوقائع التاتارية**، لأبي شامة، نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية، القاهرة، عندي نسخة مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.
- **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، لعبد الرحمن بن نصر الشيزري، تحقيق ومراجعة د. السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
- **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، لابن شداد، تحقيق د. جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة (١٩٦٤م).
- **نور الدين والصليبيون**، د. حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، (١٩٤٨م).
- **نور المسرى في تفسير آية الإسرا**، لأبي شامة، تحقيق د. علي حسين البواب، مكتبة دار المعارف، الرياض (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).
- **هدية العارفين في أسماء المصنفين**، للبغدادي، استانبول (١٩٦٠م).
- **الواضح الجلي في الرد على الحنبلي**، لأبي شامة، نسخة شستربتي، وعندي مصورة عنها في مكتبتي الخاصة.
- **الوافي بالوفيات**، لصلاح الدين الصفدي، من سلسلة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، بيروت، استانبول (١٩٤٩، ١٩٩٩م).
- **الوسيلة إلى كشف العقيلة**، لعلم الدين السخاوي، تحقيق د. مولاي محمد الإدريسي الطاهري، مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الثانية (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٩٧٨م).

المجلات:

- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (مج٥/ ج٣/ ١٤٤)، (مج٢٣، ص٦١٩).
- مجلة الاجتهاد، تصدر عن دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، العدد الثالث (١٩٨٩م).

إضافة إلى:

الموسوعة العربية، الصادرة عن هيئة الموسوعة العربية في دمشق، مادة (النسوي).



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

❁ ❁ ❁

- إبراهيم عمر الزيبق

- ولد في دمشق ربيع ١٩٥٣م

- انصرف إلى تحقيق كتب التراث منذ أوائل عام ١٩٨٠م

- صدر له:

١ - سير أعلام النبلاء للذهبي	ج ١٥	١٩٨٣م	مؤسسة الرسالة - بيروت
٢ - مختصر تاريخ دمشق لابن منظور	ج ٢٩	١٩٨٨م	دار الفكر - دمشق
٣ - طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي	ج ٣ - ٤	١٩٨٩م	مؤسسة الرسالة - بيروت
٤ - كتاب الروضتين لأبي شامة	ج١ - ٥	١٩٩٧م	مؤسسة الرسالة - بيروت
٥ - البداية والنهاية لابن كثير	ج ١٢	٢٠٠٧م	دار ابن كثير - دمشق
٦ - المذيل على الروضتين	ج١ - ٢	٢٠٠٩م	مؤسسة الرسالة - بيروت

- وكان له شرف المشاركة في تحقيق مسند الإمام أحمد ابن حنبل وتخريج أحاديثه مع العلامة الشيخ شعيب الأرنؤوط والشيخ الحافظ محمد نعيم العرقسوسي، حفظهما الله تعالى، وصدر في خمسة وأربعين جزءاً عن مؤسسة الرسالة في بيروت، إضافة إلى خمسة أجزاء فهارس، والأجزاء التي كان له شرف المشاركة فيها، هي:

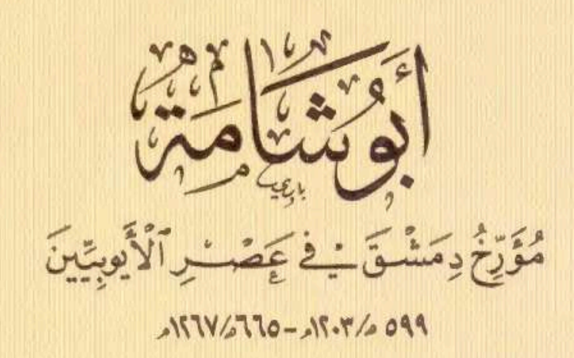
١ - مسند عبد الله بن مسعود	ج ٦ - ٧	١٩٩٦م
٢ - مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب	ج٨ - ٩ - ١٠	١٩٩٦م
٣ - مسند عبد الله بن عمرو بن العاص	ج١١	١٩٩٧م
٤ - مسند أبي سعيد الخدري	ج١٧ - ١٨	١٩٩٧م
٥ - مسند المكيين	ج ٢٤ - ٢٥	١٩٩٨م
٦ - مسند المدنيين	ج ٢٦ - ٢٧	١٩٩٩م
٧ - مسند الشاميين	ج٢٨	١٩٩٩م
٨ - مسند الكوفيين	ج ٣٠ - ٣١	١٩٩٩م
٩ - مسند السيدة عائشة	ج٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣	٢٠٠١م
١٠ - مسند النساء	ج ٤٤ - ٤٥	٢٠٠١م

- وله تحت الطبع

مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (سنوات ٥٠٠ - ٦٥٤هـ)

- وله مقالات وأبحاث تاريخية نشرها في بعض المجلات العربية كالكاتب الفلسطيني، والمجلة العربية، ومجلة الفيصل، وجريدة الأسبوع الأدبي في دمشق

- وشارك في كتابة بعض الأبحاث التاريخية في الموسوعة العربية التي أصدرتها هيئة الموسوعة العربية بدمشق.



إن كتابة السيرة لأحد علمائنا الأقدمين تستدعي الوقوف على الفترة الزمنية التي عاشها ، وموقعه في تلك الفترة ، ومعرفة ملامح فكره وشخصيته من خلال ما قدم .

لقد تحدث أبو شامة عن سيرته الذاتية فكشف عن جوانب مهمة في حياته ، وكان الكاتب يجلس بين يديه سامعاً متأملاً ، ليتعرف على ملامح تلك الشخصية ليخرج بمنهج متكامل يرينا شخصية أبي شامة حيّة كما كانت في عصره .

فكان هذا الكتاب يرسم سيرته الشخصية ويحلل آثاره التاريخية ، حيث كان أبو شامة مؤرخاً صاحب قضية ، أبان عنها فيما ألف ، ونافح عنها ، ثم دفع حياته ثمناً لها .

تصميم الغلاف